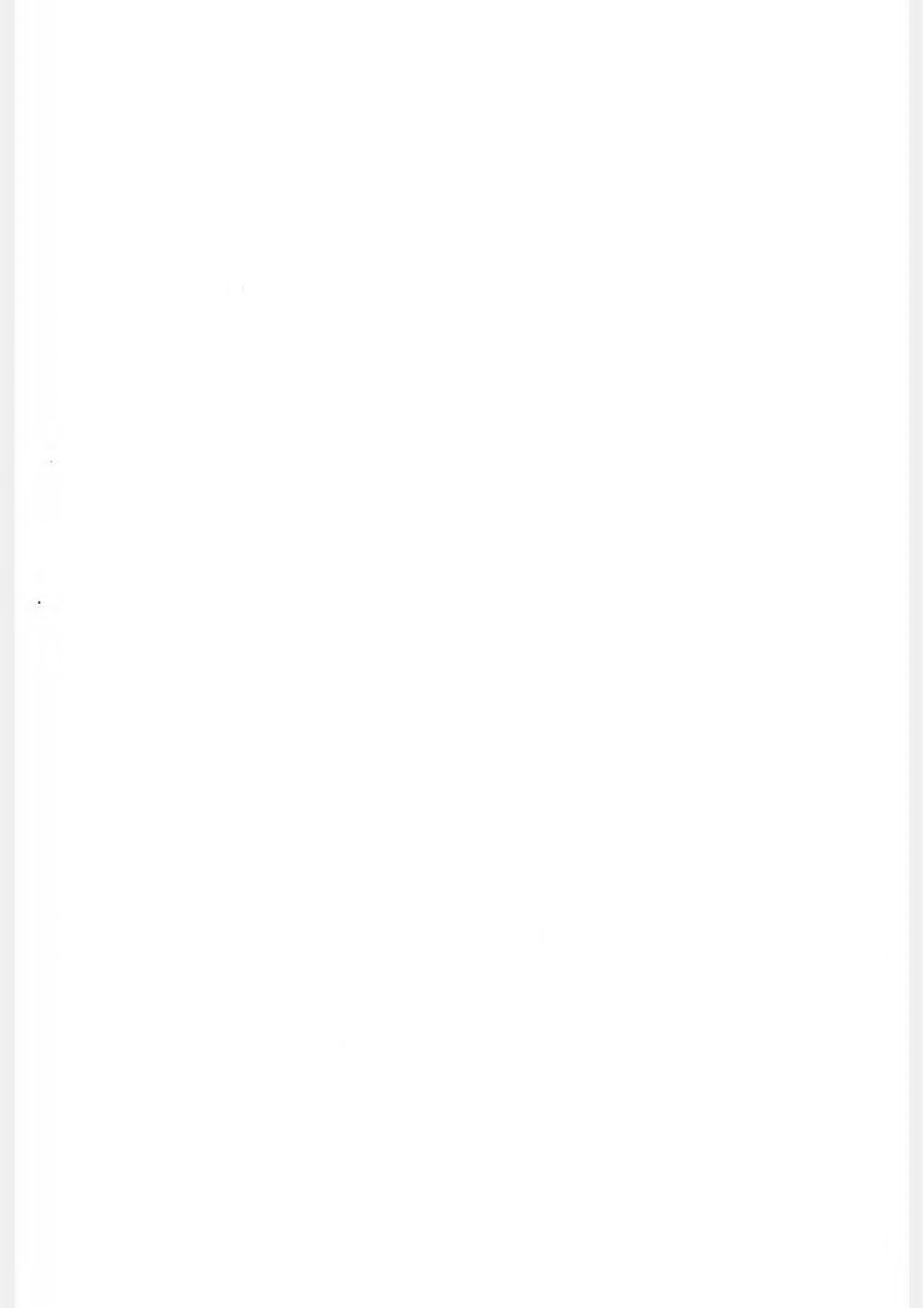
جـذوع وفـروع



جذوع وفروع

تأليف

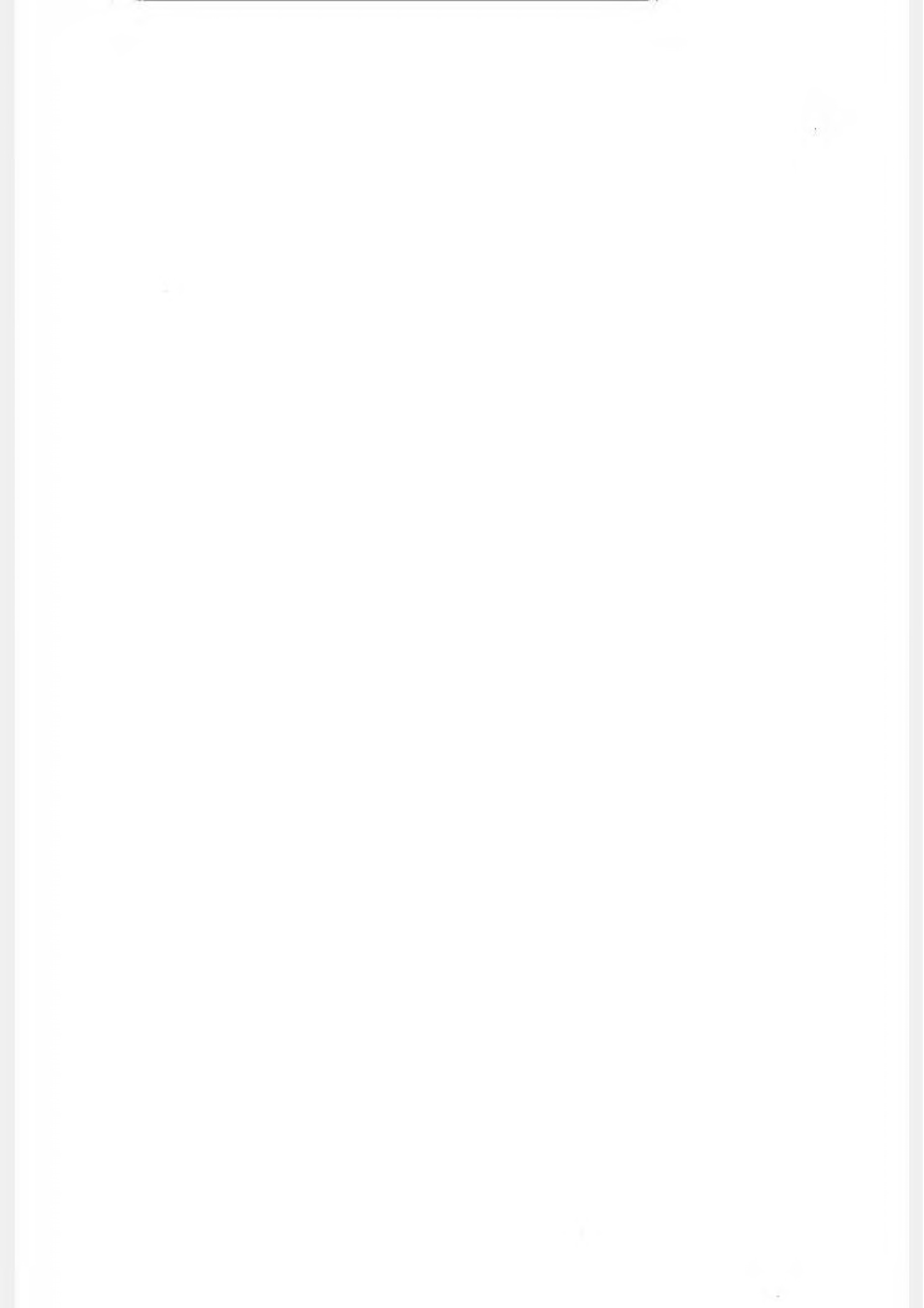
عبدالرحمن بن زيد السويداء

الجزء الثالث

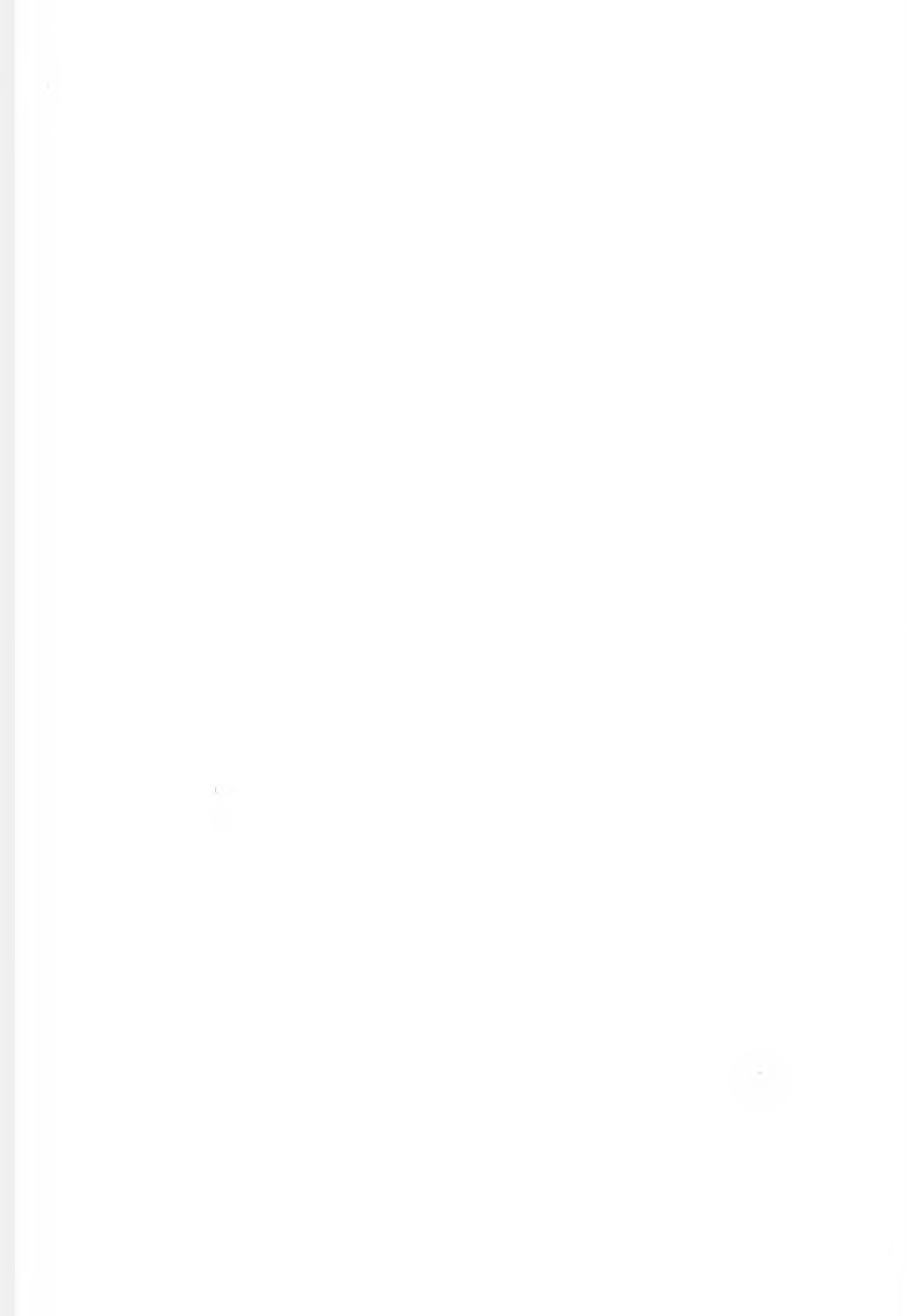
الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

ص.ب ٨٤٩٢ ـ الرياض ١١٤٨٢
☎ ٤٧٦٩١٠٦





قصـــة رقـــم (٢٠)



بُهَيْسَةُ بنت أوس

تحت قبة السمَّاء الزَّرقاء الصَّافية المرصَّعة باللآلىء المتوهجة بعد أن إنفض الرجال من مجلس سيدهم إثر تدارسهم لأحوال القبيلة وما استجد من أخبار القتال في تلك الحرب الطاحنة التي تدور رحاها بين الحيين منذ أمد طويل دون نتيجة اللهم إلا بتراكم أعداد إضافية من القتلىٰ والجرحىٰ وتوغل جروح الثارات بين الخصمين وتفاقم الشر بينهم يوماً بعد يوم، وتشابك أطراف المسألة مما يجعل حلها صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

في هذا الجو جلس الحارث بن عوف المري على بساط صوفي كان الرجال قد جلسوا على طرفه قبل تفرقهم من مجلس سيدهم، يتململ في مجلسه يتكىء على يده تارة ويتحامل على قناة رمحه تارة أخرى، فاقترب منه أخوه حارثة بعد أن استنكر منه هذا التململ وقال له:

ــ : ما بك يا أبا أسماء؟

: لا شيء، لا شيء. يقول ذلك محاولاً اخفاء ما يعتلج بصدره.

ــ : أراك متململاً في جلستك، هل آذاك هذا الفراش الخشن؟

: أبداً، وقد تعودنا على أخشن منه.

ــ : أو قد ساءك كلام القوم قبل قليل؟

: ولا هذا، فهؤلاء الرجال كل واحد منهم قد تعصب لرأيه وتصلب في موقفه، وكلما جاولنا رتق فتق إنبعج شق جديد.

ــ : أنت سيدهم وأمرك فيهم مطاع.

: لا بأس، ولكن كثرة اللجاج في القول، والغلوُّ في الطلب قد تذهب بنور الحق.

ــ: ما أراك الليلة إلا متراجعاً عن موقفك!؟

: ويلك ياخارجة، ماذا تعنى؟ يقول ذلك بنبرة حادة.

ــ: كنت تنبس بالكلمة فتصغى لها الآذان وتغوص في سويداء قلب كل فرد من القوم؟

: ولا أزال. يقول ذلك بنبرة ثقة.

ــ: إذاً ما بك الليلة على غير عادتك!؟

: أمر لا أعلم كنهه يجول في ذهني. آه ...

ــ: قد يكون محاولة للتهرب من واقع الحال إلى واقع آخر أكثر استقراراً.

: تهرب !! ماذا تعني ياخارجة !؟

ــ: عفوك يا أبا أسماء !! يقول ذلك وهو يريد أن يلطف الجو بحديث آخر؟

: لو لم تكن أخي لفعلت بك ما فعلت. يقول ذلك بنبرة حادة.

ــ: يحاول خارجة تغيير مجرى الحديث بقوله: إن صدق حدسي أنك تفكر في خطبة إحدى بنات سادات العرب.

: كلاً. يقول ذلك بصوت منساب هادي.

ــ: إذا لم يصدق ظني.

: ومتى صدق ياحارثة!؟ فلو أردت أي فتاة من بنات سادات العرب وخطبتها من أبيها فإنه لن يردني.

ــ: بلا شك يا أبا أسماء، ولكن ليس على الإطلاق.

: ماذا تقول!؟

ــ: أقول ربما وُجِدَ من يرد طلبك.

: يرد طلبي !! ومن هو !؟

ــ: أوس بن لأم، سيِّدُ طيئ.

: يردني!؟ يقول ذلك وهو يسترجع قواه متحفزاً.

ــ: ذلك توقع، لا يقين.

: لن يهدأ لي بال حتى أقف على هذا الأمر.

ـــ : لا يشغل بالك يا أبا أسماء.

: لقد أثرت كوامنه في صدري، أنا سيِّدُ ذبيان لا أظن أن أحداً من سادات العرب يرد لي طلباً.

ـــ : غير سيِّد طيئ.

: والله لأقطعن الشك باليقين. ياغلام، ياغلام.

ـــ : سمعاً وطاعة.

: جهزنا للسفر غداً.

ـــ : أمرك مطاع.

: لتكن معنا ياخارجة.

ـــ : معكـــم !!

: لترى بعينك وتسمع بأذنك نقيض حدسك وتخمينك.

ـــ : أمر سيِّد ذبيان.

وتجهز الركب، وقبيل إنبلاج خيوط الفجر الأولى توجه الركب ميممين الشمال الغربي، ترفعهم الروابي والحزون وتخفضهم الشعاب والوهاد، تنفر من أمامهم أسراب الظباء بخشوفها، وتجفل منهم صوار المها، ويهرب من أمامهم خيط النعام برئالها، يضحُّون في مكان ويعشُّون في موضع غيره، تصافح خدودهم نسمات الربيع الباردة في الصباح الباكر، وتقبل جباههم نسائم الأُصيل بقبلاتها اللاسعة كلما قطعوا مرحلة من مراحل مسيرهم باتجاه الشمال، وعلى ضوء تلك النار المتراقص لهبها في المساء قال الحارث:

ـــ : حدثنا ياخارجة بما يذهب عنَّا عناء التعب.

: بأي حديث نبدأ؟ أبأخبار انتصارات قومنا على خصومهم؟

ـــ : لا تفعل، لا تحدثنا أحاديثاً تنكأ الجراح وتدمي القلوب، وإنما نريد أحاديثا تروِّح عن النفس وتزيل التعب.

: أتريد حديثاً ربما قد سمعته وتناقله الركبان؟

ـــ: آه !! لقد أصبحت لا أعي من الأحاديث التى سمعتها قبل مدة قصيرة إلا رواسبها.

: كأنك تريد من أحاديث الأصهار المنتظرين ياأبا أسماء!؟

ـــ: وماذا عندك من أحاديثهم؟

: لدي حديث يجمع بين الكرم والوفاء ونهاية مأساة.

ـــ: عليَّ به.

: قيل أن النعمان بن المنذر خرج يتصيَّد على فرسه اليحموم، فأجراه على إثر عير وحش فذهب به الفرس في الأرض على إثر طريدته، فلم يقدر اللحاق بها وانفرد عن أصحابه وأخذته السماء بمطرها، فطلب ملجأ يلجأ إليه فدفع إلى بناء، فإذا فيه رجل من طيئ يقال له حنظلة ومعه امرأة له فقال لهما: هل من مأوى؟ فقال حنظلة: نعم، فخرج إليه فأنزله في بيته، ولم يكن للطائى غير شاة، وهو لا يعرف النعمان فقال لامرأته:

ـــ: أرى رجلاً ذا هيئة، وما أخلقه أن يكون شريفاً خطيراً فما الحيلة؟

: عندي شيء من طحين كنت ادخرته فاذبح الشاة لأتخذ من الطحين ملَّة[1]، فأخرجت المرأة الدقيق فخبزت منه خبزة الملة، وقام الطائي إلى الشاة فاحتلبها ثم ذبحها فاتخذ من لحمها مرقة مفيدة وأطعمه من لحمها وسقاه من لبنها، وجعل يحدثه بقية ليلته، فلما أصبح النعمان لبس ثيابه وركب فرسه ثم قال:

ـــ: ياأخا طيئ، اطلب ثوابك أنا الملك النعمان.

: أفعل إن شاء الله.

ـــ: اطلب ما تريد.

: معاذ الله أيها الملك أن أطلب جزاء ضيافتي لضيفي، أنت ضيف الله حللت في بيتنا فاطعمناك مما رزقنا الله لا نريد بذلك جزاء.

ـــ: كأني بك يا أخا طيئ لا تملك غير هذه الشاة التي ذبحتها لي البارحة.

: الله رازق كريم، من رزقنا بها يرزقنا بغيرها.

---

(١) الملة: خبزة تشوى في جمر النار وملتها حتى تنضج وتدعك بالسمن وغيره.

ـــ: مادمت كذلك فبارك الله فيك، ولكن إن أحاجتك الأيام بعد فاذكرني. بعد إصغاء تام.. لله درَّ هذا الطائي ياخارجة !! ثم ماذا بعد؟ هكذا نطق الحارث.

: ركب النعمان فرسه ولحق بالخيل ميمماً الحيرة، ومكث الطائي بعد ذلك زماناً حتى أصابته نكبة وجهد وساءت حاله فقالت له امرأته:

ـــ: لو أتيت الملك أحسن إليك ورفع عنك ضائقتك.

: ولكنني أخشى أن يقال جاء الطائي يطلب جزاء ضيافته.

ـــ: لا تخف، فهذا ملك لن يخطر بباله مايدور في ذهنك، وأقبل الطائي إلى الحيرة فوافق قدومه يوم بؤس النعمان، وإذا هو واقف بخيله وسلاحه في يوم بؤسه الذي لا يقدم إليه أحد في ذلك اليوم مهما كان إلا قتله، فقال النعمان:

ـــ: ما جاء بك اليوم يا أخا طيئ؟

: أبيت اللعن !! ما كان علمي بهذا اليوم؟

ـــ: والله لو سنح لي في هذا اليوم قابوس إبني لم أجد بداً من قتله، فاطلب حاجتك من الدنيا، وسل ما بدا لك فإنك مقتول.

: أبيت اللعن !! وما أصنع بالدنيا بعد نفسي؟

ـــ: إنه لا سبيل إليها.

: إن كان ولابد، فاجعلني حتى ألم بأهلي فأوصى إليهم وأهيىء حالهم ثم أنصرف إليك.

ـــ: فأقم كفيلاً بموافاتك.

التفت الطائي إلى شريك بن عمرو بن قيس الشيباني وكنيته أبا الحوفزان، وهو رديف الملك حيث كان واقفا بجانب النعمان وقال له:

ياشريكا يابن عمرو هل من الموت محالة   يأخا كل مضاف يأخا من لا أخا له

يأخا النعمان فك اليوم ضيفاً قد أتى له   طالما عالج كرب الموت لا ينعم باله

فأبى شريك أن يتكفل به، فوثب إليه رجل من كلب يقال له قراد بن أجدع فقال للنعمان:

ـــ: أبيت اللعن !! هو عليَّ.

: أفعلت !؟

ـــ: نعـــم.

فضمَّنه إياه، وأمر للطائي بخمسمائة ناقة، فمضى الطائي إلى أهله بعد أن جعل الأجل حولاً من يومه ذلك إلى مثل ذلك اليوم من قابل، فلما حال عليه الحول وبقي من أجله يوم قال النعمان لقراد:

ـــ: ما أراك إلا هالكا غداً ياقراد.

: قال قــراد:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى   فإن غداً لناظـــــره قريب

فلما أصبح الصباح ركب النعمان في خيله ورجله متسلحاً مثلما كان يفعل حتى أتى الغريِّين فوقف بينهما وأخرج معه قراداً وأمر بقتله، فقال له وزراؤه: ليس له أن تقتله حتى يستوفي يومه، وكان النعمان يشتهي أن يقتل قراداً ليفلت الطائي من القتل، فلما كادت الشمس تجب وقراد قائم مجرد في إزاره على النطع والسياف إلى جانبه أقبلت امرأته وهي تقول:

أيا عين بكيً لي قراد بن أجدعا   رهيناً لقتل لا رهيناً مودعا

أتته المنايا بغتة دون قومه   فأمسى أسيراً حاضر الموت أضرعا

فبينا هم كذلك إذ رفع لهم شخص من بعيد وقد أمر النعمان بقتل قراد.

ـــ: ياالله !! هكذا قال الحارث وهو يضرب أحد كفيه بالآخر.

: ولكن قيل له ليس لك أن تقتله حتى يأتي الشخص فتعلم من هو، فكف حتى انتهى إليهم الرجل فإذا هو الطائي.

ـــ: ياالله !! الطائي!؟ يقول ذلك بتعجب المطمئن.

: نعم، لقد جاء الطائي، فشق ذلك على النعمان فقال للطائي ما حملك على الرجوع؟

ـــ: قال: الوفاء بالوعد.

: قال: وما حملك على الوفاء بالوعد؟

ـــ: قال ديني.

ـــ: فقال النعمان: الوفاء بالوعد !! والله ما أدري أيهما أوفى وأكرم، أهذا الذي نجا من القتل فعاد، أم هذا الذي ضمنه؟ ووالله لن أكون ألأم الثلاثة.

ـــ: لله در هذا الطائي ما أوفاه.

: فأمر النعمان بترك القتل منذ ذلك اليوم وأبطل تلك السنة.

ـــ: فقال الطائي.

ما كنت أخلف ظنّه بعد الذي أسدى إليَّ من الفعال الخالي

ولقد دعتني للخلاف ضلالتي فأبيت غير تمجدي وفعالي

إني امرؤ مني الوفاء سجيَّة وجـزاء كل مكـارم بذال

: ما أجمل ما فعل العمان.

ـــ: ولم يكتف بذلك، بل أمر بهدم الغريين.

: الغريين !! كأنني لم أذكر من أمرهما شيئاً.

ـــ: الغريان بناءان أو قبتان أقامهما النعمان على قبري نديميه الذين قتلهما وندم على قتلهما وصار يطليهما بدم من قتل يوم نحسه.

: آه، لقد ذكرت، لقد ذكرت، وماذا بعد؟

ـــ: لقد عفا عن قراد بن أجدع والطائي فرفع الطائي عقيرته قائلاً:

ألا إنما يسمو إلى المجد والعلا مخاريق أمثال القراد بن أجدعا

مخاريق أمثال القراد وأهلـه فإنهم الأخيار من رهط تبعا

: ياالله !! حقاً إن هذا الحديث يجمع بين الكرم والوفاء ونهاية الماساة.

وفي الصباح استمر الركب في مسيرهم فقال الحارث:

ـــ: لقد كان لحديثك البارحة وقع كبير في نفسي.

: ألم تسمعه من قبل؟

ـــ: بلى، ولكن قد مر علي سماعي له مدة طويلة، وعندما سمعته البارحة أصاب من نفسي موقعاً حسناً.

: ألأن أحد أقطاب الحديث من طيئ الذين شددنا الرحال نحو أرضهم؟

ـــ: لم يكن ذاك فحسب، ولكني وجدت له استقرار في نفسي لا أدري ما مبعثه؟

: قد يكون حبك للكرم؟

ـــ: هذا الجانب يطرب له كل عربي ويرتاح لمباشرته.

: قد يكون الوفاء هو الذي شدك إلى الحديث؟

ـــ: وهذه خصلة أيضاً يتصف بها العربي بصفة عامة ويشتهر بالتمسك بها آخرون مثل أخينا الطائي.

: أجل ما جعل الحديث يغوص إلى أعماق نفسك هو نهاية تلك المأساة الدموية!؟

ـــ: المأساة !! المأساة !! نعم، وكم من المآسي التي يجب وضع حدٍّ لها.

: ولماذا لا يوضع حد لها؟

ـــ: لأنها تتعلق بأكثر من طرف. يقول ذلك وهو شارد الذهن.

: صحيح.

ـــ: حدثنا ياخارجة واحمل عنا عناء الطريق، يقول ذلك بعد أن عاد من شروده الذهني.

ـــ: ماذا تحب من الحديث مع هذا الصباح الوضيء؟

ـــ: لا يخفاك ما يطرف النفس وينسيها لواعجها.

: سأحدثك عن صاحبك حديثاً ربما تكون قد سمعته.

ـــ: صاحبي !! من تعني؟

: أعني أوس بن حارثة.

ـــ: آه، ماذا عندك عنه؟

: يحكىٰ أنه وفد على ملك الحيرة عمرو بن هند ذات يوم هو وحاتم الطائي.

ـــ: ونعم الوفد.

: فما كان من عمرو بن هند إلا أن خطرت بباله أن يختبر الرجلين ليرى أيهما أفضل من صاحبه، وكان الرجلان ذروتين شامختين من ذرى طيئ إحداهما بالسؤدد، والثانية بالكرم والمروءة.

ـــ: ماذا فعل؟

: لقد استدعىٰ عمرو أوساً على حدة فقال له: أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيت اللعن !! إن حاتماً أُوحَدُهَا، وأنا أُحَدُهَا، ولو ملكني حاتم وولدي ولُحْمَتِيْ لوهبنَا في غداة واحدة.

ـــ: ياالله !! ما أعظمه من رجل !!

: فقال له: عد إلى نزلك مكرماً ياأوس.

ـــ: ثم ماذا؟

: ثم دعا عمرو حاتماً على حدة دون أن يعلم بدعوته لصاحبه، ولا ما قال له، فقال ياحاتم: أنت أفضل أم أوس؟ فقال حاتم: أبيت اللعن أيها الملك !! إنما ذكرت أوساً ولأحد ولده أفضل مني، فقال عمرو: عد إلى منزلك ياحاتم مكرماً، هذا والله السؤدد.

ـــ: تلك عظمة الرجال ياخارجة، ثم ماذا؟

: أكرمهما عمرو وأحسن وفادتهما وحباهما من الهدايا والهبات.

ـــ: إنهما كفؤ لما أعطيا وماذا بعد؟

: آه !! هناك حكاية أوس بن حارثة مع النعمان بن المنذر التي قال فيها أوس:

يقول لي النعمان لا من نصيحة　　أرى حاتماً في قوله متطاولا
له فوقنا باع كما قال حاتم　　ومالنصح فيما بيننا كان حاولا

ـــ: لقد ذكرت هذه القصة.

: وحكاية خطبة ماوية من ثلاثة نفر من أقطاب طيئ.

ـــ: أسمعني إياها.

: قدم من الجبلين أوس بن حارثة الجديلي، وزيد الخيل النبهاني وحاتم بن عبدالله الطائي وكلهم من طيئ على ماوية يخطبونها فأخذ كل منهم يذكر أفعاله وما جرأه على خطبتها فقال أوس:

أماويَّ مايخطبك من حيٍ مذ حج　　كأوس بن لأم أو كزيد وحاتم
فإن تنكحي زيداً وفارس طيئ　　إذا الحرب يوماً أقعدت كل قائم
ومعقل نبهان الذي يتقى به　　ردى الدهر عند الحادث المتفاقم
وإن تنكحي ماويَّة الخير حاتماً　　فما مثله فينا ولا في الأعاجم
فتى لا يزال الدهر أعظم همُّه　　فكاك أسير أو معونة غارم
رأى أن ما يقى من المال هالك　　فأعطى ولم يحفل ملامة لائم
وإن تنكحيني تنكحي غير فاحش　　ولا حافر حرف العشيرة هادم

ولا متَّقٍ يوماً إذا الحرب شمَّرت بأنفسها نفسي فعال الأشائم
وإن طرق الأضياف ليلاً وعرَّسوا وجدت ابن سعدي بالقرىٰ غير حاتم
فأي إمرىء أهدىٰ لك الله فاقبلي فإني كريم من عروق الأكارم

ــ: أحسنت، أحسنت بما قلت. يقول ذلك وهو يسرح طرفه كأنه ينظر إلى ما وراء الأفق.

: ألا تريد أن نُضَحِّي يا أبا أسماء؟

ــ: وهل قطعنا من الطريق ما يستوجب الإستراحة؟

: لقد قطعنا الثلبوت خلفنا، وتلك رِعَانُ رَمَّان عن يسارنا وشعاف سلمىٰ عن يميننا ومن دونها جبل الرَّيَّان تلوح ذروته العالية التي يتقطع من دونها السراب وغير بعيد عنا وادي الرَّحَبَة.

ــ: إذاً نحن في ديار بني أسد!؟

: نعم، فهذا ترف وفرتاج عن يسارنا وسميراء عن يميننا بمطلع الشمس، ولم يبق بيننا وبين ديار طيىء إلا مرحلتين أو ثلاث ونصل إلى هدفنا، وهذه الرياض الغناء، والفياض الفيحاء تجذب الإنسان لأن يرتاح فيها.

ــ: لك ما تريد ياخارجة، أنخ ركابنا ياغلام.

: ليتنا على الخيل فنطرد ذلك الصُّوَار من المها، أو ذلك الجول من الحمر الوحشية.

ــ: نحن على جناح سفر ويكفينا من الصيد ما يأتي به غلامنا.

: لكن هذه الغزلان والمها التي ذكرها الراعي النميرى يصعب على الإنسان أن يمر عليها دون أن يصيد منها.

ــ: وما قول النميرى؟

: قال من قصيدته:

كأنما نظرت دونى بأعينها عين الصريمة أو غزلان فرتاج

ــ: حقًّا، إن الصيد هنا متوفر.

* * *

وبعد استراحة تمكن الركب خلالها من تناول الغداء، استأنفوا رحلتهم إلى هدفهم حتى أسدل الليل رداءه على الكون فأناخوا مطيهم، وأوقدوا النار وأحاطوا بها يصطلون ويشتوون مما صادوه في مسيرهم آخر ذلك اليوم، ودارت أحاديثهم كل مدار من الذكريات التي مرت على كل واحد منهم حتى داهم أجفانهم النعاس فأووا إلى مضاجعهم وأخلدوا إلى النوم حتى انبلجت تباشير الفجر في اليوم الثاني حيث شدوا رحالهم نحو وجهتهم وفي الطريق قال الحارث:

ــ: حدثنا ياخارجة، إني أرى لأحاديثك أثر طيب على نفسي، فلقد نقلتنى إلى جو من الطمأنينة والراحة النفسية.

: أتريد حديثاً عن أصهار المستقبل؟

ــ: ولم لا !؟

: يقال إن وفوداً من كل حي من العرب وفدوا على النعمان بن المنذر وفيهم أوس بن حارثة.

ــ: ما أكثر ما تتجمع الوفود عند ملك الحيرة النعمان؟ أيْهًا !!

: طلب النعمان حلة من حلل الملوك وقال للوفود: احضروا في غدٍ فإني ملبس هذه الحلة أكرمكم.

ــ: ترى من هو أكرم هذه الوفود الذي سيختاره النعمان؟ فالكل سيندفع إلى هذا الاجتماع الحاشد.

: نعم، لقد اجتمعوا من الغداة مسرعين عدا أوساً.

ــ: ألم يحضر؟

: لقد تخلف عن الحضور وقال: إن كان المراد غيري فأجمل الأشياء بي أن لا أكون حاضراً وإن كنت المراد فسأطلب.

ــ: لله دره، هكذا تمنُّع الأبي، وماذا جرى؟

: لما جلس النعمان ولم ير أوساً مع الحضور قال: إذهبوا إلى أوس وقولوا له: إحضر آمناً مما خفت منه، فحضر وألبس الحلة.

ــ: لا شك أن هذا سيوغر صدور من حوله.

: هذا ما حصل، فقد حسده من حضر بالمجلس، وامتد سعير هذا الحسد إلى أناس من أهله.

ـــ : إلى أهله !؟

: لم يكتف الحاضرون بذلك، بل طلبوا من الحطيئة الشاعر أن يهجو أوساً، وجعلوا له مكافأة ثلاثمائة ناقة.

ـــ : وبِمَ يهجوه !؟

: شاعر مقذع مثل الحطيئة قد يفعل تحت إغراء الهبة.

ـــ : هل هجاه؟

: لا، فلقد اعتذر عن هذا الأمر قائلاً: كيف أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا منه ثم قال:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من ظهر لأم بظهر الغيب تأتيني

ـــ : لله دره، إذا كان الحطيئة لم تغره الجائزة السخية فلن يجدوا من يتعرض له بسوء.

: بل وجدوا.

ـــ : من ذا الذي يتعرض لهذا الرجل الكريم؟

: لقد تصدى لهذا الأمر بشر بن أبي خازم الأسدي حين قال: أنا أهجوه.

ـــ : تعساً له.

: لكن ثلاثمائة ناقة قد جذبت لسانه عندما وهبوها له.

ـــ : وماذا قال؟

: لقد هجاه فأفحش وذكر أمه سعدى.

ـــ : وماذا فعل أوس؟

: أغار على النوق فاكتسحها وأخذها فهرب بشر والتجأ إلى عشيرته في بني أسد ومنعوه من أوس ورأوا تسليمه عاراً عليهم.

ـــ : لقد تذكرت الآن أنني سمعت القصة.

: فجمع أوس قومه من طيئ وسار بهم إلى بني أسد فالتقوا بظهر الدهناء واقتتلوا قتالاً شديداً حيث هُزِمَتْ بنو أسد شر هزيمة وقتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب بشر فجعل لا يأتي حياً يطلب جوارهم إلا امتنع عن إجارته عن أوس.

ــ: أما قلت لك إنه شاعر تعس، وأين ذهب؟

: لقد هرب ولجأ عند جندب بن حصين الكلابي بأعلى الصمان فأرسل إليه أوس يطلب بشراً فأرسله إليه.

ــ: لقد وقع في يد من لا يرحمه.

: بالفعل، لقد أوثق أوس كتاف بشر ثم دخل على أمه سعدى قائلاً لها: لقد أتيتك بالشاعر الذي هجاك.

ــ: بشر !!

: ولا غيره، الذي يقول من قصيدة له:

فياعجبــاً عجــبت لآل لأم فليس لهم إذا عقدوا وفاء

وانكاس إذا استعرت ضروس تخلى عن مخافتها الــنساء

حلــفت لتأتينهـــم قواف لها من بعد هلكهم بقاء

ــ: وماذا فعلت به؟

: ماذا تتوقعين أن أفعل به!!؟ لقد آليت على نفسي لأقتلنَّه قِتْلَةً تحيين بها أبد الدهر!

ــ: تقتله !! أو خير من ذلك يابني!؟

: ما هو ؟

ــ: إنه لم يجد له ناصراً منك، ولا مجيراً عليك، فوقع في يدك.

: نعم، لقد سقط في يدي.

ــ: إننا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس.

: ماذا تقولين؟

ــ: من حقي عليك يابني، إلا أطلقته من إساره ورددت عليه إبله، وأعطيته من مالك مثل ذلك، ومن مالي مثله.

: أطلقه !! وأعطيه من مالي وقد قال من قصيدة له:

ألا أبلــغ بنــي لأم رسولاً فبئس محل راحلة الغــريب

إذا عقدوا لجــار أخفــروه كما غر الرشاء من الذنوب

وما أوس ولو سود تمــوه بمـــخشى العــرام ولا أريب

أتوعدني بقومك يابن سعدى وذلك من ملمات الخطـوب
وحولي من بني أسد عديد مبيـن يـن شبـان وشيب
هم ضربوا قوانس خيل حجر بجنب الرده في يوم عصيب

ــ : وإن قال ذلك يابني، فأعطه وأرجعه إلى أهله سالماً فإنهم قد أيسوا منه.

: كأنني لم أصدق ما تسمعه أذناي، أماه!! ماذا دهاك!؟

ــ : لا شيء، ولكني أرى ذلك.

: أنكافىء من أساء إلينا بمثل هذه الهبات!؟

ــ : نعم يابني، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه.

: لا يغسل هجاءه إلا مدحه!! يقول ذلك بصوت مجرور وهو مطرق إلى الأرض.

ــ : مالك واجم هكذا يابني؟

: يعز عليَّ أن أفعل، رجل عفر بسمعتنا التراب، يكون جزاؤه هذه الهبة السخية!؟

ــ : إتبع مشورتي يابني ولن تندم، فإن تلك الرتوش التي نفثها لسانه على جبين سمعتنا الناصع، لن يمحوها سوى لسانه الصقيل بلحسها مرة أخرى.

: آه، ما أصعبها من لحظة.

ــ : يابني إن الثلاثمائة ناقة التي سال لها لعابه ولقلق من أجلها لسانه بما نكره من القول، إذا أعذتها إليه وأعطيته مثلها فإنه سيترنم لسانه مرة أخرى بما يغطى على تلك الترهات.

: رأي صائب، رأي صائب ياأماه!! يقول ذلك وهو يغادر الجزء الذي تقيم فيه من بيت الشعر، متوجها إلى الجزء الخاص بالرجال والذي يوجد به بشر، وما إن وقف عليه حتى قال له:

ــ : يابشر، ما تقول إنني فاعل بك؟

: تململ بشر في وثاقه وقال:

إني لأرجو منك يا أوس نعمة وإني لأخرى منك ياأوس راهب
وإني لأمحو بالذي أنا صادق به كل ماقد قلت إذ أنا كاذب
فهل نافعي في اليوم عندك إنني سأشكر إذ أنعمت والشكر واجب

فدى لابن سعدى اليوم كل عشيرتي بني أسد أقصاهم والأقارب
تداركني أوس بن سعدى بنعمة وقد أمكنته من يدي العواقب

ـــ: إن سعدى التي هجوتها قد أشارت عليَّ بكذا وكذا.

: لله درها من سيدة كريمة إبنة سادة كرام، وأم لسيد كريم.

وأمر أوس بحل كتافه وحمله على فرس جواد، ورد عليه ما كان أخذه منه، وأعطاه من ماله مئة من الإبل.

ـــ: أعطاه!!

: نعم لقد نفذ مشورة أمه.

ـــ: ماذا فعل بشر؟

: رفع يده إلى السماء وقال: اللهم أنت الشاهد عليَّ ألا أعود إلى شعر إلا أن يكون مدحاً في أوس بن حارثة وانطلق لسانه بمدحه يقول من قصيدة له:

كفى بالناي من أسماء كاف وليس لحبها إذ طال شافي؟

إلى أن قال:

قليني قد رأيت العيس ترمي بأيدها المفاوز عن شراف
عوامد للملا وجنوب سلمى على أعجازها ركن العطاف
إلى أوس بن حارثة بن لأم لربك فاعملي إن لم تخافي
فما صدع بخبة أو بشرج على زلق زوالق ذي كهاف
تزل اللقوة الشغواء عنها مخالبها كأطراف الأشافي
بأحرز موئلاً من جار أوس إذا ماضيم جيران الضعاف
وما أوس بن حارثة بن لأم بغمر في الأمور ولا مضاف

وغير ذلك من القصائد.

ـــ: هذا ما جعلني أحرص على مثل هذا المحتد العريق بالسؤدد والكرم والجود ياخارجة، ماذاك الذي أراه يلوح من بعيد وكأنه صفحة السيف الصقيل؟

: تلك شماريخ جبل أجا قد حال دونها السراب فبدت تتراقص خلفه وكأنها السيف المهتز.

ـــ: يعني أننا اقتربنا من منازل من قصدناهم؟

: نعم، إنني أرى شخص بعيد كأنه صاحب مطية وهو مقبل علينا وربما سألناه عن حي أوس.

ـــ: لك ما تريد.

: لقد اقترب منا الآن، لنسلم عليه، ها هو يرد التحية.

ـــ: أريتك يارجل، أين ينزل أوس بن حارثة؟

: من أنتم؟ وماذا تريدون به؟

ـــ: نحن ركب من ذبيان ولا نريد به إلا الخير.

: إصدقوني القول.

ـــ: لم يأتك منا غير الصدق.

: إنه غير بعيد عنكم، خلف تلك الرعان الممتدة، فلقد اصطحبت من إنائه هذا الضحى، ولا يحول بينكم وبينه سوى مسافة قصيرة.

ـــ: أحسنت صنعاً، حقاً ما يقوله الرجل، فهذه الأنعام قد انداحت مع ذلك الريع، وتلك الإبل قد اندلقت من جانب تلك الفيضة.

: إذاً سنجده الآن في حيِّه فعليك بحث الركاب.

ـــ: سنصله بعد قليل من الوقت مع هذه الثنية.

: هذه البيوت قد رصِّع بعضها بَطِيْنَ تلك البرقاء وبعضها قد امتد إلى حافة تلك الفيضة.

ـــ: حقًّا إن هذه بيوت الحي، ويبدو أن ذاك البيت الكبير الممتد في طرفها هو بيت أوس.

: فالنقصده مباشرة.

ـــ: هذا رجل بحذائنا ممتطياً صهوة جواده، وعليه ملامح تدل على أنه من ذوي الشأن.

ـــ: قد يكون أوساً.

: ربما، أتعرفه؟

ـــ: لا.

: ها هو استقبلنا بالترحاب.

ــ: حياكم الله أيها الركب، حللتم أهلاً، ووطئتم سهلاً.

: أبقاك الله، لنا حاجة إلى أوس بن حارثة.

ــ: من أنت أيها السيد الكريم؟

: أنا الحارث بن عوف المرى.

ــ: حياك الله، وأنا أوس بن حارثة، فما هي حاجتك؟

: لقد جئتك خاطباً.

ــ: خاطباً !! لست هناك.

: ماذا تقول؟

ــ: ما سمعت.

: إصرف ركابنا ياغلام، يقول ذلك وهو يكاد أن ينفجر غضباً ولم يستطع أخوه خارجة ثنيه عما عزم عليه، بينما سار أوس في طريقه إلى بيته.

ــ: لنتريث قليلاً ياأبا أسماء. هكذا قال خارجة.

: بعد كل ما قاله ابن سعدى لنا.

ــ: لم يكن الخطأ منه وحده.

: ماذا تعني؟

ــ: لقد أخذتك العجلة ياأبا أسماء.

: سأل عن حاجتي فأجبته.

ــ: ليتك أجلت البوح بحاجتك حتى تنزل في بيته.

: كيف يردنا ابن سعدى بهذه الطريقة!؟ أما علم أنني سيد ذبيان؟

ــ: بلى، ولكنه أيضاً سيِّد طيئ، وكل يرى في نفسه ما يرفعها.

: والله لو علمت أنه سيفعل ما فعل لما توجهت إليه.

ــ: قد يحول سوء التقدير في تصويب الضربة يا أبا اسماء مما يحدث عنه نتائج غير مستحبة.

: أفصح عما تقصد؟

ـــ : لو تريثت قليلاً حتى نحل ضيوفاً عليه، فقد استقبلنا بوجه بشوش، وترحيب متدفق، لربما حصلت على مرادك.

: حقًّا، لقد استقبلنا الرجل بالترحاب والبشر، ولكن في العجلة الندامة. هذا ما كان من الركب، أما أوس فبعد أن وصل إلى بيته استقبلته زوجته العبسية وقالت له:

ـــ : من الركب الذين وفدوا إليك فلم يقيموا ولم ترحب بهم؟

: إنه ركب مُرِّي !! آه... إنه الحارث بن عوف المري سيد ذبيان ومعه رفيقاه.

ـــ : مالك لم تستنزلهم ؟

: لقد استحمقني.

ـــ : بماذا؟

: بخطبته مني.

ـــ : خطبته !! لماذا لم تزوجه إحدى بناتك؟

: أزوجه !؟

ـــ : نعم، هذا سيد من سادات العرب.

: وإن يكن سيداً، فنحن أعلى منه شاناً وأرفع مكانة.

ـــ : لم يحاول النيل من مكانتك.

: صحيح، ولو حاول ذلك فسيلاقي مايكدر صفوه.

ـــ : رجل جاء من بلاد بعيدة، من أرض قومه من خلف وادي الرمة في أعالي القصيم يريد شرف مصاهرتك وترده!؟

: أخشى ألا يكون هذا مقصده؟

ـــ : ثق أنه لم يقطع كبدا البيداء مع رفاقه على ركابهم إلا ويريد إضافة شيء من سؤددك في قومك إلى سؤدده في قومه.

: وإن لم يكن هذا هدفه؟

ـــ : مالي أراك متسائلاً؟

: أخشى أن يكون قصده الإساءة إليَّ.

ـــ: كن واثقاً مما أقول.

: أجل لماذا بادرني بالخطبة وهو على كور مطيته وأنا على صهوة جوادي، دون أن ينزل في بيتي ويستريح بعض الوقت؟

ـــ: قد تكون العجلة دفعته إلى ذلك.

: لا أظن.

ـــ: المهم، ألا ترى أنه من العار علينا أن يأتي الرجل إلى حينا حتى إذا دنا من بيتنا يرجع دون أن يحل ضيفاً علينا؟

: هذا صحيح، ولقد رحبت به وبرفيقيه، ولكنه تصرف هذا التصرف فلقى جوابي عليه وانكفأ من مكانه.

ـــ: عليك باللحاق به، وثنيه عن غايته وأعده ليحل ضيفاً علينا ثم زوجه إحدى بناتك الثلاث.

: أخشى ألا يعود.

ـــ: اعتذر له.

: قد لا يقبل العذر مادام في سَورَة الغضب.

ـــ: تستطيع الإعتذار إليه بأنك كنت في حالة غضب قبل قدومه فصادف مجيئه تلك الحالة وحدثت تلك النبوة غير المقصودة.

: والله إن نفسي تنازعنى هذا الأمر، ولولا دافع المروءة باعتباره ضيفاً علينا، وقد حل في جزء من أرضنا لما ذهبت إليه.

ـــ: أنت سيِّد طيىء الذين يكرمون الضيف، ويذرون العاني، ويجيرون الخائف، ويحجون الضعيف.

: سأذهب إليه، يقول ذلك وقد انطلق على ظهر جواده حتى لحق بالركب فقال:

ـــ: ياحارث، نشدتك الله أن تعود إلى بيتي وضيافتي.

: لن أعود إلى بلد صددت عنه.

ـــ: لا تؤاخذني ياحار، لقد صادفتني وأنا في سورة الغضب من أمر ليس لك به شأن فحدث مني ما حدث، فارجع ضيفاً معززاً مكرماً في بيتي.

: أرجــع !!

ــ : نعم ولك ماتريد، وما أتيت من أجله.

: وهل تعنى ما تقول؟

ــ : بكل تأكيد.

: لنعد ياخارجة، اصرف أعناق المطي ياغلام.

ــ : مرحباً بك ياسيد ذبيان في أرضنا وعلى الرحب والسعة.

: بورك فيك ياسيد طيئ.

ــ : تفضل هنا، اللبن ياغلام !!

هكذا أمر أوس غلامه لمباشرة الضيوف باللبن وأوعز إلى آخرين بنحر الجزر وذبح الخراف، ليتناول الضيوف غداءهم من شوائها وعشاءهم من فقارها.

ودنف أوس إلى القسم المخصص للنساء واستعدى ابنته الكبرى قائلاً.

ــ : اقتربي مني «ياعفراء».

: سمعاً وطاعة ياأبي.

ــ : أي بُنَيَّة، هذا الحارث بن عوف سيد ذبيان وهو من سادات العرب، جاء لك خاطباً ويقربنا راغباً فماذا تقولين؟

: خاطباً !! خاطباً !! لست لذلك يا أبي.

ــ : ولِمَ، يا بُنَيَّة !؟

: لا تفعل يا أبي.

ــ : لمـــاذا؟

: كما تعلم يا أبي أن في خُلُقِيْ بعض الحِدَّة، ولست ابنة عمه فيرحمني ويتجاوز عما يجده مني، وليس جاركم فيستحي منكم ويغضى عما يراه مني، وأخشي إذا وجد ماوجد أن يطلقني ويعيدني إليكم.

ــ : بارك الله فيك يابُنَيَّة، إذهبي لشأنك، ثم نادى ابنته الثانية قائلاً: إقتربي مني يا «أميمة».

: سمعا وطاعة يا أبي.

ــ : أي بُنَيَّة، هذا الحارث بن عوف سيد ذبيان جاء لك خاطباً فماذا ترين؟

: خاطباً!! ولكني لا أصلح له.

ــ : لمــاذا؟

: كما تعرف يا أبي أنني فتاة خرقاء، وليست يدي صنَّاعة لا آمن أن يرى ما يكرهه مني فيطلقني.

ــ : بارك الله فيك يأميم !! إذهبي لشأنك وأبعثي لي أختك بهيسة.

: سمعاً وطاعة.

ــ : إقتربي مني يابهيسة، أي بُنَيَّة !! هذا الحارث بن عوف سيد ذبيان وهو سيد من سادات العرب قد جاء إلينا خاطباً.

: خاطباً !!

ــ : نعم، قد جاء إلينا خاطباً ويقربنا راغباً.

: أنت وذاك.

ــ : يعنى أنك غير ممانعة؟

: الأمر بيدك يا أبي.

ــ : ولكني عرضت الأمر على أختيك عفراء وأميمة فاعتذرت عفراء بأن في طبعها حدَّة قد لا يتحملها سيد من سادات العرب واعتذرت أميمة أنها خرقاء لا تتقن عمل بيتها ولا صنعة متطلباتها.

: إنني أختلف عنهن يا أبي، إنني والله الجميلة وجهاً، والصنَّاعة يداً، والرقيقة خُلُقاً، والنجيبة أباً، فإن طلقني فلا خلف الله عليه خيراً.

ــ : بارك الله فيك يابهيسة، يقول ذلك وهو يربت على كتفيها ثم يردف قائلاً: عودي إلى شأنك يابنية وعاد أوس إلى ضيفه وجبينه يتلألأ وضاءة وبشراً، وقال له: على بركة الله قد زوجتك ابنتي الصغرى بهيسة.

: لقد قبلت هذا الزواج.

ــ : لن تبيت عزباً هذه الليلة.

: بارك الله فيك. يقول ذلك وهو شارد الذهن يستعيد في ذاكرته بداية هذه الأمنية التي داعبت مخيلته عندما كان عند أهله بمحض الصدفة، ثم بدأ من أجل تحقيق هذه الأمنية رحلته الطويلة من بلده يحث الركاب التي طوى عليها البيداء المترامية مجتازاً الوهاد والأودية والشعاب، مخترقاً الفياض الفيحاء

والرياض الغناء من أجل تحقيق هذا الهدف الذي تغلغل في شغاف قلبه، لا من قلة فتيات السادة العرب، ولكن من أجل إشباع رغبة في ذاته، وإرضاء لما يشعر به من الأنفة والكبرياء، حينما سأل أخاه ذلك السؤال الذي أثار هذه الفكرة من أساسها، ذلك السؤال الذي طرحه فيما إذا كان يوجد سيد من سادات العرب سوف يرده إذا جاءه خاطباً لابنته؟ وقد لازمته هذه الأنفة طيلة مسيره إلى هدفه حتى اصطدم رأسه بتلك الصخرة الصلدة فدارت به الأرض وتداعى بنيان كبريائه للسقوط، لكن تلك اليد البارعة قد تداركت الأمر بقوتها السحرية المؤثرة وحالت دون تصدع البنيان، حينما أسرعت برفء تلك الصدوع وترميمها، وشدها إلى بعضها وإبعاد شبح الانهيار عنها، بدأت تلك الأجزاء المتصدعة بالالتئام والتماسك، عندما رأى الحارث ذلك الفارس الذي انقضت به فرسه تسحب من خلفها عجاجتها وكأنها تجر ذيلاً طويلاً ناصعاً، وما إن وصل فوقها فارسها وتحدث إليه في الأمر حتى ارتفع طموح كبريائه شامخاً وعادت إليه روح معنويته العالية وشعر في تلك اللحظة بالطمأنينة إلى تحقيق هدفه، وعندما عاد إلى مضارب القوم وجد من البشاشة وحسن الاستقبال ما مسح من نفسه آلام تلك الصدمة ورتق فتوقها وأبرأ جراحها، وكانت كلمات أوس بمثابة البلسم الشافي لكل تلك الآلام حينما سمع منه أنه زوجه ابنته الصغرى وهي غاية مايريده باعتبارها الغضّة عوداً، البضّة جسماً، المتدفقة حيوية وربما الأجمل والأملح من أختيها، إذا لقد عادت إليه كرامته التي كادت أن تهوي في ذلك الرد العنيف الذي واجهه عند قدومه إلى صاحبه، ولم يبق بينه وبين تحقيق غايته فعليا سوى مرور سحابة ذلك اليوم الذي مضى منه حوالي نصفه.

هذه الأخيلة مرت به سريعاً أثناء جلوسه إلى جانب مضيفه، لم ينتبه إلى بعض ما يقوله أثناء مررو تلك الخواطر والخيالات في ذهنه ولم ينتبه إلا والغلام يطوف بقطع من الشواء وأقداح من اللبن ليأكلوا ويشربوا.

وفي المساء ضرب البيت المخصص للزواج، وحينما مضى من الليل ما

مضى دخل أوس وضيفه إلى بيت العرس ومكثا فيه قليلاً ثم زفت العروس إلى بعلها، بعد أن بارك أوس لصهره وغادر المكان، وخلى الحارث بعروسه بذلك الخباء فرحب بها بينما كانت منشغلة ببعض شأنها داخل الخباء وترد عليه وهي في حالها، فجلس منتظراً فراغها مما هي فيه، وطال عليه الانتظار حيث نفذ صبره فقال:

ــ: هل فرغت من شأنك؟

: لا يزال بيدي ما يشغلني.

ــ: ليس هذا مقام لما تقومين به.

: لن أجلس بدون عمل يلهيني ويكون له فائدة لي.

ــ: لا بأس، ولكن ليس في هذا المكان.

: وماذا تريدني أن أفعل؟

ــ: ألقي ما في يديك وتفرغي لبعلك.

: ما في يدي لن يلهيني عنه.

ــ: ولكن هناك ما هو أهم مما في يدك.

: ماذا تقصد؟

ــ: إتركي ما في يدك واقتربي مني، أو أنني مقبل إليك.

: أتريد هذا الأمر بين أهلي وإخوتي؟

ــ: أجل، أجل، ولماذا نصبوا لنا هذا البيت إذاً؟

: والله لن يكون ذلك أبداً.

ــ: ماذا تقولين؟

: أقول ما سمعت والله لن يكون ذلك في بيت أبي وبين أهلي وإخوتي فالتزم بهذا الأمر حتى نغادر المكان.

كانت هذه الجمل التي سمعها من عروسه ذات وقع سيء في نفسه، فظل جاثماً في مكانه لا يتحرك، بينما تتصارع في ذهنه عدد من الأفكار والتساؤلات، لماذا أمتنعت عليه؟ هل أوعز إليها أبوها أن تفعل هكذا؟ أم أمها

هي التي أشارت عليها بذلك؟ أو يكون هذا الأمر قد ابتدعته بنفسها دون معرفة أبويها؟ ولماذا امتنعت عليه؟ هل كان ذلك بدافع الحياء من أهلها وذويها؟ إن كان ذلك هو هدفها فليست مصيبة فيما ذهبت إليه، لأن أهلها هم الذين زفوها إليه، وليس في ذلك حياء مادام حسب النهج المتعارف عليه، أم أن تمنعها بنفسها لأنها زوجت إياه على كره منها، فأصبحت تكرهه وأرادت أن تبرر موقفها بعامل الحياء؟ قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن ليس هناك ما يبرهن على ذلك فنبرات صوتها عادية وطبيعية، وعلى العكس فابتسامة الرضى والاطمئنان تكسو محياها وتتوج ثغرها، وكلمات الترحيب التي تفوهت بها على قلتها تنبئ عن شعور بالتودد والفرحة، إذا ما هو السبب في امتناعها بنفسها؟ وهل كان هذا التمنع من قبيل جذبي إليها والتعلق بها أكثر وأكثر لتشدني إلى نفسها؟ وهي ترى أن ذلك أفضل من لو أنها بذلت نفسها إليَّ من أول إشارة رأتها وأول عبارة سمعتها، هذا التمنع الذي تعتقد بعض النساء أنها بتصنعه أو ركوبه تجذب الرجل إليها أكثر فأكثر، إذا كان هذا هدفها فقد تخطئ، لأن بعض الرجال لا يتحمل مثل هذا التمنع، ويرى فيه نوعاً من تمريغ كرامته وكبريائه على الأرض، فهو في هذه الحالة قد تعزف نفسه عنها وربما وصل الأمر إلى الطلاق، وتعض هي إصبع الندم ساعة لا ينفعها ندمها، وربما لم يبين لها أبوها مكانتي بين قومي، فقد يكون في مفهومها، أنني أحد أجلاف العرب، ولم تعرف أنني سيد ذبيان بقضها وقضيضها؟ فإذا كان أبوها لم يوضح لها ذلك فهل أجلى لها الأمر؟ لا، لا، لست ممن يتحدث عن نفسه، بل أترك الغير يتحدثون عني، أما والله لو علمت هذه الفتاة الطائية الغِرَّة أن الذي أمامها سيِّد تهتز أمامه فرائص الرجال لما جلست إزاءه تتشاغل بهذا العمل الذي بيديها وكأنها أمام صبي صغير، أمن المعقول أنها لا تعرف من أنا؟ هذا غير ممكن لأن أباها لابد أنه قد أفهمها وأخذ رأيها فيمن ستزف إليه هذه الليلة، أتراها تريد أن تمتحن قوة صبري وتحملي؟ وتثبت بالفعل أن الغزال اللطيف يمكن أن يتلاعب بأعصاب الأسد الشرس؟ قد تكون نحت هذا المنحى، ولولا ذلك لما صارت تقترب مني تارة وتبتعد أخرى متشاغلة بما في

يدها من عمل، هل انقضُّ عليها كما ينقض العقاب الكاسر على فريسته فأبدِّد تمنُّعها وأحطِّم كبرياءها؟ وما تراها أن تفعل في هذه الحال؟ ستصيح، سيرتفع صراخها، ومن ذا الذي يفزع لها؟ أهلها وقد زوجوني إياها !! وقد لا تنبس بكلمة واحدة، لا، لن أفعل ذلك، تأبى علي مروءتي أن أقدم على مثل هذه الخطوة، إنني لو فعلت ذلك لاعتبرتني متهافتاً عليها، إن كبريائي تأبى علي أن أتهافت مندفعاً إليها كاندفاع الفراش إلى ضوء النار، سأجعلها هي التي تسعى إليَّ وتجرى خلفي أجل، إنني سيد ذبيان، ومن تكون بالنسبة لي؟ فتاة طائية غرَّة في عنفوان شبابها، سأكون كالجبل الشامخ الذي لا تحركه الرياح ولا تزعزعه الرعود والأمطار والسيول، وتتحطم على صفحته وذراه الأعاصير، سأثبت في مكاني ولن أتزحزح عنه، سوف أتجاهل حركاتها بجواري، ومتى رأتني كذلك ستندفع نحوي، ولن يمضي وقت قصير إلا وقد ارتمت في حضني، سأجعلها تتوسل إليَّ، وتلتصق بي، سأكلمها من مكاني دون اكتراث بما تفعل. ومضت الساعات تتوالى، فداهم الكرى أجفان العروسين كل في مكانه عندما كان غارقاً في أفكاره حتى تبلج ضوء الفجر من الشرق، وما إن طلعت الشمس ونثرت أشعتها الذهبية حتى جاءت إحدى الجواري لإيقاظ العروسين.

* * *

وفي الصباح نادي الحارث بالرحيل، فجهزت أم العروس ابنتها بما يلزمها من حوائجها وودعوا الحي، فسار الظعن باتجاه الجنوب الشرقي نحو ديار فزارة، وشيئاً فشيئاً حتى توارت الأظعان في سمت الأفق عن أعين الذين يودعونها بنظراتهم وعلى رأسهم أم العروس التي كانت تتشوق إلى مصاحبة ابنتها في بداية مشوار حياتها الجديدة ولو لبضعة أيام، غير أن زوجها منعها من ذلك، ومضى ذلك اليوم حيث بات الركب ليلتهم حين وجدوا المكان الملائم، وفي الصباح استأنفوا مسيرهم يحثون الخطى للعودة إلى أهلهم ترفعهم الروابي وتخفضهم الوهاد، تمتد أمامهم البيد، وتنطوي تحت أخفاف مطيهم القيعان، يجتازون غابات الطلح والعوسج تصافح أعضاد مطيهم أزهار

القيصوم وشقائق الشيح وذرى العرفج، في تلك الرياض والفياض الفيحاء، تجفل أمامهم أسراب الغزلان، يرون أزوال النعام مثنى وثلاث ورباع في خيط واحد، تعطر أنفاسهم روائح الأعشاب والشجيرات الفواحة،، يشنف آذانهم أنغام الطيور الصادحة على أغصان الدوح الهائل، وأخرى مفردة فوق أفواف الأزاهير حتى حان وقت الغذاء، فأناخوا ركابهم، وطعموا مما معهم من الزاد بالإضافة إلى الشواء من الحيوانات التي اصطادوها في مسيرهم ثم استأنفوا السير، وعند حلول المساء أمر الحارث غلامه أن يميل بظعينة زوجته عن الطريق ليستريحوا ويبيتوا ليلتهم، وعندما أرادوا النوم دنف الحارث إلى مكان زوجته على بعد من أصحابه، فوجد منها الترحيب والبشاشة، فكان لذلك وقع طيب في نفسه، أيقن معه أنها تراجعت عن الموقف الذي وقفته منه عندما كانت عند أهلها، لهذا تاقت نفسه إليها، وأعدت له فراشاً لينام عليه، وبدأت تتشاغل عنه بينما كان في انتظار أن تفرغ مما تتشاغل به فقال لها:

ــ : بهيسة!! يقول ذلك بنغمة تودد.

: لبيك ياسيد ذبيان.

ــ : إقتربي مني.

: ماذا تريد يا أبا أسماء؟

ــ : هل فرغت من شأنك؟

: شأني!! وماذا تريد مني؟

ــ : ماذا أريد!؟ أريد أن ننام معاً على هذا الفراش.

: لست إلى ذلك ياسيد ذبيان.

ــ : لماذا؟

: لا والله لا يكون، أكما يفعل بالأمة الجبلية؟ على قارعة الطريق!؟

ــ : ماذا تقولين؟ يقول ذلك بنبرة غضب.

: أكما تلاقى السبيَّة الأخيذة من سابيها؟

ــ : لقد تحملتك عندما كنت عند أهلك، والآن نحن في البرية وليس عندنا أحد.

: لا والله، حتى تصل إلى مضارب قومك، وتنحر الجزر وتذبح الغنم، وتدعو

العرب إلى وليمة العرس، وتعمل لي ما يعمل لمثلي.

ـــ : هاه!! ماذا تقولين؟ يقول ذلك وهذه الجمل تتساقط في مسامعه متتالية يشعر معها وكأن قطعاً من الثلج تتساقط على جسمه فتمتص تلك الحرارة المتأججة في عروقه وتخمد أوارها، وتبدلها إلى دفعات باردة من الدم الذي يكاد أن يتخثر عند ذلك ثاب إلى عقله وتمعن بتلك الجمل التي أوردتها، فوجدها تمثل الحقيقة والواقع الذي تطمح له كل فتاة حرة كريمة من أن يكون لقاؤها بزوجها حسب الأعراف والتقاليد المتفق عليها لكونه قد تملكها بالزواج لا بالسبي والنهب، ولذلك فلابد من إتمام مثل تلك الترتيبات لحفل الزواج قبل أن يدخل بها، هذا أمر واقع، ولكن من يدري أهي تعني هذا الواقع بعينه أم تراها قصدت مثل هذه الأمور ذريعة لتتمنَّع عليَّ بنفسها؟ لا أظن ذلك، أجل ما الذي جعلها تسلك هذا الطريق؟ أما علمت أمام من تقف هذه الفتاة الغِرَّة؟ لو علمت أنها تقف أمام سيد مغوار تهتز أمامه فرائص الرجال الأبطال فما بالك بفتاة صغيرة ضعيفة لا حول لها ولا قوة، صحيح لو نظرنا للأمور من هذا الجانب فلا تساوي مقاومتها عندي شيئاً، لكنها أدلت ببيان يفت عضد القوة الجسمانية، لم أتوقع من فتاة غضة في مثل سنها أن يصدر منها مثل هذا الكلام، نعم إن فتاة مثلها في عنفوان شبابها وقوة رغبتها قد تقع على زوجها وتسقط في حضنه لا أن تتمنع عليه وكأنها بلغت سن عدم مبالات المرأة بزوجها في مرحلة البرود العاطفي، إنني استكثر منها هذا الموقف وهذا ولا شك يعود إلى أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن تكون الفتاة قد زوجنيها أبوها على كره منها ولذلك أحبت أن تماطل وتتعلل بمختلف الحجج حتى تشفي ما في نفسها من كوامن الغيظ، أو أن يكون لها شأن آخر ونظرة أخرى للأمور، لن أذهب بعيداً في هذا الأمر، فسوف يتبين لي أي هذين الاتجاهين يدور في ذهنها هذا إن لم تكن فتاة مغرورة تريد أن تشبع غرورها في هذا المَيْنِ والمماطلة فإذا كانت كذلك فلن تبقى عندي يوماً واحداً وسوف أعيدها مع غلامي هذا عندما أتبين حقيقتها، هاه!! قد تكون الفتاة أحبت أحد شبان قومها وجئت إليها وقد أشرفت على الخمسين وهي لا تريد أن تسلم عودها الغض وبشرتها البضَّة سوى

لفتى في سنها، إذا ورد هذا الاحتمال فسوف تندم ندامة الكسعى، ولكن على كل حال دعني أتريث الليلة، لن أكون أعجل منها سأنتظر، لئن كانت تريد مني الصبر بضعة أيام حتى نصل إلى أهلنا ونكمل ما تتطلبه عادات الزواج، سأصبر عنها حتى لو اقتضى الأمر شهراً أو شهوراً، وكما تمنعت عليَّ فسأتمنع عليها، لن أتنازل عن ذرة واحدة من كرامتي في سبيل تحقيق نزوة عابرة مادامت قد أعدت الفراش وتشاغلت عني، سأهملها حتى ولو اقتربت مني، والله لأجعلنَّها تحبو على الأرض لتقترب مني هذه الليلة أو ليلة قابلة، وسيكون بامتناعي عنها وعدم اكتراثي بحركاتها المغرية وكلماتها الرقيقة ما يجعلها تتوق إليَّ، وتحاول الالتصاق بي، ياالله!! ما أبرعها في اختيار هذه الكلمات اللطيفة، والجمل الجذابة، إنه سلاحها الذي تظن أنها ستؤثر به عليَّ وتجعل قلبي يهفو إليها، ولكن هيهات، لقد عزمت على ما عزمت عليه، وستجدني كالصخرة الصلدة التي لا تلينها قطرات المطر الصافية الباردة التي تتساقط عليها كانت هذه الجملة آخر ما دار في خلده قبل أن يستسلم للنوم.

* * *

وفي الصباح استمرت القافلة بالمسير لأربعة أيام بلياليها لا يخطر على بال الحارث أن يكلم زوجته إلا بنبرات حادة أحست معها أنه صار بنفسه ما فيها، ولذلك فقد ألانت له الجانب، وصارت تختار ألطف الحديث بأرق العبارات وأكثر الكلمات تأثيراً لملامسة شغاف قلبه، حتى إذا أطل الظعن على أحياء ذبيان، كان محط أنظار أهل الحي حيث اتجهت القافلة إلى قرب منزل سيد ذبيان، وضرب للعروس بيت جديد، وأمسى هذا الحدث حديث المنتديات وتناقلته الأفواه في كل منزل، وفي صباح اليوم الثاني نحرت الجزر وذبحت الأغنام ونودي في الحي والأحياء المجاورة: أن هلموا إلى الطعام، وبقى الناس طيلة ذلك اليوم طاعمين شاربين، وتوافد المهنئون علي سيدهم من مختلف الأحياء، وفي المساء دلف الحارث إلى بيت زوجته الجديدة، فاستقبلته بالترحاب والملاطفة وكانت قد أعدت له فراشاً ومتكئاً، وما إن أخذ مجلسه حتى بدت تسمعه عبارات الترحيب والتودد إليه مما جعله يندفع إليها بشوق

ويقترب منها، لكنه رآها متشاغلة عنه كالعادة في ترتيب أشياء داخل بيتها الشعري، تلاطفه بالحديث وتداعبه ببعض الملح حتى انهرس الليل فقال لها:

ــ: أما فرغت مما في يدك يابهيسة؟

: لا يزال بيدي ما ترى.

ــ: اتركي كل شيء بيدك فليس هذا وقته.

: ولكنه يحتاج إلى استكمال.

ــ: قلت لك دعيه واقتربي مني.

: وماذ تريد؟

ــ: تعلمين ماذا أريد، لقد وصلنا إلى أهلنا، ونحرنا الجزر وذبحنا الغنم وأقمنا وليمة العرس لأحياء ذبيان القريبة منا ولم يبق ما تحتجين به.

: فعلاً لقد قمت بكل شيء على أكمل وجه.

ــ: أجل اقتربي مني، ثم دنا منها.

: لا والله لن يكون هذا!!

ــ: لمـاذا؟

: لقد ذكر لي فيك من الشرف والسؤدد مالم أره.

ــ: ماذا تقولين؟ يقول ذلك بلهجة حادة.

: أيهنأ لك عيش، ويطيب لك منام، وتلذ لك النساء، وعبس وذبيان تتقاتل فيما بينها!!؟

ــ: هاه !! ماذا تقولين !؟

: أقول ما سمعت.

ــ: وماذا أفعل بهم؟

: أخرج إلى هؤلاء القوم وأصلح ما بينهم حتى إذا توقفت الحرب عد إلى أهلك.

ــ: أخرج إليهم !!؟ يقول ذلك بصوت مجرور.

: نعم، فأنت أهل لذلك، أنت سيّد مطاع لك من الوجاهة بين قومك ما يجعلك محل التقدير عندهم، وسيد كريم تستطيع أن تتحمل ديات القتلى.

ــ: وكيف السبيل إلى ذلك!؟

: بحكمتك وكياستك وسؤددك تستطيع إنهاء هذه الحرب الطاحنة، لتمسح بذلك دموع اليتامى، وتخفف من آلام الثكلى وتبقي على حياة رجال صناديد، وزهرة شباب غض ليوم تدعوكم الحاجة إليه للذود عن حماكم وحماية محارمكم وأموالكم.

ـ : صحيح، صحيح يردد هذه الكلمة وهو غارق في التفكير ثم يستأنف إنها والله الحرب التي أفنت الرجال وأيَّمتَ النساء وأيتمت الأبناء.

: أنت لها يا أباء أسماء.. أنت لها.

كان لهذه الكلمات والجمل أشد الوقع في نفس الحارث، فظل متكئاً على تلك الأريكة التي أعدتها له زوجته، لا يأبه بالكلمات والجمل اللطيفة التي ترددها وهي جالسة على طرف الفراش حتى غلبها النوم، أما هو فإن أصداء تلك الجمل التي قالتها له قد فجرت في نفسه طاقات جديدة، ومكث ليلته تلك يستعرض الخطط التي قد يتمكن بموجبها من إنهاء تلك الحرب، ومرت في ذاكرته الأسماء التي يمكن أن تساعده في هذه المهمة العسيرة سيما وأنها قد استعرت بين القبيلتين منذ وقت طويل، وثأر الموتور من الواتر، وبقى من لا تزال لواعج الثأر تتأجج في صدره على واتره، والتهبت حزازات القلوب، وتعمقت الجراح بين بني العم، وكثر من يوغر صدور قوم على آخرين، وازدادت الأيامى، وتزاحم الأيتام من الجانبين، ولهذا فإن المسئولية كبيرة وثقيلة لا يتحملها سوى صناديد الرجال، أترى من يعينني على هذا الأمر؟ هناك خارجة ابن سنان، وأخوه هَرِم بن سنان، وحرملة بن الأشعر، وابنه هاشم بن حرملة، سوف أسعى في هذا الأمر في صبيحة الغد.

ومنذ الصباح الباكر شرع الحارث بالصلح وعرض الأمر على من يثق بهم فطابت نفوسهم لهذه البادرة الرائعة، وسفر السفراء بين الفريقين فتقاربت وجهات النظر بين الطرفين، وكان أول من قام بالحَمَالَةِ حرملة بن الأشعر المري، لكن المنية لم تمهله فهلك، ثم قام بها بعده ابنه هاشم بن حرملة المري واجتمعت عبس وذبيان بقطن وذلك لإبرام الصلح، لكن حصين بن

ضمضم المري قد خرج بفرسه وهو آخذ برسنها، فقال له الربيع بن زياد العبسي: مالي عهد بحصين، قم إليه بابيحان العبسي، فاغتنم حصين هذه السانحة ليأخذ بثأر أبيه قبل أن يتم الصلح فقتل بيحاناً بأبيه، ولما رأى بنو عبس وحلفاؤهم ما حدث انحازوا وقالوا: لا نصالحكم وقد غدرت بنا بنو مرة، وتناهض الحيان وكاد الصلح أن يفشل لو لم يتدخل خارجة بن سنان المري في الأمر حيث قال: إدعو لي إبني يزيد فأخذه ودفعه إلى أبي بيحان قائلاً: هذا وفاء من إبنك، قال بيحان: اللهم نعم وبقى عنده تلك الليلة وأياماً بعدها، وجدَّ الجِدُّ في هذه الساعات والأيام الحرجة واجتمع كبار القوم ومن بيدهم الحل والعقد، وهم يحاولون جاهدين تطويق مثل هذه الحوادث الجانبية التي قد تكدر الصفو، وتُفْشِلِ الاتفاق في محاولة للتعجيل في إبرام هذا الاتفاق وعلى رأس هذه القوة المفكرة هرم بن سنان المري والحارث بن عوف المري سيد ذبيان ثم حمل خارجة بن سنان مئتي بعير لأبي بيحان مقابل إطلاق صراح إبنه المرتهن بولد أبي بيحان، وكانت هذه بداية لنقطة هامة وهي احتساب القتلى من الجانبين الذين لم يؤخذ بثأرهم واحتساب دية من لم يؤخذ بدمه من الفريقين وتعاقدوا على أن يؤخذ الفضل ممن هو عليه، وتململ البعض تحت ثقل هذه الدِّيات، وعند ذلك برز سيِّدا مرة، مرة أخرى وهما الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وتحملا ديات القتلى من مالهما عن الفريقين وكانت ثلاثة آلاف بعير على ثلاث سنوات وتم الاتفاق بين الفريقين، وانطفأت جذوة الحرب المشتعلة منذ مدة طويلة بين الجانبين، وعندها ترنم زهير بن أبي سلمى المزني بقصيدته الرائعة الخالدة التي ملأت الأسماع منذ ذلك الوقت لا يزال يرن صداها إلى يومنا هذا مخلداً فيها ذكر هذين السيدين ومن معهما على ما قاموا به من حقن الدماء وإنهاء الاقتتال بين الفريقين.

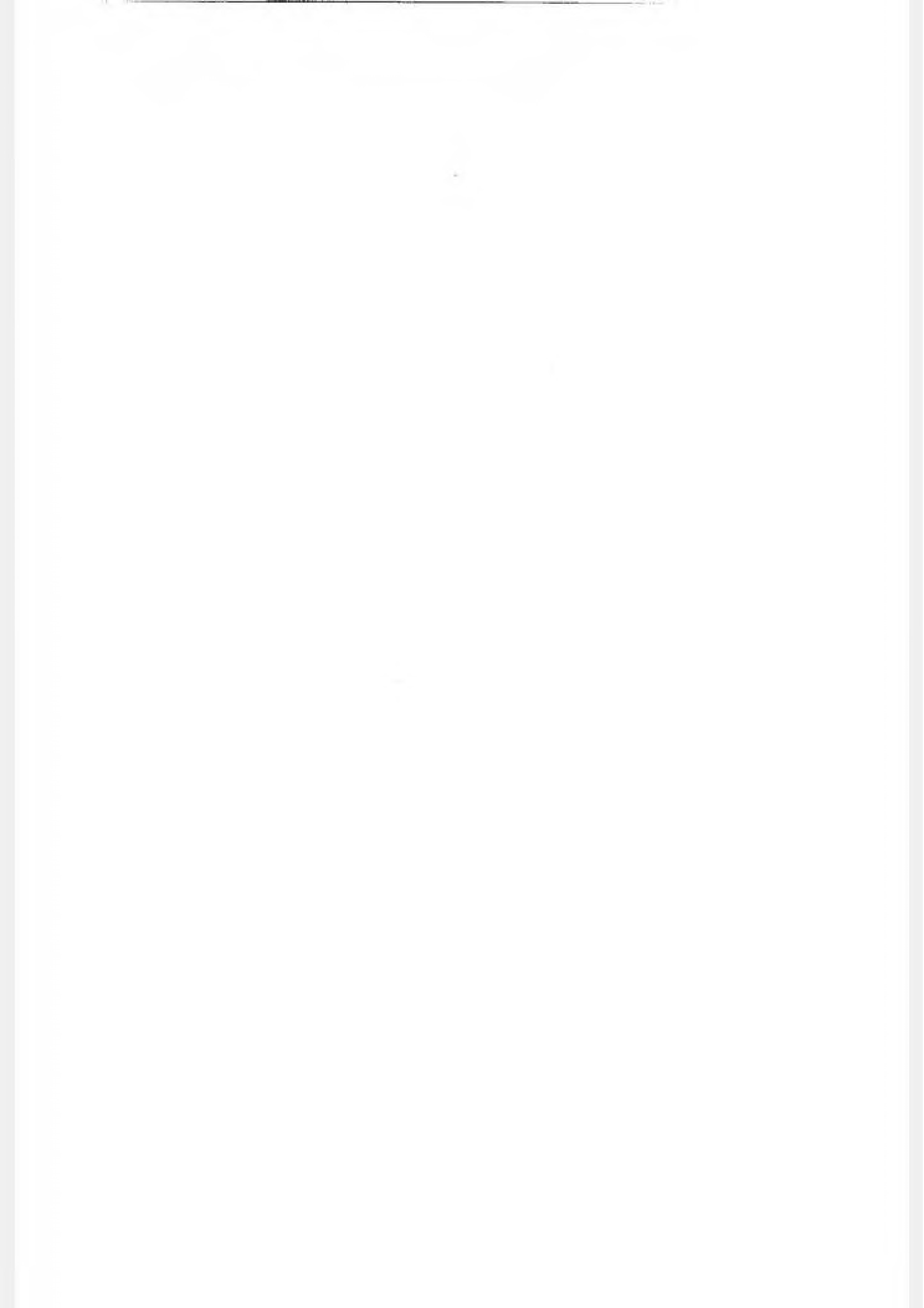
وفي تلك الأمسية الربيعية عاد الحارث بن عوف من مجلس القوم إلى بيته ليجد زوجته بهيسة تقف بانتظاره تفتح له ذراعيها وتضمه إلى صدرها قائلة له: الآن عد إلى أهلك قرير العين، رضي الفؤاد، فهنيئاً لك على ما قدمت لبني

قومك الأقربين وبني قومك الأبعدين، هذه اليد البيضاء التي مددتها لن تنسى لك ولصاحبك ماكرَّ ليل وراء نهار وصدق والله زهير حيث قال:

فأقمست بالبيت الذي طاف حوله	**رجال بنوه من قريش وجرهم**
يمينا لنعم السيدان وجدتما	**على كل حال من سحيل ومبرم**
تداركتما عبسا وذبيان بعدما	**تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم**
وقد قلتما أن ندرك السلم واسعا	**بمال ومعروف من القول نسلم**
فأصبحتما منها على خير موطن	**بعيدين فيها من عقوق ومأثم**
عظيمين في عليا معد هديتما	**ومن يستبح كنزا من المجد يعظم**
تعفى الكلوم بالمئين فاصبحت	**ينجمها من ليس فيها بمجرم**
ينجمهـا قوم لقـوم غرامـة	**ولم يهريقوا بينهم ملء محجم**
فأصبح يحدى فيهم من تلادكم	**مغانم شتى من إفال مزيم**

كانت أبيات هذه القصيدة ترن في مسامع الحارث بنبرات صوت زوجته الرقيقة العذبة وكأنه يشعر بتاج أبدي وضع فوق رأسه بيد هذه الزوجة النبيلة الرائعة فلفها بزراعيه وبات عندها تلك الليلة وبنى بها، وانجبت منه البنين والبنات.

قصـــة رقـــم (٢١)



كلُّ يَدٍ وما قدَّمت

ما كادت خيوط الفجر تنبثق من الشرق حتى تنبه الشيخ من نومه فمد بصره الضعيف وبحلق بعينيه الغارقتين قبل فترة قصيرة بالنعاس علّه أن يحقق ما إذا كان يرى تباشير الصباح حقاً أما أنها تراءت له من وسن النوم، ولم يتضح له ما أراد، فرفع رأسه من بين تلك الأغطية التي تلف جسمه، وعندها قال بصوت خافت: لا إلٰه إلا الله، أصبحنا وأصبح الملك لله الحي القيوم، هذه تباشير الفلق أطلت علينا من الشرق هل أوقظ إبني؟ أم أتركه قليلاً حتى تجب صلاة الفجر؟ وكان ابنه النوري غير بعيد عنه يرى حركاته ويسمع كلماته فبادره بقوله:

ــ : أسعد الله صباحك يا أبي.

: وصباحك، هل أنت مستيقظ يابني؟

ــ : لقد استيقظت من نومي قبل ساعة فقمت وسخَّنت لك ماء الوضوء، وتريثت قليلاً لم أرد إيقاظك حتى تجب صلاة الفجر.

: آه!! لقد حدثتني نفسي قبل قليل أن انبهك من نومك ففضلت التريث حتى يحين وقت الصلاة.

ــ : عظم الله أجرك ياوالدي.

: لم أسمع أذان الفجر في الحي حتى الآن؟

ــ : لا يزال الوقت في بدايته، ونحن بانتظار سماع الأذان بين لحظة وأخرى.

كانت الأصوات جرشة إثر النوم مما جعلها تتشابه في نبراتها.

: ها هو المؤذن قد رفع صوته بالأذان لننهض يابني.

ـــ: أرجو أن تنتظر قليلاً حتى أشعل النار مرة أخرى لكى تتدفأ عليها وتجفف يديك بعد الوضوء.

: كأنك أبطأت يابني!؟

ـــ: لقد خمدت النار التي اشعلت قبل ساعة، وها أنذا أقدح بالزناد لأشعل النار من جديد، ولكنه زناد أجذم لا يقدح من الشرر ما يشعل النار.

: أما عندك غيره!؟

ـــ: بلى، بلى لكنه قد أشعل «الوِذّيْحَة» الآن. يقول ذلك بنبرة فرح.

: حسناً، لقد اشتعلت النار. يقول ذلك وهو يحاول رفع الأغطية عن جسمه.

ـــ: دعني أساعدك على النهوض، لتتوضأ من هذا الماء الساخن.

: باستطاعتي القيام لولا هذه الأغطية علي.

ـــ: لقد خفت عليك من البرد فأردت أن تدفئك، لقد أزحتها عنك.

: مهلاً يابني، حتى لا أثقل عليك بجسمي.

ـــ: لست ثقيلاً، دعني أُعَضِّدُ لك وأرفعك من الفراش حتى تصل إلى مكان الوضوء.

: ها أنذا قد وصلت.

ـــ: تفضل، دعني أختبر الماء لأرى مدى سخونته، إنه مناسب.

: سلمك الله يابني. يقول ذلك وهو يشرع بالوضوء.

ـــ: عظم الله أجرك يا أبي. هاهم الرجال قد توافدوا من أطراف الحي، لنصلّى جماعة على صعيد هذا المسيل قرب البيت كالمعتاد فدعني أوصلك إلى المسجد.

: أعطني عصائي.

ـــ: سأعضد لك مع العصا.

وبعد أداء صلاة الفجر أخذ النوري والده إلى المكان المخصص له، وأجلسه على أريكة ليتكىء على شداد المطية الموضوع على الأرض، بينما شرع بوضع الحطب على النار فارتفع لهبها وبدأ يعمل القهوة بحمسها ثم سحقها بالهاون النحاسي حيث سعل بصوته الرنّان مع حفقات المدق في جوفه،

وتحلق الرجال حول كانون النار للاصطلاء وطلب الدفء، ثم تناول القهوة مع التمر «القدوع» وتجاذب أطراف الحديث وتبادل الآراء واستعراض ما استجد في الحي ليلة البارحة، وما جاء به الركبان من أخبار حتى فرشت الشمس بساطها الذهبي على الأرض، وامتدت أظلة الأشجار والجبال والبيوت والناس والأنعام وغيرها من كل شيء شاخص، لتمثل هذه الخطوط الموازية نقشة رائعة على هذا الأديم الذهبي المتألق، عند ذلك بدأ الرجال في مغادرة مجلس أبي النوري كل ذاهب لشأنه، بينما أسرع النوري بتحضير فطور والده من الحليب الطازج الذي حلب لتوه من الضرع، إضافة إلى خبزة قد شواها له في مَلَّةِ النار، وهشمها وفركها بالسمن، بينما أوعز إلى رعيان الإبل والغنم ليسرحوا بانعامهم إلى المرعى، وجلس يؤانس والده بالحديث، ثم نقله إلى مشراق البيت ليدفأ بأشعة الشمس التي يقال عنها: «فاكهة الشتاء» حيث اجتمع عنده بعض كبار السن من سكان ذلك الحي، وجلسوا يتبادلون أطراف الحديث عن ذكرياتهم وما مر عليهم من تجارب هذه الحياة، يدير عليهم النوري القهوة بين الحين والآخر منتبهاً لوالده يضع تحته بين الحين والآخر من لين الفرش كلما رآه يتململ في مكانه.

يصغي لأحاديث هؤلاء الأشياخ بكل حواسه وما مر عليهم من ذكريات في مختلف شئون الحياة، يتذاكرون سنوات الخصب التي مرت بهم وكل واحد بدلي بدلوه فيما جرى له بتلك السنوات من المرباع بالمكان الفلاني، والمقيظ على المورد الفلاني، أو بجانب رفاقه سكان القرى ليسقى مواشيه من آبارهم، وعادة ما يختتم المتحدثون هذه الذكريات، بالحمد لله والثناء عليه قبل أن ينتقلوا إلى ذكر السنوات المجدبة، وما وقع لهم من مواقف محرجة، أو متاعب مضنية في جلب الميرة من الموارد الشحيحة في البلدان المجاورة، ثم يأخذ حديثهم منحى آخر، وهو ما يتعلق بالغزو والسلب والنهب، قبيلة تغير على قبيلة لتقتل بعض رجالها وتأخذ مواشيها، وربما أغار بطن أو فخذ من قبيلة على بطن أو فخذ من نفس القبيلة للغرض ذاته، وهو الغزو والسلب والنهب

والقتل مما يتعبرونه مجالاً للتفاخر فيما بينهم، ويعتبرون ما يؤخذ من الجانب الآخر مغنماً حلالاً لا لشيء، إلا أنه من الأعداء وإن كانوا من بني جلدتهم كما قال القطامي:

وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا

وعندما يتحدث الشيخ منهم هذا الحديث عن نفسه أو عن رفاقه تراه يتحدث بكل حواسه، يرتفع جسمه وينتصب فوق الأرض ويكاد أن يتطاول في مجلسه حتى ليحسب الرائي أنه واقف، تتحرك يداه بالإشارات في كل اتجاه، تخرج الكلمات من فمه بنبرات حادة متوثبة، تعيد له حيويته وعنفوانه وكأنه يوجه رفاقه الآن، وغالباً ما تنتهي هذه الأحاديث بالتوجد على عودتها والتمني بأن يعود الشيخ شاباً ليمارس ما كان يمارسه في شبابه من تلك الغزوات، وعندما انتهى أحد الشيوخ من حديثه سأله النوري:

ــ: لماذا تتمنى أن تغزو يا أبا فياض؟

: لنكسب يابني.

ــ: وممن تكسبون؟

: من القوم أي الأعداء.

ــ: وهل تعتبرون آل فلان أبناء عمكم من أعدائكم؟

: هاه!! ليسوا بني عمنا الأقربين. يقول ذلك بنبرة خافتة.

ــ: ولكنهم من نفس القبيلة.

: صحيح، ولكنهم فِنْدَة بعيدة عنا بعض الشيء ولذلك نعتبرهم.

ــ: تعتبرونهم أعداء لكم.

: ليس كما تقول بالضبط، ولكن إذا أتيحت لنا فرصة أخذنا من حلالهم، وهم كذلك إذا وجدوا فينا مكسر عظم أخذوا من أموالنا.

ــ: ليت الأمر يقتصر على الأموال لكان ذلك أسهل، ولكن ذلك يتعداه إلى الرجال وتلك هي المصيبة.

: الرجال!! آه، تقصد المدافعين عن أموالهم أو الذين يريدون استرداها.

ـــ: نعم، هؤلاء الرجال الذين تذهب حياتهم ثمناً لعصعص بعير أو قرن عنز وأشياء تافهة.

: أراك اليوم تتكلم على غير عادتك!!؟ يقول ذلك بلهجة تعجب.

ـــ: منذ أن نشأت وهذا رأيي.

: أوه، إنك لا تحب «علوم» الرجال وأحاديث البطولات.

ـــ: بطولات!! على من!؟

: على «القوم».

ـــ: على بني قومكم كما قال الشاعر:

أسد علي وفي الحروب نعامة فتخاء تنفر من صفير الصافر

: لا تقل هذا يابني، فلو حضرت ذلك الوقت لما تجرأت أن تتكلم بمثل هذا الكلام.

ـــ: بل قد حضرته يا أبا فياض ولكنني ضد هذه الفكرة.

: أجل كيف تستطيع أن تعيش؟

ـــ: من اقتنع بما رزقه الله من مال حلال ونمَّاه يستطيع أن يعيش من ريعه دون حاجة للاعتداء على حقوق الآخرين.

: دعنا من الرزق، ولكن كيف تبرز بطولتك؟

ـــ: عندما يتطلب مني الوضع ذلك، كالدفاع عن النفس أو كيان القبيلة أو حمى الحي أو أي معتد أجنبي.

: ولكن يجب أن تمارس هذه الأعمال قبل طلبها منك.

ـــ: دون إغارة على الآخرين.

: يبدو أن ابنك يا أبا النوري من عالم آخر.

ـــ: لا تلمه يا أبا فياض فهذه جِبلَّتُهُ.

: قد لا ينفعك وقت الحاجة. أكرمكم الله يقول هذه الجملة وهو يغادر المكان.

ـــ: إجلس، إجلس هل أغضبك النوري؟

: آه!! لا ولكن لدي حاجة أريد قضاءها.

وأطرق النوري يعبث بجمر النار بالملقط ليضع فوقها دلة القهوة حتى لا تبرد، وهو يتخيل مايدور في نفسيات مثل هؤلاء الشيوخ الذين أفنوا زهرة شبابهم بمثل هذه الأعمال العدائية ضد الآخرين، ويدعون أنها من الكسب الحلال، وأن ممارستها من البطولات التي يجب أن تسجل لهم بينما هي لا تعدو كونها مناوشات بسيطة تنتج عن الحصول على مكسب هزيل غير حلال، يغامر الواحد منهم بحياته وحياة الآخرين من أجل أن يكسب عدداً من الشياه أو بعير واحد أو قليل من طعام. بينما لو شمَّر عن ساعده وعمل في أي مجال من مجالات الرزق لأدرك لقمة الحلال الطيبة، هذه الأرواح التي تزهق، وهذه الأجسام التي تعاق عن الحركة أو أداء وظائفها بعرج أو عور أو كتع وغير ذلك لم تكن في سبيل الدفاع عن النفس، والذود عن الكيان، أو المحافظة على تراب الوطن، بل تذهب في أمور تافهة، يذهب الغزو عشرة، أو عشرين أو مئة وربما أقل أو أكثر، فيغيرون على أموال الآخرين ويأخذونها إن لم يكن هؤلاء قد انتبهوا لذلك، وعندما يأتيهم الصريخ يفزعون إلى أموالهم، ويحصل الكر والفر حول هذه الأموال وتميل الكفة مع أحد الفريقين فقد ينتصر المدافعون ويستردوا أموالهم، وقد ينتصر المغيرون فيأخذون هذه الأموال، ويقتسمونها، يأخذ عقيد الغزو نصيبه من طيبها، ثم يوزع الباقي حسب نظرته لرفاقه، هذا فارس مغوار يأخذ نصيباً طيباً، وهذا أقل منه شأناً يأخذ دونه، وذلك من سائر الناس يأخذ نصيبه من العوراء والزوراء والمنكسرة، إيه!! ما ذنب أولئك القوم الذين أخذت مواشيهم؟ لاشك أن عمل هؤلاء سيدفع أولئك على إعادة الكرة وغزو أولئك مرة أخرى وربما استعادوا أموالهم مع أموال خصومهم، وربما سقط ضحايا من الجانبين، وهكذا تفنى هذه الأعداد من البشر في سبيل إرضاء نزوة عابرة، ويظل البعض يتشدق بمثل هذه المغامرات في المجالس، وينبجج بما حصل عليه منها.

ولم ينتبه النوري من تكفيره إلا عندما غلت الدَّلة على النار وأطفأءت الجمر.

* * *

وبعد أن تفرق الرجال من المجلس قبيل أذان الظهر شرع النوري في إعداد الغداء لوالده كعادته لا يكل أمره إلى زوجته، لا لتقصير قد أدركه منها وإنما لكي يطمئن في إعداد طعام والده والعناية به، وبعد أن تناول طعامه توضأ وأديا صلاة الظهر جماعة مع رجال الفريق حيث أعد فراشاً لوالده لكي ينام عليه نومة القيلولة في كنف البيت، وقبيل أذان العصر استيقظ الشيخ من نومه قد أعد له الماء الساخن ليتوضأ لصلاة العصر، وإذا النار قد اضطرم جمرها، فأجلسه النوري بقربها ليتصلى ويجفف الماء عن يديه ووجهه، وبعد صلاة العصر شرع في عمل القهوة للرجال الذين جلسوا حول النار التماساً للدفء وارتشاف القهوة، وبدأوا مجاذبة أطراف الحديث حتى أضفى الليل رداءه الداكن القادم من الشرق على الكون، حيث أدوا صلاة المغرب وانفض الرجال إلى بيوتهم ولم يبق سوى النوري ووالده، فقدم له عشاءه وبقي يؤانسه بالحديث تارة، ويحاول العودة معه إلى أعماق ذكرياته حين يسأله عن بعض المواقف التي مرت عليه، وعلاقات بعض الأمور ببعضها مما جعل الشيخ يشعر وكأن من يحدثه واحد من أترابه الذين خاضوا معه تجارب الحياة، ومروا بحلوها ومرها، ولم ينتبها إلا وقد أذن لصلاة العشاء الآخر فحضر رجال الحي إلى المسجد بقرب بيت الشيخ مراعاة لظروفه وأدوا صلاة العشاء وبدأت جلسة السمر حول كانون النار بقرب دلال القهوة التي شرع النوري في عمل طبخة منها وضرب الحديث في هذه الأمسية منحى آخر، وهو التفاخر بين القبائل العربية، وأن تلك القبيلة أفضل من الأخرى لقوة شوكتها، وكثرة عددها، وبسالة رجالها، إلى أن قال أحد الحاضرين: إن الفخذ الفلاني ليس به رجل طيب، وأن فخذهم ليس فيهم رجل رديء، هذا التطرف الذي أثا حفيظة النوري فاعترض على المتحدث قائلاً:

ــ: قولك يا أبا غازي يحتاج إلى دليل.

: ماذا تعني؟

ــ: لقد جردت الفخذ الفلاني من قبيلتكم من أي علامة طيبة ونفيت عن فخذكم

أي إشارة رديئة وهذا مالا يكون.

: هذا هو الواقع.

ـــ: قد يكون في اعتقادك، غير أن هناك من الرجال من لا يوافقك على ما قلت، وسيمنعون حقوقهم ويقفون دونها.

: إذا كانوا كما تذكر فاليدافعوا عن حقهم في الحادثة الفلانية.

ـــ: إذا كان حكمك عليهم مبنيًا على حادثة تافهة كتلك التي أشرت إليها فلا ينبغي أن يطلق الحكم عليهم جزافاً.

: جزافاً!! يقول ذلك بلهجة استنكارية.

ـــ: نعم، إن الحكم العام على فخذ كامل يضم مئات الرجال الفضلاء من خلال خطأ إرتكبه فرد واحد فهذا لا يعتبر حكماً عليهم جميعاً.

: أجل، أجل إنه حكم عليهم. يقول ذلك بنبرة تأكيد.

ـــ: لا أوافقك، لا يمكن أن يؤخذ المجموعة بجريرة واحد أو حتى مجموعة منهم، ولو كان الأمر كذلك لجرَّ فلان على رفاقك مثلما أحدث ذلك الرجل لرفاقه.

: فلان ليس منا.

ـــ: آه!! إنه ابن عمكم، ولكنه عندما ارتكب ذلك الخطأ تبرأت منه وأخرجته من حضيرتكم.

: لا، لا لم أخرجه ولكنه... ولكنه.

ـــ: أنت يا أبا غازي أكبر مني سناً، وقد تكون أعرف مني ببعض الأمور، ولكن الطيب والرديىء من الرجال نسبي في كل قبيلة بل كل بطن وفخذ وعشيرة وربما في الأسرة الواحدة، وكذا الحال بالنسبة للشجاعة والكرم والمروءة، فقد يكون في العشيرة أو الفخذ أو البطن أو القبيلة رجل واحد يرفع سمعتها ويعلى صيتها فتضرب شهرتها الآفاق من أجل هذا الرجل الذي يلتف تحت كنفه عشرات الآلاف من الرجال فيقود هذه القبيلة إلى المجد والسؤدد.

: صحيح، ولكن هناك اختلاف بين قبيلة وأخرى.

ـــ: أنا معك في هذا، غير أنه في كل مجموعة من الناس تجد الخير والشر والخصال الحميدة والسيئة، وتتفاوت هذه الخصال من شخص لآخر.

لكن آل فلان ليس بهم من الخصال الحميدة شيء.

: لا تقل هذا، أليس فيهم فلان الكريم المشهور، وفلان الشجاع المقدام، وفلان الحكيم الراسخ.

ـــ: بلى، بلى، يقول ذلك بنبرة تراجع واستسلام.

: هذه من الخصال المحمودة عند الناس، فقد لا تتوفر الشجاعة عند كل الناس بدرجة واحدة، كما لا يتوفر الكرم كذلك بنفس المقدار، فهناك اختلاف بين الناس، رجل شجاع قاطع لكنه قد لا يقرى ضيفه ورجل كريم بذال قد لا يتجاسر على عمل بطولي وهكذا بقية الخصال.

: كثيرهم الرجال الكرماء الشجعان الشعراء.

ـــ: إذا توفر في الإنسان أكثر من خصلة طيبة فهذا حظه الذي وهبه الله.

: المهم أنك رجعت إلى رأيي.

ـــ: لم أعد إلى رأيك، ولكني أقول إن الأمور نسبية بين الناس ولا ينبغي أن نسقط حق هذه المجموعة من الناس، كأن يكونوا عشيرة أو فخذ أو قبيلة أو شعب من أجل خطأ ارتكبه واحد منهم، كما لا ينبغي أن نرفع أخرى من أجل عمل جليل أو إقدام نبيل قام به أحد أفراد هذه القبيلة.

: يعني أن نترك الناس يتساوى فيهم الرفيع والوضيع.

ـــ: قلت لك يا أبا غازي أن كل إنسان بحقه من الحياة، وما قدمت يداه من خير أو شر، ثم إنكم وهؤلاء القوم الذين تتعالى عليهم فخذين من بطن واحد من قبيلة واحدة، فكيف يحلو لك ولأمثالك أن ترفع من قدر هؤلاء وتحط من قيمة الآخرين بمثل هذه المجالس، وتذهب إلى أبعد من ذلك بمحاولتك سلخ هذا الفخذ من القبيلة باختلاق الحكايات والأقاويل التي تدلل بها على صحة ما ذهبت إليه لكي يصدقك من بالمجلس وربما تناقلتها الأجيال من بعدكم.

: هاه!! لم أقصد ذلك.

ـــ: وإن لم تقصده فقد تتناقلها الأفواه، وتصبح هذه الأمور مما ينقل عنك، وقد تسبب حزازات في النفوس وقد يتعدا الأمر ذلك إلى عواقب وخيمة، إضافة إلى أنه يعتبر من الغيبة التي نهانا الله عنها في محكم كتابه العزيز.

: إذاً تصبحون على خير. كانت هذه آخر جملة يقولها أبو غازي حين غادر هو وصحبه المكان.

لم يبق بالمكان سوى النوري ووالده الذي أخذ النوم يداهم جفنيه، فرتب له ابنه الفراش، ودثره بالغطاء الكافي الذي يحميه من البرد، وجلس النوري إلى جانب النار في ساعة تأمل وكأنه يناجي نفسه، الله أكبر!! ما بال هؤلاء الناس يرتكبون مثل هذه الأخطاء في حق بعضهم البعض؟ وينجرفون وراء أهواء أنفسهم؟ هذه العشيرة يمدحونها ويرفعونها فوق السحاب، وتلك يسحقون بها الأرض، وأخرى يسلخونها من كيان القبيلة الأم، من أجل ماذا؟ من أجل أن هذه العشيرة قد فعل عقيدها أو أحد أفرادها فعلة طيبة فهم يرفعونها حتى تناغي السحاب، وتلك يخفضونها من أجل أن عقيدها انخذل في موقف من المواقف، أو ارتكب أحد أفرادها خطأً معيناً قد لا يكون مقصوداً وقد يكون فوت الحرص، وربما لم يعلموا أن هذه العشيرة أو القبيلة التي ارتفعت في اعتبارهم وكأنهم متساوون في الخصال الحميدة والمزايا الحسنة، مع أن فيهم الكثير من غثاء البشر الذين يشبهون غثاء السيل حين يخيل لمن يراه أنه جسماً شاخصاً بينما هو لا يساوي شيئاً، فمصيره على جلهة الوادي يخمد بمكانه فتذروه الرياح بعد يوم أو يومين ولا يبقى له أثر يذكر، وفي المقابل فإن تلك القبيلة أو العشيرة الممتهنة أو المحتقرة تضم بين أفرادها عدداً من الرجال ذوي الخصال الحيمدة والصفاة السامية، ولكن لظرف أو آخر لم يبرزوا تلك المزايا التي يمتازون بها، بل برز غيرهم من ذوي النظرات القصيرة أو التصرفات الهوجاء فارتكبوا الأخطاء مما أساء إلى قبيلتهم، ثم جاء هؤلاء المتشدقون في المجالس فأضفوا ستار تصرف أولئك الأسود على بقية أفراد قبيلتهم أو عشيرتهم، وفي مثل هذه المجالس لا يكتفون بعشائر قبيلتهم من رفع هذه وخفض تلك، بل يتعدونهم إلى القبائل العربية الأخرى التي قد تعود لنفس الجذم الذي تعود إليه قبيلتهم أو إلى جذم آخر، فيصفونهم بأدنى الأوصاف ويلصقون بهم أقبح السمات، ويحوكون حول ذلك الأقاصيص التي

تشبه الأساطير حتى تلصق تلك السمة أو السمات بهم كما يضيفون مايستطيعون إضافته من الكنى والألقاب التي قد يعيَّرون بها، وربما قامت الفتن والمشاكل بسببها كل ذلك أساسه أهواء النفوس ونسج الخيال، إيه!! هذا ما يحصل وإلا فما معنى قول أبي غازي إن آل فلان ليسوا منا. وقد التصقوا بنا التصاقاً وإنما هم كما يقال من قبيلة أخرى، وربما لا يعرف لهم قبيلة ينتمون إليها، ويستند في معلوماته هذه على متحدث مثله، قد يكون في نفسه ما فيها على هذه العشيرة أو القبيلة، بينما إذا سألت أفراد تلك العشيرة المعنية العارفين أخبرك أنهم من صلب هذه القبيلة التي ينتمي إليها المتحدث أو أحد فروعها، إذاً ما الذي حمل هذا المتحدث مثل أبي غازي على الخوض في حديث لا يرجى من ورائه سوى الدخول في أمور لا طائل منها؟ وهل هناك فرق بين هذه القبيلة أو تلك إلا ما يبرز به رجالها من الأفعال الخيرة والخصال الحميدة؟ أما هذه الترهات التي تبذر وتغذى في هذه المجالس فالأفضل أن يقضى عليها بالتزام تعليمات ديننا الإسلامي الحنيف «الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» إذا كان هذا النص أو ما في معناه فما بالك بفضل العربي على العربي أو العشيرة على العشيرة أو القبيلة على القبيلة!؟ ليت الناس يناقشون في جلساتهم هذه من الأمور مايعود عليهم بالنفع بدلاً من التعرض للآخرين واغتيابهم على مستوى الأفراد والجماعات!!

* * *

كان هذا الحديث الذاتي آخر ما دار في ذهن النوري قبل أن ينام ليلته تلك، وهذا دأبه في معاملته لوالده في كل يوم خاصة عندما أصبح والده محتاجاً إلى خدمته، يسهر على راحته، يحرم نفسه الراحة ليوفرها لوالده، يحرم نفسه لقمة الطعام ليقدمها لوالده، تمرُّ الظروف الصعبة فيتحملها على كاهلة في سبيل راحة والده، وفي تلك السنة الشهباء التي مرت على الناس فقد الطعام لدرجة الندرة، ولم يبق للنوري غير ناقته الوحيدة التي يتنقلون على ظهرها من مكان إلى آخر ويحلبها ليسقي والده من حليبها، وذات ليلة أبعدت

في مرعاها فذهب للبحث عنها حيث لا يوجد لوالده طعام غير حليبها، وقد أحضرها من مفلاها حين مضى من الليل ثلثه وعندما حضر وجد الحي قد هجعوا، ووالده قد غرق في النوم، فحلب الناقة وأتى بحليبها وجلس عند رأس والده لا يريد إيقاظه من نومه مخافة إزعاجه، فظل جالساً منتظراً لعل والده أن يستيقظ من نفسه ليجد ابنه عند رأسه ومعه الحليب، وكان في صراع نفسي مع ذاته، هل يوقظ والده وينغص عليه نومه من أجل تلك الشربة من الحليب؟ أم يتركه نائماً ساغباً تلوى أمعاءه لسعات الجوع؟ لكنه فضل إبقاءه نائماً، إذ ربما إذا أحس بالجوع استيقظ ليجد ما يسد رمقه وهكذا تمضي الساعات والنوري ممسك بالإناء على راحته جالساً عند رأس والده، ينتظر أي حركة منه تدل على استيقاظه، لكنه لم يفعل حتى حانت ساعة استيقاظه العادية قبيل أذان الفجر، فتنبه من نومه ورفع الغطاء عن وجهه ليجد ابنه جالساً عند رأسه وعلى راحة يده إناء الحليب فنهض من فراشه وهو يقول بفزع:

ـــ: النوري!!؟

: لبيك يا أبي. يقول ذلك بصوت لطيف.

ـــ: ماذا تعمل هنا؟

: معي قطرة حليب أحضرتها لك.

ـــ: حليب!! متى عدت يابني؟

: عدت بعد صلاة العشاء بساعة تقريباً، حيث لم أجد الناقة إلا بالمكان الفلاني، وحال وصولي إلى هنا احتلبتها لك لكني وجدتك نائماً فلم أرد التنغيص عليك وإيقاظك من نومك، فجلست عند رأسك علّك أن تستيقظ من نفسك دونما إزعاج مني، لكن هذا لم يحصل سوى الآن.

ـــ: منذ ذلك الوقت وأنت جالس عند رأسي!؟

: نعم يا أبي، وماذاك؟

ـــ: لقد عذبت نفسك يابني.

: فداك روحي ياأبي، تفضل هذا الحليب.

ــ : حقا إنه بارد!

: هكذا أردته ليبرد كبدك في هذا الجو الحار.

ــ : جزاك الله خير جزاء يابني، وليتك أيقظتني حين أحضرت الحليب لشربته وأرحتك من الجلوس عند رأسي طوال الليل. حقاً لقد أتعبتك يابني.

: لم أشعر بأي تعب في سبيل راحتك، فداك نفسي.

ــ : بذر الله لك الذرية الصالحة ليخدموك كما خدمتني في كبري.

: تقبل الله دعوتك يا أبي.

ــ : خذ الإناء، لقد شربت وارتويت.

: ولكنه لم ينقص، وقد نمت طاويا على لحم بطنك.

ــ : لقد أخذت إرادتي، وحسب الإنسان يابني من الطعام ما يقيم صلبه، لقد شعرت بالري والشبع معاً من هذا الحليب، فاشرب بقيته لأنك سهرت جائعاً عند رأسي والحليب بيدك.

: والله لن أذوقه وقد خصصته لك.

ــ : لكنك لم تذق شيئاً.

: لقد تعشيت.

ــ : من أين؟ إنني أعرف أنه لا يوجد بالبيت ما يسد الرمق غير هذا الحليب فاشرب بقيته أو أعطه لأهل بيتك.

: والله لن يدخل حلقي، ولن يذوقه أحد غيرك فربما اشتهيته بعد قليل.

ــ : وأنت!؟

: سأعمل القهوة بعد صلاة الفجر وسأكتفي بشرب فناجين منها، فأرجوا أن تأخذ شربة منه أو تشربه كله قبل أن يجتمع علينا الرجال لأداء صلاة الفجر.

ــ : أرجوك أن تأخذ ولو شربة منه.

: لقد حلفت يا أبي، روحي فداك.

ــ : الحمد لله. يقول ذلك بعد أن شرب الحليب.

: هنيئاً مريئاً.

: واستمرت تلك السنة الشهباء بظلها الثقيل على صدور الناس، وعثرت ناقة

النوري فانكسرت يدها مما دعاه إلى نحرها وتوزيع لحمها على سكان الحي، وبعد فترة من الزمن اشترى جملاً لينتقلوا عليه فيما لو طرأ على رفاقه نجعة إلى مكان معين، وعندما لاح بارق الوسمي بادر الرجال إلى إرسال رائدهم إلى المكان الذي تخيلوا عليه المطر، وعندما عاد عزموا على الرحيل إليه، وما إن وصلوا إلى هناك ونصبت البيوت الشعرية في أصيل ذلك اليوم الخريفي، قام أبو النوري متوكئاً على عصاه يهتز تارة ويعتدل أخرى، يمشي خطوة أو خطوتين ويقف بعدها للاستراحة حتى وصل إلى الجمل البارك، فمسح ظهره ووضع يده على سنامه يتجسسه ليرى مدى سمنه، في هذه اللحظة كان ابنه النوري ينظر إليه من خلف البيت الذي نصب لتوه فتبادر إلى ذهنه أن أباه قد قَرَمَ على اللحم الذي مضى عليه مدة طويلة لم يذقه، وعند ذلك رتب لوالده فراشه ثم أسرع إليه وأمسك بمؤخرة عضديه ودرَّجه بخطواته الوئيدة المتعثرة حتى أوصله إلى فراشه، وأوقد النار ثم شحذ سكينة وأسرع إلى الجمل فنحره واستخرج من شوائه الكلى والقلب على الفور، وسارع بشواء قطع منها على النار وتقديمها لوالده الذي استغرب هذا الأمر حيث لم يكن معهم من الأغنام شيئاً يمكن أن تذبح ولم يكن بالأرض صيد يتوقع أن يصطاد منه، وقد نزلوا لتوهم في هذا المكان الجديد، عند ذلك بادر ولده متسائلاً:

ـــ: من أين أتيت بهذا الشواء الذي أشم رائحته؟

: هذا رزق من الله رزقنا به.

ـــ: الله رزاق كريم، هل صدت صيداً في هذه الأرض؟

: نعم يا أبي. يقول ذلك وهو يبتسم.

ـــ: تسلم يمينك، وما هي صيدتك؟

: ستعرفها عندما تذوق لحمها.

ـــ: الأرض مجدبة، والصيد هزيل لا يسمن ولا يغني من جوع.

: ولكن هذا الصيد لا يخلو من الدسامة.

ـــ: دسم!! غريب صيد سمين في هذا الدهر!؟ رحم الله زماناً بل أزمنة مرت علينا لا يمر أسبوع إلا وقد صدنا فيه من الظباء والوعول ما نشاء.

: لا تزال الدنيا بخير يا أبي، تفضل، هذه القطعة التي اشتويتها لك على عجل.
ــ: سلمت يمينك يابني، سلمت يمينك. هاه!! ما هذا؟
: ما بك يا أبي؟ أهي حارة أو لم تنضج!؟
ــ: لا، لا، ولكن هذه لحمة بعير!! يقول ذلك بنبرة مجرورة. أليس كذلك يابني؟
: بلى، بلى.
ــ: عسى ألا تكون قد نحرت الجمل!؟ يقول ذلك بدهشة.
: فداءك الجمل وما حمل.
ــ: أنحرت جملك الوحيد الذي يعتبر عماد حياتك تتنقل عليه وتجلب عليه الميرة لبيتك!؟
: هو فداك، وسيعوضنا الله خيراً منه.
ــ: ولكن من أين يابني؟ من أين ستجد جملاً مثله في هذا الوقت من هذه السنة الشهباء.
: سيرزق الله فتفضل من هذه الوِذَرِ من اللحم مادامت ساخنة قبل أن تبرد.
ــ: لقد أحسست وكأنني أغص بها، لا أستطيع جرعها مما أنا فيه.
: نفسي فداك يا أبي، هل تحس بشيء معين أو ألم؟
ــ: أبداً ، ولكن تكدرت نفسي عندما علمت بأنك نحرت جملك.
: وقفز النوري من مكانه وأكب على رأس والده يقبل جبينه وعينيه وهو يقول: لم أنحره إلا من أجلك.
ــ: من أجلي!! يقول ذلك باستغراب.
: نعم من أجلك فداك نفسي، فقد رأيتك تحس ظهره وتمسك بسنامه فظننت أنك قد اشتهيت اللحم وقطع من الشحم الذي قد مضى وقت طويل لم تذقه.
ــ: لا والله يابني، كما تعرف أنني ضعيف البصر خائر القوى فلما كنت بالقرب منه تخطيت إليه حتى دنوت منه وتجسسته لأرى مدى قوته وسمنه ليتحمل نقل بيتنا وأمتعتنا وميرتنا إلى المكان المربع، ولم يخطر ببالي ما خطر ببالك.
: لا بأس عليك يا أبي، فالله الذي يسره لنا سوف ييسر لنا خير منه بحوله وقوته، وعليك أن تأكل من هذه الأوصال لتقطع بها قرمك. يقول ذلك وهو يتأهب

للعودة صوب البعير المذبوح.

ثم نادى رفاقه ليساعدوه على سلخ الجمل ونادى في الحي إلى العشاء في تلك الليلة، كان الشيخ يلمج تلك القطيعات من اللحم المشوي على جذوع أضراسه البالية وبقايا أسنانه الناسعة وتدور في ذهنه بعض الأخيلة التي نتجت عن الموقف إذ كيف تسرع ابنه ونحر جمله الوحيد بمجرد أنني تجسست ظهره لأعرف ما إذا كان سميناً أم لا، إذا كان فعل هذا دون أن أطلب منه، فكيف الحال لو أنني طلبت منه شيئاً؟ بلا شك أنه سيحققه مهما كان عسيراً، لكنه في هذا الموقف أساء إلى نفسه، فالوقت غير مناسب الآن، وهذا الجمل هو عماد حياته بعد الله، ينقل عليه بيته إذا ظعن رفاقه، وفوق ظهره يجلب قوت أهله من العراق والأحساء، خاصة وأنه على قدر من السمن حيث يكتنز في سنامه مثل أنفه من الشحم، وهذه الدرجة من السمن في الوقت الحاضر نادرة لمرور هذه السنة المدهرة على الناس، ولو أراد البحث عن مثله لشرائه في هذا الوقت لما وجده إلا بأغلى الأثمان إيه!! الحمد لله على ما قدر، لقد فات كل شيء، وقد يفكر القوم بالارتحال من هذا المكان إلى موطن فيه العشب قد كبر، وعند ذلك لن يجد ما يحمل عليه بيته، هداك الله يابني، لقد قطعت رأيك على الحدس والتخمين، والله لم يخطر على بالي إنك ستفعل ما فعلت، لقد أحببت وأنا أجس ظهر الجمل أن أطمئن إلى سمنه، ولقد فرحت كثيراً، واطمأنت نفسي حينما لمست سنامه بحجم أنفه، والله لو علمت أنه سينحره لما وقفت عليه، هداك الله يابني، لو كنت قد اشتهيت اللحم لأخبرتك، ثم إنني رجل قد جربت الأمور، وعاصرت أوقات الشدائد والرخاء، وعركتني الأيام وصهرتني، أعرف متي يطلب الإنسان مايريد، ومتي يقتنع باليسير الذي يسد رمقه تمشياً مع متطلبات الوقت الذي يعيش فيه، تمر علينا السنة أو السنوات ونحن لا ندري ماذا نختار من أنواع الطعام ناعمين في رغد العيش، وتمضي علينا السنة أو السنوات الأخرى ولا يكاد الواحد منا يجد فلقه تمرة أو شربة لبن، والله لو تذكر يابني السنة التي ولدت فيها وجف حليب أمك ولم نجد لك مرضعة ترضعك مما جعلنا نستعين بعنز اشتريتها لك من

عرب مجاوين لتعيش على حليبها فترة من الزمن، حتي يسَّر الله لك من ترضعك، نعم يابنيَّ هذه السنوات لا تدوم بخيرها أو شرها، وأراك في هذه السنة الشهباء تنحر أعز ما تملك من الماشية على أساس التخمين، إيه، لقد فات الفوت ولا مأساة على ما فات فعسى الله أن يعوضك خير مما جدت به لوالدك لتدسم بـه كبده، ولتدسم به أكباد سكان هذا الحي بكامله ومن يفد إليهم من الضيوف في هذه الليلة فجزاك الله خير الجزاء على ما فعلت.

كانت هذه آخر جملة خطرت بذهن الشيخ حينما حضر إليه ابنه في هذه المرة ومعه قطع من رقاق اللحم من فقار الظهر وخبائبه ليشوبها لوالده ويقدمها له، بينما اشتغلت النساء يساعدن صاحبة البيت في طبخ هذه الوليمة للجزور بكاملها وما تتطلبه من طعام يكفي لسكان هذا الحي بأكمله، وتقاطر الناس رجالاً ونساء وأطفالاً مع أذان المغرب إلى منزل النوري لتناول طعام العشاء الذي ما إن جهزته زوجته ومساعداتها تلك الصواني الكبيرة المتوجة بكتع من لحم الجزور حتى عَضَّد النوري لوالده وأجلسه بقرب الصينية التي تحمل فقار الظهر وعليها السنام، وهي أغلى ما يقدم لأعز الضيوف، فوقف النوري مرحباً بالجميع على شرف والده بمناسبة قدومهم ونزولهم في هذه البقعة الجديدة من الأرض قائلاً:

ــ: تفضلوا، سموا حياكم الله على هذه «اللُّحَيْسَة»، وكان قد حلَّ على الحي في نهار ذلك اليوم فريق من الضيوف حيث قال أحدهم.

: لحيسة!!؟ ماذا يعني مضيفنا؟ موجهاً كلامه لأحد جلسائه من سكان الحي.

ــ: يعني هذه الصواني من الطعام.

: هذه لحسة أو لحيسة!!؟

ــ: نعـم.

: اللحسة أو اللحيسة هي الطعام القليل الذي تكاد أن تلحسه بإصبعك مرة أو مرتين أو ثلاث، أما هذه المائدة الممدودة من الصواني التي لا أكاد أرى طرفها فليست كما تذكر.

ـــ: ممن تكون أيها الضيف الكريم؟

: من القبيلة الفلانية.

ـــ: هذا واضح من لهجتك، ولكنني أردت التأكد، وكون مواطن قومك بعيدة عنا فقد تكون لا تعرف عن قبيلتنا هذه الخلة.

: ماذا تعني؟ يقول ذلك متحفزاً.

ـــ: ألا تعرف أن هذا البطن من قبيلتنا الكبيرة وهم الأسلم من شمر هم المشهورون بأهل «اللحيسة»؟

: لم أعرف هذا من قبل.

ـــ: ليكن في علمك إذاً.

: وهل هذا هو اسم مثل هذا النوع من الطعام؟

ـــ: لا، ولكن إذا قدم لك أحد من أفراد هذا البطن طعاماً قل ذلك أم كثر فإنه يرحب بك بقوله تفضل على هذه «اللحيسة».

: لماذا تسمون الطعام باللحيسة؟

ـــ: آه!! نريد بذلك أن ندلل على قلّة قيمة ما قدم من طعام مهما كان كثيراً بالنسبة للضيف، إذ أن قدره وقيمته أكبر بكثير من قيمة ما قدم له، وما هذا المقدم إلا ما يساوي لحسة تلحسها بإصبعك من الطعام.

: ياالله !! أصواني بهذا الحجم عليها لحم جزور بكاملها تسمونها اللحيسة.

ـــ: ذلك لشهرتنا بهذه السجية أما سمعت قول الشاعر تركي بن رخيص:

أهْلَ اللّحَيسَةْ يَوْمْ زَغْيَ ٱلاطَارِيْف ... وَضِدَّ الضّدِيْد لْيا هَبَا كِل نسَّاسْ

هَمْ سُوْرَنَا مِنْ شَرْقْ لَاشِيْف مَاعِيْف ... سُوْرٍ يْذَرّىْ يَوْمَ الَاوْنَاقْ يِبَّاسْ

: لأول مرة أسمع هذا، إنني أسمع عن كرم هذه القبيلة بجميع بطونها دون استثناء وكرم القبائل المجاورة لها لكنني لم أتصور أحداً يفعل ما تفعلون!!

ـــ: ستر الله الحال يا ابن الأجواد، فكل قبيلة من القبائل العربية ببطونها وفروعها فيها حقها من الكرم والجود والشجاعة والمروءة وغير ذلك من السجايا الحميدة بالإضافة إلى المزايا الأخرى.

: ولكنكم تمتازون على غيركم في هذا الجانب.

ـــ: كل إنسان دون عانيه يا ابن الأجواد، ولقد الهيتك بحديثي عن تناول طعام العشاء.

: لقد تعشيت واستفدت. خلف الله عليكم.

لازالت هذه الكلمة «اللحيسة» تطن في أذن هذا الضيف حتى عندما اضطجع في فراشه، ياالله!! ما أكرم هؤلاء القوم الذين يعتبرون مثل هذه الوليمة الكبيرة بمثابة «لُحَيْسَةْ» وخلافاً للمألوف، فما يسمى بهذا الاسم هو الشيء القليل جداً الذي يلحسه الإنسان بإصبعة من الإناء لمرة أو عدَّة مرات ويكون ملتصقاً بطار الإناء أو القدر من بقايا الطعام، أما ما يقدم على تلك الصواني مثل الأكداس المتوجه بفقار الظهر وكتع اللحم فيسمونها لحيسة فهذا مالا يستطيع أحد أن يصدقه، ياالله!! إذا كانت هذه الوليمة الكبيرة يسمونها لحيسة، فما هو اسم الوليمة الكبيرة عندهم؟ لا شك أن هذا من باب تقدير الضيف عندهم فقدر الضيف عندهم أكبر بكثير من كل ما يقدم له من طعام مهما كثرت كميته، وللضيافة عندهم مكانة مرموقة، فقد اشتهر من بذر هذه الدوحة المظلة وتعهد بسقيها حتى كبرت وساح ظلالها على هذه المنطقة بأكملها ألا وهو حاتم بن عبدالله الطائي وبقيت تاجاً شامخاً على رؤوس أحفاده، وهؤلاء الأحفاد قد حافظوا عليها، كما عمت فاعليتها معظم من سكن هذه الأرض وشاهد بعينه هذه الجبال أجا وسلمى ورمان وما جاورها وهذا لا ينفى عدم وجود هذه السجية في مناطق أخرى من الجزيرة وغيرها فإلى الغرب من هذه المنطقة هناك «مصوت بالعشاء» وإلى الشمال والغرب والشرق والجنوب من هذه الجبال من الرجال الأسخياء والكرماء مالا يحصى عدده، لكنني لم أسمع من يسمى مثل هذه الوليمة بهذا الإسم، إن مثل هذه الوليمة مما يقدم لذوي الشأن ويرحب المضيف بضيوفه وهو رافع رأسه يعتقد بقرارة نفسه أنه قدم له الواجب كاملاً غير منقوص، يا الله!! أرأيت الفرق بين هذا الرجل وذاك الرجل الذي أمرحنا عنده قبل عشرة أيام ولم يقدم لنا عشاءنا إلا بعد منتصف الليل عصيدة رخوة هي ماتيسر له بدون شك وقد عذرناه على

ذلك، لولا أنه قد بقي يحن ويزن ويحلتم أكثر من ساعة، وحينما دفعها إلينا وقد غلبنا النوم رحب بنا عليها وكأنه قدم لنا جزوراً كاملة!! سباحن الله مغير المفاهيم بين الناس، ولو أن كلمات الترحيب وحدها قد تكفي مع ماتيسر من طعام لكن البعض يقدم القليل ويرى أنه كبيراً دون أن يعتذر، ومثل هؤلاء يقدمون الكثير ويرونه قليلاً جداً مع الاعتذار عن التقصير.

* * *

بقي ذلك الحي من العرب، وأراف الله عليهم في مكانهم فلم يتحركوا عنه وجلبوا أموالهم فتكاثرت، وعاشوا بقية سنتهم في رغد من العيش والنوري دأبه وهمه العناية بوالده والوقوف على راحته ليل نهار، سيما وأنه في تلك السنة قد إنهارت قواه الجسمية، فصار ابنه يحمله من مكان إلى آخر، من فراشه إلى مكان جلوسه، ينقله إلى الشمس للتشرق في فصل الشتاء، حتى إذا حميت عليه نقله إلى الظل قليلاً، فإذا أحس بالبرد نقله إلى الشمس وهكذا دواليك طول النهار، وفي الليل تارة يقربه من موقد النار التماساً للدفء وأخرى يبعده عن الموقد إذا أحس بصنو حرارتها، وفي فصل الصيف يحمله من رف أورفة البيت إلى ظله إذا امتد في الضحى أو سويعات الأصيل بحثاً عن نسمات الصبًا الباردة، وفي القيلولة وقت احتماء حرارة الشمس يكون جالساً بقربه ومعه مروحة من الخوص يحركها حول وجهه ليبرد بها عليه ويلطف الجو عنده، ينقله إذا أراد قضاء حاجته في الخلاء، وإذا أراد أن يتوضأ للصلاة ينقله بعيداً عن البيت، ويساعده على التوضؤ، لا يشعر بالممل، ولا ينغص عليه الضجر، وكلمات إجابته لوالده لبيك و«سم» أي سمعاً وطاعة، تصاحب هذه الكلمات ابتسامة عريضة لا تفارق محياه، وتظل ترتكز على ثغره، يحاول إدخال السرور إلى نفس والده بشتى الطرق يبقى بجانبه يعمل له القهوة التي يجتمع عليها رجال الحي يتجاذبون أطراف الحديث، ويشركون الشيخ معهم في أحاديثهم ليعيدوه إلى ذكرياته القديمة التي يشعر معها وكأنه عاد إلى تلك الأيام الخوالي، في مثل هذه الأحاديث يحاول ابنه النوري إبراز أفعال والده التي

تميز بها، وذلك ليرفع معنويته من هذه الأحاديث ينبش من ذاكرته قصة عفوه عن خصومه وسعيه بالصلح بين رفقاه لإطفاء نار الحرب بين الطرفين والقضاء على الكراهية بين ذينك الحيين من رفاقه، لذلك انتعش الشيخ لسماع هذا الخبر ولما رأى النوري تحفز والده ورغبته في رواية القصة قال:

ـــ : لنترك رواية تفاصيل هذه القصة للوالد.

: بارك الله فيك يابني.

ـــ : أرى بعض الرفاق يريدون سماع تفاصيل ما حدث من لسانك.

: كلكم يا أبنائي تعرفون ما للجار من حرمة ومكانة عند العرب منذ القدم، ولا يخفاكم أن كل حي من أحياء العرب لابد أن يوجد به إنسان قد يتصف بالأعمال الشريرة طبعاً أو تطبعاً، وقد يكون عنده نزعة من سوء الحظ.

ـــ : لا شك أن في كل حي حقه من الخير والشر.

: في إحدى السنوات نزل بقرب حينا صاحب بيت من قبيلة أخرى وجاور أحد رفاقنا حيث نزل بجانب بيته وبقى الرجلان متجاورين حتى أصبحا كالأخوين، وظل هذا الرجل يرحل مع رحيلنا وينزل مع نزولنا ما يقارب السنتين.

ـــ : بالتأكيد أنه وجد اللين وطيب المعشر يا أبا النوري.

: هذا شيء وارد يابني، سيما وأن طبيعة الرجلين قد تطابقت، وليس هذا المهم.

ـــ : ما هو المهم إذا؟

: آه، في إحدى الليالي حصل نزاع بين جذعان من شباب الحي فيهم إبن ذلك الجار الذي لحقته إهانة من أحد سيئي الحظ من الشباب، فما كان من ابن جاره إلا أن نافح دونه ووقف بجانبه بكل ما يملك من قوة فوقعت بين هذا وبين شاب من الحي الفلاني مشادة كلامية ثم مضاربة أسفرت عن بعض الرضوض في الجسم والشجاج في الرأس مما حمل والده أن يركب رأسه فيأتي متهدداً متوعداً فتقابل والدا الشابين الضارب والمضروب.

ـــ : أوه، يعنى أن المسألة قد كبرت!!

: نعم، ذهب فلان إلى حيه يستفزع بهم وقام فلان في حيه كذلك، وكادت

الفتنة أن تنشب، وتواعد الحيان غداة غدٍ.

ــ : إنا لله وإنا إليه راجعون، وماذا فعلت يا أبا النوري؟

: كان رجال حينا لا يعصون لي أمراً، ولكن هناك مشكلة تعتبر من أحد المعوقات لتلافي ما قد يحدث.

ــ : أية مشكلة تعني؟

: لقد كان بيني وبين شيخ ذلك الحي شيئاً في النفوس مما يجعل كل منا لا يكلم صاحبه، وفي هذه الحالة لو بقيت بمكاني فسوف تكبر المشكلة، لكني ضغطت على نفسي وتنازلت عما فيها على رفيقي وبادرته بالذهاب إليه تلك الليلة، ولما رآني قد أتيت إليه فرح بمقدمي ورحب بي فتعانقنا وقبل كل واحد صاحبه وسعينا من لحظتنا تلك بتطويق المشكلة فأحضرنا والد الفتى المضروب ووالد الفتى الضارب وجميع أطراف المشكلة وراضينا بينهم.

ــ : هذا والله فعل الرجال الذين يتولون قيادة رفاقهم.

: لم نكتف بهذا، بل أخذنا على كلا الطرفين تعهد بعدم العودة لمثل هذه المشاحنات التي تحدث من الصغار وتنال جريرتها الكبار، ونودي في الحيين في ليلتها أن الموضوع قد انتهى برضى الطرفين، وليس هناك ما يدعو للتحفز لمواجهة يوم الغد، وبذلك انطفأت وخمدت تلك الفتنة التي ستنشب بين الحيين من بطن واحد من قبيلتنا.

ــ : جزاك الله خيراً يا أبا النوري، هكذا عظمة الرجال لاتبين إلا في وقت الشدة.

: بل هو ما يفرضه الواجب يابني، إذا أخذ الرجل على عاتقه مسئولية حيه يكون هدفه الصلاح والسعي بالحسنى بين الناس.

* * *

كانت الشمس تترنح في كبد السماء في صكة عمي،ترسل أشعتها الحارة إلى الأرض ليلتهب مالامسته تلك الأشعة حرارة واتقاداً بحيث أصبحت رمضاء الأرض لا تكاد تطاق في تلك القيلولة في هذا الوقت حان وقت صلاة الظهر فقام النوري وحمل والده بعيداً عن البيت لقضاء حاجته قبل أن يتوضأ، وعندما أنزله على الأرض كان صَفَنُ الشيخ قد ارتخى من الحر ولامس الأرض «فَنَزَّ» من

مجلسه ولاحظ ابنه ذلك فعمد إلى وضع كفه تحت الصُّفَن لتقيه حرارة الرمضاء حتى «يدفق الماء» وبعد أن أراق الماء رأى النوري والده وقد انهمرت عيناه بالدموع وأخذ يبكي ويتشنج وتذرف عيناه بالدموع حتى اخضلت لحيته فحمله إلى ظل البيت وكان النوري يتلوى ألماً مخافة أن يكون قد أساء إلى أبيه دون أن يعلم، أو أن حرارة الرمضاء قد آذته وعندما أوصله إلى الظل وأجلسه في مكانه أكب عليه يقبله ويمسح الدموع عن وجنتيه ولحيته وهو يقول:

ــ: ما بك يا أبي؟ فداك روحي، أرجو ألا أكون آلمتك؟

: أبداً، أبداً، يابني. يقول ذلك بصوت متهدِّج.

ــ: هل آذتك الرمضاء؟

: لا والله يابني. يقول ذلك وهو يكاد يغص بالكلمات.

ــ: أجل ما الذي أصابك؟ عسى ألا أكون آلمتك أثناء حملي لك؟

: ولا هذا يابني، فأنت ألطف بي من الأم بصغيرها.

ــ: هل يؤلمك شيء بجسمك أثناء خروج البول؟

: الحمد لله، لا أشكو ألماً.

ــ: قد يكون طرأ عليك أمر من الأمور جعلك تبكي بهذه الدرجة!؟

: ولم يخطر ببالي شيء.

ــ: أجل ما الذي أبكاك؟

: لقد سبقتني وبَزَّيْتَنِي يابني. يقول ذلك بكلمات تخرج من أعماقه.

ــ: سبقتك!! وبزيتك بماذا!!؟

: سبقتني بشيء كنت أتمنى لو لم تسبقني إليه.

ــ: لم أفهم ماذا تعني؟

: آه، بلا شك يابني إنك من الأبناء البررة بآبائهم، فجزاك الله خير الجزاء.

ــ: هذا واجب عليَّ، وبأداء الإنسان لواجبه فليس له فضل.

: لا شك، أرأيت يابني ما تقوم به من أعمال مبرَّة نحوي؟

ــ : هاه!! مبرة؟ يقول ذلك بانبهار.

: نعم مبرة، فلقد كانت ثمار غرس غرسته في والدي يرحمه الله.

ــ : ثمار غرس!!؟ يقول ذلك بدهشة.

: كل عمل تقوم به الآن في سبيلي فقد سبقتك إليه وقمت لوالدي بعمل مثله، واحدة بواحدة إلا هذه.

ــ : ماذا تعني؟

: أعني وضعك لكفك تحت صفني لوقايتي من حرارة الرمضاء أثناء قضائي لحاجتي.

ــ : أهذا مايبكيك يا أبي!!؟ يقول ذلك بدهشة ثم يستأنف إن بودي لو أضعك بين جفني عيني وأطبق عليك كما أطبق على جوهرة رأسي لا يؤذيك حرٌّ ولا يلسعك قر.

: سلمت عيناك يابني، وبذر الله لك الذرية الصالحة التي تجزيك بمثل عملك هذا أو أفضل منه.

ــ : لا تجعل هذا الأمر يكبر في نفسك يا أبي.

: إنني والله يا بني أتمنى لو فعلت بأبي كما فعلت بي ولكنك سبقتني إلى هذه الخلة.

ــ : إنني أتمنى خدمتك بأي مجال يؤدى إلى راحتك:

: لم تقصر في شيء، بل زدت علي ما فعلته بأبي، فجزاك الله خير الجزاء بحق من ينادي باسمه للصلاة، أعطني الماء لأتوضأ.

وأخذ النوري والده للمكان الذي يتوضأ فيه خلف حاجر البيت، وبعد أن انتهى حمله إلى المصلى لأداء صلاة الظهر، وبعد قضاء ركعتي المسجد سرح النوري في خيال فسيح، الله أكبر ما أعظمك ياأبي!! كان يتأسف على عمل من أعمال المبرة يعتبرها قد فاتته، ومن أجل ذلك انهمرت دموع الأسى حتى تبللت لحيته، واستمر يبكي من أجل أنه لم يفعل مثل هذه الفعلة، متعنا الله بحياتك ياأبي يامن يطمح إلى المبرات لأنه يعلم علم اليقين أن لكل يدٍ

ماغرست، إن غرست هذه اليد خيراً فسوف تجني منه خيراً، وإن بذرت شراً فسوف تجنى ثمار ما بذرت، ياالله!! أنظر لهذه الجملة التي تلفظ بها والدي، كل ما تفعله بي يابني الآن قد فعلته بأبي من قبل إلا هذه فقد سبقتني إليها!! كان يتمنى من كل قلبه لو أتيحت له الفرصة ليفعل بوالده ما فعلت، هكذا الأبناء البررة يحاولون أن يخدموا والديهم بكل ما وسعهم ذلك، بكل صغيرة وكبيرة من أَجَلِّ خدمة إلى أَقَلِّ حركة مثلما فعلت، يسعون لراحة والديهم، يكدحون بالنهار لتأمين لقمة العيش لهم، ويسهرون بالليل على راحتهم، أما حينما يقعدون فإنهم يكادون يلازمونهم في إقامتهم، لا يفارقونهم لحظة واحدة إلا وقدموا لهم فيها خدمة معينة، أطال الله في عمرك يا أبي لكي نقوم بخدمتك على الوجه الذي يرضيك عنا.

* * *

لم يكد المجلس يتكامل بعد ظهر ذلك اليوم حتى أناخ إثنان من الضيوف ركابهما، فنهض النوري من مكانه ورحب بهما وهش في وجوههما وبش وسبقهما إلى مجلس الرجال الذين نهضوا من أماكنهم حيث حل الضيفان في صدر المجلس، وأسرع النوري بإدارة القهوة عليهما ودار الحديث في المجلس فقال أحدهما.

ــ : لقد رأينا بطريقنا يوم أمس مأساة وأي مأساة كفانا الله وإياكم شرها.

: مأساة!؟ هكذا رد النوري باستفهام.

ــ : نعم لقد أقبلنا يوم أمس قبيل الظهر على المورد الفلاني لسقي ركابنا وأخذ حاجتنا من الماء، وياهول ما رأينا.

: عسى ألا يكون سقط أحد في البئر؟

ــ : سقوط الإنسان بالبئر رغماً عنه قد يحدث ولا يلحق نفسه ملامة إلا إذا كان قد أهمل، ولكن ماشاهدناه هو عمل الإنسان نفسه.

: هل حاول إنسان أذية نفسه؟

ــ : ليته كان كذلك، وإنما أذية أقرب الناس إليه.

: بربك ماذا حدث؟ يقول ذلك النوري باندفاع.

ــ : حينما أقبلنا على البئر كما سبقت الإشارة، وإذا برجلين يتعافران حول البئر قد سيطر أحدهما على الآخر وطرحه أرضاً وبرك على صدره، وبدأ يأخذ من التراب المخلوط بدمن الغنم وعطن الإبل ويحشي به فم الرجل الذي سيطر عليه بيده اليمنى بعد أن وضع ركبتيه على صدره وأمسك يديه الإثنتين بيده اليسرى.

: ياالله!! هذا يعنى أنه سيطر عليه وأرغمه وأهانه.

ــ : وعندما لمحنا من بعيد أن الرجل المغلوب رجل مسن ولحيته بيضاء، وأن الذي غلبه رجل شاب أصغر منه سنًّا أخذتنا النخوة والحمية وتواثبنا عن ركابنا لنصرته، فنزعنا الرجل عن صدر الشيخ ورمينا به بعيداً وأمسكه أحدنا، وتوليت مساعدة الشيخ الطريح على الأرض فأسندته ونفضت ما على لحيته من التراب، فنظر إليَّ وأجهش باكياً.

: ياالله قد تكون هذه دموع الفرح، حيث جاءته فزعة من الله أنقذته من هذا الموقف الحرج.

ــ : ليته كان كذلك.

: أجل ما باله يبكي؟ قد يكون الرجل الذي جاثماً على صدره آلمه وانهكه!؟

ــ : ولا هذا.

: أجل ما يبكيه؟.

ــ : لقد بدأ يلفظ ما في فمه من التراب ويتمضمض بالماء ثم أجهش بالبكاء قائلاً: ليتكم تركتموه على صدري.

: هاه!! يقول ذلك وقد جحضت عيناه.

ــ : نعم إنه يردد هذه الجملة، ليتكم تركتموه ولو ساعة من الزمن ليبرد لهيباً في صدري.

: يبرد لهيباً في صدره!!؟ يقول ذلك النوري باستغراب.

ــ : نعم، ثم يردف قائلاً: ويشفي ما أشعر به من ألم نحو ذنب إقترفته يديَّ هذه.

: ما هو ذنبه؟

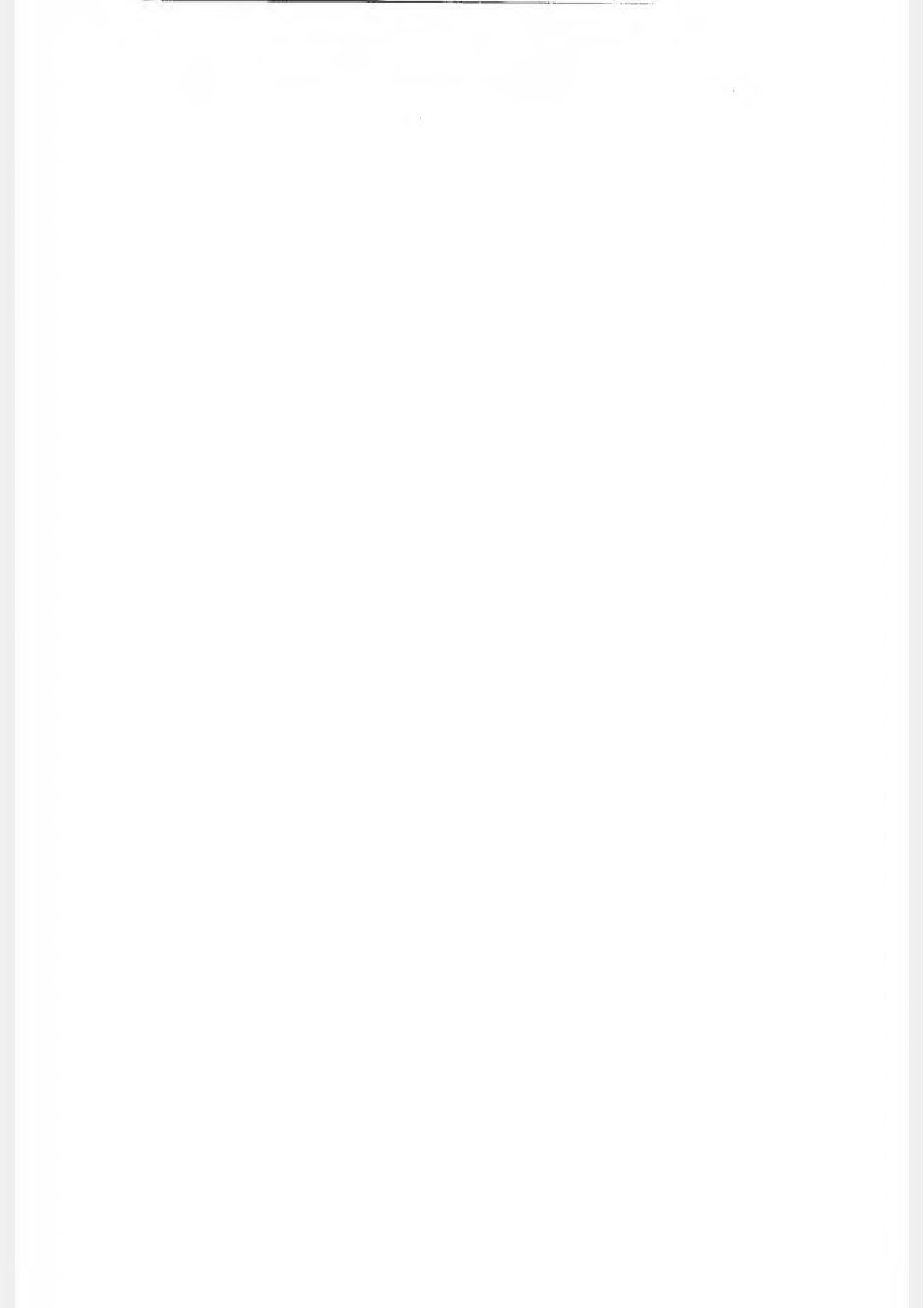
ــ: لقد وجهت إليه نفس السؤال فقال قولاً ليتني لم أسمعه.
: هاه!! ماذا قال؟
ــ: قال أتدري من هذا الذي كان جاثماً على صدري ويملأ فمى بالتراب؟
: قلت له لا.
ــ: قال: هذا إبني الأكبر والوحيد الباقي. وعندها دامت بي الأرض واحمرت الدنيا ثم اصفرت واسودت في عيني ولم أنطق ببنت شفة ثم استجمعت قواي مرة أخرى وسألته: إبنك!؟؟
: إبنه؟؟!
ــ: لقد استأنف إنه ابني الوحيد.
: أبداً، لا تصدق، لم يكن إبنه.
ــ: إنه ابنه بالفعل، يشبهه تماماً، وقد قلنا له لو كان هذا إبنك لما فعل بك ما فعل، أتدري بماذا رد علينا؟
: لا. يقول ذلك باندهاش.
ــ: لقد قال لنا كلمات متقطعة بين نشيجه وبكائه ليتنا لم نسمعها: إن ما فعله إبني لا يساوي شيئاً مما فعلته بوالدي.
: قبّحه الله!! من أب ضال قاطع، وقطعه الله من ابن عاق مجاهر.
ــ: وعندها مادت بنا الأرض مرة أخرى وكدنا أن نقضي عليهما معاً.
: إنهما نبتة فاسدة. يقول ذلك وهو لا يكاد أن يصدق ما يسمع.
ــ: ثم انخرقت عيناه وأجهش بالبكاء مرة أخرى وقال في صوته الأجش: يابني إنني أشعر بأسى وحسرة يكاد يتقطع منها قلبي كلما ذكرت ما فعلته بوالدي، وإنني أعاند إبني في بعض الأحيان حتى يهيج غضباً ويبدأ بتعذيبي، وإنني أجد بقسوته علي ما يريح نفسي مما فيها من لواعج الألم على ما فعلته بوالدي.
: قطعه الله وقطع ولده من بعده.
ــ: فقلت له لا تفعل، فربما جاء لولدك ابن يفعل به كما يفعل بك، فقال: لا شك، لا شك يابني فكما تدين تدان.
وتركناه مع ابنه وروينا ركابنا ثم غادرنا المكان، ومن لم يصدقنا فاليذهب إلى

هناك وربما وجدهما يتعافران مرة ثانية.

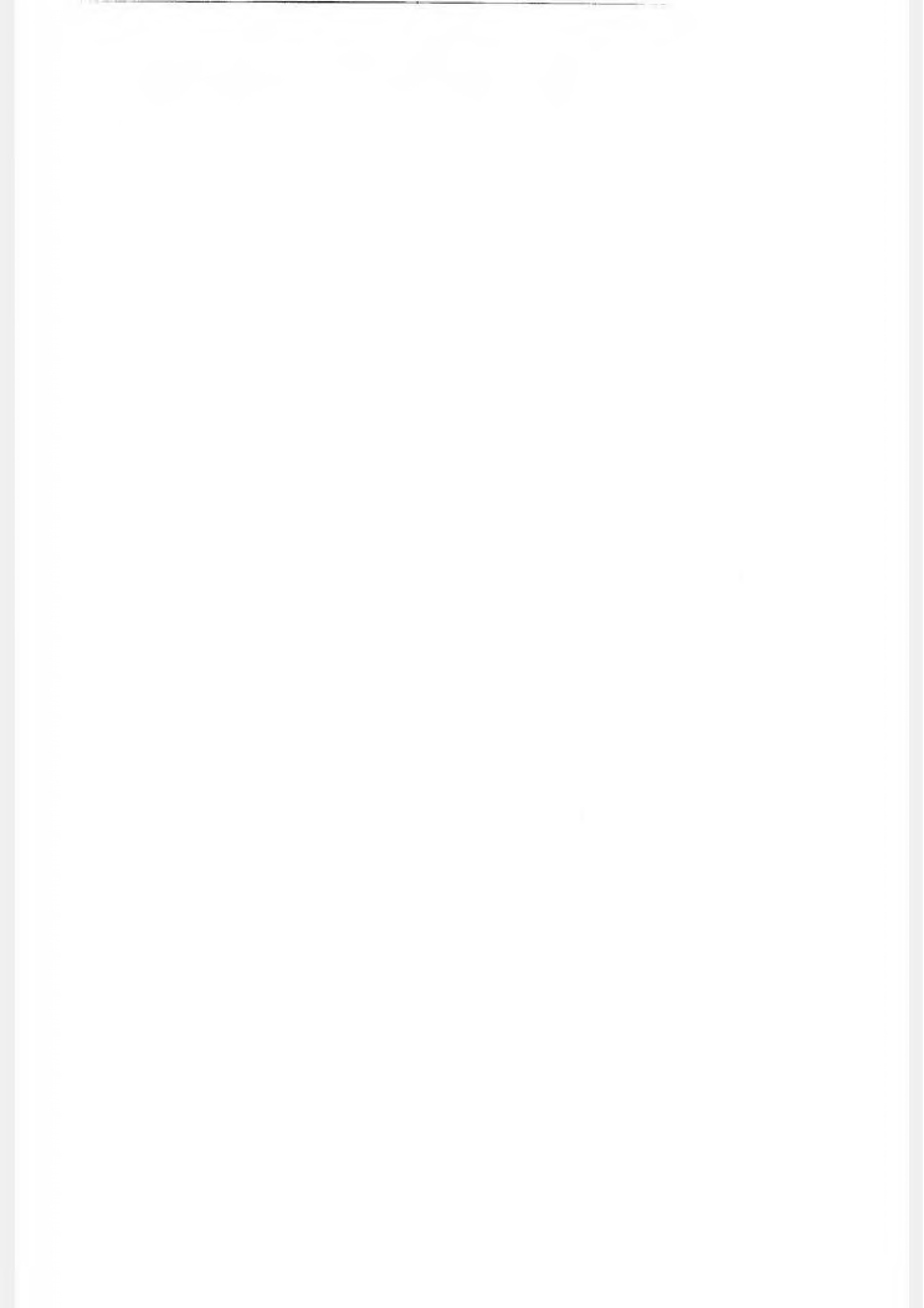
: قطع الله بذرة هذه ثمرتها.

كان هذان الضيفان يحدثان القوم بما جرى أمام أعينهما وقد فكا النزاع بأيديهما، والنوري لا يكاد يصدق ما تسمع أذناه لا يصدق أن إبناً يتجرأ أن ينظر لوالده مجرد نظرة شزر فضلاً عن أن يسمعه كلمة نابية، وأبعد ما يكون في ذهنه أن يناله بأذى جسده، ويقشعر بدنه كلما استعاد في مخيلته ذلك المقطع من حديث الضيف، أيعقل أن يثب ابن على صدر والده، ويضع ركبتيه في بطنه ويملأ فمه بالتراب؟ والله لولا أن هذين الرجلين أحدهما شيخ والآخر كهل ما صدقتهما، والله لو لم يظهر عليهما التأثر مما جرى، حيث تكاد تتساقط دموع الشيخ من شدة التأثر أثناء حديثه لما صدقت حديثهما البتَّة، وتلك الجملة التي أنهى بها الشيخ حديثه، من أن من لم يصدق ما قلناه فاليذهب إلى نفس المكان وربما وجدهما في حالة مماثلة، ياللهول!! إبن يتجرأ ويؤذي أباه جسدياً بهذه الصورة!؟ يالله!! ويجد الأب في ذلك لذة في مثل هذا العمل السادي!؟ ياللخزي والعار، حين يحاول هذا الأب أن يكفر عما اقترفت يداه في حق والده بهذه الطريقة البشعة، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وتتساقط الدموع لتبلل لحيته وخداه، ثم يطلب ممن أفلته من هذا الوحش المفترس أن يتركه ولو فترة إضافية حيث استمرأ هذا التعذيب الجسدي لعله أن يكفر عنه ما اقترفه من ذنب، ويتهدج صوته بين آلام التعذيب الجسدي ولذة السادية التكفيرية التي يشعر معها أنه بإلهابها لجسده تبرد لديه كوامن نفسية عميقة وتتناقز الدموع من عينيه معبرة عن امتزاج الحالتين معاً، حالة الألم وحالة الفرح والتشفي!!؟ سبحان الله!! هذا الإنسان يمر بأطوار تتفاوت بين القوة والضعف حتى يأتي عليه اليوم الذي يصبح فيه وكأنه الطفل الصغير يتأثر من أي شيء حوله، يملك من الحساسية ما يجعله تتناثر دموعه على وجنتيه وكأنه الطفل الرضيع حين تكف أمه عنه ثديه، سبحان الله!! هذه الدموع التي تمثل آخر مخزونه المعنوي، لا يخرجها إلا في حالات نادرة، كفقد حبيب لديه، أو ساعة فرح مفاجىء أو لحظة

إقدام حرجة، فهي آخر ما ينثر من كنانته، أصبح في هذه السن يبذلها في كثير من الأوقات كبعض النساء، وقد يعتبرها وسيلة تعبيرية عن رغبة في نفسه أو رهبة في فؤاده، وربما كانت تعبيراً عن أسى على شيء فاته، أو يحاول بها غسل درن متراكم وعالق في نفسه، ياالله!! انظر تزامن هذا الحدث، شيخ يبكي وتنهمر دموعه على لحيته التي يغطيها التراب والرغام وفتاة الرمن من أجل التكفير عما في نفسه نحو والده، ويبكي شيخ اليوم وتتبلل لحيته ويجهش ويطيل البكاء من أجل أنه فاتته حركة معينة يعتبرها مبرة ولم يفعلها بوالده، يا الله!! شيخ يدفن ابنه في خديه وغلاصمه ووجنتيه صفعاً ولكما، وآخر يمسح إبنه دموعه ويتابع على خديه ووجنتيه وعينيه وجبينه تقبيلاً ولثماً، أحدهما يتلمس بيده بشرته ويعدد الأورام والكدمات في وجهه، والآخر يشعر بحرارة مواقع القبلات على صحيفة وجهه، هذا قد أحسن إلى والده كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿**ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**﴾ وذاك خالف منطوق هذا الأمر الإلهي الصريح،أحدهما يتألم لأنه فاتته خدمة معينة أن يؤديها، والآخر يتألم لعدم إدراكه أقل القليل من خدمة والده، بل إنه أساء إليه وآذاه، يد قدم صاحبها لوالده ما استطاع وبوده لو أتيحت له فرصة في كل حركة ليخدم بها والده، وأخرى قدم صاحبها لوالده الأعمال السيئة السوداء، هاتان اليدان تختلفان كل الاختلاف، يد تجني الثمار الطيبة والورود الغضة كما غرست ويد تدميها الأشواك، وتتعمق فيها الجراح كما بذرت وكل يد وما قدمت.



قصــة رقــم (٢٢)



جحر يسعك لن يضيق بي

سحبت ساعات الإنتظار الثقيلة جسمها الطويل على رأس «منيرة» وهي تعوم في تلك الليلة الخرمس في أحد شرفات القصر الشامخ، لا يؤانسها سوى تلك الدراري المنتثرة على أديم السماء الزرقاء الصافية، وكأن هذه النجوم تسامرها وتداعبها بزوغانها ولمعانها منذ احتلت مكانها بتلك الشرفة في الثلث الأول من الليل، ودارت عجلة الزمن بدقائقه وساعاته ومرت تلك الدرارى من فوق رأسها تكاد أن تلامسه، ثم مالت إلى المغيب وهي تغمز بلمعانها وكأنها تلوِّح بيدها مودعة تلك الشابة التي لا تزال تنتظر من سيعود إليها في الساعات المتأخرة من الليل وربما قبيل السحر غير عابئة بحركات صويحباتها من النجوم المتدلية إليها من عنان السماء، ذلك أن ما تنتظره أهم بكثير عندها ممن حولها، ولهذا فقد جلست تنتظره على أحر من الجمر، لتسمع منه خبراً يفيد عن زوجها الذي حكمت عليه الظروف أن يغادر البلد ويلجأ في أحد كهوف الجبل الغير بعيد عن البلد ويختفي هناك لإرضاء طموحاته تاركاً زوجته عند أهلها الذين هم طرف النزاع معه، واكتفى بإرسال أصدق أصدقائه إلى البلد ليستطلع له الأخبار، ويزوده بما يحتاج إليه من الماء والغذاء ويمر على زوجته في لحظات عابرة ليطمئنها عن زوجها، هذا القادم الذي ترهف سمعها لوقع خطواته وتبحلق بعينيها لترى خياله، لتسرع إليه وتسمع منه من الأخبار ما يسرها عن وضع زوجها، وقبيل أذان الفجر الأول بساعة سمعت وقع خطى وئيدة، يمشي صاحبها حيناً وربما على أمشاط أقدامه ثم يتوقف قليلاً يلتصق بالجدار برهة، ويستمر في السير أخرى وكأنه يخاتل صيدة ليصطادها، عند ذلك نزلت من الشرفة وانسابت نحو الشبح القادم لا تكاد تلامس الأرض رغم كونها في الأشهر الأخيرة من

الحمل، وعندما وصلت الباب وقفت خلفه برهة ثم نبرت بصوت خافت:

ــ: حسين.

: نعــم.

ــ: مالك تأخرت هذه الليلة على غير عادتك؟

: فضلت البقاء خارج البلد حتى يهجع الناس.

ــ: لمــاذا؟

: لقد سمعت من الأخبار ماجعلني أحترز وأتأخر إلى هذا الوقت.

ــ: أخبــار !!

: نعم، لقد سمعت أنهم علموا بمجيئي إلى هنا وبثُّوا الأعين ونثروا الرُّصُدُ لمحاولة الإمساك بي.

ــ: وماذا يريدون بك؟ ليس لك شأن بالأمر ولست خصما لهم حتى يترصدون لك.

: ولكني صديق لصاحب الشأن.

ــ: المهم، كيف حال عبدالله؟

: بخير ولله الحمد.

ــ: لست مقتنعة بذلك.

: ألم تصدقيني؟

ــ: بلى، ولكن الهواجس لا تترك أحداً إلا وتدب إلى نفسه وتقلقه.

: هواجس !!؟

ــ: يخيَّلُ إليَّ أنه يمر في وقت حرج وصعب يجب أن أشاطره فيه أعباءه.

: تشاطرينه!! وأهلك!؟

ــ: أهلي على اعتبارهم، وقدرهم فوق رأسي وجوف عيني ولكني سأقف مع زوجي.

: هل ضايقك أحد؟

ــ: لا يخلو العود من الدخان إذا اشتعلت في طرفه النار، فيؤذى العينين ويزكم الأنف.

: أخبريني من ضايقك، لأنقل ذلك إلى زوجك فينتقم منه.

ــ: ليس هذا المهم ياحسين.

: ما هو المهم إذاً؟

ــ: المهم أنني زوجة، والزوجة يتوجب عليها أن تقف بجانب زوجها في محنته جنباً إلى جنب، تحمل عنه جزءاً من مسئوليته تهون عليه مصائبه، تخفف عنه آلامه.

: ولكن في وضعه الحالي، ووضعك الحاضر قد ينعكس المفهوم.

ــ: ماذا تعني؟

: أقصد أنه كما تعلمين يعيش متنقلاً من كهف إلى كهف في الجبل متخفياً عن رصد خصومه، وأنت في هذا الوضع من الحمل قد لا تستطيعين مجاراته، وفوق ذلك قد تكونين عبئاً عليه.

ــ: دعك من هذا، وأخبره أنني سأحضر إليه معك في المرة القادمة.

: تذهبين إليه!؟

ــ: نعم، سأصحبه في رحلته على خيرها وشرها.

: ولكنه كما قلت لك يمر بظرف عصيب يتخفى في كهوف الجبال.

ــ: لهذا أردت مشاطرته مصاعبه، و«جحر يسعه لن يضيق بي».

: هاه!! هل أنت مصممة؟

ــ: كل التصميم، ولولا مخافة من غضبه عليَّ لصاحبتك الآن قبل الاستئذان منه، ولكنني أفضل أن أستأذنه في هذا الأمر.

: سأنقل له ماطلبته مني.

ــ: بل أخبره أنني قادمة معك في المرة الثانية إذا أذن لي.

: أبشري، أبشري.

ــ: ستجد قربة الماء وجراب التمر في المكان المعهود.

: أستودعك الله.

ــ: انتظر قليلاً هذه وقع خطوات المؤذن ليؤذن أذان «النَّباه» الفجر الأول.

: ها هو قد تعدى من الشارع ودخل المسجد.

ـــ: صاحبتك السلامة.

في الليلة المحددة، كانت تنتظر في شرفة القصر على أحر من جمر الغضا مجيء حسين يحمل معه الإذن لها بأن تصاحبه لرؤية زوجها، وما إن سمعت وقع خطاه حتى نزلت إلى الباب تستطلع الخبر حيث علمت منه بموافقة زوجها على زيارتها له لمدة قصيرة لتطمئن نفسها عليه فكادت أن تطير من شدة الفرح، فأشارت إليه لأخذ الطعام والماء، وأن يسير أمامها على مسافة معقولة أثناء اجتيازهم الشوارع والطرقات، حتى لا يفطن أحد من حراس القصر أو العيون المبثوثة على مداخل البلد ومخارجها بعد أن خرجت إليه من باب خلفي، وهكذا سار حسين كعادته مع طرق خلفية تتبعه في ظلمة الليل الحالكة، يسمع وقع خطواتها الوئيدة، وهي تسمع وقع خطواته وترى شبحه من بعيد، في تلك الليلة الخرمس، يمشي في الطريق الذي لا يخلوا من التعاريج والمنحنيات فإذا غاب شبحه عنها توقف قليلاً حتى تجتاز ذلك المنعطف وتراه، ثم يستأنف المسير، وهكذا دواليك حتى خرجا من البلد، ثم استمر أمامها بمسافة معقولة، وكان مسيرهما مشياً شدًّا لايرقى إلى درجة الهرولة أو الركض، ولكنه يقارب الهرولة، حتى اجتازا مرحلة الخطر، وقد انصرم من الليل ثلثيه، فشعرا بالأمان نوعاً ما، وإن كانت تساورهما أحياناً نوازع الخوف من أن يتنبه أحد الحراس، ويوعز لمن يرسل بطلبهما، فلذلك تجدها أحياناً تقارب المسافة بينهـا وبين رفيق زوجها، حتى إذا انبلجت تباشير الصباح كانا قد اقتربا من المكان الذي يأوى إليه زوجها من الجبل، عند ذلك لاحظ حسين تباطؤها بالسير فظن أن التعب قد أخذ منها مأخذه، بعد مسيرة مايزيد على ثلاث ساعات على الأقدام بمشوار واحد سيما وهي امرأة حامل في أشهرها الأخيرة عند ذلك قصر الخطو لها فرآها تضلع في مشيتها فظنها من تأثير الثقل، عندما وصلا إلى الجبل وأرادا الصعود إلى الكهف لم تستطع الصعود إلا بالزحف تارة، والتأرجح على الصخور تارة أخرى، تحتاج في بعض الأحيان إلى مساعدة رفيق زوجها بالإمساك بطرف يدها حتى تجتاز تلك الصخرة، وعندما أسفر النور اتضح لحسين أنها تسير حافية القدمين لا نعال عليها،

فسألها: أين نعليك؟ أجابته لقد عثرت بإحداهما ونحن بحواف البلد فانقطع سيرها ورميت بها، ولم أستطع المسير بنعل واحدة فرميت بالأخرى بعد مسافة من الأولى، فسألها: وتمشين كل هذه المسافة وأنت حافية!! لماذا لم تخبريني؟ فأجابت: لقد مشيت، فقال لها: ولكن الأرض حثة تأكل النعال، فما بالك بالأقدام!؟ فردت عليه: لا تأبه بهذا الأمر، كل شيء يهون مهما كان صعباً في سبيل رؤيتي لزوجي والاطمئنان عليه، لكن حسينا ذهل عندما رأى الدم يبقى على الصخور التي تمشي عليها من قدميها فأسرع على الفور ورمى لها بنعليه، لكنها رفضت لبسها، غير أنه ألزمها بلبسها ولسوء الحظ فقد وجدتهما كبيرتين جداً على قدميها مما قد يعوقها عن المشي، وقد تنزلق بهما مع تلك الصخور الملساء ففضلت عدم لبسهما، واستمرت تقطع بقية المسافة سيراً على قدميها الحافيتين من صخرة إلى صخرة، وهو يمشي أمامها يساعدها أحياناً بالإمساك بطرف يدها إذا وصلت مرقى صعباً في الصخور الجرانيتية الوردية الملساء، ومع بزوغ شمس ذلك الصباح، أطلت بوجهها الصبوح على الكهف الذي يختفى فيه زوجها في الصفحة الثانية من الجبل، وكان يترقب مجيئها، يشرف تارة ويختبىء أخرى، وعندما رأى الزولين أسرع إليهما يسابق خفّاق الجناحين فوجدهما على تلك الحال، وكاد أن يصعق عندما رأى زوجته تزحف على تلك الصخور تارة وتمشي متأرجحة تارة أخرى تضلع مما أصاب قدميها أثناء سيرها حافية، ورأى رفيقه منتعلاً، فاندفع بغضب يقول: أتمشي بنعلين ورفيقة سفرك حافية؟ فبادرت زوجها قائلة: لم يقصر والله ابن ملاقي بمجرد معرفته أنني أسير حافية، علماً بأنه لم يدر بذلك إلا بعد أن أسفر النور، فقدم لي نعليه لكنهما لا تناسبني لأن قدميه أكبر من قدميَّ، وخشيت إن لبستهما أن أنزلق على هذه الصخور فيؤثر ذلك على حملي، ولذا رددتها إليه وفضلت المشي على قدَمَيَّ، عند ذلك تقدم حسين إلى الكهف بما معه من ماء وطعام، وبقى عبدالله يدرج زوجته ممسكاً بعضديها من صخرة إلى صخرة حتى وصلا إلى الكهف في عرض الجبل حيث حلّت هناك، وبعد كلمات الترحيب أفضت إليه بالأسباب التي جعلتها

تتشوق إلى رؤيته لأنه قد نمى إلى سمعها أن زوجها قد قتل وأخفى خبره عنها، وما عملية تردد حسين عليها ونقله للأخبار المطمئنة إلا من باب تهدئتها حتى تضع حملها، وقد فعل ذلك والدها، وبعد سماعها لهذا الخبر سرت فيها الهواجس وأصبحت تشك في كل شيء حولها، ولا تصدق أي خبر حتى ترى زوجها بعينيها، فهذه أولى الأسباب التي حملتها على المجيء، ثم أبدت لزوجها السبب الثاني الذي جعلها تأتي إلى هنا قائلة له:

ــ : لقد أتيت إليك لأساعدك.

 : تساعديني!!؟ يقول ذلك بدهشة.

ــ : نعم، لأقف إلى جانبك وأحمل عنك جزءً مما تحمل.

 : كانت لهذه الكلمات وقعاً مؤثراً في قلب زوجها الذي انطلق لسانه قائلاً: وَنِعْمُ وألف نعم ياابنة الأجواد مثلك من يقف مثل هذا الموقف ولكن..

ــ : ولكن ماذا!؟

 : الوضع غير مناسب لوقوفك معي الآن.

ــ : هذا وقت الحاجة وهذا ما يستدعي الوقوف.

 : صحيح، لكن كما ترين، مطارد الآن من قبل خصومي، ويجب أن أكون خفيفاً أتنقل من مكان إلى مكان دون أن يكون هناك ما يعوقني.

ــ : وإذا أردت التنقل فلن أعوقك.

 : هاه!! ليس في ذلك شك، لكنك بوضعك الحالي تحتاجين إلى الراحة.

ــ : راحتي بقربك، في أي مكان تعيش فيه، والمكان الذي يسعك لن يضيق بي، حتى لو كان جحر عقرب.

 : حياك الله!! يقول ذلك وهو كالمبهوت.

ــ : من هذا المكان اعتبرني جزء لا يتجزأ منك، ولن ينفصل عنك.

 : لا بأس، لكني الآن في وضع حرج كما تريني في هذا الكهف بنصف الجبل، حتى ليصعب وصولك إليه أو خروجك منه والانتقال إلى مكان آخر.

ــ : أين تريدني أن أذهب؟

: تعودين إلى أهلك حتى يتضح الأمر وينجلي الموقف.
ــ: بيت خرجت منه، لن أعود إليه إلا وأنت إلى جانبي.
: هاه!! هل آذاك أحد؟
ــ: كل أذية بسببك تهون عليَّ حتى ولو كانت من أقرب الأقربين.
: يدٌ آذتك أو ستؤذيك والله لأقطعها من أصلها.
ــ: لست حريصة على القطيعة، لأن اليدين مثبتتان في جسد واحد، فأى منهما جذمت كف الأخرى أعتبر نفسي خاسرة.
: رأى سديد، لو نظر الجانب الآخر للأمر بهذا المنظار.
ــ: المهم أنني سأكون بجانبك، أؤنس وحدتك، وأخفف عنك بعض همومك.
: هاه!! حياك الله. يقول ذلك وفي ذهنه أشياء وأشياء.
ــ: إن لم أقف معك في هذا الظرف الحرج، فمتى تراني أقف معك؟
: هذه من علامات النبل في المحتد الأصيل!! خذي راحتك.
يقول ذلك وهو يغادر المكان.

ولم تصدق منيرة أنها وصلت إلى الأرض فاستلقت على جال الكهف تحتها فراش بسيط من نسيج الوبر «ساحة» وبدت متعبة إثر هذا المشوار الحاد الذي قطعته مرة واحدة على غير عادتها بحملها الثقيل، فرنقت عيناها من الإعياء والنوم، ولما رآها زوجها على هذه الحال طلب منها أن تضطجع لتنام وتأخذ قسطاً من الراحة، وهكذا غطت في نوم عميق، بينما جلس مستنداً على تلك الصخرة التي تسد جانباً من فم الغار، وهو يتخيل حالة هذه الزوجة الوفية التي لم يطبق لها جفن إلا لماماً منذ أن حصل النزاع بينه وبين بني عمه وخصومه في نفس الوقت، هذه الزوجة التي دبت في نفسها الهواجس خوفاً على زوجها، وصارت تتخيل مالا يكون من الأشياء، إيه!! هكذا المتخوف تجتمع عليه أشياء كثيرة، وتتحوش عليه الهموم وتتجاذبه النوازع طالما بقى يفكر في أمر من الأمور، سيما إذا كان شديد الحرص عليه، يخيل إليه أن كل حركة موجهة إليه، حتى أنه ليظن في بعض الأحيان أن هَبَّة الريح هي من

أجله، إن كانت باردة حسبها جاءت هكذا لكي تلسعه بلفحها البارد، وإذا كانت حارة ظنها قصدت إيذاءه بسمومها، سيما قلب المرأة الرقيق، وعاطفتها المتأججة بالحنان، ولولا أنها على هذه الدرجة من اللطف لما جاءت تسحب نفسها في هذا المشوار المضني على قدميها، هكذا بنات الرجال، وإلا فإنها تعرف من تخاف عليه كل هذا الخوف، تعرف أنه الذي عصرته الأيام وعركته الظروف فاخرجت منه إنساناً يعرف بالجرأة والتصميم، وعقلاً يتصف بالرزانة والتدبير، رجلاً لو أراد القطيعة مع خصومه لطالتهم يده، فهم غير بعيدين عنه إلا بمقدار ما ينالهم كفه، ولو أراد ذلك لفعل عندما كان خصمه يتوضأ على طرف جابية الماء لا يفصل بينهما سوى مسافة قصيرة جداً لدرجة أنه يناله بسيفه وهو جالس في مكانه، ولكنه لم يرد القطيعة، فلعل الأمور أن تتحسن ويسود التفاهم والوئام وينال كل ذي حق حقه حسب طموحاته، يعلم الله أن من تخافين عليه لم يدخل قلبه الخوف قط، ولكنه يداري الأمور فلعل وعسى، رغم أن الجانب الآخر قد بدأت منه بعض المضار بإساءتهم إلى أناس هم أقرب الناس إليَّ كوالديَّ. ثم هذه الزوجة التي ربما نالتها المضايقة، فجاءت إليَّ ولكنها لم تحاول الإفصاح لي عما نالها، إيه !! سامحهم الله. أتخافين عليَّ يامنيرة!! يالك من طيبة القلب، لو استطاعوا الامساك بي لفعلوا حيث لم يدخروا وسعاً في ذلك عندما اقتطعت أذواداً من إبلهم وتصرفت بها رغم العيون التي يبثونها، والرصد الذين ينثرونهم في كل مكان لم يسعفهم الحظ للظفر بي، فقد نجاني الله منهم، واستمر تزويدي بالأخبار أولاً بأول، كل يوم بيومه تأتيني الأخبار التي تجمع لي ويأتيني بها رفيقي كل ليلة، مع التموين بالماء والغذاء، ثم أراك يابنة العم تتخوفين عليَّ بهذه الدرجة، وتكلفين نفسك مشقة المسافة وعناء الطريق وتأتين إليَّ، تريدين حمل جزء من مسئوليتي، هذا شعور طيب أتقبله منك، ولكني لا أريد أحداً أن يحمل عني جزء من مسئوليتي التي ترضي تطلعاتي وطموحاتي، سأتحملها بنفسي خيرها وشرها، إنما وجودك عندي قد بيعث في نفسك الطمأنينة لأنك أصبحت تحت مظلة من يحمي المنضوي تحت كنفه، وهذا مالا نلومك عليه، ولو أنني في الوقت الحاضر في وضع

غير مناسب ولكن مادمت قد لجأت إليَّ فسأحملك واعتبرك من ضمن المهام المنوطة بعاتقي فلا تخافي، وكوني مطمئنة، وكما قلت بنفسك إن مكاناً يسعك فلن يضيق بي، قد يكون لوجودك إلى جانبي مايؤنس وحشتي في وحدتي، وهذا الوضع له ثمنه في وضعي الحالي، ولكن على كل حال مادمت قدمت إليَّ فأهلاً وسهلاً وعلى الرحب والسعة، قدم خطت إليَّ خطوة فلن أردها، وبالذات خطوة من إنسانة عزيزة على نفسي، ستكونين أمانة في عنقي، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

كانت هذه الجملة تدور في ذهنه قبل أن يتنحنح رفيقه حسين قادماً إليه من الكهف المجاور ومعه دلة القهوة وشيئاً من التمر ليتناولا طعام الإفطار من التمر والقهوة، ومع تناول القهوة أفضى إليه رفيقه بالاخبار التي جمعها بجعبته.

أفاقت منيرة من النوم بعد أن أخذت رغبتها منه فوجدت زوجها لوحده فبادرته قائلة:

ـــ: أين رفيقك؟

: لقد كلفته بمهمة يعود منها هذه الليلة.

ـــ: من متى وأنت في هذا الكهف؟

: آه، منذ يومين، ويمكن أن ننتقل عنه هذه الليلة أو غداً.

ـــ: تنتقل عنه!!؟

: نعم، فقد تكون رصد خصومنا قد اهتدت إليه.

ـــ: ولماذ لا تنتقل بعيداً عن أعينهم؟

: إن لي هدفاً من البقاء قرب البلد لاستطلاع ما يستجد من أخبار لأكون على بينة من أمرى.

ـــ: ما يستجد من أخبار!! ولكن ذلك قد يضرك، فربما نالتك طائلتهم.

: عسى الله أن يذرى ويستر علينا، ولي نية للانتقال من هذا المكان.

ـــ: حسب ما سمعت وما عرفت فإن ما ترومه الآن غير قريب منك مادمت في وضعك الحالي.

: ماذا تقولين؟
ــ: أقول إن كانت لك النية إلى النزوح عن هذا المكان فلا تتأخر يوماً واحداً.
: هل في الأمر مايدعو للاستعجال؟
ــ: مكوثك هنا غير بعيد عنهم ليس في صالحك، ولن تزيدك الأخبار التي تحصل عليها إلا مضرة.
: صحيح، أما هذه فأنت على حق، لقد انحاز الناس ضدنا ولم يبق معنا غير العدد القليل تحت ستار الصمت، وربما نالتهم طائلة العقاب.
ــ: لقد تنكر لكم الكثير ممن تعدونهم من أقرب أقاربكم أو أصدقائكم.
: بلا شك، ولكن نخشى أيضاً إن أبعدنا عنهم أن يقل عددهم يوماً بعد يوم.
ــ: وربما سلم البقية الباقية منهم من طائلة الأذى.
: أما هذا فعلى جانب من الصحة.. لكن..
ــ: لا تقل لكن، فابتعادك قليلاً لن يؤثر في عدد أصدقائك وربما انضم إليهم أعداد إضافيه ولو بعد حين.
: كيف!؟
ــ: بابتعادك قليلاً يخف الكابوس على من يبينون ولاءهم لكم الآن، ومتى خف الضغط عنهم أصبح بإمكانهم أن يطمئنوا على أنفسهم، وأن يعملوا على استمالة أعداد أخرى إليهم.
: هذه الفكرة قد غابت عن بالي فذكرتنيها.
ــ: أنت أدرى ببواطن الأمور مني، ولكن هذا مايترآى لي حسب الواقع الذي عشته.
: لا بأس!! وكما قلت لك إن بقائي هنا لفترة معينة ثم انتقل إلى مكان آخر.
ــ: إن كنت كما ذكرت فلا تتأخر، فالوقت ليس في صالحك مادمت هنا.
: صحيح، لن يستطيع أحد أن يأتى إليَّ هنا.
ــ: إذا انتقلت إلى مكان آمن فقد تجد من يساعدك في ذلك المكان أو تتيح الفرصة لمن يصلك في المكان الآمن.
: بلا شك، وسنتحرك من هذا المكان غداً. يقول ذلك وهو شارد التفكير.

ــ: مالي أراك سارحاً في تفكيرك؟

: لا شيء، لا شيء، ولكني أفكر في كيفية الانتقال من هنا.

ــ: ما الذي يعوقك؟

: لا شيء. يقول ذلك وهو يفكر بها، ولكنه لا يريد البوح لها بأنها هي من العقبات التي تعوق المسيرة.

ــ: وفهمت ما يدور بخلده من خلال نظرة رمقها بها أثناء الحديث فقالت: لا يهمك أمري سأسير أمامكم أينما سرتم.

: لم يكن هذا ما يخيفني. يقول هذه الجملة مراعاة لشعورها.

ــ: مجرد أن ننزل عن هذا الجبل سيصبح السير عندي سهلاً، لكني في هذا الجبل أجد صعوبة في السير عليه مخافة أن أنزلق ويتأثر حملي.

: أعانك الله يا ابنة العم على ماأنت فيه.

ــ: وسلم رأسك، فما دام رأسك سالماً فلن أشعر بأي تعب.

* * *

ومضت سحابة ذلك اليوم، وفي المساء أسلمت منيرة نفسها لنوم عميق بعد التعب والجهد الذي لاقته من عناء الطريق بينما بقى زوجها يترقب وصول رسوله الذي بعثه في الصباح وسرح في تفكير عميق في ضوء ما أخبرته زوجته من أن الكثير من رفاقه قد تحولوا عن تأييده ومناصرته إلى خصومه، أو إلى الالتزام بالصمت، وكان هذا التحول إما بسبب ضغوط خصومه عليهم أو اتقاء لشرهم، الله أكبر ما أعجب هؤلاء الناس!! بالأمس كنت أثق بهم تمام الثقة، وكانوا يعدونني بالوقوف إلى جانبي، بل أكثر من ذلك فقد إندفع بعضهم إلى المجاهرة علناً بمناصرتي في كل منتدى ومجلس يكتظ بالرجال، ثم لا يلبث اليوم إلا أن يسحب الفراش من تحت قدمي!! إيه، هؤلاء المتقلبون ممن لا يوثق بكلامهم مثل هؤلاء الناس يجب أن يكون المرء منهم على حذر، إيه، لقد صدق والله الشاعر حين قال:

جزى الله الحوادث كل خير أبانت لي عدوي من صديقي

هذه المصاعب والنوازل هي التي توضح للإنسان من يحبه ومن يكرهه، من يسانده ومن يخذله من الناس البعيدين عنه أو من أقرب أقاربه، في مثل هذه الظروف الصعبة يتضح الإنسان على حقيقته، حينما تصقله حرارة الضائقة يتبين للإنسان معدنه، إن كان ذهباً أو نحاساً، إن كان فضة أو نيكلاً، فالإنسان مثل المعدن الذي لا تلتئم أجزاؤه الدقيقة وتتماسك ولا يبرق لونه إلا إذا صهر تحت حرارة النار ولهبها، إنني لا ألوم الناس البعيدين عني في تصرفاتهم، ولكني ألوم بني عمي ولُحْمَتِيْ، ألوم بَدِيْدَتِيْ الذين جرفهم التيار معه، وأصبحوا يتنكرون لي الواحد بعد الآخر، وينضمون إلى خصومي. لا حول ولا قوة إلا بالله، قد يكون هذا الميل منهم بسبب ما يلاقونه من ضغط الخصوم، ويريدون اتقاء شرهم بهذا الإعلان الظاهري حتى يسلموا، وربما كان سبب ذلك عدم رؤيتهم أية بادرة تدل على تقدم في طريقي، أترى اليأس قد دب في نفوسهم؟ لا، لا يمكن أن أصدق أن اليأس سيدخل إلى نفوسهم بهذه السرعة، والدليل على ذلك أن البعض منهم قد لاذ بالصمت حتى يتبين الأمر. وقد يكون تنكرهم لي صحيحاً، لأنهم صاروا يذهبون إلى أعوان خصومي، يتناولون القهوة عندهم، يبادلونهم الأحاديث، يستمعون إلى وجهة نظرهم، يؤيدونهم إلى مايذهبون إليه، ولئن صدق حدسي إن ذهاب أنصاري إلى أنصار خصومي من باب المجاملة واتقاء تسلطهم، حيث أصبح بعض هؤلاء متطرفين في تصرفاتهم، فذاك فلان قد بدأ يتصرف وكأن الأمر له، هذا يقدمه وذاك يؤخره، هذا يزكيه وذاك يتهمه، ذاك يثبته في مكانه والآخر يجليه عن بلده، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل وصل الأمر بمثل هذا الرجل أن يتصرف في شئون أبناء عمي؟ ألهذه الدرجة وصل بك الأمر يا ابن الأجواد تتصرف بمصائر الناس؟ لقد تُرِكَ له الحبل على الغارب بحيث وصلت أذيته للآخرين، ولا غرو في ذلك، فحتى ابنة عمي وزوجتي قد تلقت من المضايقة ما حملها على المجيء إليَّ وهي في هذه الحالة، إيه!! سيفرجها الله القائل في كتابه العزيز: ﴿فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً﴾ صدق الله العظيم، ستسير الأمور من حسن إلى أحسن إن شاء الله، وستعودين يامنيرة إلى بيتك في بلد أهلك وأجدادك

معززة مكرمة، وسوف يتبين الخبيث من الطيب، وستختفي هذه الرؤوس المشمعلة، وتخفت هذه الأصوات العالية أمام صوت الحق، وستشمخ هذه الجباه المطأطئة وتنطق هذه الألسن الصامتة إن شاء الله، في وقت ليس ببعيد، هاه!! هذا صوت وقع خطوات؟؟ قد يكون رفيقي حسين، نعم إنه هو لننتقل إلى الكهف الثاني بعيداً عن المرأة.

وبوصول حسين وما معه من نتائج المهمة الموكلة إليه تعززت الفكرة عن الإنتقال من هذا المكان إلى مكان أكثر أمناً وأبعد عن عيون الخصوم.

وفي الليلة الثانية عندما أسدل الليل ستاره على الكون انسل ثلاثتهم من الكهف حاملين معهم ما خف من الطعام والماء وبدأ عبدالله يساعد زوجته للنزول من تلك الصخور حيث تمشي تارة وتزحف أخرى حتى نزلوا إلى الأرض فقال لرفيقه: أنا لا أستطيع أن أمشي ممشى زوجتي حيث أن مسيرها بطيء ولا أطيق ذلك، وسوف أسير أمامكما بحيث لا تختفيان عن نظري، وأكون على بعد عنكما لا نكوِّن ثلاثتنا صوتا أو زولاً يلفت النظر، وهكذا استمر سيرهم طيلة الليل حتى إذا انباج الصباح، وقد قطعوا مرحلة طيبة من المسافة، التفت عبدالله فوجد رفيقه وزوجته وهما على مسافة منه، فرآها تضلع في مشيتها فَرَبَعَ لهم في مسيره حتى لحقوا به، ورأى زوجته تمشي حافية القدمين فاندفع يقول:

١ ـ ذِبَّ النَّعُوْلْ لِمْغَيْزِلْ اَلْعَيْنِ يَا حْسَيْنْ	وِشْلِقْ لَهَا مِنْ رِدِنْ ثُوْبَكْ لْيَانَهْ
٢ ـ وِقْطَعْ لَهَا عِنْ سِبْتْ الأَقْدَامْ طِرْقَيْنْ	عَنْ النَّعِلْ لاَيَلْحَى أَرْيَشْ اَلْعَينْ إِذَانَهْ
٣ ـ يَاحْسَيْنْ وَالله مَالَهَا سِبِتْ رِجْلَيْنْ	يَاحْسَيْنَ شَيِّبْ بَالضِّمِيْرْ هْكَمَانَهْ
٤ ـ جَنِّبْ حَثَاثْ اَلْقَاعْ وِضْرِبْ لَهَا اللِّيْنْ	وِرَبِّعْ لها يَاحْسَينْ وِمْشْ مْشِيَانَهْ
٥ ـ لاَبِدْ مَا حِنَّا عَنَ الضَّلِعْ مِفْفِيْنْ	وْصَيُّوْزْ مَانَاطَى النَّفُوْدْ وْلِيَانَهْ
٦ ـ وِانْ شِلْتَها يَاحْسَيْنْ تِرْمَا بَهَا شَيْنْ	ثْرَى الخَوِيْ يَاحْسَيْنْ مِثْلَ الأَمَانَهْ
٧ ـ يَاحْسَيْنَ مَايِشْتَكْ كُوْدَ الرِّدِيْنْ	وِلاَ ثْرَى الطَّيِّبْ وِسِيْع بْطَانَهْ

فتضاحكت بصوت مرتفع وبادرته بقولها: هذه النعال قد أمسكتها بيدي حين

وجدتها تعوقني في المشي لأنها أكبر من قدمي ففسختها، ولا عتب على رفيقنا في هذا، فقال لرفيقه لقد سارت الرِّجْلُ الآن ومن الأفضل لنا أن نبقى في صخور هذا الجبل حتى يجيء الليل لنسرى ونواصل رحلتنا باتجاه الشمال حتى نتمكن في الليلة القادمة من اجتياز هذه المسافة بين الجبل والنفود.

ــ: ولكننا سنحتاج إلى بعير ليحمل لنا الماء إذا وصلنا إلى النفود، لأننا سنكون بحاجة إلى الماء الكافي لتلك المسافة. هكذا بدأ عبدالله هذا الحوار.

: صحيح، إنها مسافة طويلة خمسة أيام بدون ماء في ذلك النفود.

ــ: ماذا ترى ياحسين؟

: لدي جمل قد أودعته عند أحد رفاقي يمكن أن أمر عليه وآخذه ليكون زاملة لنا ننقل عليه ماءنا.

ــ: إن رفاقنا كثير، ولو عرجنا على أي واحد منهم فسوف يفرح بقضاء حاجتنا ولكنا لا نريد ذلك.

: إن مثل هذا الإجراء ربما أوقعنا تحت أعين الخصوم ليرصدوا مسيرنا، لكن جملي الوحيد لن يلفت النظر لا بزوله ولا بجرته.

ــ: لا تخف يا ابن مسطح لا تخف. يقول ذلك وهو يربت على كتفه.

: لكن الحيطة واجبة، أليس كذلك؟

ــ: بلى، بلى. قــل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

: إذاً سوف أسرى هذه الليلة ولا يصبح الصباح إلا وأنا عند رفيقي فأحضر جملي منه في الليلة الثانية.

ــ: يعنى موعدك الليلة القابلة؟

: إن شاء الله، موعدنا الليلة القادمة، فهل ستمكثان هنا أم ستواصلان السير.

ــ: ربما نمكث هنا يوم غد لكي تستريح هذه المسكينة المتعبة حتى تأتي إلينا القابلة.

: إذا على بركة الله، يمكنكما أن تستريحا في هذا المكان، وسأعود إليكما ومعي كل ما يلزم لهذه المسافة إن شاء الله.

ــ: هل ستعرف الطريق الذي سنضرب عليه؟

: تمام المعرفة.

ــ: أنا لا أعني الطريق العابر.

: وكذلك أنا لا أعنيه، فالطريق السالك قد يكون فيه من الرصد ما يحول بيننا وبين اجتيازه، لكن هناك طرق أخرى أعرفها تماماً، فأنا ابن النفود وأعرف مسالكه وطرقاته.

ــ: بارك الله فيك يا ابن ملافي.

: وأنجاك من كل سوء، إذاً أستودعك الله إلى لقاء في الليلة القادمة إن شاء الله.

وما إن غادر حسين المكان حتى عاد عبدالله إلى زوجته فبادرته قائلة:

ــ: أين ذهب رفيقك؟

: رفيقي ونعم الرفيق، وصدق والله المثل القائل: رب أخ لك لم تلده أمك.

ــ: أين ذهب؟

: لقد ذهب لإحضار زاملة لنا تنقل ماءنا وزادنا أثناء اجتيازنا للنفود.

ــ: زاملة!!

: نعم، سيحضر لنا بعيراً لنقل ماءنا وطعامنا، فالنفود صعب ومظمأة ليس فيها ماء لمسافة خمسة أيام بلياليها حتى نصل إلى جُبَّة.

ــ: خمسة أيام بدون ماء!؟ وهل جبة بهذا البعد؟

: نعم خمسة أيام لأننا لن نسلك الطريق السالك، وإلا فإن جُبَّةَ ليست بهذا البعد، وسنأخذ ما يكفينا من الماء على ظهر البعير.

ــ: والبعير ألا يحتاج إلى ماء؟

: بلى، ولكنه يصبر هذه المدة، فالإبل في مثل هذا الوقت من السنة في براد الجو ترد الخِمْس وربما السِّدِس.

ــ: ألا يوجد طول هذه المسافة ماء؟

: أبداً، كلها رمال ومهالك حتى نصل إلى جبة.

ــ: ليتني علمت بذلك، لأخذت معي عدد من القرب الكبيرة لملئها بالماء.

: سيتدبر الأمر رفيقنا من عند أصحابه، فهم قد أعدوا لمثل هذا الأمر عدته.

ــ: هل سبق أن قطعت النفود قبل هذه المرة؟

: نعم في سفرتي الأولى قبل سنوات ولكن من غير هذا الموضع، بل مع موضع تتوفر به موارد المياه في مسافات متقاربة نوعاً ما، على مسافة يومين أو ثلاثة على أبعد تقدير.

ـــ: إذاً، لماذا هذا الموضع بعيد عنه الماء؟

: هذا المكان يقع يساراً عن الموقع الذي سبق أن عبرته، حيث أن الطريق الأيمن أقل كثافة رمل، وأسهل وأكثر موارد للمياه.

ـــ: إيه، نرجو الله أن يسهل لنا كل أمر عسير.

: سأرقب رأس هذا الجبل، لأستمع ما إذا كان حولنا أحد قبل أن نهجع.

ـــ: أنت وشأنك.

وصعد عبدالله القمة يتنصَّت ويرهف السمع، إذ ربما سمع من حولهم صوت بشر، أو نباح كلاب قطين لعرب حولهم أو حنين إبل، أو ثغاء شاء، ولكنه لم يسمع أي رمس وسط هذا السكون المطبق على الكون في جوف تلك الليلة الخريفية المعتدلة الجو، وكل ما رآه في هذا المشوار هو تلك الأنجم المتلألئة على أديم السماء الصافية الزرقاء الداكنة التي تعطى التوهج لتلك الكواكب والنجوم بريقاً سحرياً رائعاً يخيل للرائي إليها أنه يكاد أن يلامسها بكفه، حيث أن لمعانها يجذب نظر الرائي إليها فيراها وكأنها قريبة منه مع واقع بعدها السحيق عنه، هذه النجوم طالما آنسته في وحدته، ودغدغت خياله، وأذكت في مشاعره توهج الحيوية ونبض الحياة في عروقه عند ذلك استند على رأس تلك الصخرة وطفح بصره وخياله في مدى سحيق، وهو يحدث نفسه، الله أكبر مدير هذا الكون ومدبر شئونه بدقة متناهية، وضبط محكم، لا تخفى عليه خافية بكل ما يجري فيه، يسير تدبيره وفق ميزان العدل والحكمة، ونحن البشر أحد مخلوقات الله، نعجز عن ضبط أنفسنا، فالواحد منا إذا أتيحت له فرصة أن يتولى شأناً من شئون قومه بدأ يضغط على هذا، ويظلم ذاك، يذل قوم ويرفع رؤوس آخرين، لا يأمنه أقرب الناس إليه، وربما وجد المرء في بعض الأحيان من الناس الأبعدين عنه نسبياً خير من الأقربين إليه، ويكاد أن ينطبق على هذا الصنف المثل القائل: رب أخ لك لم تلده أمك كما سبقت الإشارة

إليه ومثل هذا الأخ رفيقي حسين صحيح إنه أحد أفراد قبيلتي، ولكنه ليس بالقريب مني وهو يحاول فدائي بنفسه وبماله، بينما أقرب الناس إليَّ يحاول القضاء على حياتي، جزاك الله خيراً يا ابن ملاقي لقد كنت والله الصديق الصادق، تجهد نفسك وتعرضها للأخطار، وتتجشم الطرق الوعرة تحت جنح الظلام، تدوس المخاطر، تقتحم المغامرات من أجلي!! ترى ما الذي يعود عليك من النفع مني؟ حيث لا أزال خال الوفاض لا أستطيع مجازاتك على ما تقدمه لي من أعمال جليلة، ولكن إذا قدرني الله ونلت ما أصبوا إليه فسوف أجزيك بما تستحق، لقاء ما أسديته لي من معروف، لله درك ياحسين!! تذهب وتغدو على قدميك لأي مسافة أرسلك إليها، أو تذهب إليها طوعاً وأنت تتوقع أن ترى أو تسمع فيها مايفيدني من تصرفات أو أخبار، وها أنت الآن تذهب راجلاً إلى أحد رفاقك لتحضر منه جملك، وتتعهد بتجهيزه بكل ما يلزم الرحلة النفودية الشاقة من وسائل الحفاظ على الحياة من ماء وطعام، هكذا يكون الصديق وإلا فلا، فإما أن يكون الصديق مثل صاحبي أو فلتنقطع الصداقة، وأعني الصداقة الوقتية أو الصداقة المبنية على منفعة معينة التي إذا انقطعت انبتر حبل الصداقة على إثرها.

أترى رفيقي يحصل على بعيره؟ أتراه يحصل على تجهيزات السفر من قرب الماء الكبيرة وغيرها؟ إنني واثق من أن الرجل سيجدها أو يتدبرها، إنه رجل يسد الخَلَّة ولا خوف عليه، هاه!! لقد أبطأت على المرأة، فقد يخيل إليها أنني لم أتأخر إلا لأمر مهم، وقد ينفد صبرها وتصوت لي، لا، ليست خفيفه مثل بعض النساء، إن لديها من الرزانة ما يجعلها تنتظر عودتي دون أن تنبس بكلمة واحدة، ولكن على أي حال فقد مكثت ما فيه الكفاية وطمأننت بعدم وجود أي حس حولنا، وفي الصباح بإمكاني أن أصعد أعلى قمة في الجبل لأرقب ما حولنا وذلك للإطمئنان فقط وإلا فلن يصلنا من رصدهم أحد في مكاننا هذا مهما كانوا بسم الله وعليه توكلنا، آه، هذه منيرة قد جلست هي الأخرى على ظهر هذه الصخرة ترقب مجيئي لا أكاد أرى سمارة زولها وسط هذا الظلام الدامي.

ـــ: مالك تأخرت ياعبدالله؟

: لا لشيء، لكنني أردت التأكد حيث سمعت بعض الأصوات ويبدو أنها أصوات طيور عند المبيت.

ـــ: لقد قلقت حين تباطأتك.

: لا تخافي، وكوني مطمئنة، ألا تريدين أن تنامي؟

ـــ: أنام!! لقد طار النوم من جفوني.

: ألست متعبة بعد مسير هذه المسافة الطويلة؟

ـــ: لا أشعر في التعب في سبيل راحتك، نفسي فداك!!

: لا عدمنا وجودك.

ـــ: ألا تحب أن تنام؟

: أوه، الليل طويل، ولم أتعود على النوم في هذا الوقت المبكر.

ـــ: بالفعل، إن الوقت مبكر!!

: يكفيني من النوم سويعات قليلة، أستيقظ بعدها نشطاً قوياً.

ـــ: لم تخبرني أين تريد تتجه الآن؟

: أين أريد!! آه... سأبتعد الآن عن خصومي في مكان أمين لفترة من الوقت حتى يتضح الموقف.

ـــ: أي موقف تعني؟

: لقد علمت بأن خصومي سوف يستعينون بقوة خارجية لمطاردتي، وهذه القوة لا تستطيع الوصول إليَّ في المكان الذي سألجأ إليه.

ـــ: لا تستطيع !! إذا كنا سنصل إليه على أقدامنا، فما الذي يمنع قوة كما تذكر من الوصول إلى نفس المكان.

: أنسيت أن معنا دليل سيوصلنا مع أقرب المسالك وهم بطبيعة الحال يجهلون طرق النفود، وربما وقعوا في متاه من متاهاته أو مهلكة من مهالكه.

ـــ: في ظني أنهم لن يعدموا دليلاً يوصلهم إلى غايتهم تحت تأثير الإغراء المادي.

: ماذا تعنين؟

ـــ : أقصد أن الأحمر والأبيض سيغري من يوصلهم إلى نفس المكان.

: ولكننا لن نمكث فيه طويلاً إذا شعرنا بأي خطر هناك، ورفاقنا كثير في ذلك المكان ولله الحمد ولن نعدم مساعدتهم.

ـــ : ليس في ذلك شك.

: إنني واثق من أنهم سيقفون بجانبنا ولن يخذلونا.

ـــ : هل جاءك منهم خبر؟

: وإن لم يأتني خبر قاطع، لكن حدسي وهاجس نفسي أنهم سيقفون إلى جانبنا إذا وصلنا إليهم مهما كلفهم الأمر.

ـــ : ألا يخشون نقمة خصومنا عليهم؟

: لا أعتقد ذلك، فلديهم من المنعة في هذا النفود ما يشد ظهورهم ويجعلهم أقوياء.

ـــ ماذا تعني؟

: أقصد أن النفود بكثبانه ومجاهله ومظامئه يشبه الحصن الحصين يحمى من يلتجىء إليه، ومن لا يعرف طرقه ومسالكه فلن يفلح في الوصول إلى أعماقه، ولن يجد من يختبىء في خبوبه وبين حباله وعروقه وكثبانه.

ـــ : هذا شيء مطمئن.

: لولا هذا لما اتجهنا إليه، فهو أفضل من الجبل في كثير من الأوقات لولا قلة الماء.

ـــ : هاه!! أفضل من الجبل!؟

: نعم، فالجبل كهوف محدودة، وتلاع معروفة، وصخور صعبة المرتقى، ولهذا فإذا توجهت قوة من عشرات الرجال أمكن تفتيش الجبل وفَلْيَهُ فَلْياً وتمشيطه حتى يتم العثور على من فيه، لكن النفود بحر فسيح لو انتشرت فيه أكبر قوة فإنها ستجد صعوبة في تمشيطه والإحاطة به.

ـــ : هاه!! أتعتقد ذلك؟

: ومن ذا الذي سيشرف كل كثيب، وينقب في كل خبٍّ ويبحث في غابات

أشجار الأرطى التي تغطي تلك الكثبان، أو يجتاز الأرتال المنقادة مما يشبه الجبال الرملية؟

ــ: بشرك الله بالخير لقد اطمأنت نفسي.

: تقولين هذا لأنك لم تعرفي النفود ولم تعبرينه من قبل!!

ــ: صحيح، والله لم تطأه قدمي قبل ذلك.

: أتدرين أن الإنسان والحيوان في النفود يحتاج إلى كمية من الماء أكثر من احتياجه في أي مكان آخر؟

ــ: لماذا؟

: النفود في مثل هذا الوقت رمال لينه رخوة تغوص فيها أقدام الإنسان وغيره، أثناء عبوره فيبذل طاقة أكبر من طاقته في المسار العادي، ولذلك فإن الجهد الذي يبذله في مسيرة يعادل ضعف ما يبذله في مكان آخر، أما في وقت الأمطار فإن أرضه تتصلب وتشتد ويكون المسير فيه لا يختلف كثيراً عن المسير في الأرض المستوية إلا أنه يمتاز بلينه ونعومته.

ــ: متى سنصل إليه!! لقد برت هذه الأرض الحثَّة بحصبائها الخشنة قدمي.

: سلمت قدماك، لقد رأيتهما أمس حينما كاد الدم أن يتحلَّب من قدميك، فآلمني ذلك المنظر وحزَّ في نفسي.

ــ: لا عليك يا أباطلال!! فكل صعب يهون في سبيلك، والله لكأنني أسير على الابريسم والحرير.

: ما هذا الذي تتفوهين به يا ابنة الأجواد؟ إنني أشعر بالانتعاش والنشاط كلما سمعت منك مثل هذه الألفاظ!!

ــ: كما أشعر بالطمأنينة حينما أسمع نبرات صوتك إلى جانبي.

: ألا تريدين أن تنامي؟

ــ: وكيف لي ذلك وأنت تحدثني بهذه الأحاديث الشيقة التي انقطعت عنها منذ مدة طويلة.

: هذه ليست أحاديث شيقة، بل يشوبها الحذر ويكتنفها الترقب، ويلفها التوجس، أما الأحاديث الشيقة فعلاً فليس هذا وقتها.

ـــ: لكن أذناي تسمع كل حديث ينطق به لسانك وهو يتدفق على نفسي بطعم الشهد ولذة الأحلام الجميلة مهما كان موضوعه.

: حتى في هذا الظرف الحرج؟!

ـــ: كما قلت لك، فإن رنين صوتك بمسامعي يهزني طرباً، وأجد راحة نفسية وهدوء روحي لا يماثله شيء في الوجود.

: لو لم يأتني من مرافقتك لي في هذا المشوار إلا حديث هذه الليلة لكفاني حافزاً ومشجعاً يدفعني إلى المضي في طريقي إلى آخر المشوار.

ـــ: وفقك الله فيما تصبوا إليه.

: آمين!! والآن لننم، فقد حان وقت النوم وأنت متعبة.

ـــ: تصبح على خير.

* * *

وعندما أسدل الليل رداءه في مساء اليوم التالي سمع عبدالله وقع خطى البعير، ولم يمض طويل وقت حتى وصل رفيقه وأناخ بعيره ثم عقله، فأسرع إليه عبدالله قائلاً:

ـــ: حياك الله يا ابن ملاقي.

: وأبقاك.

ـــ: آه!! بشرنا، عسى أن تكون وجدت كل شيء.

: كل شيء على ما تريد، لولا أن الزمالة صغيرة.

ـــ: تعني البعير الصغير!؟

: نعم، فهو صغير لا يركب، فلم «يُعْسَفْ» حتى الآن للركوب.

ـــ: الأمر بسيط، إذا نقل لنا ماءنا وزادنا فذلك خير كثير.

: لا شك، ولكني كنت أطمع أن تركب عليه رفيقتنا إضافة إلى ما عليه من الماء والطعام.

ـــ: آه!! صحيح، كان بودنا ذلك ولكن...

: بإمكاني العودة هذه الليلة لإحضار بعير آخر من أحد رفاقنا أكثر تحملاً من هذا.

ــ: لا، لا، هذا يكفي لحمل متاعنا وشرابنا، أما الركوب فلسنا بحاجة إليه.

: وزوجتك!؟

ــ: هي الأخرى ربما لن تحتاج إلى ذلك، والشيء المهم أننا لا نريد كثرة الأزوال والآثار.

: كما تريد يا أخا نورة.

ــ: عسى أن تكون قد أحضرت لنا من القرب الجيدة؟ يقول ذلك وهو يلمس القرب بيده.

: لقد أحضرت خمس قرب، وهي أنظف وأجود ما عند أهل الحي، ثلاث منها نظيفة واثنتان جيدتان، ولو أن إحداهما تنضح ماءها لكنها خير ما وجدت، فقد جمع لنا رفيقنا فلان كل ما عند أهل الحي من القرب واخترت هذه الخمس منها.

ــ: جمع كل ما في الحي من القرب!؟ يقول ذلك بلهجة استفسار حذرة.

: نعم، ولكنه لم يبح لأحد عن غرضه من تلك القرب وذهبت معه بعد مغرب هذه الليلة إلى القليب الفلاني وملأناها بالماء بعد أن شددنا على هذا القعود، ووضعنا عليه ما يسر الله من الزاد، فحملنا عليه القرب، وأقبلت هنا بينما عاد إلى أهله دون أن يعلم بنا أحد.

ــ: حسناً فعل أخو فلانة.

: ما رأيكم في المسير الآن؟

ــ: عليك أن ترتاح قليلاً من مسافة الطريق وتتناول شيئاً من الطعام ثم نرتحل.

: لست متعباً، وليس لي رغبة في الأكل، فإذا رأيتم أن نسير مادمنا في منتصف الليل الأول لنقطع مسافة طيبة يمكننا أن ندخل النفود قبل أن ينباج نور الصباح.

ــ: رأي مبارك، عسى ألا يرغي جملك عند الحمل؟

: هو كذلك، ولكني قد ربطت فمه لمنعه من الرغاء.

ــ: حسنا فعلت.

: كما تعرف البعير غير المتعود على الركوب أو الحمل يكثر من الرغاء عند

الاقتراب منه أو الحمل عليه، ولذلك فقد ربطته حتى نصل إلى النفود، فنطلقه حتى لو رغى فلن يسمع رغاؤه.

ـ: إذاً حمِّل عليه بقية أمتعتنا.

: كل شيء.

ـ: عليك أن تسبقنا ونحن في أثرك.

وسار حسين مع جمله يتلوه عبدالله وزوجته يمخرون دياجير الظلام الدامس في تلك الليلة المحاق، يشقون تلك النجاد والوهاد شقاً رفيقاً، يطفحون فوق الروابي، ويغوصون جوف الوهاد، لا يرون من الأرض شيئاً سوى مواطىء أقدامهم برؤية غير واضحة بحيث لا يميزون بين جرف الوادي من مسيله إلا بحاسة اللمس، ولا يميزون بين شجر الرمث وشجيرات العوسج إلا حين تلسع أقدامهم الأخيرة بأشواكها العاسلة، تفتر جنادل الصخر تحت مواقع أقدامهم، لا يرون أي معالم للجادة التي وطأتها الرجل قبلهم في هذا الليل الدامس، تتقاعس قمم الجبال الشامخة في نظرهم فيرونها كالروابي المتواضعة، أو الآكام اللاصقة بالأرض مع علو شماريخها الشاهقة، في هذه الليلة الخرمس بجوها الساكن تماماً لا يسمع فيه سوى وقع الخطى المتوثبة ونحيط الجمل الصغير تحت القرب المليئة بالماء مع بقية متاع الراجلة الذين يطوون البيداء خلفهم، استمرت هذه الرحلة جوف غياهب أحشاء الليل، وقبيل انبلاج الصباح بقليل وطأت أقدامهم حواشي بساط النفود الناعم بعد أن اجتازوا الأرض الحثة، وعندها شعروا بنوع من الراحة النفسية، وما إن امتدت خيوط الفجر عبر الأفق حتى توقفوا وأدوا صلاة الفجر ثم استأنفوا رحلتهم ولم تفرش الشمس رداء نورها الذهبي على صفحات النفود الذهبية حتى دخلوا في أحد خلول النفود المليء بشجر الأرطى الكثيف، بعد مسيرة ليلة كاملة، عند ذلك القوا عصا الترحال، وحطوا عن البعير حمله، وعقله صاحبه بين أشجار الأرطى وأحضر له من العلف ما يشبعه، ثم بادر بإشعال النار وعمل القهوة التي تناولوا معها طعام الإفطار من التمر، ثم شذَّب حسين جزءً من أغصان شجرة الأرطى الكبيرة وأصلح المكان المريح لمنيرة لترتاح فيه، بينما انتقل عبدالله ورفيقه بعد

ذلك إلى شجرة أخرى ليأخذا راحتهما، حتى إذا كان بعد الظهر وتناولوا طعام الغداء من خبزة شواها حسين بالجمر وثردها بالسمن استأنفوا رحلتهم مع تلك الطرق التي يعرفها حسين تمام المعرفة، يرفعهم دعص ويخفضهم خب، يثبون على الأجزاء الصلبة، وتغوص أقدامهم وأخفاف جملهم في بعض المنحدرات والوهاد الرملية، مما جعل الواحد منهم يبذل مجهوداً مضاعفاً لإخراج قدميه من تلك الرمال الناعمة وهكذا ديدنهم آخر ذلك النهار إلى منتصف الليلة القادمة حين شعر عبدالله أن زوجته تعاني من الإجهاد ما يجعلها تخط رجليها أحياناً وتحاول الوقوف ولو مليًّا لتأخذ قسطاً من الراحة، ولا تريد أن تبين ذلك لزوجها أو لرفيقه مخافة تكدير صفوه وإعاقته في مسيره، تتفوه أحياناً ببعض الكلمات التي تدلل بها على أنها لم تكن متعبة، لكن ذلك كان منها من باب التشجيع حيث تتصنع مثل هذا الوضع، وما إن رأى منها زوجها ماهي فيه من حالة إرهاق نادى رفيقه وأخبره أن يختار لهم مكاناً ليبيتوا فيه، حيث حطوا الرحال في خب تكتنفه غايات من الأرطى فعقل حسين البعير ووضع له من العلف ما يكفيه فظلوا بمكانهم وناموا ليلتهم تلك، ثم بدت تباشير الصباح فأدوا صلاة الفجر، وتناولوا القهوة مع التمر ثم استأنفوا رحلتهم حتى الظهر حيث استراحوا لتناول الغداء.

وهكذا استمر مسيرهم على هذا المنوال ثلاثة أيام لم يذرهم ذائر ولم يفزعهم مفزع، حتى إذا جاء اليوم الرابع شعرت منيرة بمقدمات آلام المخاض، فلم ترد البوح لزوجها بما تشعر به، بل سكتت وكتمت ما في نفسها وأخفت ما تشعر به طيلة ذلك اليوم رغم موجات الألم التي تعصف بها وتلوى بوجهها رغم تلثمها بخمارها لتخفي معالم هذه الآلام التي تعصف بمحياها، لكنها لم تستطع إخفاء ذلك عندما اشتد عليها الألم في اليوم الثاني حيث أخبرت زوجها أنها متعبة تريد المشي قليلاً قليلاً، فصار عبدالله يمشي مع الجمل وتأخر رفيقه حسين يماشيها حتى إذا وصلت إلى حقف من الرمل لم تستطع اجتيازه فسقطت عليه حيث كانت في آخر لحظة من الوضع،

وعندما رأى حسين منها ذلك رمى عليها عباءته وأسرع إلى رفيقه ليخبره أن زوجته في حالة وضع فأسرع الإثنان نحوها بعد أن كانت قد وضعت وليدها ولفته بجزء من خمارها ثم بطرف عباءة حسين وناولته حسين لينقله إلى والده بينما بقيت في مكانها ترتب نفسها ثم قامت لتواصل سيرها غير أن زوجها أسرع إليها آمراً إياها أن ترتاح في مكانها، ثم أمر رفيقه بإعادة الجمل وإناخته للإقامة ذلك اليوم بليلته في نفس المكان حتى ترتاح المرأة مما هي فيه، وبعد أن استقروا في مكانهم سارع حسين لتحضير وجبة سريعة للمرأة وعندما فرغ منها عاد إلى رفيقه وعلى يديه القادم الجديد فقال له:

ـ: بارك الله لك في هذا الولد.

: آمين، آه !!

ـ: مالك تتأوه؟

: ليته لم يأت في هذا الظرف.

ـ: هاه!! لماذا؟

: هذا ظرف حرج ووقت غير مناسب.

ـ: استعذ بالله من الشيطان الرجيم، فربما يكون له شأن.

: شأن !!وأي شأن يرجى له، لقد أتعبنا وأتعب أمه وجاء في وقت حرج.

ـ: لا تقل هذا ياأخا نورة، ولكن ماذا ستسميه؟

: وهل له اسم غير «متعب» سأسميه متعباً.

ـ: أنت حر في ذلك، لكن هذا الإسم قد لا يكون مناسباً.

: أجل، إنه أنسب الأسماء له، آه، ليته تأخر حتى نصل إلى البلد وتكون المرأة عند النساء اللاتي يعتنين بها.

ـ: لا ضير في ذلك. فلم يبق علينا غير نصف يوم وبإمكاني أن أذهب الآن على قدمي وأحضر من هناك إحدى العجائز مع زمالة تحمل عليها المرأة وطفلها حتى نوصلها إلى من يعتنى بها.

: أنت صاحب معروف علينا، وهذا من تكملة معروفك إذا فعلت.

ـــ: سأنطلق من الآن وأحضر المطلوب.

: كن حذراً.

ـــ: لا توصي حريصاً، ثم إنكم أصبحتم الآن في مأمن إن شاء الله ولن يذوركم ذائر.

* * *

: وفقك الله يقول ذلك بعد أن غادر رفيقه المكان وعاد هو إلى زوجته فسألها عن حالها وعسى ألا تكون متعبة؟

ـــ: فردت عليه والابتسامة تعلو محياها: أبداً لم أشعر بأي تعب، وقد أصبحت الآن أخف من ذي قبل.

: لله درك!! ما أصبرك وأقواك من امرأة!!؟

ـــ: ولِمَ العجب!؟

: الآن قد وضعت طفلك لتوك وتقولين أنك لا تشعرين بأي شيء بل أصبحت أخف من ذي قبل!!

ـــ: إننى أقول الحقيقة.

: قد يكون ذلك من باب التشجع والتجمل، ولكن من متى وأنت تحسين بآلام المخاض.

ـــ: آه، منذ يوم أمس، وحاولت التصبر فلعل الأمر يتأخر حتى نصل إلى البلد ولكن إرادة الله عاجلتني فحصل ما حصل.

: إيه!! الحمد لله على سلامتك.

ـــ: وسلامة هذا الوليد الجديد.

: لقد كدت أن أرمى به ليتدحرج من فوق هذا الكثيب.

ـــ: لا شك أن ذلك من باب المزاح!!

: أجل !! لم يصبر قليلاً، لم يأت إلا في هذا الوقت الحرج!؟

ـــ: هذه إرادة الله أن يخرج في هذا الظرف.

: ولهذا سأسميه متعباً.

ـــ : متعب !!؟

: نعم، لأنه جاء في وقت التعب وأتعبك.

ـــ : إيه، سمِّـه ما تشاء، فلا عبرة بالاسم المهم المسمى.

: آه !! الحمد لله على حسن تدبيره.

ـــ : ماذا بك؟ لا تحمل همًا، إنني أستطيع السير حتى الوصول إلى البلد، فضلاً عن أن رفيقنا ذهب لإحضار من يعتني بي من النساء.

: جمَّل الله حاله، وكثر خيره، هذا الرفيق الوفي، فعسى الله أن يقدرني على رد الجميل إليه.

ـــ : ترى من يحضر معه؟

: لا تخافي عليه، هذا الرجل يعرف كل شيء.

ـــ : ليتني أوصيته على بعض الأشياء.

: سيحضر لك من يجهز لك من تريدين من العجائز المجربات ليقمن بمثل هذه المهمة.

ـــ : إيه، وفقه الله.

: كأنني أرى الآلام تعصف بوجهك فهل تشعرين بشيء؟

ـــ : لم يكن ألماً بالمعنى المفهوم، غير أنني أشعر ببعض المغص الخفيف، وهذا مالا يدعو للقلق فكن مطمئناً، إنني بخير.

: أنت وجه الخير.

ـــ : إنني آسفة لقد أتعبتك، ولو علمت أنني سأنغص عليك وقتك لصبرت على ما أنا فيه وأبقيتك طليقاً.

: لا تقولي هذا، إن وجودك معي يجعلني أشعر بالطمأنينة عليك، مع الراحة النفسية التي يبعثها وجودك معي.

ـــ : حقق الله آمالك، وسلم لنا رأسك.

لم تمض سحابة ذلك اليوم حتى عاد حسين ومعه راحلة عليها كامل تجهيزها، وعليها عجوز من نساء الحي عليمة بشئون الولادة حيث تولت أمر منيرة، وما إن وصلت تلك السيدة حتى قالت للزوج: إترك أمر زوجتك إلينا،

ووكل بها الله فسوف نعتني بها وبوليدها ولا يشغل بالك أمرها، فشكرها على ذلك وأركبوا النفساء على البعير واتجه الجميع من ساعتهم ولم يمض من الليل ما يقارب نصفه إلا وقد حطُّوا رحالهم في جُبَّة، فاستقبله أميرها وآواه وأحسن إليه بما هو أهله، ولم تطلع شمس اليوم التالي إلا وقد انتشر خبر وصوله في طول البلد وعرضها، ولم تطل إقامة عبدالله في جبة حيث نمىٰ إلى سمعه بعد أيام قلائل أن هناك من يتعقبه من خصومه، فغادرها مع رفيقه حسين وثالث معهما متجهين شمالاً، ولم يمض طويل وقت حتى جاءت مفرزة من القوة الأجنبية التي أرسلها خصومه للحاق به والقبض عليه، لكنه أفلت منهم قبل أن يدركوه، أما هو فقد يمم بلاد الرافدين بعد أن مرَّ بمن عرض عليه المساعدة والحماية لكنه لم يقبل ذلك، وإنما مضى لهدفه الذي رسمه في ذهنه، وفي بلاد الرافدين شعر بالأمان فأقام هناك فترة، بينما انتقلت زوجته إلى الجوف، وما كاد عبدالله يستقر هناك حتى أرسل رفيقه مرة ثانية يستطلع له الأخبار ويمر على زوجه وابنه ليعرف أخبارهما، وبعد فترة من الزمن عاد إليه حسين وفي جعبته جملة أخبار سارة بالنسبة إليه منها انتقال زوجته وابنه إلى أحد أقاربها ومنها عودة الحملة المرسلة لمطاردته وهلاكها بالإضافة إلى سير الأمور في صالحه، هذا فضلاً عن الأخبار السيئة التي نغصت عليه حياته، وفي تلك الأمسية جلس يصارع هواجسه طوال الليل، وبالقرب منه رفيقه الذي استسلم لنوم عميق بينا هو يتململ في فراشه إذا اضطجع، ويجلس متحفزاً يتقلص جسمه على ضآلته فيبدوا أصغر من حجمه الطبيعي بكثير، ثم يقف ويتمدد فيكاد أن يلامس سقف المنزل، يذرع الدار روحة وجيئة، يجلس القرفصاء تارة ويشرف على ذروة جدار متهدم أخرى، يتنقل في البيت من زاوية إلى زاوية، مشدود الأعصاب، إذا أحس بالإعياء الوقتي عاد إلى الفراش، ولا يكاد يتمدد فيه ويسترخي جسمه حتى يشتد مرة أخرى، وتتقلص عضلاته وينكمش تمدده فيثب جالساً فوق فراشه، يرافق هذه الحركات نبرات صوت حادة حيناً وخافتة أحياناً أخرى وتأخذ الهمهمات مكانها بين هذه النبرات، وهذا ما جعل رفيقه حسين يستيقظ من نومه على هذه الأصوات ليرى شبحاً مقعياً على شرفة

الجدار المتهدم لم يميزه تحت جنح الظلام فنهض من فراشه فزعاً وهو يظن أنه قادم غريب، فأسرع إلى فراش رفيقه ولمسه فلم يجده فأخذه الذهول، وقبل أن يظهر صوتاً طمأنه عبدالله بألا يفعل، فابتدره هذا بقوله:

ـــ: مابك ياأخا نورة لم تنم؟

: آه!! أمر بسيط أرقت له جفوني. يقول ذلك هادفاً إلى تهدئة رفيقه.

ـــ: أمر بسيط أسهرك إلى هذا الوقت من الليل حيث الفجر على وشك الأذان!!؟

: نعم، كن مطمئناً يا رفيقي، فليس هناك ما يقلق.

ـــ: فداك روحي، هل من سبيل إلى مساعدتك؟

: لم تذخر يا ابن ملاقي، ولكن ليس هناك مايزعج.

ـــ: عسى أن يكون خيراً؟

: إيه!! إنها انعكاسات نفسية.

ـــ: قد تكون رأيت في هذا البلد ما لفت نظرك وشد انتباهك فقد بهر عقلي ما رأيت فيها.

: وماذا رأيت!؟ لم تأت غير أمس ومررت بمدخل المدينة فكيف لو رأيت ما رأيت؟

ـــ: إذاً سأقوم بعمل القهوة لتخبرني ببعض ما شاهدت أثناء ذلك قبل أن تجب صلاة الفجر.

وبعد أن شرع حسين بعمل القهوة قال لرفيقه: أخبرني عن بعض مشاهداتك في بغداد.

: لا بأس يا ابن ملاقي، ولكن قبل ذلك استمع إلى ما قلته قبل قليل.

ـــ: هات لا فُضَّ فوك: يقول ذلك حسين وهو يصغى لرفيقه بكل جوارحه.

: آه!! هكذا جرَّ عبدالله هذه التنهيدة ثم قال:

٨ ـــ يَاهَيه يَاللِّي لِيْ مِنَ النَّاسْ وِدَّادْ مَاتْرَحْمُونَ الحَالْ يَاعِزوتِي لَيَهْ

٩ ـــ مَاتْرَحْمُونَ اَللِّي غَدَا دَمْعُهْ أَبْدَادْ ذَالُهْ زِمَانْ وْحَرْقْ الدَّمْع خَدِّيهْ

١٠ ـــ ذَالِيْ زِمَانٍ مَاتْهَنَّيْتْ بِرْقَـادْ وْقَصْرَ الحشَا قَامَتْ تْهَدِّمْ مِبَانِيهْ

١١ــمِنْ يَوْمْ شِفِتْ الشَّوْق مَزْبُور الأَنْهَادْ ‏ وِمْجَلِّي عِنْ دَارْ جِدُّهْ وَأَهَالِيْهْ

١٢ــوَاقِفْ يِجِرّْ الثَّوبْ لَلضِّلْع شَرَّادْ ‏ وِمْشَلِّحْ يَاطَا عَلَى أَقْدَامْ رِجْلَيْهْ

١٣ــالشَّوْكْ مَالَهْ عِنْ مِوَاطِيْهْ رَدَّادْ ‏ أَلاَّ وَلَا سِبْتٍ قِوِيٍّ يْوَقِّيـــهْ

١٤ــبِمْشَمْرَخَاتٍ هِيْفْ بَالزَّخْفْ صَعَّادْ ‏ وَكَمْ مَا عِرْ مِنْ خَوْفْ الأَرْوَامْ رَاقِيْهْ

١٥ــأَخَذْ ثِمَانٍ مَعْ ثِمَانٍ لَهْ أَزْوَادْ ‏ وَلاَ لِقَى مِنْ عِزْوِتْهْ مِنْ يْلَفِّيْهْ

١٦ــوَجِبَّةْ سِقَاهْ مْنَ أَوَّلَ الوَسِمْ رَعَّادْ ‏ مَا طَالَعَتْ خَشْمْ أَمْ سِلْمَانْ يْسِقِيْهْ

١٧ــحَيْثِ إِنَّهَا لَلِمنهَزِمْ دَارْ مِيْعَادْ ‏ وَمِنْ لاَذْبَهْ كِنْ الْحَرَمْ لاَيِذِيْهْ

١٨ــوِمْصَيْخْ بِنْ فَرْحَانْ عَرِيْبَ الأَجْدَادْ ‏ كِلّ الْعَسَاكِرْ نَكَّسَهْ تِتْلِيْ الْتِيْهْ

١٩ــنِكَّسْ بَهَمْ مِخْسِنْ وَعَامِرْ وَزِيَّادْ ‏ وَالْكِل مِنهَمْ مَا شَافْ حَيُّهْ وَأَهَالِيْهْ

٢٠ــوِفْزِنَا عَلَى شِهْبَ الْعَوَارِبْ عَنْهْ غَادْ ‏ وَكَمْ عَيِّلٍ يَبْكِيْ مْنَ الْقَيْظْ حَادِيْهْ

٢١ــوِجِنَا قِلِيْبٍ صَارْ فِيْ وَسْطَ الأَنْفَادْ ‏ بَالْخَمْسْ مَعْ نِصْفَ الثَّمَانِيْنْ نِدَلِّيْهْ

٢٢ــلِيَا إِبِنْ رِخِيْصٍ نَازِلٍ هَاكْ الأَجْرَادْ ‏ قَالْ أَقْبِلُوا وَانْتُمْ هَلْ الدَّارْ يَاهِيْهْ

٢٣ــيَا ابِنْ رِخِيْصَ الحَضِرْ يَبْغُونْ بِبْلَادْ ‏ وَالْحَيْضِرِيْ بَالْهِدِيْ يِكْرَهْ تِبْدِوِيْهْ

٢٤ــنَبْغِي نْقَارِبْ مِنْ هَلَ الْجُوفْ خَلَّادْ ‏ وَنْدِعِيْ عَسَى الوَابِلْ يْسَقِّى مِفَالِيْهْ

٢٥ــوَأَهَلْ سَكَاكَا نِعِمْ بَذَّالَةْ الزَّادْ ‏ وَنِعْمَ الْكِنِيْفْ لْيَا لِفَى السِّيْرْ طَاوِيْهْ

٢٦ــأَوِيْ وَاللهْ يَالضُّوَيْحِيْ مْن أَجْوَادْ ‏ وَنِعْمَ الْرِفِيْقْ لْيَا نْصَا الْمدح أَهَالِيْهْ

٢٧ــكِنْ جِيْتْ بِلْدَوَانٍ بَالأَذْوَادْ وِرَّادْ ‏ وَكِلّ يْزَيِّنْ لَلْعَشَايِرْ نْوَادِيـــهْ

٢٨ــوَاحِلُوْ شِرْشُوحَ المعاتير لاَنْقَادْ ‏ لْيَا دَوَّهْ الرَّاعِيْ وَحِلُوْ الْتَّدَاوِيْهْ

٢٩ــلْيَا الشَّطْ لِيْ فِيْ يِمَّةَ الشَّطْ مِنْقَادْ ‏ كِنَّ الشَّفَلَّحْ فَوْقْ مَوْجَاتْ جَارِيْهْ

٣٠ــيَامَا عَلَيْهْ مْنَ الْمَخَالِيْقْ وِعْبَادْ ‏ وَالْكِل مِنهَمْ وَالْ الأَقْدَارْ مِشْقِيْهْ

٣١ــهَذَاتْ فَلَّاحْ وَهَـــذَاتْ كَرَّادْ ‏ وَهَذَا مْرِيْخْ وْسَاهْرَاتٍ دْوَالِيـهْ

٣٢ــوَهَذَا يِهِلَّ الْغَزِلْ مِنْ فَوْقَ الأَوْتَادْ ‏ وَهَذَاكْ يْتِرِمْ لَهْ وَهَذَا يْسَلْدِوِيْهْ

٣٣ــكِنْ جِيْتْ لِيْ سُوْقِ وَرَا جَسِرْ بِغْدَادْ ‏ كِنَّ الْدِّبَا الْكِنْفَانْ يَزْهَى بْلَوْحَيْهْ

٣٤ــقِبَّةْ ذَهَبْ يَاقُوتْ حَتَّى الزَّمِرَّادْ ‏ يِزُوْغْ قَلْبَ الِمصْطِحِيْ وَانْ مِشَى فِيْهْ

٣٥ــلَا هُوْ بْشَفَّ لِيْ وَلَا لِيْ بْمَرَادْ ‏ وَلاَ هُوْ هَوَايْ وْطَارِيْ النِّفِسْ يِطْرِيْهْ

٣٦ــمِنْ يَوْمْ جَانْ العِلِمْ تَخْرِيْزْ الأَوْكَادْ ‏ قِيْلَ العَسَاكِرْ غَرِّبُوا تِتْلِيْ الْتِيْهْ

٣٧ــوَجِنَا بِدِيْرِةْ مِنْ يِعِدُّونَ الأَجْدَادْ ‏ هَذَا وَلَدْ عَمُّهْ وَهَـذَا بْنَاخِيـهْ

٣٨ــهَبَّ الْهَوَى مَايِدْرِيْ الرِّيْحْ وِالْقَادْ ‏ وَيَامِنْ يْدَوِّرْ قَضِيْ حَالُهْ وَأَهَالِيْهْ

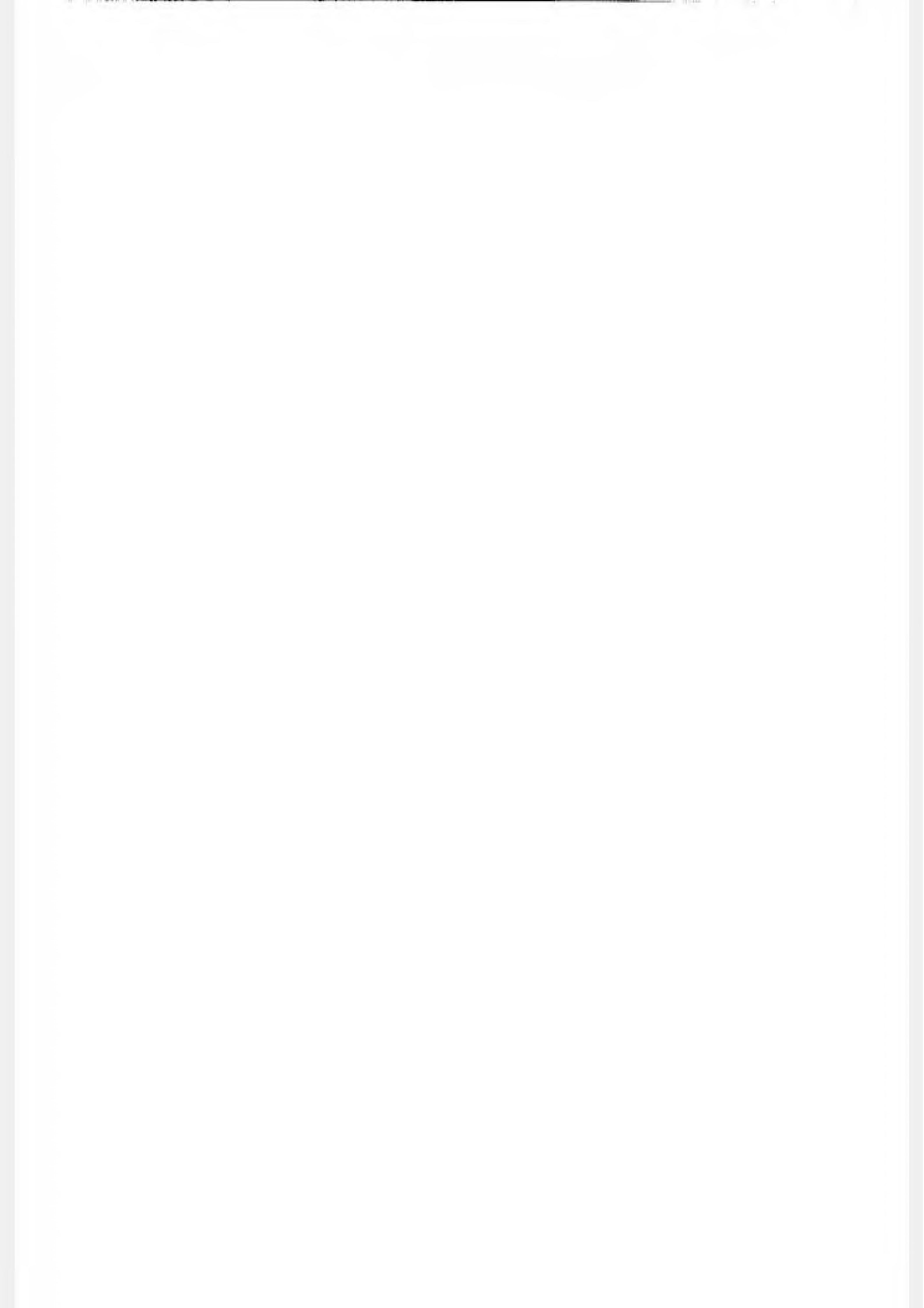
٣٩ــاللهْ يْسَوِّدْ وَجْهَكُمْ يَاهَلْ الزَّادْ ‏ سُوْدْ السَّمَا كِلَّ الخَلَايِقْ تْرَاعِيْهْ

٤٠ــمِنْ بَابْ خدَّامٍ لْيَا بَابْ عوَّادْ وْمنْ يِنْتِخِيْ بَالضَّيْغمِيَةْ فْطَالِيَهْ
٤١ــيَاللى نِسِيْتُوْا عمْلَ اْلأجْرَبْ وْفَهَّادْ وْمنْ عِقِبْ هَذَا دَاخْلِيْن قْهَاوِيْهْ
٤٢ــوْزَيْد وْمنِيْع ....
٤٣ــحِتَّــى جْرَادٍ بِجمَاعَاتْنَــا سَاْدْ هَذَا بْسرْقِنْ لُهْ وْهَذَا مْجَلِّيْهْ
٤٤ــعِيْسَى يِقُوْلَ الحَرَبْ لْلمَالْ نفَّادْ وَالْمالْ لِمَنْ هَبَّةْ نِسَانِيس ذَارِيْهْ
٤٥ــيَاللِّي تِقُوْلَ الشَّرّ مابَهْ لَنَا أزْوَادْ إنْشِدْ مسوِّيْ اَلسَّيْفْ هُوْ لَيْه حَانِيْهْ
٤٦ــلَا صَارْ مَايِرْوِيْ حْدُوْدْه بَالأضْدَادْ يِدَيْــهْ يَمَّ الْعَرْفِجِيَّــةْ تْرَوِّيْــهْ
٤٧ــلَا صَارْ مِرٍّ بْصِنْدِيْد الأوْلَادْ اَللّى يُوَصَّى يَذْهَلْ اَللِّيْ يُوَصّيْهْ
٤٨ــلَا صَارْ مَاهَمٍّ بْصِنْدِيْد الأوْلَادْ فَالْعَنْك يَاسَيْفِ طِوَى الْهَمْ رَاعِيْهْ
٤٩ــلَا صَارْ مَا مِرٍّ يَزْعِزْتْ بَالأكْبَادْ فِالْعَنْ شِبَاب مَايْهِيَهْ رَاعِيْــهْ

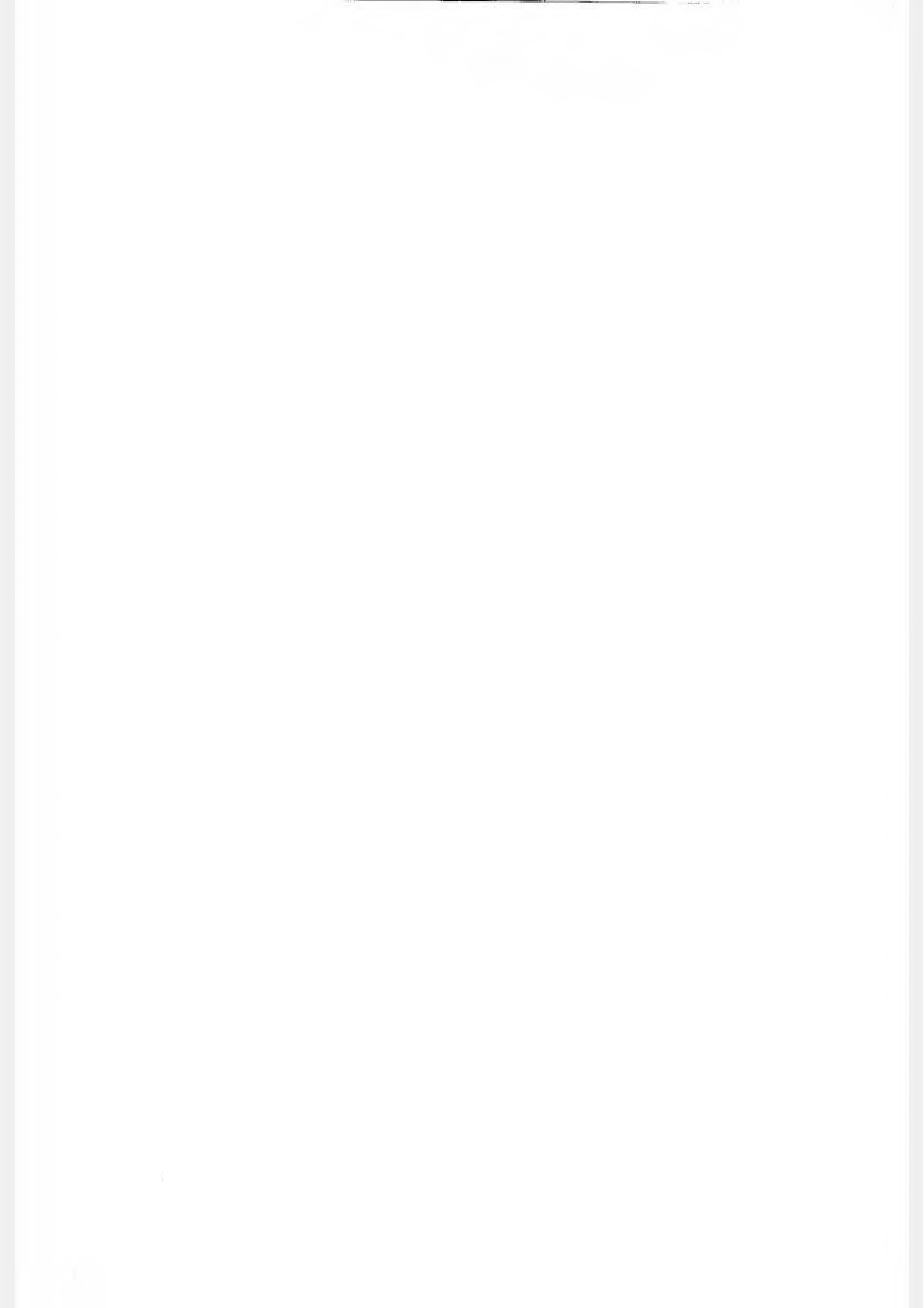
: سلم لسانك يا أخا نورة.

ــ : ولسانك.

: تفضل، خذ القهوة.



قصــة رقــم (٢٣)



ثلة الجهـــاد

استلقى سعدون في فراشه لينام كالعادة بعد عودته من مجلس السمار من رفاقه ولِدَاتِهِ الذين يسمر معهم كل ليلة، لكن النوم قد فارق جفنيه، حيث لا يزال يعاوده خبر مغادرة عدد من رفاقه الحي للإنضمام إلى زمرة المجاهدين، فبقى يتململ بفراشه حتى انهرس الليل، حيث غط في نوم عميق لم ينتبه بإيقاظ أخيه له إلا بعد معاودة الإيقاظ مرة بعد أخرى، عند ذلك نهض من فراشه متثاقلاً، فتوضأ وأدى صلاة الفجر ثم أسرع يعمل لأخيه القهوة، فلاحظ أخوه أنه على غير عادته نشيطاً متوقداً مرحاً، فأحب مداعبته بقوله:

ــ: مالك تنود ياسعدون، وكأنك لم تشبع من النوم؟

: هاه!! لا شيء، لا شيء ياأخي.

ــ: لم تكن هذا الصباح كما عهدتك!!

: الحقيقة أنني لم أنم البارحة بما فيه الكفاية.

ــ: أكنتم ساهرين حتى قرب أذان الفجر!؟

: أبداً، فلقد تفرقنا كالعادة، ولكني عجزت أن أنام، وبقيت أتململ في فراشي حتى انبلج نور الفجر.

ــ: ما الذي أسهرك؟

: كثيرة هي الأشياء التي إذا طرقت جفن الإنسان أطارت عنه النوم.

ــ: عسى أن يكون خيراً!؟ يقول هذا الكلام بلهجة حادة.

: خير إن شاء الله. يقول ذلك وهو مطرق طرفه.

ــ: أخبرني بما يشغل بالك؟

: آه!! ما يشغل بالي رفاقي الذين سافروا يوم أمس ولست معهم.

ــ: رفاقك!!؟

: نعم، ألا تعلم أن محمد وفالح وزين قد غادروا الحي يوم أمس في طريقهم إلى ساحة الجهاد؟

ــ: بلى، علمت ذلك، وما دخلك في مثل هذا الأمر؟

: كانت أمنيتي أن أكون رابعهم.

ــ: أمنيتك!؟ يقول ذلك وهو يبتسم.

: نعم، وأرجو السماح لي بالذهاب معهم.

ــ: لِمَ لَمْ تخبرني بالأمس؟

: لم يفت من الأمر شيء.

ــ: بل لقد فات، فقد ذهب أصحابك بالأمس وقطعوا مسافة يصعب عليك اللحاق بهم.

: لا مسافة تفصل بيني وبينهم، فقد ذهبوا مشياً على أقدامهم ولست أقلهم نشاطاً وأثقلهم حركة حتى لا أستطيع اللحاق بهم.

ــ: هاه!! ولكن!؟ يقول ذلك بتردد ثم يستأنف، لكن من يساعدني غيرك!؟

: لا تقل هذا، ففيما بقى عندك خير، وأرجو أن تسمح لي بالذهاب واللحاق برفاقي الذين غادروا هذا الحي والأحياء الأخرى.

ــ: ولكنها... ولكنها مسافة طويلة يقول ذلك وهو واجم وفنجان القهوة بيده لم يشربه بعد.

: طويلة!! يقول ذلك وهو يتحفز انتظاراً لكلمة السماح.

ــ: نعم، مسافة عشرين يوماً وليلة للمطية.

: لا يهمني قطع هذه المسافة مشياً على الأقدام، حتى لو بلغت بالأشهر وليس الأيام.

ــ: هاه!! هل تقول ذلك بجد، ولك الرغبة الصادقة؟

: بكل تأكيد.

ــ: مادامت عندك الرغبة ولديك العزم والتصميم فعلى بركة الله.

: يقفز سعدون من شدة الفرح وكاد أن يندفق ما في دلة القهوة من يده ويكب على رأس أخيه الأكبر يقبله وهو يقول:

سلمك الله يا أخي، وأعانني على الوفاء بحقك.

ـــ: أراك وقد عاد إليك نشاطك، واحتدمت فيك حيويتك!؟

: كيف لا، وقد تحقق ما أريد على يديك!؟

ـــ: لو أخبرتني بالأمس لسمحت لك بالذهاب مع رفاقك رغم ما قد يحصل لنا أثناء غيابك من متاعب.

: سلم رأسك ياأخي، هذا الرأس الذي يشبه الطود الأشم لا تؤثر فيه عاتيات العواصف فما بالك بما تسميه بالمتاعب، وليس له شبه إلا رأس أبي رحمه الله.

ـــ: ومتى تريد اللحاق برفاقك؟

: هذا الصباح، ومن هذا المكان.

ـــ: من هذا المكان!؟ أراك مستعجلاً!!

: نعم سأمر على والدتي، وأسلم عليها واستأذنها بالسفر.

ـــ: قد تتشبث والدتك، وتعارض في سفرك كما هي عادة بعض النساء.

: ليست أمي من هذا النوع، إنها ممن يشجع على ارتياد الآفاق لطلب الرفعة والمجد.

ـــ: ذاك شأنك معها.

: أمرها عندي، أستأذنك، يقول هذا وهو يغادر المكان متوجهاً إلى والدته في أحد أجزاء بيت الشعر قبيل طلوع الشمس، ولم يلبث أن خرج من عندها حاملاً قربة الماء على كتفه، مع شيء من المتاع حيث خرجت معه تودعه، فأكب على رأسها يقبله. وقبل رأس أخيه وودعهما ثم امتطى قدميه مغادراً المكان، وشيئاً فشيئاً حتى توارى عن الأنظار في سمت الأفق.

وهكذا استمر سعدون ينهب الأرض نهباً، يشق الفيافي ويطوى القفار، جرى طول نهاره ثم سرى الليل بأكمله حتى إذا ذعَّت شمس اليوم الثاني وإذا

هو يدرك رفاقه، وقد تأهبوا للمسير، وعندما علموا بحاله ومسيره ذاك، أجلوا انطلاقتهم ذلك الضحى حتى يأخذ رفيقهم قسطاً من الراحة، وبعد الظهر قطعوا مرحلة من الطريق حتى أمساهم الليل حيث أمرحوا ليلتهم تلك، واستمروا في مسيرهم يتتبعون موارد الماء، يسيرون مع بعض القوافل التجارية، ولا يلبثون أن يسبقونها ويتركونها خلفهم، وقد يمرون بظعن فريق من العرب في نجعتهم من مكانهم إلى مكان جديد، وهكذا دأبهم، يجوبون البيد ينتعلون الروابى والحزون، يمخرون التلاع والريعان، يخترقون الجبال والهضاب، يمتطون النفود، يعبون أقوازه قوزاً قوزاً، لا تتعبهم خبوبه، ولا تعوقهم ذراه وزعانفه، بل يتخذون من المسير فوق هذه الرمال الذهبية نوعاً من السباق الذي يتسم بالدعابة والمرح بين هؤلاء الشبان ولم يشعروا إلا باجتيازهم الحدود الموضوعة المصطنعة لفصل بلدهم عن البلد العربي المجاور عندما وصلوا إلى المركز الذي أعطاهم تلك البطاقة التي تثبت هوية كل واحد منهم، بعد ذلك واصلوا مسيرهم إلى هدفهم وغايتهم وبعد خمسة وعشرين يوماً بلياليها سيراً على الأقدام وصلوا إلى نقطة الهدف المقصود، فدخلوا المدينة على غير دراية بها، ولا خبرة بمعالمها، ولذلك فقد انتابهم شعور بعدم الاطمئنان إلى الدخول في المدينة ليلاً، ففضلوا المبيت خارج المباني حتى الصباح، في مكان تتجمع فيه القوافل التجارية، وقوافل «عُقَيْل» الذين يتاجرون بالإبل والخيل في هذا التجمع الحاشد، التقوا بأعداد من الشباب من مختلف أصقاع الجزيرة العربية الذين قدموا لأغراض شتى من تجارية وطلب للعمل والاسترزاق ورغبة في الإنضمام إلى ثلَة الجهاد فمنهم من قدم مع قوافل التجارة القادمة من الحجاز وآخرون مع قوافل عقيل من شرق الجزيرة ووسطها من الرياض فالقصيم وحائل والجوف ثم عمَّان، ومنهم من قدم في زرافات من الشباب على قدميه من كل بقعة من الجزيرة العربية فأخذ هؤلاء الرفاق جانباً مع من انضم إليهم وتحلقوا حول نار اشعلوها لتجهيز طعامهم، وأخذت الدعابة مجراها بينهم وحل المزاح مكان الجد للترويح عن النفس، فبدأ الواحد منهم يتهم الآخر بالتقصير في المسير أثناء الطريق فهذا زبن[٥٠] يتهم عُبَيْد[٥١] أنه كان في مؤخرة رفاقه في

اليوم الفلاني، فيرد عليه عُبَيْد أنه كان رقيبة رفاقه في ذلك اليوم بسير أمامهم بمسافة طويلة، وهذا علي[٥٢] يتهم صالح[٥٣] بأنه لا يستطيع حمل قربته إن كانت ملآنة، فيرد عليه أنه هو الذي ينزل بالبئر على عمق أربعين طولاً ليملأ قرب رفاقه الواحدة بعد الأخرى، وهذا علي[٥٤] يتهم عمر[٥٥] بأنه لا يستطيع المشي كثيراً لنحول جسمه، فيرد عليه عمر أنه قد مشى من الغزالة إلى حائل ومنها إلى المدينة المنورة ثم منها إلى عنيزة بالقصيم ومنها إلى عمّان بالأردن على قدميه وقد قطع مسافة حوالي ٢٥٠٠ كيلاً، مضت تلك الليلة عامرة بمثل هذه المداعبات حتى جهز طعام العشاء. ولما انتهوا منه ناموا، فغط أكثرهم في نوم عميق، غير أن سعدون لم يطرق النوم جفنيه، فاستلقى على ظهره وسرح في تفكير عميق وكأنه يحدِّث آخر يصغي له من رفاقه: ها نحن وصلنا إلى نقطة الإنطلاق الحقيقية بعد أن قطعنا هذه المسافات الشاسعة، وقطعنا هذه المهالك والمظامىء من نقطة الإنطلاق هذه التي ستنبعث منها الطاقة الكامنة التي ادخرناها لمثل هذا الغرض، سنذهب غداً إلى المكان الذي يتقبل المتطوعين للإنضمام إلى ثلة الجهاد، فعسى أن نجد من يستقبلنا بنفس الروح التي جئناه بها؟ إن كان هذا المسئول يقدِّر بُعْدَ الخطوة التي قطعناها، وجئنا إلى هنا وهدفنا الرئيسي مساعدة بني جلدتنا في الدفاع عن وطنهم ووطننا في نفس الوقت، وكبح جماح البغي والطغيان القادم لاحتلال هذه التربة الغالية على نفوسنا، بل ربما امتدت يد هذا الغاشم اللئيم إلى واحد من أعز مقدساتنا الإسلامية وتدنيس ترابه الطاهر، حين اجتمعت هذه الشراذم النجسة من مختلف أصقاع الأرض، وجاء بهم من هو أخبث منهم ينقلهم بين يديه بكل عناية ولطف ويحاول بكل جهده وطاقته وقوته أن يهيء لهم المكان المناسب على جزء من أرضنا الغالية دونما اكتراث بنا، وقد لا يقدر هذا المسئول بالمكتب ما جئنا من أجله، ويحسب أننا جئنا للارتزاق، وربما حسب أننا أوشكنا على الهلاك من الجوع، أو ما علم أننا استطعنا أباً عن جدٍّ أن نعيش من إنتاج أرضنا وألبان مواشينا لعدة قرون ولو كان قصدنا الاسترزاق لتوجهنا إلى أماكن أخرى، أيسر لمصادر الرزق وأكثر أمناً مما جئنا إليه، هذا

إذا رغبنا الاغتراب عن ديارنا وأوطاننا والابتعاد عن أهلنا، وقد لايخطر بباله هذا الأمر لأول وهلة، لكنه إذا رأى أجسام بعضنا النحيلة قد يتبادر إلى ذهنه مثل هذا الافتراض، أو ما علم أن أصحاب هذه الأجسام الضئيلة العارية من اللحم عند البعض منا لم يبرها الجوع والظمأ بقدر ما كانت هذه بنيتها الأساسية هذه الأجسام التي لا توازي ضخامة أجسام بعض سكان هذه المنطقة نسبياً لكنها مكمن للقوة والنشاط وتحتوي على عقول متقدة ذكاءً وأجنَّة متدفقة محبةً وحناناً وهي في نفس الوقت شعلة متأججة من الشجاعة والإقدام والفداء، يربط بينها إطار وثيق من الوفاء والتكاتف والتآزر هذه الخصال الجيدة الفذة تستوعبها هذه القامات المربوعة أو المائلة للقصر، والسحنة الباهتة، يكمن في هذه السواعد السمراء القوة والفتك بالأعداء، كما يتركز بها اللطف والحنان بذوي القربى، فعسى أن يكون هذا الإنطباع ينعكس في مخيلة ذلك المسئول الذي سنتقدم إليه غداً لتسجيل أسمائنا وإرسالنا إلى مركز التدريب، عسى ألا يطلب أن تكون أجسامنا من حيث الطول والعرض ولون البشرة هي المقياس المثالي عنده، أو ما علم أن «سَنَدْ الرُّبعْ» كان من أقصر الرجال قامة لكنه من أطولهم يداً في الأفعال على صهوات الخيل، ذلك يعود إلى أصغرى الإنسان، جنابه ولسانه، وعسى إذا رأى مثل صاحبنا عمر الذي قطع على قدميه مسافة ألفين وخمسمائة ٢٥٠٠ كيل يعتقد أنه لا يستطيع قطع عدة أكيال على قدميه، أو ذلك الشاب الذي قطع المسافة من عسير في أقاصي الجنوب الغربي للجزيرة العربية، ورفيقه الذي قدم من بيشه في أقصى جنوب نجد ومسافة قد لا تقل عما قطعه عمر إن لم تزد عليه. هذه الأقدام القوية التي تعودت على دك مجاهل الصحراء وفرى هامة الحماد، وتذليل الحزوم والحزون والآكام، وحفر سفوح الجبال، لن يضيرها اجتياز أرض سهلة أو أحراش ملتفة أو بساتين متشابكة، هؤلاء الرجال الذين اجتازوا مجاهل الصحراء ومهالك النفود، تلك المجاهل المليئة بالسباع والوحوش، وما قد يوجد بها من قطاع الطرق، مخروا هذه المسافات في دياجير الظلام، لن يرتاعوا من العس في ظلام الليل بل يعتبرونها شيئاً طبيعياً عندهم، ولن يتوقف

أحد منهم مخافة اجتياز مجهل من المجاهل أو اقتحام حصن من الحصون فمتى يأتى الصباح ونذهب إلى ذلك الكتب؟ آه... ما أطول ساعات الليل وما أثقلها!! فليت عمود الفجر يتبلج في هذه اللحظة.

* * *

وفي الصباح توجه الشباب إلى المعسكر، وتردد المسئول في قبول سعدون، وذلك لصغر سنه وضآلة جسمه، وبعد مداولات وأخذ ورد تم قبوله، كما تمت إجراءات انضمام الكثير منهم إلى رفاقهم حيث أحيلوا إلى قسم التدريب الذي يتولى تدريبهم على استخدام الأسلحة، وأوليات فنون القتال حيث يجري استيعاب هذه التدريبات أولاً بأول وبسرعة فائقة مما جعل مركز التدريب يرشح من تتوفر فيه مقومات القيادة كالذكاء وسرعة التصرف بالطريقة السليمة التي تكفل له ولما بحوزته ومن هم تحت إمرته وغير ذلك من ضروريات القيادة، تمنح لمن يحمل هذه المزايا رتبة عسكرية ملائمة، وخلال فترة معينة حصل سعدون مع عدد من رفاقه على رتبة ملازم.

باشر سعدون عمله الفعلي بهذه العملية التي دشن بها أول عمل له، وكان من أولى النقاط أهمية والتي ترى القيادة أن يفتح فيها ثغرة هي بلدة «الرزاعة» وكان لسعدون رأي في النقاش الذي دار في هذه النقطة حينما بدأ القائد يستعرض الخطة حيث قال:

ـــ: يتضح أن هذه البلدة التي تمركز بها العدو وحصَّنها أشد تحصين حيث يعتبرها قاعدة الغور فأولاها عناية خاصة وأحاطها باسلاك شائكة وركز بها دفاعات قوية لا يمكن اجتيازها بسهولة.

: مهما كانت دفاعات العدو وتحصيناته فسوف نخترقها ونجتازها بإذن الله.

ـــ: حسناً قلت ياسعدون، ولكن نريد مناقشة الخطة التي بموجبها يتم لنا هذا الاجتياز بأقل الخسائر.

: في رأيي أنه يجب التقدم نحو الموقع حتى نقترب منه تحت جنح الظلام، فإذا هجع الناس باغتنا العدو بهجوم كاسح حتى نخترق في تحصيناته ثغرة

ندخل منها ونعمل حركة التفاف من خلف خطوط دفاعاته.

ــ: في هذه الحالة يجب أن نضمن خط العودة لهذه القوة التي تعتبر رأس حربة.

: سيرتبك العدو عندما يشعر بحركة الالتفاف هذه.

ــ: لا شك، ولكن نخشى أن يطبق علينا.

: لا تخف يامحمد[٥٦] فهؤلاء قد غرس الله في قلوبهم الرعب منذ الأزل، وأي حركة تأتيهم من خلفهم ستخلخل تماسكهم.

ــ: ولكن لا ننسى أن هناك من يساعدهم ويعاضدهم.

: مهما كان الأمر، دعنا نقوم بهذا الإقتحام، أنني مستعد أن أقوم بالنفاذ من نقطة معينة وزميلي حسن[٥٧] يقوم بالنفاذ من نقطة أخرى حتى نخترق تحصيناتهم، وسوف نتحمل نتائج ذلك، وسيكون بهذا الإقدام زعزعة لتواجدهم.

ــ: آه !! ماهو الوقت الذي تفضلونه؟

: أفضل الأوقات تحت ستار الليل عندما يكون الناس قد هجعوا، وليكن في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل[٥٨].

ــ: إذاً على بركة الله.

وفي الوقت المحدد تم الإقتحام من نقطتين مختلفتين كما وضع في الخطة، وتم اجتياز الدفاعات بقطع الأسلاك الشائكة وتدمير التحصينات، فأربك العدو عندما رأى الجنود قد دخلوا إلى داخل معسكراته فأسرع إلى تفجير خزانات المياه تجرى في الشوارع بغزارة ليغرق المهاجمين، غير أنه لم يفلح في ذلك، بل استمر في حالة من الهلع، في معركة تحت جنح الظلام والأمطار الغزيرة والبرد القارس استمرت لمدة ست ساعات من الثانية حتى الثامنة صباحاً، عندها شعر المجاهدون بأنه يجب عليهم الإنسحاب بعد أن كبدوا العدو عشرات القتلى والجرحى، وزلزلوا تماسكه، وعندما تكامل انسحابهم، اجتمعوا في مقر القيادة لاستعراض الأرباح والخسائر فقال محمد:

ــ: ماذا كانت النتيجة ياسعدون؟

: النتيجة جيدة، لقد تم اختراق دفاعات العدو ونشر الذعر بين قواته، وقتل

وجرح العشرات منهم رغم رداءة الجو والظروف غير المواتية.

ـــ: كيف؟

: أعنى هذه الأمطار الغزيرة التي انهمرت، وهذا البرد القارس الذي يجمد الأطراف وظلمة الليل الحالكة استطعنا أن نحقق الهدف من هذا الهجوم.

ـــ: حسناً!! وماذا استفدنا من هذه المعركة من الناحية القتالية.

: عرفنا بعض الوسائل التي استخدمها العدو لحماية نفسه كإطلاق خزانات المياه بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة التي تنزل من السماء لتجري في الشوارع سيلاً جارفاً وهو يحاول بهذه الحركة إيقاف زحفنا، أو يعوقنا عن بلوغ هدفنا، ولكنه فشل في ذلك، فقد استطعنا اجتياز هذه الصعاب وحققنا هدفنا.

ـــ: وماذا بعد؟

: استطعنا إرباك العدو بحيث بدأ جنوده يصوبون نيران بنادقهم ورشاشاتهم على غير هدى، وربما إلى صدور رفاقهم.

ـــ: حسناً!! هل فقد من مقاتلينا أحد؟

: نعم، لقد استشهد عدداً منهم[٥٩ – ٧٤] كما قد جرح آخرون[٧٥ – ٨٦].

ـــ: إذاً، لنسعف الجرحى، وننقل جثث الشهداء لنصلي عليها ونواريها في مثواها الأخير.

: أبشر. يقول ذلك وهو يؤدي التحية وينصرف لتنفيذ الأمر.

ـــ: بعد أن تفرغوا من هذه المهمة عليكم بالتأهب لمهمة أخرى.

: كن مطمئناً. يقول ذلك وهو على بعد أمتار من آمره.

* * *

تولى سعدون وجنوده حماية قرية «نورس» العربية والدفاع عنها ضد هجمات العدو المتمركزة غير بعيد عنهم في «حارود» حيث وصل إليه أحد عيونه واندس في صفوف العدو ثم جاءه مخبراً.

ـــ: سيقوم العدو بمهاجمتنا غداً.

: كم عدد قواته؟

ـــ: يتجاوز العدد ثلاثمائة جندي مسلحين بأسلحة ثقيلة وأسلحة ذاتية متنوعة تعززها الدبابات.

: حسناً، مهما كثرت جنودهم وتنوعت أسلحتهم، من أسلحة ذاتية ومدفعية ثقيلة، فنحن واثقون أن الله معنا، وسوف يؤيدنا بنصر من عنده.

ـــ: لكن جنودنا لا يتجاوزون أربعة وثلاثين مسلحاً ببنادق خفيفة.

: أعلم ذلك، ولكن الله سيكون معنا إن شاء الله.

وتم توزيع المقاتلين في المراكز المنتقاة لهم في خنادقهم وفي الموعد المحدد[٨٧] تقدم العدو لتنفيذ خطته ودفع بجنوده حيث أمهلهم المقاتلون حتى صاروا في متناول نيرانهم، عندها صبوا عليهم النار المتقدة، ولم يستطيعوا التقدم شبراً واحداً نحو القرية، ثم ارتدوا على أعقابهم خائبين يجرون ذيل الفشيلة مخلفين قتلاهم وجرحاهم، وقد استمرت هذه المعركة أربع ساعات متواصلة، وفي صباح يوم الجمعة عاود العدو كرته الثانية وذلك لإخلاء جثث قتلاه وإسعاف جرحاه، وما إن اقتربوا من دفاعات المجاهدين حتى امتدت إليهم ألسنة النار الحامية مرة أخرى، استمرت ست ساعات متوالية، تقهقر العدو، على أثرها، وفر جنوده هاربين تاركين وراءهم الجثث والأسلحة فتابعتهم قوة المجاهدين بهجوم معاكس عند ذلك تدخلت القوة التي تحمي[٨٨] جيش العدو عند ذلك عاد المجاهدون إلى التمركز في مواقعهم، وتوسط قائد القوات الحامية لقوة الأعداء بوقف إطلاق النار، ريثما يتم إخلاء جثث القتلى ونقل الجرحى، عندها توقف إطلاق النار، واستجمع سعدون أفراده، ثم طلبه المسئول، وسأله:

ـــ: كيف كانت النتيجة ياسعدون؟

: كانت جيدة.

ـــ: هل استشهد من رفاقنا أحد؟

: أبداً والحمد لله، عدا جريح واحد[٨٩] بجروح طفيفة.

ـــ: وأسلحتنا؟

: لم نفقد منها شيئاً، بل على العكس فقد غنمنا أسلحة إضافية منها مدفعين

كبيرين، ورشاشاً كبيراً وعدداً من البنادق و«المسدسات» وعدداً من القنابل والذخيرة.

ــ : حسناً، حسناً، هذا شيء طيب.

: ترى كم كانت خسائر الأعداء؟

ــ : لقد أخبرني الوسيط الأجنبي أن عدد القتلي منهم قد بلغ الخمسين قتيلاً.

: والجرحى؟

: عدد الجرحى حسب قول الوسيط يقاربون المئة جريح، جراح معظمهم خطيرة.

ــ : إيه!! هذا جزاء المعتدين.

: لنتفقد أنفسنا حتى لا يغدر بنا الأعداء لأن شيمتهم الغدر.

ــ : كونوا حذرين، وعليكم بالحيطة من غدرهم.

: أمرك مطاع.

من مؤثرات الحرب ومعوقاتها التأثير على امدادات العدو وخطوط تموينه، لذلك تقرر أن ينسف الجسر الواقع بقرب «العفولة» وقد حضرت زمرة المغاوير بقيادة محمد[٩٠] بعد أن أمن لها المجاهدون الحماية اللازمة عند الإنسحاب، ثم باشروا بزراعة الألغام تحت الجسر، ومدوا أسلاك التفجير لها، وظلت عين المراقبة دقيقة حتى مرت حافلتان كبيرتان من حاملات الجنود، وفي اللحظة الحاسمة[٩١] تم التفجير فارتفعت الحافلتان في الهواء وتطايرت قطعا، وتناثرت جثث القتلى والجرحى من العدو، وعلى الدوى الهائل أسرعت قوات العدو إلى الموقع بسيارات مصفحة، وبأعداد كثيفة، بينما كان سعدون وجنوده يتولون حماية انسحاب زمرة المغاوير، فتكاثرت عليهم تلك القوات عندها لم يجدوا بداً من الإنسحاب بسرعة والتمركز في أماكنهم حيث استمروا بإمطار العدو بوابل من أسلحتهم حتى تدخل الوسيط[٩٢] للسماح لرجال العدو بسحب قتلاهم وجرحاهم، عند ذلك سأل قائد المجاهدين:

ــ : كيف كانت النتيجة؟

: مرضية.

ـ: بالتفصيل؟

: لقد تم نسف الجسر وتحطيم الحافلتين تماماً، وقتل ثمانين فرداً من أفراد العدو، وجرح مايزيد على المئة والعشرين.

ـ: ورفاقنا؟

: لم يصب أي واحد منهم بأذى ولله الحمد.

ـ: حسناً، وماذا بعد؟

: لم نتمكن من جمع الأسلحة الخفيفة التي كانت مع الأفراد لإنشغالنا عنها بما هو أهم، ولحضور العدو إلى مكان الحادث في نفس الوقت.

ـ: حسناً، ليست الأسلحة بأهمية ما حدث، ولكن ما يشغل بالي الآن هو شيء واحد.

: ما هـو؟

ـ: قوة العدو المتمركزة في مستعمرة «عين حارود».

: ماذا تريد أن تفعل؟

ـ: سأبحث أمر احتلالها مع محمد[٩٣] في أقرب فرصة.

: وهل سيوافق على ذلك؟

ـ: لن يتوانى في الموافقة.

: ولكن هناك قوة كبيرة معززة بمختلف أنواع الأسلحة.

ـ: سنحطمها إن شاء الله.

: ما الذي أزعجك منها؟

ـ: لقد جاء منها المدد عند مهاجمتنا «للنورس» ولذلك يجب علينا كسر شوكتهم في هذا الموقع.

* * *

وتم وضع الخطة اللازمة وفي ساعة الصفر[٩٤] بدأت زمرة المغاوير بتفجير الألغام، وفتح ثغرة من الأسلاك الشائكة تعززها مدافع «الهاون» وتم الزحف من جهة «نورس» و«زرعين» وعند الفجر تم احتلال ثلة المجاهدين للمستعمرة

بعد قطع خطوط المواصلات، ونسف المواقع التي تعتبر نقطة تمركز للعدو، فانسحب العدو إلى الخطوط الخليفة وقد تم احتلال خزان الماء الذي يغذي المستعمرة، وتم السيطرة عليها، بعدها حضر قائد القوات[٩٥] التي تحمى العدو للتوسط، وطلب من قائد قوة المجاهدين الإنسحاب[٩٦] غير أنه رفض رفضاً قاطعاً فهدده الوسيط باستخدام القوة ضد المجاهدين، عند ذلك أذعن هذا بالإنسحاب إلى مواقعهم بحذر شديد مخافة غدر العدو، وبعد أن عاد المجاهدون إلى مواقعهم فاجتمع بالمسئول وقال له:

ـــ: ما هي النتيجة؟

: على مايرام.

ـــ: هل استشهد من رفاقنا أحد؟

: لا.

ـــ: هل جرح أحد؟

: جريح واحد[٩٧] بجروح طفيفة.

ـــ: ومن الأعداء؟

: يزيدون عن مئة قتيل، وعدد غير قليل من الجرحى.

ـــ: لقد خشيت أن يغدروا بنا أثناء عملية الإنسحاب.

: وكذلك توقعت، ولكن يبدو أن الهلع قد سيطر على نفوسهم فلم يستطيعوا حتى الاقتراب منا، بل هربوا على وجوههم في الخطوط الخلفية، وربما تسلل أكثرهم إلى ما وراءها طلباً للنجاة.

ـــ: بالفعل، بالفعل ولذلك طلبوا من القوة التي تحميهم الحضور لطلب الإنسحاب منا.

: كيف توافقه على ذلك؟

ـــ: لقد هدد باستخدام القوة ضدنا وكما تعلم مقدار أفرادنا بالنسبة لقوته الضاربة التي يستطيع بها دك المستعمرة تماماً على من فيها، وهذا يعتبر انتحاراً لا مبرر له.

: أما لو لم يكن معهم هذا اللعين لسحقناهم.

ـ: هذا شيء مؤكد، لو لم يتعهد بحمايتهم لما تجرأوا أن يتقدموا شبراً واحداً، أو حتى لم يكونوا لأنفسهم أي قوة، وعن الغنائم؟

: لقد غنمنا العديد من الأسلحة الخفيفة لأننا لم نتمكن من الإستيلاء على الأسلحة الثقيلة نظراً لضيق الوقت.

ـ: سوف نتمكن من ذلك مستقبلاً إن شاء الله.

: مالي أراك قد سرحت في التفكير؟

ـ: إنني أفكر في خطة ثانية، سيكون هدفها نسف جسر «حارود» الذي يعتبر الشريان الرئيسي للمستعمرة، وبتدميره سيكون أبلغ الأثر على العدو ماديًا ومعنوياً في هذا الموقع.

: هذا شيء طيب، ونحن على أتم الإستعداد.

ـ: سأبحث هذا الأمر مع القيادة.

: بانتظار أوامرك.

ـ: تفضل.

* * *

وفي الوقت المحدد[٩٨] تقدمت حضيرة الهندسة بقيادة صالح[٩٩] وزرعت الألغام تحت الجسر، وتمركزوا غير بعيد عنه بعد اتخاذ الاحتياطات اللازمة لحمايتهم، وحال مرور حافلة عسكرية من فوق الجسر تم نسفه، فدمرت الحافلة تدميراً كاملاً وقتل جميع من كان فيها، وعلى دوى الإنفجار جاءت نجدات العدو حيث اشتبك معها أفراد المجاهدين ثم تحولت هذه الإشتباكات إلى معركة حامية استمرت أربع ساعات، ترتب على هذا قتل ثمانية ضباط منهم واحد برتبة عقيد جاءوا إلى الموقع، فتصدى لهم أحد عناصر المجاهدين، وأمطرهم بوابل رشاشه فقضى عليهم جميعاً، ومن بين هؤلاء الضباط واحد من دولة أجنبية شرقية[١٠٠]، ثم ضاعف العدو من النجدات دون طائل، مما جعله في النهاية يتراجع عن نفس الموقع، ويطلب

من الوسيط كعادته أن يترك له المجال لنقل قتلاه وجرحاه، وسمح له بذلك، وبعد إخلاء المكان من قبل العدو انسحب المجاهدون وعادوا إلى مواقعهم عند ذلك استدعى سعدون بالمسئول وبادره بقوله:

ـــ: ما هي النتيجة ياصالح؟

: لقد تم تدمير الجسر تدميراً كاملاً بحيث يحتاج إلى فترة من الزمن لإعادة إصلاحه.

ـــ: وخسائر العدو؟

: لقد خسر العدو جميع ركاب الحافلة من الجنود وعددهم ثمانين فرداً، بالإضافة إلى ستة ضباط أحدهم برتبة عقيد جاءوا في سيارة «الجيب» بعد احتدام المعركة وتم القضاء عليهم.

ـــ: حسناً، وعن رفاقنا؟

: الحمد لله رفاقنا بخير، ماعدا اثنين[١٠١، ١٠٢] جرحا بجروح طفيفة.

ـــ: هل هناك ما تضيفه؟

: أبداً غير أننا لم نظفر بأسلحة تذكر سوى أسلحة فردية خفيفة.

ـــ: لا يهم السلاح في الوقت الحاضر بقدر ما يهمنا نسف هذا الجسر لإعاقة إمدادات العدو أو قطعها، والحمد لله لقد تم ذلك، آه، ومن أخبركم أن هذا الضابط من الدولة الفلانية.

: أخبرنا أحد رفاقه الذي كان به رمق من حياة، كما يدلنا عليه الإشارة التي يحملها وعليها شعار البلد الذي ينتمي إليه.

ـــ: إيه! لا فرق بين هذا وذاك، فالكل أعداء لديننا وأمتنا. يقاتلون صفاً واحداً لقهرنا.

: هل من أوامر أخرى؟

: أبداً، تفضل.

* * *

لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تجمعت علينا شذاذ الآفاق من كل جدب

وصوب، من الشرق ومن الغرب، ليقهرونا ويغتصبوا أرضنا ويحتلوا ديارنا، هذا يعينهم بالسلاح والرجال، وهذا يمدهم بالخبرة والتدريب، وربما بالرجال!! ماذا فعلنا لهم من أجل أن يتكالبوا علينا ليخرجونا من ديارنا؟ ألم يجدوا أرضا غير هذه الأرض؟ وما دام وقع اختيارهم على هذه البقعة فلماذا يقتلون أهلها؟ لا يستنكفون عن قتل الشيخ أو العجوز ولا يترددون في قتل المرأة والرجل المسالمين، ويتسابقون لقتل الشاب والشابة دون أية رحمة أو شفقة، ويريدون أن نسكت ونستسلم لهم ليقضوا على هذا العنصر العربي المسلم بكامله حتى تقفر لهم الأرض وتفرغ البيوت وتخلو البساتين فيستلموها بكاملها، وهذا إن شاء الله لن يكون مادام بنا عرق ينبض بالحياة، ولسوف نقلقهم ونزلزل الأرض من تحت أقدامهم وسيعقب هذه الخطوة خطوات أخرى هذا ما كان يتردد في ذهن سعدون ثم توقف يسرح طرفه في وجوه رفاقه، وكأنه يلقى عليهم النظرة الأخيرة فقاطعه مساعده:

ـــ : مابك ياسعدون؟

: لا شيء، لا شيء سوى ما جاءنا من أخبار عن تحشدات العدو الذي يعتبر «زرعين» مركز إزعاج له، فحشد الحشود الكبيرة لتطويقها والقضاء عليها.

ـــ : يأبى الله ذلك، هل يشغل بالك هذه التحشدات؟

: لست خائفاً منهم، وإنما أفكر بالطريقة التي نستطيع بها صد هذا الهجوم.

ـــ : أريتك كم عدد هذه القوات؟

: بلغني أنها تتكون من ألف وخمسمائة جندي من المشاة تؤازرهم خمس وثلاثون مدرعة مع المدفعية الثقيلة.

ـــ : تعرف العدو من عادته القيام بمثل هذا الحشد الهائل بالنسبة لقوتنا البالغة ثمانين فرداً بأسلحتهم الخفيفة ولكنه في الغالب يمنىٰ بهزيمة رغم تحشداته وقوته الكبيرة.

: صحيح، ونحن واثقون من أنفسنا، أننا سنهزمه بعون الله وقوته، ولكن لنضع الترتيب اللازم لهذا الموقف، وننسحب إلى الخطوط الخلفية لنتمركز بها مادام بإمكاننا ذلك.

ـــ : إذا كنت ترى هذا فلا بأس.
: نعم حتى لا نفقد أحداً من أفرادنا.
ـــ : سأجمعهم في الوقت المناسب وأعطيهم التعليمات الضرورية.
: أنت وشأنك.

وبعد فترة من الوقت عاد المساعد إلى سعدون ليخبره بأنه أتم كل شيء، ونقل إليه ماسمعه من أفراده بلسان واحد حيث رددوا قولهم «سندافع بكل قوة وثبات حتى ننتقل إلى جوار ربنا جميعاً في جنات النعيم شهداء خير لنا من أن نستسلم لعدونا الذي جمع قواته من رذال البشر».

كانت هذه بمثابة الشربة الباردة على كبد الصديان، بالنسبة لسعدون، فأخذ المجاهدون مراكزهم وفي ساعة متأخرة من مساء ذلك[١٠٣] اليوم بدأ العدو الزحف على «زرعين» من الجهتين الشرقية والشمالية، فانهالت نيران العدو الكثيفة على الخطوط الأمامية التي لم يبق بها من المجاهدين سوى رموز خفيفة ليوهموا العدو بتواجدهم هناك ثم انسحبوا بعد ذلك تحت نيران العدو.

وتم تطويق المكان من العدو بأعداده الكثيفة وأسلحته ومعداته الثقيلة، غير أنهم لاقوا الدفاع المستميت من كل جهات القرية وكان شعارهم «النصر أو الشهادة» واستمر تقدم العدو من الجهة الشرقية والشمالية في بداية الأمر حتى بعد منتصف الليل، حيث تقدم من الجهة الجنوبية غير أنه لاقى مقاومة عنيفة، وبكل صعوبة دخلوا القرية بعد معركة دامت أربع ساعات، لكنهم وجدوا أنفسهم في مصيدة نيران أسلحة المجاهدين الخفيفة تطارد أفرادهم في الشوارع والطرقات والممرات والملاذات والتعرجات استمرت هذه المطاردة من عناصر المجاهدين لأفراد العدو حتى الصباح حين وصل الأمر إلى استخدام السلاح الأبيض وأعقاب البنادق وعند ذلك شعر العدو بخيبة الأمل وتمزقت جموعهم وانشطروا إلى شطرين، ففضلوا الإنسحاب بعد أن كثر اللغط والسُّبابُ والتشاتم بينهم، وكاد بعضهم أن يفتن على بعض إثر هذه الهزيمة.
وبعد انتهاء المعركة حضر المسئول لينقل إلى سعدون أخبار المعركة.

ـــ : هاه!! ما أخبارك؟

: كل شيء على مايرام، فقد فشلت خطة العدو لتدميرنا فشلاً ذريعاً، بل لقد تدمرت قواته، حيث أعطب منها سبع مصفحات وسقط من جنوده ٢٥٠ قتيلاً في شوارع القرية ولدينا الآن أسير[١٠٤] حي نحقق معه.

ـــ : أخبرني عن رفاقنا؟

: لقد استشهد من رفاقنا أربعة[١٠٥ – ١٠٨] وجرح إثنان[١٠٩ – ١١٠].

ـــ : وماذا غنم رفاقنا؟

: كانت الغنيمة عدد كبير من الأسلحة الخفيفة كالبنادق والقنابل والعتاد بالإضافة إلى مدفع كبير.

ـــ : الحمد لله، سوف نستعمل هذا السلاح بنحور أعدائنا المعتدين على أرضنا، وماذا عن المدد؟

: لقد جاءتنا النجدة لتفك الحصار عنا، لكن الأمطار الغزيرة والسيول الجارفة حالت دون وصول النجدة إلا في وقت متأخر في صباح هذا اليوم بعد أن انتهت المعركة.

ـــ : إيه!! الحمد لله إلى خطوة أخرى.

* * *

وقف سعدون متأثراً متأففاً من الأمر الذي أحضره مراسل القيادة وهم على مشارف «المالكية» بطلب الإنسحاب من مواقعهم التي يحتلونها إلى الخطوط الخلفية في التلال الحصينة فبادره رفيقه:

ـــ : ما بالك واجماً هكذا؟

: هذا الأمر الذي وصل إلينا يطلب منا الإنسحاب من مواقع لا يمكن أن نعوضها.

ـــ : وماذا تريد أن تعمل؟

: سأجمع قادة الفصائل ونتداول الرأي معاً.

ـــ : وماذا عساهم أن يفعلوا؟ الأوامر وقد صدرت إليهم بالإنسحاب.

: قد نتوصل إلى رأي صائب، فنحن في بداية الليل ولدينا الفرصة التي قد يسعفنا الحظ ونهزم أعداءنا فيها تحت جنح الظلام.

ـــ: ها هم قادة الفصائل قد حضروا.

: ما رأيكم بهذا الأمر الذي جاءنا في هذا الموقف؟

ـــ: وماذا ترى أنت؟

: أرى عدم الإنسحاب والاستمرار بمباغتة العدد تحت جنح الظلام.

ـــ: لا تنسى أنهم يحتلون القرية ويتخذونها كمتاريس لهم ولديهم قوات أكبر من قواتنا.

: أعلم ذلك، ولكن نرجو من الله أن يعين عليهم ويكممهم.

ـــ: ماذا ترون أنتم؟ يقوله أحد قادة الفصائل.

: نؤيد رأي سعدون.

ـــ: إذا نكتب للقيادة ونستمر في مواقعنا. هكذا قال سعدون.

: حسناً، حسناً. هكذا ردد قادة الفصائل.

ـــ: عليكم بالتناوب بمهاجمة العدو من مختلف الاتجاهات، وكل فصيل يهجم لوحده لمدة نصف ساعة ثم ينسحب ليهجم الفصيل الثاني من الجهة المقابلة وهكذا. حتى نوهم العدو بكثرة قواتنا ونجبرة على الإنسحاب من المالكية.

وهكذا استمر هذا الترتيب طول الليل، حتى إذا بزغت أشعة الفجر أشعل جنود العدو النار بمستودعاتهم وانسحبوا تحت ستار غبشة الليل، وعندما علم سعدون بهذا أراد أن يتأكد مخافة خداع العدو، فأرسل من يتأكد عن الموقف، فوجد القرية خالية تماماً من جنود العدو، فتقدم بقوته واحتل القرية وعندها سأل مساعده.

ـــ: هل تأكدتم من خلو المواقع من جنود الأعداء؟

: نعم، لم يبق فيها أحد.

ـــ: كيف وضع رفاقنا؟

: كلهم سالمين ولله الحمد عدا مصاب واحد(١١١).

: الحمد لله، وماذا عن الغنائم؟

: لقد وجدنا خلف العدو مدافع متنوعة، ورشاشات وأسلحة وعتاد وجهاز سلكي، وسيارة كبيرة محملة بالمؤن.

ــ: حسناً، وماذا عن قتلاهم؟.

: لقد وجدنا مئتين وخمسين قتيلاً في بيت واحد.

ــ: في مكان واحد!!؟

: نعم، قد يكونون جمعوهم من أماكن مختلفة تمهيد للاستعانة بأعوانهم للسماح بنقلهم في وقت لاحق.

ــ: ربما، إلاَّ إذا كانوا قد تمركزوا في هذا البيت.

: احتمال ضعيف أن تتراكم الجثث بهذه الكثافة إلا أن تكون مجمعة.

ــ: حسناً، إذاً لنخبر القيادة بذلك.

وبعد إخبار القيادة جاء المسئولان(١١٢ - ١١٣) وشكرا سعدون ورفاقه على هذا الثبات في مواقعهم في الوقت المناسب وهذه الخطوة الجيدة التي اتخذوها.

* * *

وقف سعدون بين أفراده يتفرس وجوههم تارة ثم يسبح بطرفه تارة أخرى مما جعل مساعده يسأله:

ــ: ما بك اليوم تركز على وجوه رفاقك، وكأنك تريد أن تختار منهم أحداً لمهمة من المهمات؟

: هاه!! نعم هناك مهمة لا تزال تحوك بنفسي.

ــ: وما عساها أن تكون؟

: آه!! السيطرة التامة على «الشجرة» هذه القرية التي اتخذ العدو مستعمرة بجوارها، وهي كما تعلم تسيطر على طريق الناصرة الرئيسي.

ــ: لقد حاول العدو عدة مرات السيطرة من جانبه عليها ولكنه حتى الآن لم يظفر بما أراد.

: المهم يجب أن ننتزع زمام المبادرة منهم.

ـــ: إذاً لنعد العدة في الليلة القادمة.

: نحن على أتم الاستعداد.

لكن العدو قد عاجلهم قبل هذا الموعد، وفي وضح النهار، فما كادت ثلة من المجاهدين تصل إلى أحد النقاط الحساسة حتى فاجأها أفراد العدو[١١٤] حيث تحرشوا بهم وأحاطوا بسيارتهم فقاوموا مقاومة باسلة وأفلتوا من قبضة العدو بأقل الخسائر، في نفس اللحظة التي علم رفاقهم بالأمر وانتشروا على التلال، وتصدوا لمحاولة العدو ثم أجهضوا الخطة التي أعدها لمباغتتهم، واستمرت المعركة لمدة أربع ساعات وتقابل الفريقان وجهاً لوجه بالقنابل اليدوية، مما اضطر العدو إلى الإنسحاب من خطوطه الأمامية إلى الخطوط الخلفية في الجزء الذي يسيطر عليه تحت صلو النار من المجاهدين الذين طوقوهم، ولم يلبثوا غير فترة قصيرة حتى طلبوا السلام من لجنة الهدنة التي تدخلت في الوقت الذي كان العدو فيه بموقف حرج ومنعت المجاهدين من تضييق الخناق على العدو وهزيمته، غير أن العدو قد اتخذ من هذا الإجراء مجالاً لإستعادة أنفاسه، ثم خرق شروط الهدنة، وبدأ بإطلاق النار مرة ثانية مما سبب إزعاجاً للمجاهدين، وبعد انتهاء المعركة إلتم إلى سعدون مساعده حيث بادره بقوله:

ـــ: هاه!! أخبرني عن رفاقنا؟

: بصفة إجمالية، بخير.

ـــ: عسى ألا يكون فيه شهداء كثير؟

: لقد بلغ الشهداء من رفاقنا ثلاثة عشر شهيداً.

ـــ: ثلاثة عشر !! وأسفاه، والجرحى؟

: الجرحى خمسة عشر جريحاً[١٢٨ ـ ١٤٢].

ـــ: هذه خسائر كبيرة نسبياً فما هو السبب؟

: يبدو أن السبب مباغتة العدو لنا في وضح النهار، وبأعداد كبيرة، ونيران كثيفة، ولكنهم...

ــ : ماذا تريد أن تقول؟

: أقول إن عدد قتلاهم قد تجاوز المئة قتيل، ومثل هذا العدد من الجرحى، مما اضطرهم تحت هذا الموقت أن يطلبوا وقف إطلاق النار من لجنة الهدنة.

ــ : وكم غنمنا من حصاد المعركة؟

: كانت الغنائم مدرعتين وأربعة عشر بندقية وخمس رشاشات وعدداً من العتاد والقنابل اليدوية مع عدد من المعدات.

ــ : والله لن تذهب دماء رفاقنا هدراً عند هؤلاء الأوغاد الجبناء.

: سنعد لهم العدة.

ــ : وستكون خطة محكمة لاحتلال هذا الموقع الهام ولن يكون للعدو موطىء قدم فيه.

: لنختار القتال تحت جنح الظلام.

ــ : هذا مايدور في ذهني الآن، فالعدو لا يجرؤ على القتال إلا في وضح النهار، أما القتال الليلي فإنه يجبن عن خوض معاركه.

: آه!! ليتني أظفر به، والله لأمزقنه إرباً إرباً.

هكذا تفوه سعدون بهذه الجملة عندما كان واقفاً أمام رفاقه، فبادره مساعده بقوله: من تعني؟ فأجابه أعني هذا «المختار» الخائن المتعاون مع العدو، والذي ربما يطولنا أذاه، وأخل في ميزان الوضع الذي نحن فيه، حيث أننا الآن نسيطر على قرية القسطل سيطرة تامة وأخشى أن يغتنم الفرصة ويرى علينا ثغرة من الثغرات فيخبر العدو بها، فمنذ فترة والعدو يحاول احتلال مواقعنا بدون جدوى، إيه !! لعل الله يوفقنا إلى أسهل الطرق.

* * *

كان العدو في هذه الفترة يعد العدة لإخراج المجاهدين من القرية فعمل على جرهم في معركة خارجها، وذلك بالاشتباك مع مواقعهم خارجها بقوة شديدة الضغط، مما حدا بالفصائل المسيطرة على القرية لنجدة رفاقهم الواقعين تحت وطأة براثن العدو في هذه الأثناء كان العدو قد أعد العدة

لدخول القرية من الخلف بعد أن أخلاها من كان فيها من المجاهدين وعندما عاد المجاهدون إلى القرية وجدوا مواقعهم قد احتلت من قبل عدوهم فاستماتوا في استعادتها، وتوالت النجدات وتم حصار القرية لمدة أربعة أيام بلياليها؛ تم اقتحامها في نهاية الأمر بعد تضحيات جسيمة وخسارة في الأرواح، وفقدان المجاهد القائد الشجاع(١٤٤) الذي سقط أثناء اقتحامه لتحصينات العدو، مع عشرة من رفاقه بين قتيل وجريح مما حدا بقيادة المجاهدين أن تنقذ الموقف بنجدة سريعة(١٤٥) ومعها مدرعتين غنمها المجاهدون من العدو، وتمكنت هذه النجدة من احتلال القرية وتطهيرها من العدو بالقضاء المبرم عليه استدعى القائد بمساعده حيث سألة :

ــ : أخبرني عن الأمر؟

: لقد انطلت علينا خدعة العدو هذه المرة.

ــ : كيف نسمح له بأن يفعل بنا ما فعل؟

: لقد استجرنا خارج مواقعنا الحصينة لنجدة رفاقنا ويبدو أنه أخبر بإخلائنا مواقعنا حين أسرع في احتلالها.

ــ : مادام هذا «المختار» وأمثاله بيننا وما ينقلونه للعدو من معلومات عنا فلن يستقيم لنا ظهر، وهو مايجب القضاء عليه قبل عدونا، لأن هذا عدو داخلي، وهو أخطر علينا في كثير من الأحيان من العدو الرئيسي، وذلك للتعاون الوثيق بينهما.

: أتعتقد أن ما حدث بسببه؟

ــ : بلا شك، بلا شك!! ومن فقد من رفاقنا؟

: لقد استشهد منهم خمسين شهيداً وحوالي مئة جريح بين مدنيين وعسكريين وفقدنا قائداً مقداماً هو الشهيد عبدالقادر.

ــ : رحمك الله، رحمك الله أيها القائد الشجاع، والمجاهد الفذ.

: لولا فزعة الله بوصول النجدة إلينا(١٤٥) لصارت الخسائر أفـدح والمصائب أعظـم.

ــ : إيه، الحمد لله على ما قدر ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه**

راجعون﴾ لنا لقاء آخر معهم وسوف نجازيهم عن فعلتهم هذه بما هو أشد منها وقفاً.

* * *

وتقدمت قوة المجاهدين من «ترشيحا» إلى «بليدى» تنفيذاً لأوامر القيادة العليا، وذلك لتعزيز الحصار المفروض على المنارة، والذي حاول العدو عدة مرات فكه دون فائدة، وما إن أخذت هذه القوة مواقعها على المرتفعات المشرفة على بحيرة «الحولة» وفي ساعات الصباح الأولى[١٤٦] رأى رجال سعدون عدداً من أفراد العدو يحاولون الإقتراب من الخطوط الأمامية، فاشتبكوا معهم وجهاً لوجه بالقنابل اليدوية، فأسرعوا للانسحاب تاركين وراءهم الأسلحة والعتاد والذخائر وقد عثر على ما خلفوه من هذه المتروكات في الصباح، غير أنه بقى نقطة كان المجاهدون حريصين على احتلالها تلك الأكمة التي اتخذها العدو مركزاً لمدفعيته ونقطة يضرب منها قرية «ميس» وفي الساعة المقررة[١٤٧] تقدمت قوة المجاهدين واحتلت هذه المرتفعات بعد أن صبت على العدو النار الحامية، وانسحب العدو تاركاً وراءه أعداداً من القتلى والجرحى، وأعداداً كبيرة من الأسلحة والذخائر.

ولم يهن عليه الأمر، فجهز أربعة عشر مدرعة وسيارتي «جيب» إحداهما مصفحة وسيارتي نقل «لوري» محملة بالذخائر في محاولة لفتح الطريق وفك الحصار عن القرية المحاصرة لكن أحد الأفراد[١٤٨] كان لهذه النجدة بالمرصاد حيث زرع ألغاماً تحت الجسر، وعند مرور المدرعات والعربات فوقه تم نسف الجسر، فدمرت معظم المدرعات، ولم يسلم منها سوى أربعة غنمها هذا الفرد الذي تبنى العملية بالإضافة إلى إحدى سيارات الجيب، أما من كان بداخل هذه المدرعات فقد أبيدوا كلهم عدا واحداً تم أسره وقد استمرت هذه المعركة أربعة أيام لم يفصلها سوى تدخل مراقبي الهدنة.

وما إن توقف إطلاق النار حتى استدعى سعدون مساعده لاستطلاع النتائج فبادره بقوله:

ـــ: ما أخبار رفاقنا؟

: بخير، عدا سبعة استشهدوا[١٤٩ - ١٥٥] وثلاثة جرحوا[١٥٦ - ١٥٨].

ـــ: وماذا عن العدو؟

: لقد كانت خسائرهم فادحة في الأرواح والعتاد.

ـــ: كم قتل منهم؟

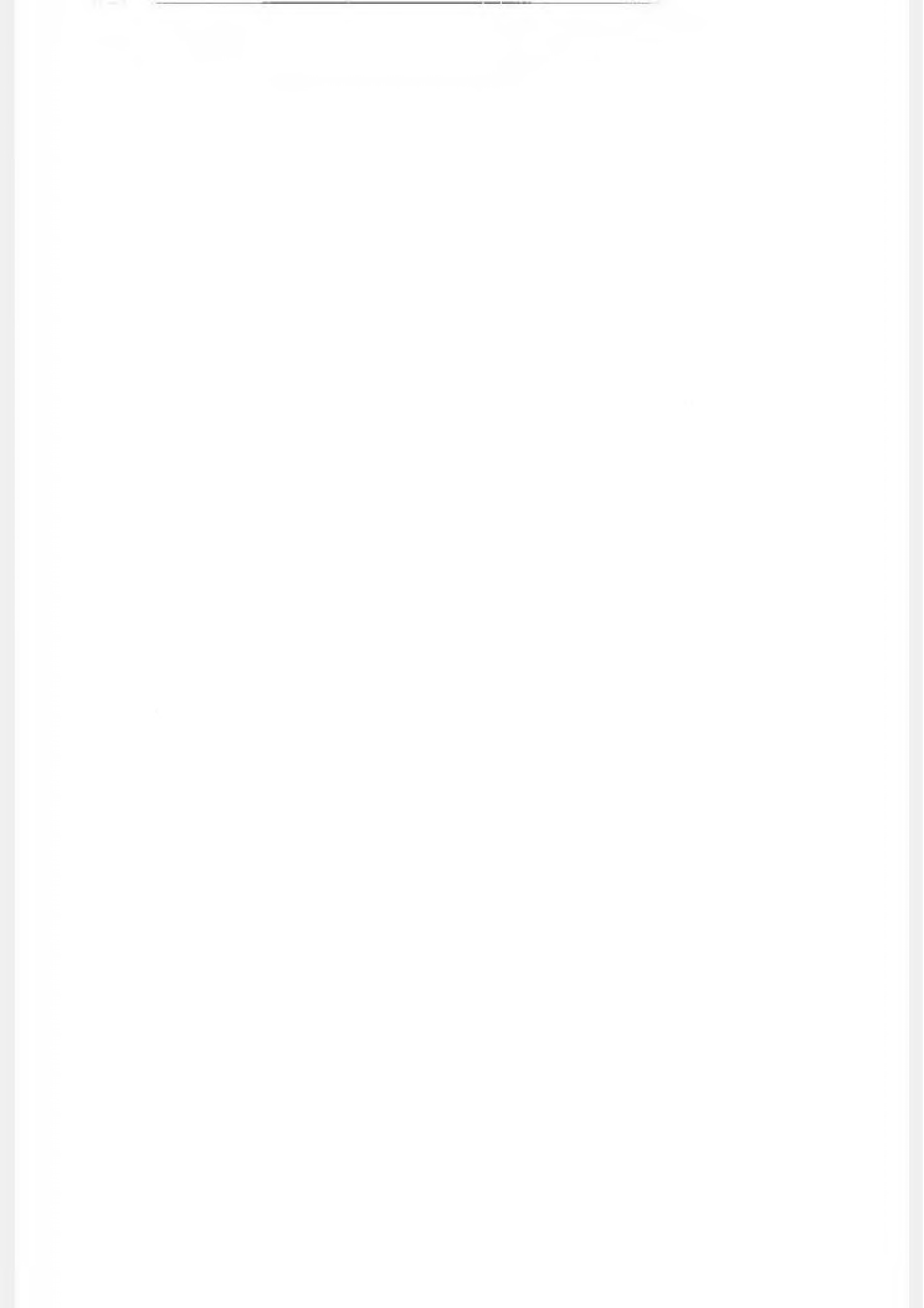
: أكثر من مئة قتيل، وعدد من الجرحى ولدينا أسير واحد.

ـــ: وعن العتاد؟

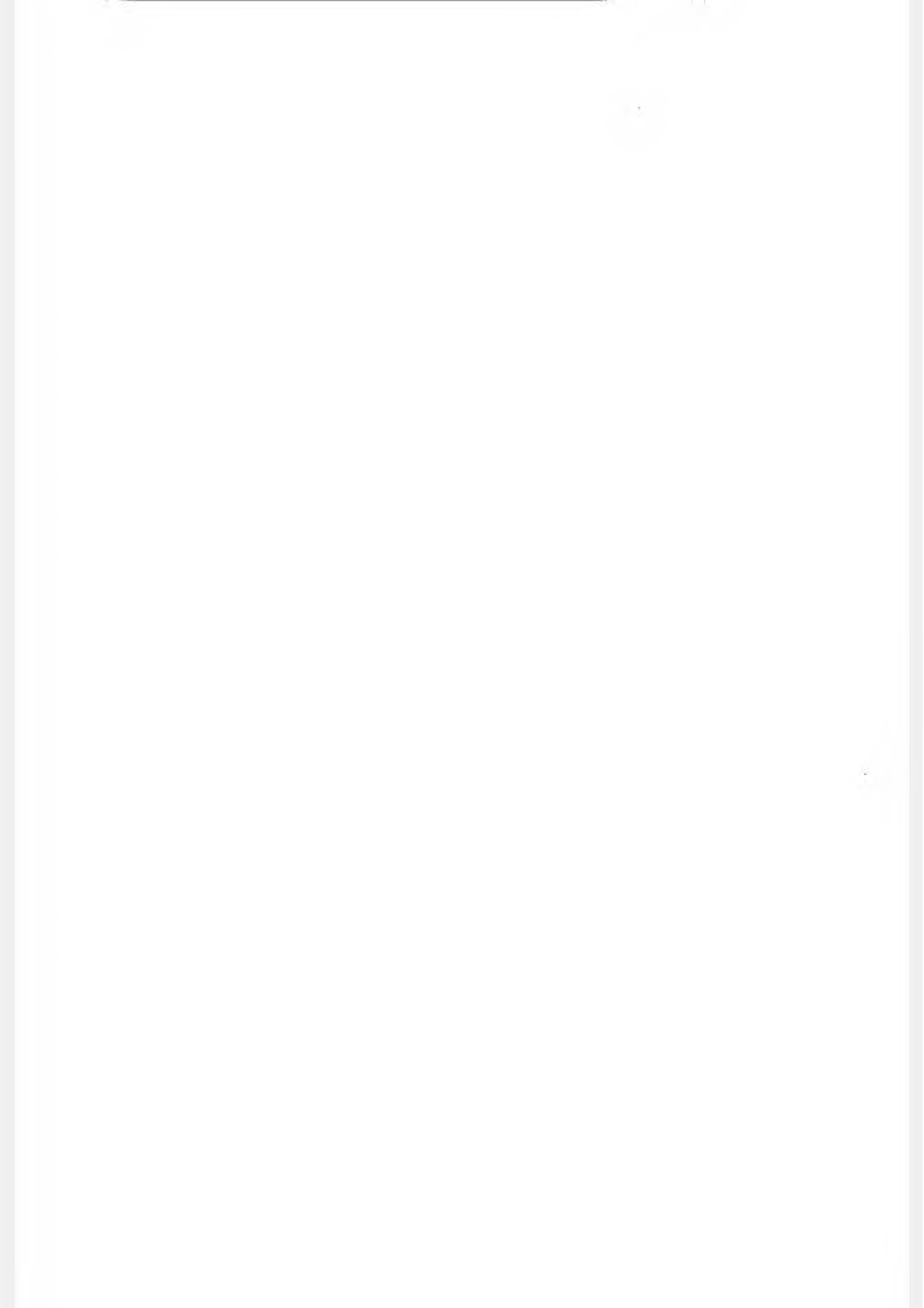
: لقد دمرنا لهم عشر مدرعات وسيارة «جيب» وسيارتي نقل بما فيها من الذخيرة والعتاد، حيث تفجرت واحترقت أما السلاح فقد غنمنا أعداداً كبيرة من البنادق والذخيرة.

ـــ: حسناً، سنتابعهم وسنبقى شوكة في حلوقهم حتى يرحلوا عن هذه الأرض التي يحاولون اغتصابها وطرد أهلها منها بمساعدة أنصارهم ومساعديهم.

: نحن معك، والله معنا إن شاء الله.



قصـــة رقــم (٢٤)



السـيدة المثاليـة

«لا إله إلا الله الحي القيوم، أصبحنا وأصبح الملك لله الواحد القهار كاشف الليل عن النهار» هذا أول ماأفتتحت به أم عبدالله كلامها بعد أن نهضت من فراشها على صوت صياح الديك الذي كان يعتبر بمثابة الساعة ذات المنبه حينذاك، فأشعلت ذبالة «الكيروسين» بعود الثقاب ثم اقتبست من الذبالة لهبة في سعفة النخل الجافة وشبت النار في الكانون لتسخن عليه الماء، فتوضأت وصلت عدداً من الركعات قبل أذان «النّباه» الفجر الأول ثم أيقظت ابنيها ليذهب أحدهما مع الفلالي الذين يحضرون العشب من البر على ظهور دوابهم، والثاني لسني الإبل وإخراج الماء من البئر لسقي الزرع والنخيل ثم أيقظت ابنتها لأداء الصلاة ولمساعدتها على عمل المنزل، وبعد أداء صلاة الفجر شرعت أم عبدالله بتجهيز وجبة الفطور لأهل بيتها من الأرغفة التي تعملها في البيت، وأحياناً تجعل هذه الوجبة من العصيدة المحلاة بالدبس، ولم تبزغ الشمس حتى انتهت من عملها المنزلي بعد أن ملأت الأواني بالماء الذي أحضرته على رأسها من الساقي بإناء نحاسي، ثم عطفت على أرضية المنزل فنظفته بعد ذلك أخذت زنبيلاً مليئاً بالحب وفوقه إناء مليء بالتمر وبعض الخبز مما صنعته ذلك الصباح فبادرتها ابنتها:

ــ : أين تريدين يا أماه؟

: لن أغيب طويلاً يا بُنَيَّة.

ــ : أتسمحين أن أسألك؟

: تفضلي.

ـــ : أراك في كثير من الأحيان بالليل أو النهار تأخذين هذا الزبيل المليء بالطعام ولا ندري أين تذهبين به؟

: وهل فطنت لذلك؟ مع أنني أحاول ألا يعلم بي أحد!!

ـــ : لقد اعتراني الخجل عن سؤالك عدة مرات.

: كما تعلمين يابنية أن بقريتنا ومن ينزل بقربها مجموعة من الأسر الفقيرة الذين هم بأمس الحاجة إلى من يمد إليهم يد العون والمساعدة.

ـــ : ولكن ما تأخذينه قد لا يكفي لحاجة تلك الأسر!؟

: بودي لو أنني أملك مثل جبل رَمَّان ذهباً وفضة أو طعاماً حتى أستطيع أن أسد فاقة كل محتاج، لكن يابنية «الجود من الموجود» كما يقول المثل.

ـــ : ولكن ما في هذا الزنبيل قليل في نظري.

: يَا بُنَيَّة!! ما في هذا الإناء من التمر والأرغفة يفرح به الأطفال الصغار، أما الحب فيكفي تلك الأسرة ليومين أو ثلاثة.

ـــ : لو جمعت ما توزعينه في كثير من الأوقات لفقير واحد لربما تسببت في انتشاله من بؤرة الفقر.

: أُبَنَيَّة!! لا ينتشل الإنسان من الفقر إلا الله، ثم العطاء الجزل، ثم إن الفقراء كثيرون، وكون هذه المبرة تأتيهم واحداً بعد الآخر في أوقات متفاوتة تكون أعم نفعاً وأعظم أجراً عند الله.

ـــ : لا شك، فأنت أعلم مني بذلك.

: والله لو تعلمين بفرحة الأطفال بهذه التميرات التي أحضرها لتلك الأسرة الفقيرة لتغير رأيك.

ـــ : ولكن، هل يكفي أهل هذا البيت ما تحضريه لهم إلى أن يأتي دورهم وتأتين إليهم مرة ثانية؟

: لا تنسى يابنية، أن الاجواد كثر ولله الحمد، وأن فاعلي الخير يتسابقون إلى بيوت هؤلاء الفقراء بما تجود به أريحياتهم.

ـــ : جزاك الله خيراً يا أماه.

: لم أبلغ في هذا المجال معشار ما بلغته أمي رحمها الله.

ـــ: إذاً هذه السجية قد ورثتيها؟

: وسأورثها أبنائي من بعدي لمن يهده الله إليها.

ـــ: هل يقتصر ما توزعينه على فقراء قريتنا؟

: وعلى الأعراب الذين ألقت بهم ظروف الحياة القاسية بجوارنا.

ـــ: لكن أكثرهم لا يعملون كما يعمل الناس ليكسبوا لقمة العيش.

: إنهم يعملون بقدر استطاعتهم، فمنهم رعاة الإبل والغنم والبهم، وهذه المهن التي يعرفونها ويعيشون من ريعها، وقد لا يحتاج أكثرهم للمساعدة.

ـــ: إذاً، من هم الذين يحتاجون للمساعدة؟

: هناك عجوز كبيرة، وشيخ هرم ليس لهما من يعولهما، كما يوجد الأيتام القُصَّر عند أمهم التي تكسب من عرق جبينها لتؤمن لهم لقمة العيش الكريمة، مثل هذه الفئات هم الذين يحتاجون إلى المساعدة العاجلة.

ـــ: ضاعف الله لك الأجر والثواب يا أماه. تقول ذلك وهي تودع أمها. حملت أم عبدالله الزبيل على رأسها متوجهة إلى هدفها وفي ذهنها سؤال ابنتها عن هذه الأسر المستحقة للمساعدة وهي تردد في ذهنها: أما علمت هذه الشابة الغِرَّة أن هناك من العجائز والشيوخ الذين حرمهم الله من الذرية بالعقم أو موت ذراريهم، وبقوا في بيوتهم بعد أن تقدمت بهم السن وعجزوا عن العمل، لا دخل لهم إلا ما تجود به أريحيات أهل الفضل والإحسان فتمتد إليهم وتمدهم بمساعدتهم على أود الحياة إلى جانب هؤلاء يوجد المُقْعَدَةُ والمُقْعَدُ الذي لا يستطيع ممارسة أي عمل، هذه الفئة بأمس الحاجة للمساعدة، وبالأخص إذا كان هذا المقعد قد تزوج ورزق بذرية، في هذه الحالة تكون مساعدتهم ملحة، كما أن هناك أم الأيتام الذين اختطف المنون روح والدهم، وترك خلفه حفنة من الأطفال الصغار كأنهم زغب الحمام في رعاية أمهم التي تحاول جاهدة اكتساب لقمة العيش الشريف لهم بما تساهم به من عمل يدوي إن كانت تتقن إحدى المهارات الفنية كالخياطة أو النسيج وغير ذلك من المهن، أو ما تقوم به من مجهود عضلي في أعمال الفلاحة كالحصاد وتنقية الحب وغيره.

إيه!! كثيرة هي الفئات التي تحتاج إلى المساعدة، وها أنذا وصلت وما إن طرقت الباب وفتحت لها صاحبة المنزل حتى علت كلمات الاستبشار من الأيتام الصغار، وعلت البهجة أسارير وجوههم لما عودتهم عليه هذه السيدة بين الحين والآخر لإحضار مايسد رمقهم ويقتل جوعهم، وحينما وضعت أم عبدالله الزنبيل عن رأسها حتى التم الصبية حولها فبادرت والدتهم بمناولتهم من الوجبة الجاهزة فأكلوا وانصرفوا من عند أمهم التي تنهدت قائلة:

ـــ : لقد أحرجني هذا الطفل الذي يسألني كل صباح ومساء عن أبيه.

: يسألك !!؟

ـــ : نعم منذ أن فارق والدهم هذه الحياة إلى رحمة ربه قبل أكثر من عام، وأنا أواجه الأسئلة منهم وبالذات هذا الطفل، متى يعود أبونا من سفره؟

: وبماذا تردين عليه؟

ـــ : أعدهم وأمنيهم إلى أن مللت من كثرة هذه الوعود والآن أكاد أن أصارحهم في الأمر.

: لا تصارحيهم الآن، إنهم صغار لا يدركون ما يعنيه الموت، وقد يسألونك أسئلة محرجة عن معنى الموت، ولكن عديهم بوعود من نوع آخر.

ـــ : بماذا أعدهم!؟

: كأن تقولي لهم إن أباكم مع الجيش المجهز لمقاتلة الأعداء والدفاع عن الأوطان، وبإمكانك أن تسليهم بالحكايات عن الأعمال التي يقوم بها والدهم مع رفاقه في الدفاع عن وطنهم، وحماية أرضهم ودحر أعدائهم، ذلك لتغرسي في نفوس أولادك بذور الشجاعة والإقدام، والغيرة على الوطن والتفاني في الحفاظ عليه وإنكار الذات، وغير ذلك من الخصال الحميدة التي باستطاعتك أن تغرسيها وتنميها في نفوسهم وتجعليهم يعيشون في أمل مستمر.

ـــ : قد يكون ما أشرت إليه يفيد الذكور من أبنائي ولكن البنات قد لا يهمهن مثل هذا الأمر.

: على العكس يا أم راشد، فالفتاة لا تقل إحساساً واشتياقاً عن الذكر لمعرفة أخبار البطولات، فكل فتاة تفخر بمواقف والدها أو أخيها البطولية، وهي حريصة على الاعتزاء بمن له مواقف مشرفة وصولات وجولات على الأعداء.

ــ : وماذا تدرك الفتاة من معنى المعارك؟

: إنها تفتخر بمواقف رجالها الأبطال، وربما شاركت الفتاة في يوم من الأيام إلى جانب الرجل في ميدان المعركة.

ــ : المرأة تشارك الرجل في المعارك!؟

: لا غرابة في ذلك، فقد شاركت الفتاة العربية المسلمة إلى جانب الرجال بالمجال الذي تستطيعه، كأن تقوم بتضميد الجرحى، ومداواة الكلمى، وقد تشترك في القتال بالسلاح جنباً إلى جنب مع الرجل عند الحاجة.

ــ : كأنني لم أستوعب هذا الكلام!!؟

: عليك بتربية أبنائك وغرس الثقة بأنفسهم منذ الصغر، وعوديهم على معرفة الاعتبارات البناءة فلعل الله أن يضاعف لك بهم الأجر والثواب، وأن يجعل لك الربح منهم.

ــ : أرجو ذلك، ولكن الظروف الصعبة التي نعيشها تجعلني أحياناً أذهل نفسي، فضلاً عن أن أربي أبنائي التربية التي أشرت إليها.

: إذا جمعت بين الخصلتين تربية أبنائك والصبر على ما أنت فيه من ظروف الحياة فذلك أعظم لأجرك.

ــ : أرجو من الله ذلك، إنني كل يوم آتى بحزمة من الحطب فوق رأسي وأرمي بها في بيت أحد الأجواد، وأنا أعلم أنهم ليسوا بحاجة إليها، وذلك لكي أحصل منهم على شيء من الطعام لهؤلاء الأطفال.

: كل يوم حزمة حطب!!؟

ــ : نعم، وإن كان لدي من الطعام مايكفي أبنائي ذلك اليوم فإنني أحضر الحطب إلى بيتي ليتدفأ عليه أطفالي.

: عوضك الله عما تبذلينه في سبيلهم، وجعلك تعيشين في كنفهم.

ــ : آمين، لكن الطريق طويل!! تقول ذلك وهي ساهمة شارده التفكير.

: ما أقرب ذلك، حين تفتحين عينيك في يوم من الأيام فتجدين عندك أربعة من الرجال الأشداء الذين يتزاحمون في طريق المعالي، وكل يقول: إن الحق لي أن تعيش والدتي بكنفي فلا تدرين من ترضين منهم، ويصبح لديك ثلاث من الفتيات الجميلات مثل أمهن، فيتزاحم الخطّاب على بابكم، ويتزوجن من عليه القوم، وكل واحدة منهن تريد منك أن تجلسي وتعيشي معها في بيت الزوجية ولو بعض الوقت، فلا تكادين تتركي هذه حتى تتخطفك الأخرى بلهفة وشوق.

ـ: أوه!! لقد فتحت باب الأمل أمامي على مصراعيه.

: إنه الأمل المرتقب، والهدف المرتجى، ومن منا لا يعيش على الأمل يا أم راشد؟

: لا شك في ذلك لولا طول المشوار..!! تقول ذلك وهي مطرقة، وكأنها تتصور شيئاً أمامها.

: مالك مطرقة هكذا يابنية!؟

ـ: كما تعرفين يا أم عبدالله إنني لا أعرف من كسب الرزق إلا إحضار الحطب أو العمل اليدوي في الفلاحة مع الناس، وفي يوم من الأيام رميت بحزمة حطب عند باب أحد الأثرياء ورأيت من تعابير وجهه أنه لا يرغب أن آتيه بمثل هذا الحطب مرة ثانية، فسللت حبلي ومضيت دون أن انتظر لما يمده إليَّ من طعام ولم أعد إليه مرة أخرى.

: هناك اختلاف بين الناس فلا غرابة في ذلك.

ـ: لقد تعلمت من التجربة الفعلية، ولذلك صرت أعرف الأجواد الذين يقدرون الوضع الذي أعيش فيه.

: أعانك الله، وثقي يا أم راشد أن كل حبة عرق تسقط منك في سبيل تربية هؤلاء الصغار لن تضيع هباً وستجدينها في ميزان الحسنات عند الله وقد زادت مئات الأضعاف، بالإضافة إلى مردودها عليك في هذه الحياة من قبل أبنائك.

ـ: جزاك الله خيراً، لقد فتحت لي أبواباً واسعة، وغرست الثقة في نفسي، لقد

أصبحت أشعر وكأنني لست أرملة وأم تعيل سبعة أيتام. إنني أتخيل المردود الجزل الذي سأجنيه من تربيتي أبنائي والصبر على ما ألاقيه في سبيلهم.

: استودعك الله، وإلى لقاء قريب.

ـــ : حفظك الله.

عادت أم عبدالله إلى منزلها وهي تردد في نفسها: ماأغلظ أكباد بعض الناس، وما أقسى قلوبهم !؟ رجل ثري يرى أرملة تحضر له على رأسها حزمة من حطب الرمث، ثم ينظر إليها شزراً بوجهه العابس وجبينه المقطب، وكأنه يقول لها: إياك أن تعودي لمثل هذا الأمر، لأنه يعلم أنها لم تأته بهذا الحطب إلا لطلب نواله، فبدلاً من أن تمد له يدها طالبة إياه مساعدتها على إعالة أبنائها، أتته بشيء يستفيد منه وما يعطيها جزاءاً له لا يساوي شيئاً مما بذلته من جهد وما نزفته من عرق في سبيل إحضار هذه الحزمة الكبيرة من الحطب على رأسها من مسافة بعيدة «حوالي ٥ أكيال» تحفر عن شجيرات الرمث لتخرج جذوعها، وتَحُتَّ ما على أغصانها من الهدب ثم تحزمها بحبلها وتحملها على رأسها بمساعدة رفيقاتها، وتسير بها هذه المسافة ثم ترمي بها عند باب هذا الثري لتتوقع منه قليل من طعام قد لا يكفي لوجبة واحدة لها ولأطفالها وإذا بها تجد عوضاً عن ذلك تلك النظرات القاسية والتقطيبة المحكمة، أترى لو أنها أحضرتها له بالمجان، أما تنقلب تلك التقطيبة إلى ابتسامة عريضة؟ وتلك النظرات الشزر إلى رنوٍّ حاني!؟ إيه، ها هي تركت له الحطب بالمجان، وسلَّت حبلها من الحزمة، وعادت إلى أبنائها خاوية اليدين، ياالله، ما أكبر وما أعظم فرحة أولئك الصبية الصغار بأفواههم الجياع بعودة أمهم التي تأتي إليهم ظهر كل يوم وقد أحضرت لهم قوت يومهم، وما أشد انكسار أبصارهم عندما يرونها خالية الوفاض، ليس بيديها شيء سوى الحبل الذي تحزم فيه الحطب!؟ ياالله ما أقوى صبرها وهي تواجه أطفالها وليس معها شيء، لتتحطم نظراتهم على قدميها، ولعلها تكون قد ادخرت لهم شيئاً مما حصلت عليه بالأمس لتسد به رمقهم هذا اليوم. إيه!! قاتل الله الشح، ومحق البخل، كم حرص مثل هذا البخيل واستمات على ماله فلم ينل

منه الفقير شيئاً، ولم يحصل المحتاج من الشيوخ والعجائز والأيتام والأرامل منه على قطمير، حتى لو اتبعوا أساليب معينة ترفع عنهم ذل السؤال، ولكن الصخرة الصَّمَّاء لا تندى مهما احتجزت وراءها من زلال الماء، لكن الحمدلله، فالدنيا لا تزال بخير، حيث يوجد مجموعة أخرى من الأجواد الكرماء الذين أنعم الله عليهم وهداهم، يقدرون ظروف مثل هذه الأرملة التي تقوم بإعالة سبعة أطفال بعرق جبينها وعمل سواعدها، فهم يعرفون أنها ما جاءت بهذه الحزمة من الحطب في هذا الوقت الذي تقل فيه الأعمال التي تستطيع ممارستها إلا وتريد أن تحمى نفسها وتصون وجهها من ذل السؤال، وتكف يدها عن حقارة المسألة، فلذلك ما إن ترمى بحزمتها حتى يلاطفها صاحب الشأن بكلمات وجمل تغسل عن جبينها أوضار التعب مثل «عافاك الله، ما أجزل هذا الحطب» وغير ذلك من الكلمات والجمل التي تدخل البهجة للنفس طالباً منها الإنتظار قليلاً لحين يحضر لها ماتجود به أريحيته من نوال، لتذهب به إلى صغارها، وفي اليوم الثاني تقصد كريماً آخر وثالثاً وهكذا دأبها طيلة أيام فصل الشتاء إلى حين تبدأ الأعمال الأخرى من موسم الفلاة ثم موسم الحصاد، ودرس الزرع وذريه وتنقيته، حيث تعمل عند الفلاحات لتأمين لقمة العيش لأبنائها، أعانها الله، ومثلها وأمثالها من الأمهات المكافحات الصابرات، يخرجن أولادهن من الرجال الجادين، ومثل هؤلاء النسوة لا خوف عليهن، ولكن الخوف على أولئك الشيوخ والعجائز الأرامل اللواتي لا يستطعن القيام بأي عمل من الأعمال أو أولئك المُقْعَدُوْن الذين لا يستطيعون الوقوف أو حتى الجلوس، ولكن عين الله لا تغفل، حيث جعل الله رزقهم يأتيهم بواسطة هؤلاء الأجواد الذين يرجون ما عند الله من أجر حين يتعهدون مثل هذه الفئات من المجتمع ويمدونهم بلقمة العيش، إيه!! مالي سرحت بعيداً وخضت في أحوال الناس؟ إن من لا يشعر بأحوال مواطنيه أعتبره فاقد الإحساس يعيش أنانياً لنفسه فقط، ولو لم يفطن من هؤلاء الأجواد وبنات الأجواد من النساء الفاضلات لماتت تلك العجوز التي تقيم بدارها وحيدة إثر مرض ألَمَّ بها فجأة، ولكن استمرار دخول هذه الفئة الطيبة من النساء عليها

بين الحين والآخر جعل إحداهن تعثر عليها حال إصابتها بالمرض، فسارعت بإسعافها بالأدوية المتاحة لها حتى أفاقت ثم نقلتها هذه السيدة إلى منزلها وبدأت بعلاجها حتى تماثلت للشفاء ثم أعادتها إلى بيتها، إيه إن الله لا يضيع دوداً بصفرة.

* * *

وما إن وصلت أم عبدالله إلى منزلها وتفقدت شئون بيتها التي وجدت أن ابنتها قد أكملته حتى أخذت مكانها لتكمل ما لديها من أعمال الخياطة والتفصيل التي برعت بها وعلمتها لإبنتها، حتى أصبحت ابنتها أكثر جودة وأتقن عملاً منها حينما تختار النقوش والتطريز الذي يلائم الشابات، ويسلب لبَّ السيدات، فكانت مقصد الشابات والسيدات من جميع أنحاء القرية بل وتعداها إلى القرى المجاورة لها، وما إن شرعت السيدة بعملها حتى طرقت الباب عليها سيدة من زبائنها ومعها ثياب لبناتها وبادرتها بالقول:

ــ : أرجوك يا أم عبدالله أن تخيطي هذه الثياب لبناتي ولتكن نقشة الأكمام والصدر من عمل ابنتك «سلمى».

: وأنا، ألم يعجبك عملي!؟

ــ : بلى، ولكن بناتي قد أكدت عليّ أن يكون تطريز جيوب وأكمام ثبابهن من عمل ابنتك إيه، هذه رغبة الشابات يردن ما سمعن به.

: لا عليك، أبشري فأنا وابنتي واحد.

ــ : ليكن التطريز بالقصب والابريسم مثلما عملت لهن في العام الماضي.

: وسيكون أحسن من العام الماضي إن شاء الله، ولكن..

ــ : ماذا تريدين أن تقولي؟ أتريدين أجراً أكثر؟

: ليس هذا ما أقصد، بل أريد سؤالك، ألم يخطر ببالك أن تتعلمي الخياطة والتطريز بنفسك؟

ــ : أنا!؟

: نعم أنت، في هذه الأيام لديك فراغ طويل حيث تقوم بناتك بكافة أعمال المنزل.

ـــ: صحيح، ولكن ليست لديَّ القدرة على ذلك.

: على العكس، لديك الذكاء والدقة في العمل وحب التجديد ومتى صممت على العمل فلن يعوقك شيء.

ـــ: كل ما أستطيعه من الخياطة هي رَفْيُ شقوق ثيابي ورتق فتوقها وخياطة الجديد منها خياطة غير جيدة.

: هكذا تشعرين، ولو أردت وصممت على ارتياد هذا العمل لوجدت نفسك قادرة عليه.

ـــ: كيف؟

: جربي مرة وأخرى وثالثة وسوف تتعلمين في كل مرة أشياء جديدة، وتتقنين فنيات جديدة في الخياطة التي تعتمد على الذوق والدقة والإتقان، وكل هذه الخصال متوفرة عندك.

ـــ: إنني امرأة كبيرة، ولن أحتاج إلى ارتياد هذا الأمر.

: ومن قال لك هذا!؟ أنت شابة لا تزالين في ريعان الشباب، ولو لم تستفيدي أنت من هذا الأمر كما تتصورين فإنه من الواجب عليك تعليم بناتك هذه المهنة الضرورية.

ـــ: بناتي!؟

: نعم، ألا تعلمين أنهن سيصبحن عما قريب ربات بيوت، ومسئولات عن تربية أبنائهن وبناتهن!؟

ـــ: هاه!! بلى، بلى.

: أتريدين من بناتك أن يصبحن اتكاليات لا تتقن الواحدة منهن خياطة ملابسها؟

ـــ: الخياطة شيء، والنقش والتطريز والتفصيل شيء آخر!!

: لا فرق بين هذا وذاك، فالمرأة التي تتقن خياطة الثوب العادي تستطيع بقليل من التؤدة والأناة والذوق في اختيار الألوان والنقوش المناسبة لكل ثوب.

ـــ: أتريدينني أن أطرز جيب الثوب «المُعَوْرَجْ» وأكمامه وبنائقه أو أطرِّز جيب وأكمام ثوب «المِقْطَعْ» أوْ المُهَيْكَلْ» وأتقنه كما تفعلين أنت أو كما تفعل إبنتك؟

: ليس ذلك بعسير على امرأة مثلك لديها من الذكاء والفطنة والذوق ما قد يفوق ما نتمتع به أنا وابنتي.

ـ: لا أظن، لا أظن!! تقول ذلك وهي تومىء بيدها إيماءة أفقية تدل على الرفض.

: جربي وسترين صحة قولي، وإن خفى عليك من الأمور الفنية شيء فتعالي إليَّ لأعلمك اياها وأرشدك إلى ما يصعب عليك.

ـ: سأفكر في هذا الأمر. وأرجو أن تجيدي خياطة ثياب بناتي.

كانت هذه آخر جملة تلفظت بها أم صالح وهي تودع رفيقتها، وأصداء ما دار من كلام لا يزال يطن في أذنها أحقاً ما تقول هذه السيدة؟ أن الإنسان ما دام يتمتع بقواه العقلية، وقدراته الذاتية، فلن يستحيل عليه القيام بأي عمل؟ أصحيح أنني أتمتع بالذوق الذي يؤهلني لأن أقوم وأبدع بالتطريز مما يجلب انتباه السيدات والفتيات، ويفضلن ما أختاره لهن من أعمال؟ لقد كانت عندي الرغبة في ذلك عندما كنت عند أهلي في عنفوان الشباب قبل أن أتزوج، ولكني لم أجد من يشجعني على ارتياد هذا العمل، ولما تزوجت شغلت بأمور المنزل والأسرة وانطفأت عندي تلك الجذوة المتقدة، إلى أن نبشتها هذه السيدة وبعثت عندي الأمل في أن أعاود إحياء ذلك الطموح من جديد، ترى ما الذي تهدف إليه هذه السيدة؟ أتريد تشجيع من قد ينافسها على هذه المهنة؟ لم أعهد هذه السجية من شيم أهل المهن، أن يشجعوا الآخرين أن يتعلموا مهنهم!! وهي بلا شك على العكس من أخلاقهم فأغلبهم يختلقون سبل التعمية لغيرهم حتى لا يتعرفوا على أسرار مهنتهم فينافسوهم فيها، أما هذه فإنها تدعوني وربما دعت غيري إلى ارتياد هذا المجال الذي لا يستغني عنه أحد ما دامت المرأة على قيد الحياة، فمن طبيعة المرأة حب التجمل والظهور بالمظهر الجذاب بما ترتديه من ملابس وما تقتنيه وتستعمله من أدوات التجميل والعطور مما يجذب الانتباه إليها، ومهنة كالخياطة والتطريز من الضرورة بمكان أن تتعلمها الفتاة، فتستغنى بها عن الأخريات ثم تعلمها لبناتها من بعدها، فينتقل الغنى بالمهنة من الأم لبناتها وحفيداتها جيلاً بعد جيل، والله إن أم عبدالله لمحقَّة في كلامها، فدعني أجرب نفسي، ولن

يضيرني ذلك، سأحاول مرات ومرات وبلا شك أنني سأتعلم شيئاً، سيما وأنها استعدت أن تساعدني وترشدني فيما يصعب عليَّ من أمور التطريز، سأجرب ولن تكون الخسارة سوى قطعة من قماش وعدد من لفائف الخيوط الملونة من الإبريسم وغيره وحتى أعرف بعض الشيء، وسأبدأ من الغد، وسيكون خياطة ملابس بناتي في العام القادم من صنع يدي.

* * *

بينا أم عبدالله في منزلها إذ طرقت عليها الباب إحدى رفيقاتها التي نقلت إليها أخباراً سيئة حدثت ليلة البارحة في أسرة بأحد جوانب البلد، ذلك أنه جرى بين الزوج وزوجته خلاف أدى إلى خروج الزوجة من بيت زوجها إلى بيت أهلها وما كادت هذه الزائرة تخوض في سيرة هذه الأسرة حتى استوقفتها أم عبدالله قائلة:

ــ : بدلاً من أن نتعرض لهم ونحن جلوس ونغتابهم، لماذا لا نفعل الأفضل؟

: الأفضل!! ماذا تعنين؟

ــ : نسعى بين أطراف النزاع في هذه الأسرة ونحاول إصلاح شأنهم.

: كيف!؟ تقول ذلك باستغراب.

ــ : أليس باستطاعتنا أن نقنع الزوجة لترجع إلى بيت زوجها؟

: لا أدري.

ــ : بل بإمكاننا ذلك.

: كيف؟ تقول ذلك بانبهار.

ــ : نقوم بزيارة للزوجة ونسمع وجهة نظرها ونحاول امتصاص ما في نفسها من غضب على زوجها ثم نتوجه إلى الزوج ونعرف وجهة نظره، ونحاول تلطيف جوه، ومن ثم تعود المياه إلى مجاريها.

: إنني أفتقد المقدرة على ذلك، إنني أستحي من الرجل، فلم يسبق أن كلمته رغم أننا في قرية واحدة وسبق أن جاورنا.

ــ : وأنا بدوري لم يسبق أن تحدثت معه، وكما تعلمين أننا عجائز «قد رفع عنا القلم».

: هاه!! قد لا أذهب معك.

ـــ: بل تذهبين معي للمؤانسة.

وقصدت السيدتان منزل والدة المرأة التي بقيت عندها، وعندما دخلتا عليها وسلم بعضهن على بعض وأخذت كل واحدة مكانها أخذ الحديث مناحي شتى فقالت أم عبدالله:

ـــ: كأنني أرى رقية عندك يا أم رباح!؟

: كما تعرفين بعض الرجال إذا غضب خرج عن طوره واستعمل العنف مع زوجته، فقد غضب عليها زوجها البارحة وصفعها صفعة على خدها مما جعلها تغضب عليه وتخرج من بيتها تاركة أولادها عنده.

ـــ: تركت أولادها الصغار!؟

: نعم تركتهم عنده لينشغل بهم وليعرف قدر زوجته.

ـــ: لا تقولي هذا ياأم رباح، فالأطفال ليس لهم سوى أمهم التي لن تصبر عنهم يوماً واحداً.

: بل تصبر عنهم، دعيه يتورط في شقائهم.

ـــ: هذا كلام غير منطقي، فلو غابت عنهم يوماً واحداً لضاق صدرها، وربما تجدينها الآن يرف قلبها إلى أصغرهم أليس كذلك يا رقية؟ تقول ذلك وهي تبتسم.

: لم ترد رقية سوى بنظرات فاترة ثم اغرورقت عيناها بالدموع لكن أمها نهرتها وتولت الكلام عنها قائلة:

بل ستبقى ابنتي عندي حتى تتبخر الأفكار من رأسه.

ـــ: كأني به اليوم وقد انتهى كل ما في نفسه عليها.

: مهما يكن، فلن تعود عليه قبل مرور سنة كاملة حتى يخرج ما في رأسه مع أظفار قدميه.

ـــ: سنة!! ولكنه قد لا يصبر، فالرجل إذا رأى من زوجته الصلف والتمنع قد يتزوج امرأة أخرى. تقوم بأوده وتعتني بأولاده.

: يتزوج!!؟

ـــ : وما الذي يمنعه مادمت تقولين هذا الكلام، فهو رجل مقتدر ومن رجال طيبين الكل يرحب به لو جاء يخطب منه ابنته.

: هاه!! ولكن لماذا إذاً يصفع رقية هذا الكف!؟

ـــ : كما تعلمين أن الرجل مزهوٌّ بنفسه ويمكن أن تكون قد أغضبته وهكذا بعض الرجال إذا غضب، ثم لا تنسي أنه زوجها أولاً وأخيراً.

: لا وفقه الله من زوج، ليس من الأزواج الذين يعاملون زوجاتهم بالحسنى.

ـــ : يهيء لك ذلك، أما الواقع فإن هناك الكثير من الزوجات يتحملن من أزواجهن الكثير من الأخطاء ليدوم استمرار العلاقة الزوجية.

: لا أظن أن هناك أسوأ من زوج ابنتي.

ـــ : على العكس، هناك الكثير ممن هم أسوأ منه، كما أن هناك الكثير من الزوجات التي تقوم الواحدة منهن بمعاندة زوجها ومناكدته ومناقرته طيلة تواجده عندها بالبيت وحتى في فراشه.

: أوه، لقد أكثرت من العيوب يا أم عبدالله.

ـــ : هذا الواقع، وكثير من الناس من لا يظهر ما يجري له ويصبر على ما هو فيه، وأنت ماذا تقولين يارقية؟

: أنظري هذه بصمات كفه على وجهها، إثر تلك الصفعة القوية التي أودعها خدَّها.

ـــ : ستزول هذه البصمات بقبلات اللقاء الحارة التي ستحدث بينهما بعد أن ينتهي ما في النفوس من عوالق.

: تنتهي !!؟

ـــ : نعم، وكأنني أري رقية وقد وافقت على العودة إلى زوجها، بشرط أن يأتى إليها بهدية رمزية تمسح بها ما علق بنفسها من أوضار هذه الحادثة العابرة لتكون مشرفة على أبنائها.

: هي صاحبة الشأن فإذا وافقت فذلك شأنها.

ـــ : سيأتى إليك يابنيتي هذا اليوم إن شاء الله، استودعكما الله.

وخرجت أم عبدالله ورفيقتها حيث توجهتا إلى الزوج في مزرعته فسلمتا عليه

ورد عليهما السلام وأردف قائلاً.

ـــ: أهلاً وسهلاً، أم عبدالله وأم فريح، ما أبرك هذه الساعة تفضلاً، ولو لم يكن بالبيت أحد هذا اليوم.

: أين صاحبة المنزل؟ تقول هذا وكأنها لا تعرف عن الأمر شيء.

ـــ: أوه!! لقد ذهبت البارحة إلى أهلها «طَنْيَانَهْ» غاضبة .

: مغضبة!! ما الذي أغضبها؟

ـــ: إيه!! كما تعلمين يا أم عبدالله طبائع النساء ممن تستثير زوجها وتضيق عليه الخناق حتى...

: حتى ماذا؟

ـــ: أوه، قد يصفعها صفعة بكفه.

: يصفعها!! تعلم يا أبا سالم أن للمرأة شخصيتها وكيانها وقيمتها وكرامتها ويجب ألا يهدر حقها أمام نزوة غضب.

ـــ: ليتها تقدر ما تقولين من كلام، ولكنها أغضبتني حتى خرجت عن طوري، وصفعتها كفاً على وجهها مما جعلها تخرج وتترك أولادها.

: إنها لا تستاهل، هذه أم عيالك، وامرأة من معدن طيب، كل نسائها نساء طيبات ولا تستحق منك هذا.

ـــ: لقد «تَحَسَّفْتُ» وأسفت في الحال ولكن بعد فوات الأوان.

: والآن، ألا ترغب في عودتها؟

ـــ: بلا شك، إذا هداها الله، فلقد تورطت اليوم في تدبير شئون هؤلاء الصغار مما اضطرني إلى إحضار أم آل فلان لتدبير شئونهم.

: إذاً، عليك أن تذهب إليها هذا اليوم وليكن معك لها شيء يرضيها، ويطيِّب نفسها وسوف تعود معك إن شاء الله.

ـــ: وما يدريك عن هذا الأمر؟

: أدري، وإن لم يكن عندك ما يرضيها فعرج عليَّ لأعطيك قطعة من المصاغ تقدمها لها وتشتري لي بدلاً عنها.

ـــ: كثر الله خيرك، أنت وصاحبتك.

* * *

في عصر ذلك اليوم الثاني تنفست تلك الرياح الشمالية الشرقية وهي أبرد ما يهب على تلك المنطقة فعصفت بالناس والمواشي واضطرتهم إلى الإسراع إلى البيوت والمخابىء، والذرى لاتقاء لسعات بردها الذي قد فاجأ الناس على حين غرة، فأسرعت قطعان الأغنام إلى بيوت القرية مع الأصيل الباكر على غير عادتها راكضة بقوتها تاركة راعيها خلفها، أما البَهمْ، فقد جاء في وقت مبكر حال هبوب العاصفة مما اضطر راعيته إلى العودة خلفه، تلك الصبية اليتيمة العارية إلا من شرائح من الأسمال المهلهلة التي لا تكاد تستر عورتها بحيث إذا أضفت هذه الشرائح على جزء من جسمها أوجعته لسعات البرد ظهر الجزء الآخر، وليس على رأسها ما يقيها البرد سوى خصلات شعر مفتولة ليس لها عهد بالغسل، تمسك بعصاها الصغير الذي تهش به على بَهمِهَا في كفها القريب من التجمد، وقد فاجأها البرد في هذه الحالة فأقبلت تجر قدميها الحافيتين، تصطك أسنانها من شدة البرد، وترتجف أعضاؤها وفرائصها من لسعاته، مرت هذه الصبية بنساء وعجائز قد إتقين البرد بِكِنٍّ جدار يتشرقن، ويلتقطن بقية أشعة الشمس في انتظار مجيء أغنامهن، وكان بعضهن يقمن ببعض الأعمال كالخياطة وعمل السفيف من الخوص، وما إن مرت تلك الصبية من أمامهن حتى نظرن إليها بنظرات مختلفة، فمن نظرة إزدراء وشماتة بأهلها الذين تركوها بهذه الحالة إلى نظرة عطف وحنان عليها ومن صاحبات هذه النظرة أم عبدالله التي بادرت من فورها وقفزت من مكانها وأمسكت بيد هذه الصبية متجهة بها إلى منزلها، وعلى عجل أوقدت النار، ودثرت الصبية بدثار سميك، وأجلستها بقرب النار، وأحضرت لها شيئاً من التمر واللبن، ومن وقتها فصّلت لها ثوبين على مقاسها، واستعانت بابنتها لخياطة هذين الثوبين وما هي غير ساعة حتى جهزا ثم أحضرت أداة التنضيف المتاحة آنذاك وهي الماء الساخن و«الشنّان» وهو ورق وأغصان نبات برى يزبد بمثابة الصابون، وأدخلتها بمكان دافيء ونظفتها، ثم حلقت شعر رأسها، وألبستها الملابس الجديدة، ولفت على رأسها خماراً، وأحضرت لها حذاءً مناسباً، وأبقتها عندها حتى موعد وجبة العشاء فقدمت لها من الطعام ما أشبعها وقتل في جوفها

لسعات الجوع وأدفأها.

في هذا الوقت قد أضفى الليل ستاره على الكون بتلك الليلة الشاتية التي توقفت الرجل عن الطريق في وقت مبكر عند ذلك تنبَّهت جَدَّة الصبية وافتقدت ابنتها فهرعت تسأل عنها في بيوت أهل البهم في شارع القرية الوحيد من بيت إلى بيت حتى علمت أنها عند أم عبدالله فأسرعت إليها وطرقت عليها الباب قائلة.

ـــ: هل ابنتي عندكم يا أم عبدالله؟

: وهل لك ابنة حقاً!؟ تقول ذلك من باب التعجب.

ـــ: عفواً، إنها ابنة ابنتي، أنا جدتها تقول ذلك بتلعثم ثم تردف قائلة «والجد والد» كما يقول المثل.

: إنك لا تستحقين هذا المفهوم مع الأسف.

ـــ: لماذا؟

: تقولين هذا، وهي على تلك الحالة السيئة من الإهمال!!

ـــ: إهمال!؟ تقول ذلك بانبهار.

: نعم، لقد تركت هذه اليتيمة في حالة يرثى لها من لا يعرفها والناس كما تعلمين بفصل الشتاء القارس!؟

ـــ: هذا البرد قد جاءنا فجأة.

: بل يجب أن نتقيه بالملابس الواقية، وخاصة مثل هذه الصبية التي تذهب للبر فتكون عرضة للمطر والبرد.

ـــ: إيه!! ومن أين للناس الملابس الواقية؟

: اشتروا لها ملابس واقية من أجرتها في رعي البهم، أما تأخذون على رأس كل بهمة مقداراً معيناً في الفصل من السنة؟

ـــ: بلى، ويجتمع لدينا من ذلك حصيلة لا بأس بها.

: إذاً من هذه الحصيلة اشتروا لها ما يدفيها ويشبعها.

ـــ: سوف أتعهدها بنفسي من هذه الساعة، أين هي الآن؟

: ها هي نائمة بقرب كانون النار، وقد غطت في نوم عميق بعد تعب هذا اليوم وبرده فاتركيها في مكانها.

وليكن في علمك أنني قد حلقت شعر رأسها.

ــ: حلقته!! لماذا؟

: للمحافظة على نظافتها وسلامتها، فلقد وجدته في حالة مزرية من الرائحة الكريهة ومستودعاً لحشرات..

ــ: ولكن... متى ينبت شعرها؟

: سينبت من جديد، وسيكون أقوى مما هو عليه الآن على شرط أن تتعهديه بالنظافة.

ــ: دعيني أوقظها وآخذها معي.

: أرجو أن تتركيها إلى الصباح، وسأرسلها إليك.

ــ: إذاً أستأذنك.

: تصبحين على خير.

تقول ذلك أم عبدالله وهي تغلق باب منزلها وفي مخيلتها تلك الجملة التي أطلقتها رفيقتها «الجَدُّ والد» صحيح هذا القول لمن يعرف معناه ويدرك مغزاه ويلتزم به لا أن يردده دون أن يعمل به، صحيح لمن يعطف على أحفاده ويحرص عليهم، ويودهم ويتفانى في سبيل راحتهم، ويبذل الغالي والرخيص من أجل سعادتهم، أما مثل هذه السيدة التي ليس لها من الأحفاد في الوقت الحاضر سوى هذه الطفلة اليتيمة اللطيمة، ولا توليها أي مقدار من العناية، فلا يحق لها أن تدعي أنها والدتها، أتتركها ترعى حوالي مئة رأس من البهم حافية القدمين في زمهرير الشتاء، وقساوة صقيع الأرض، لا تنتعل سوى شوك السَّعْدَان، وحسك النفل، وشوك الضُّريسة، حاسرة الرأس إلا من تلك الخصل المفتولة من الشعر، وليس لها بالغسل والمشط والتنظيف أي عهد، ولا يستر جسمها غير تلك الأسمال المهلهلة التي أصبحت شرائح على جسمها!! ثم تأتي جدتها وتقول: إنها بمثابة والدتها!! الله أكبر، لو كانت والدتها حية هل ترضى بأن تكون ابنتها بهذا الوضع؟ أو لو كان والدها حياً أيرضى بذلك؟

ولو كانت هذه الجدة مشغولة عنها لتلمسنا لها بعض العذر، ولكنها لا يشغلها عن هذه الصبية شاغل ولو ساعة من نهار أو ليل تعتني بها.

* * *

وهجع الناس في تلك الليلة في وقت مبكر خلاف المعتاد بسبب البرد، وخلت الشوارع والطرقات من المارة، غير أن هناك طارق يطرق الباب بشدة حين أسرع إليه «سعود» وهو الإبن الأصغر لأم عبدالله ليفتح الباب فاندفع إليه الطارق بقوة ودخل بمجرد فتح الباب وهو يقول بصوت جهوري مضطرب:

ـــ: أين أم عبدالله؟ أين هي، أين هي؟

: عرفه الشاب فقال: ماذا تريد بها؟

ـــ: أريدها، أريدها، يقول ذلك بصوت تصطك فيه أسنانه مما يجعله غير مفهوماً.

: تفضل، وسأدعوها لك.

ـــ: إن لم تسرع إليَّ وتدفيني هذه الليلة فسأموت.

: وسمعت السيدة لغط الكلام فأقبلت وهي تقول: أهلاً وسهلاً بك «ياخلف» من أين أتيت؟

ـــ: جئت من «الشَّلَاش[1] من عمتي شَاهَةْ».

: ما بك ترتجف هكذا، ألم تتعش!؟

ـــ: بلى، ولكني بردان، يكاد أن يقمص قلبي من شدة البرد.

: لا عليك، إدخل بقرب النار، هاه!! أين عباءتك؟

ـــ: لقد ضاعت في الصيف الماضي عندما كنت نائماً في الساحة الفلانية.

: أبشر بالعوض عنها.

ـــ: لا حرمك الله من الأجر.

: تفضل يابني، إلبس هذا الثوب وهذه الجبة، سأحضر لك العباءة التي تريدها.

ـــ: أهذه الثياب لي؟

(١) الشلاش هم فهد وضيف الله وصالح الشلاش التميمي في أسفل المستجدة وشاهة أمهم رحمهم الله.

: إلبسها فوق ثيابك، وهذه العباءة إرتدها لتدفئك.

ـــ: كيف عرفت أنني بحاجة إلى هذه الثياب في هذه الليلة بالذات؟

: آه، لقد ادخرتها لك ولأمثالك يابني، تفضل هذا العشاء الذي اغترفته لك.

ـــ: يالله!! ثوب وجبة وعباءة وعشاء!! جزاك الله بالجنة يا أم عبدالله.

: إذا تعشيت فتلك الغرفة بها فراش إن أردت أن تنام به.

ـــ: كثر الله خيرك، إنني أنام بقهوة «الراشد»[1].

ويخرج خلف، ويغلق سعود الباب من بعده، ويتبادر إلى ذهن سعود أن يسأل أمه.

ـــ: من أين لك هذه العباءة يا أماه؟

: هذه عباءة أخيك التي عافها في العام الماضي.

ـــ: ولكنها جديدة وأحسن من عباءتي.

: أعلم ذلك يابني، ولذلك بررت بها هذا المسكين ليتدفأ بها في هذه الليلة الشاتية.

ـــ: هذا إن لم يضيعها، فهو كما تعلمين سقيم العقل.

: مثل هذا يابني، من تحل عليه الصدقة، ويجب عليه الإحسان وإن كان كما ذكرت، أما تعلم يابني أن على كل كبد رطبة أجر كما ورد في الحديث الشريف، فما بالك بالإنسان كامل الخلقة وإن كان في عقله لوثة، إلا أن ذلك لا يمنع من الصدقة عليه.

ـــ: إنني أحياناً أسمعه يتكلم كلاماً رزيناً ممتازاً.

: حتى من هم في وضع مشابه لوضعه يابني تمر بهم ساعات يضيقون فيها، ويثوبون إلى وضعهم الطبيعي، ولا تنتقد أحداً منهم بأي تصرف.

ـــ: إيه، الحمد لله.

: نعم يابني، الحمد لله الذي منَّ علينا بنعمة العقل.

ـــ: أترينه يجد المكان الذي قصده مفتوحاً؟

---

(١) الراشد: هو فهد الراشد التميمي في وسط أسفل المستجدة رحمه الله.

: بلا شك، فهؤلاء الأجواد وأمثالهم تبقى غرف مقاهيهم مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل، ولا سيما في ليلة شاتية كهذه، ينتظرون ضيفاً يضوى إليهم من مكان بعيد يلسعه البرد، ويلويه الطوى، ليقوم هؤلاء الأجواد بتقديم الطعام والشراب والدفء والفراش الذي ينام عليه لا يرجون من ذلك إلا الأجر والثواب من عند الله.

ــ: كيف يستطيعون الإستعداد لهذه الضيافات؟

: يابني، عابر السبيل، وطارق الليل الذي يأوى إلى هؤلاء الأجواد المنتشرون في أنحاء البلد ولا تخلوا قرية أو حي من عدد منهم سيجد القادم عندهم العناية والترحيب، يقدمون له ما يلزمه من طعام وشراب ودفء بوجه بشوش وصدر رحب ونفس طيبة.

ــ: بالفعل لقد لاحظت ذلك عند «أبي دُحَيْم[1]» بالأمس.

: كثير هم الأجواد، وأقرب مثل جارنا «حمود»[2].

ــ: إيه، أكثر الله من عدد الأجواد، ولكني أراك يا أماه تحرصين على العناية بمثل هؤلاء المساكين.

: ألا تعلم يابني، أن مساعدة الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل وعابري السبيل مما أوصى الله به في كتابه العزيز؟

ــ: هاه!! لم أعلم بذلك.

: سوف تقرأ القرآن إذا كبرت وتصل إلى الآية الكريمة التي توصي بهذا الأمر، أما خلف ومن هو مثل حاله، فإنه يتوجب على الإنسان أن يعتني به، ويخصه برعايته دون سواه، لأنه مسكين لا يستطيع العناية في نفسه.

ــ: أماه!! لقد اشتقت لقراءة القرآن الكريم، فكيف لي أن أتعلمه؟

: إذا جاء هذا المعلم الجديد الذي قيل أنه سوف يأتي إلى البلد بعد أيام سأدخلك تدرس عنده.

ــ: أتعنين خطيب المسجد؟

---

(١) أبو دحيم: هو سالم بن حسين التميمي في وسط أسفل المستجدة رحمه الله.

(٢) حمود: هو حمود بن ناصر اللحيدان في وسط أسفل المستجدة رحمه الله.

: نعم، هو خطيب المسجد وإمامه ومعلم الصبية.

* * *

في تجمع لسيدات أحد أحياء القرية وأكثرهن من العجائز في ظل أثلة تتوسط الحي لم تستسغ أم عبدالله مادار في المجلس من حديث ذكرن فيه أن إحدى الشابات لا تحافظ على أداء الصلاة وأسكتتهن عن الخوض بمثل هذا الحديث على اعتبار أنه غيبة لصاحبة العلاقة وهو ما نهانا ديننا الإسلامي عنه وقالت لهن:

ـــ: بدلاً من أن تغتبنها، من منكن تهدى لها النصح، وتبين لها الطريق الصواب، فلعل الله أن يهديها. فرددن بصوت واحد.

: أنت لمثل هذه المهمة يا أم عبدالله.

وبالفعل فقد بادرت إليها قاصدة منزلها بعد طلوع شمس اليوم الثاني، وحال وصولها إلى المنزل، استأذنت المضيفة إلى مكان الوضوء، فتوضأت وصلت ركعتي الإشراق عند ذلك بادرتها المضيفة قائلة:

ـــ: هل فاتتك صلاة الصبح؟

: لا، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لم أذكر يابنيتي في حياتي أنه فاتني وقت من أوقات الصلاة.

ـــ: يا الله !! لم تذكري في حياتك كلها!؟

: نعم يا بنية، وذلك من فضل الله، إنني أصلي بالإضافة إلى الصلوات المفروضة ركعتي الاشراق في مثل هذا الوقت، وركعتي الضحى قبيل أذان الظهر، وصلاة التهجد بالليل، والشفع الوتر قبل صلاة الفجر.

ـــ: أعانك الله على كثرة هذه الصلوات.

: ألا تعلمين يابنية، أن الصلاة عمود الدين، وأول الأعمال التي يسأل عنها المسلم والمسلمة عندما تلاقي ربها؟

ـــ: أول ما يسأل عنها!؟

: نعم، هكذا بالكتاب والسنة المطهرة.

ـــ: ويسأل عن كل الصلوات التي ذكرت؟

: الصلوات الخمس المفروضة أولاً أما ما زاد عليها فهي من السنن يؤجر فاعلها ولا يؤزر تاركها.

ـــ: هاه!! تقول ذلك بتضائق.

: ما بك ياأم حماد ؟

ـــ: إنني في الحقيقة مقصرة في الصلوات المفروضة.

: هذا لا يجوز لمثلك شابة في مقتبل العمر، وترجين من الله أن يمنحك الصحة والعافية في بدنك، وأن يرزقك بالأبناء البررة، وأولهم هذا الصغير الذي بين يديك.

ـــ: صحيح، ولكن...

: لكن ماذا؟

ـــ: الكسل والنوم أحياناً يغلب على الإنسان.

: هكذا الشيطان يثبط عزم الإنسان عن أداء الصلاة في وقتها، وكما تعلمين هي خمس مرات في اليوم والليلة في أوقات متباعدة نسبياً.

ـــ: بلا شك، تقول ذلك وهي مطرقة سارحة بتفكيرها.

: ألا تعلمين أن الصلاة نور في الوجه، ودوام في الصحة وسعة في الرزق، وطول بالعمر؟

ـــ: هاه!! كل هذه الأمور بسبب الصلاة؟

: دعيني أوضح لك بعض ما كان غامض عليك، ألم تقومي عند كل صلاة وتتوضئي، فتغسلي عن وجهك الأدران والعوالق، وتزيلي عنه آثار النوم أو التعب والكسل، وتتوجهي بوجهك الطاهر النظيف إلى خالقك عز وجل قائلة: الله أكبر بنفس مطمئنة وقلب خاشع، فعند ذلك يشع نور في قلبك، وينعكس صداه على محياك، فيبدو وجهك متألقاً منيراً.

ـــ: أحقاً ما تقولين!؟

: كل الحق، فجربي، وسترين وجهك المبتسم المشرق في المرآة بعد كل صلاة.

ــ: سأفعل إن شاء الله ولكن كيف تكون الصلاة سعة في الرزق؟

: أما تقولين بعد كل سجدة رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وأعف عني وارزقني؟

ــ: بلى، بلى أقولها.

: ألا تعلمين أنك واقفة أمام جواد كريم تطلبيه شيئاً من فضله. خمس مرات في اليوم والليلة يتخللها أربعة وثلاثون سجدة ترددين فيها هذا الطلب وحريٌّ برب العزة والجلال الإستجابة لدعاء عبده المسلم في كل ما يطلبه منه.

ــ: لقد زادني كلامك شوقاً.

: وكذا فإنك تطلبين من ربك أن يمنحك العفو والعافية وأن يدفع عنك البلاء، وليس بعزيز على ربك أن يجافي عنك المصائب ويدفع عنك الأخطار.

ــ: لم أحسب كل هذه الأمور تحدث نتيجة أداء الصلاة.

: الصلاة هي الركن الأساسي الثاني من أركان الإسلام.

ــ: يعنى إذا حافظت على الصلوات الخمس في وقتها يحصل لي ما ذكرته؟

: إن شاء الله، إن هذه الأعمال مما فرضه الله على عباده المسلمين والمسلمات، فإذا أدَّاها الإنسان فقد أدى ما عليه، وهو تحت رحمة ربه عز وجل.

ــ: من هذا اليوم بإذن الله، سأحافظ على أداء هذه الصلوات في وقتها، وأشهد الله على ذلك.

: وفقك الله وهداك لما يحبه ويرضاه.

ــ: لقد أوضحت لي ما كان غامضاً عليَّ.

: أنت ولله الحمد تعيشين وسط مجتمع إسلامي.

ــ: لا شك، ولكن بعض الأمور قد تخفى على الإنسان.

: وفقك الله، وإن احتجت إلى المزيد من الإيضاح في بعض ما يخفى عليك، فسوف أزورك مرة أخرى.

ــ: إنني بحاجة إلى زيارات منك لأستنير برأيك في إيضاح ما يغمض علي من أمور.

: وأنا مستعدة لذلك في أي وقت، استأذنك لأعود إلى منزلي.كانت هذه الجملة آخر ما دار على لسان أم عبدالله عند مغادرتها المكان عائدة إلى بيتها وهي تحدث نفسها، سبحان الله!! كم بين أفعال الخير وأفعال الشر!؟ ليس بينها سوى هذا الخيط الرفيع، إما أن يتجه الإنسان إلى أعمال الخير، أو أن يتجه إى نقيضها، ولكن ذلك يحتاج إلى شيء من التوجيه وكلما كان التوجيه غير مباشر كانت جدواه أفضل، ترى لو أنني أتيت هذه الشابة وقلت لها، لماذا لم تفعلي كذا وكذا؟ لربما كان ردها سلبياً إن لم يكن عنيفاً متشدداً أما وقد جئتها من حيث انفتح قلبها واتجهت نفسها للسؤال عن حيثية ما أفعل، حين دخلت معها في حوار توجيهي، قد تكون له ثمرة جيدة، إن صدقت على ما تعهدت به، ولا شك أنها لن تحيد عما تلفظت به قيد أنملة، إنها من نساء طيبات وجوهر ثمين، الله أكبر لو تعلم ما هي عليه والدتها وجدتها من التدين والتقى!! لو تعلم ما كن عليه من أفعال الخير، لما توقفت يوماً واحداً عن السير على منهاجهن، إيه!! سبحان الله، هل يعقل أن تلك السيدات المتدينات الفاضلات تكون ابنتهن لا تحافظ على الصلاة المفروضة؟ نعم أحياناً قد يكون هناك ردة فعل عنيفة بين إنسان متدين، تنعكس على أبنائه عندما يريد من هؤلاء الأبناء أن يكونوا بدرجة نموذجية من التدين في الوقت الذي يعيشون فيه مرحلة الفتوة والمراهقة، إذ ربما أثرت فيهم مرحلة الفتوة إلى نهج مغاير لما يريده والديهم، أو أحدهم، مما قد يضطر البعض منهم إلى استخدام العنف مع أبنائهم، وهذا ما قد يزيد الشقة والبعد بين الطرفين، وقد يؤدي إلى التنافر والفرقة، ولكن هذه الفتاة لم تع والدتها، فقد توفيت أمها رحمها الله وهي في الثالثة من عمرها، وجدتها بعد ذلك بقليل، إذاً فهذا الجانب لم يؤثر عليها، وحتى والدها لم يكن مهملاً أو متهاوناً بأداء الصلاة لكن الأب ليس بمكان التصاق الأم بابنتها، وربما كانت توجيهاته لها من نوع الزجر، أو التأنيب مما قد سبب لها انعكاساً سيئاً، وانصرافاً عن هذا الجانب أو تراخياً وتكاسلاً عنه، حتى تزوجت هذا الرجل الذي يغاب عنها بالأسبوعين والثلاثة في أعمال تجارته، إيه !! لعل الله أن يهديها، ويكون بسبب زيارتي لها

عودة إلى طريق الصواب.

* * *

كان للخبر الجديد الذي انتشر بالقرية أثره الكبير في النفوس وهو قدوم أحد المعلمين الجيدين إلى القرية ليكون إماماً للمسجد ومعلماً للصبيان، وذلك بعد أن انتقل إلى جوار ربه المعلم الأول، ولذلك سارعت أم عبدالله إلى مكان التجمع النساء المعهود للتأكد مما سمعت، حيث لازالت لديها الرغبة الأكيدة في إدخال إبنها الصغير، وابن ابنتها اليتيم ليتعلما القرآن الكريم والقراءة والكتابة، ولما تأكدت من ذلك، سارعت إلى منزل المعلم الجديد «الخطيب» الذي نزل القرية لتوه، حاملة معها بعض الطعام وحين طرقت الباب أجابتها زوجته التي استقبلتها:

ــ: تفضلي، أهلاً وسهلاً.

: لقد قدمت إليكم للسلام، ولأرى ما إذا كنتم بحاجة إلى أي مساعدة.

ــ: شكراً لك أيتها السيدة الفاضلة.

: لا شكر على قضاء واجب، فكما تعلمين يابنيتي أن القادم لتوه يكون بحاجة إلى بعض الأواني أو المواعين أو حتى الطعام وإنني جئت إليكم لأرى ما إذا كنتم بحاجة إلى أي شيء فإنني مستعدة لقضائه.

ــ: أشكرك ياخالة، وأخبرك أننا ولله الحمد لسنا بحاجة إلى أي شيء.

: قد يكون بكلامك نوع من المجاملة، لأنني لا أرى بعض الأواني الضرورية للماء، وقد يكون مثلها للطبخ، وكذلك الفرش بالإضافة إلى ما قد ينقصكم من الطعام.

ــ: نحن بخير، وسوف نؤمن ما نحتاج إليه من الأواني في المستقبل أما الطعام فسيرزقنا الله من عنده.

: بلا شك، ولكن أفرغي ما في هذا الزنبيل من الحب والتمر وسأزودكم بكمية إضافية من الدقيق، وسأرسل لك ما تحتاجين من الأواني والمواعين هدية مني إليكم.

ــ: هاه!! ولكن زوجي قد لا يوافق على ذلك.

: أخبريه بأنها على سبيل الإعارة، ومثل هذه الأمور بيننا نحن النساء لا يتدخل فيها الرجال.

ــ: ولكني خائفة منه.

: لا تخافي يا بنية، إنني أدرك قيمة الماعون عند حاجته وخاصة لمن هو قادم لتوه في مثل وضعكم، وهذه الأواني زائدة عندنا، ولا حاجة لنا بها فاستعمليها خير من بقائها مركونة بالمنزل.

ــ: كثر الله خيرك.

: سأرسل لك الآن كل ما تحتاجين إليه، أستودعك الله وبخروج هذه السيدة من المنزل دخل المعلم «الخطيب» بعد أدائه لصلاة الظهر إماماً للمسجد فقال لزوجته:

ــ: من هذه التي خرجت من عندك؟

: سيدة فاضلة اسمها «نُوَيِّر» وكنيتها أم عبدالله.

ــ: آه، لقد سمعت عنها أنها سيدة فاضلة فعلاً وما حاجتها؟

: حاجتها!؟ لقد جاءت تتفقد أحوالنا وترى الأشياء التي نحتاج إليها من أواني منزلية وطعام وشراب.

ــ: ماذا تقولين؟

: لقد أحضرت بادىء ذي بدء ما في هذا الإناء من الحب وما في هذا الإناء من التمر، ووعدت بأن ترسل كمية إضافية.

ــ: إن شاء الله، إن الدنيا بخير، وما يدريها أننا لانملك من متاع الحياة الدنيا سوى وجبة واحدة.

: هذا التمر الذي سنتغدى منه مع أبنائنا.

ــ: أين هم أبناؤنا الآن؟

: لقد ذهبوا مع أبناء الجيران للبستان المجاور.

ــ: إذاً أعدي لهم ما يكفيهم، وأعطينا ما يسد رمقنا.

: أراك مستعجلاً!!.

ــ : لأنني جائع، لم أذق شيئاً منذ الصباح سوى القهوة.

: تفضل، تفضل، ولقد خجلت من هذه السيدة عندما وعدتني بأن ترسل لي جميع ما أحتاج إليه من الأواني المنزلية والفرش بالاضافة إلى مزيد من الطعام.

ــ : هذا أول الخير، وأوله قطرة كما يقال، ولكن على أي أساس تحضر لك تلك الأواني والفرش؟

: لا تخف.. لا تخف إنها على سبيل العارية المردودة حينما يغنينا الله ونشتري بدلاً عنها.

ــ : أشوى، لقد حسبت أنها..

: حسبتها هدية!! وربما تكون هدية، فهذه السيدة التي بادرتنا بهذه الأشياء ذات مروءة ومعروف ولا يستكثر منها فعل خير كهذا.

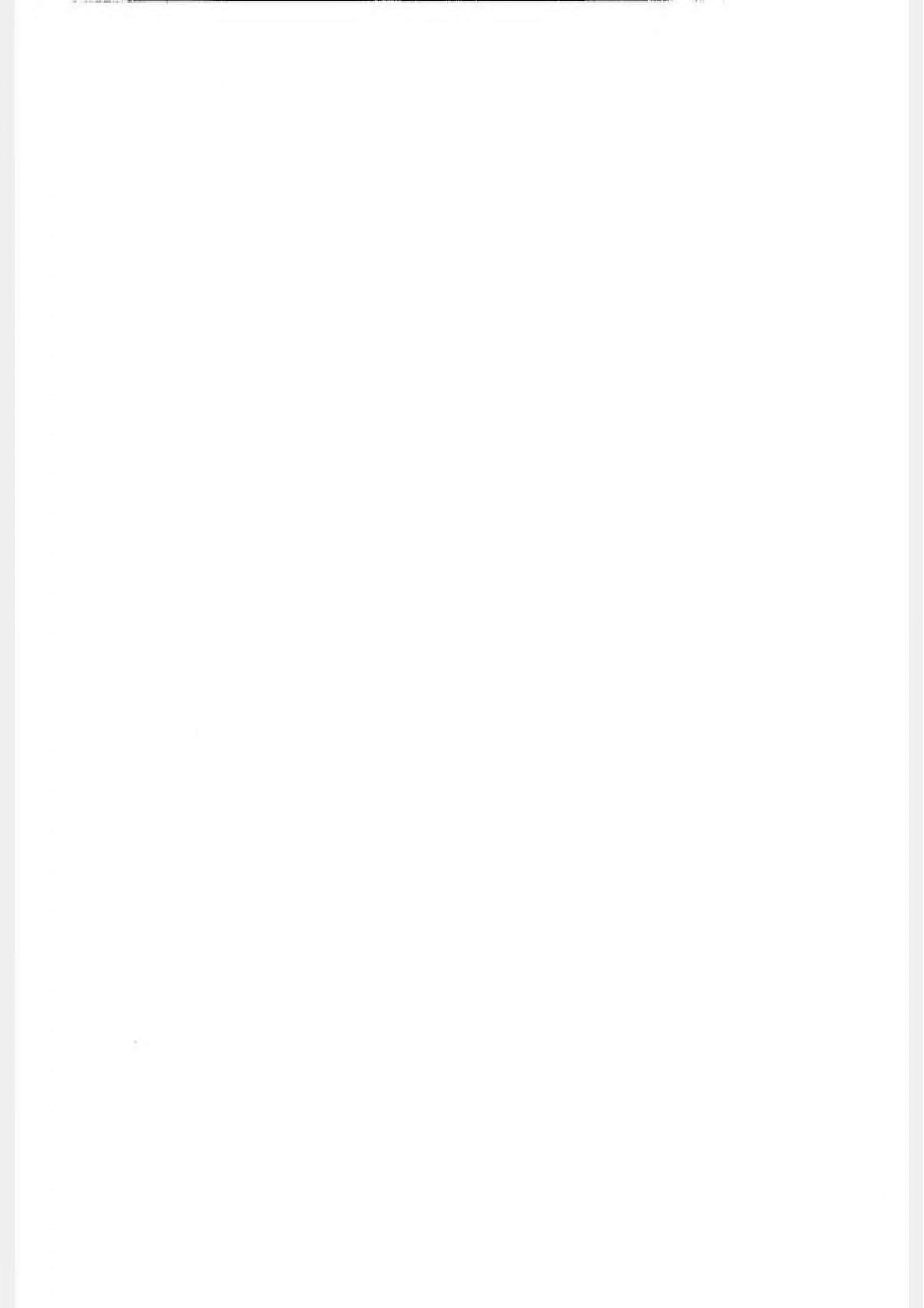
ــ : وإن يكن، فالأفضل أن نحافظ على عزتنا وكرامتنا حتى مع الحاجة.

: إسكت، إسكت، ها هي قدمت مرة أخرى، ومعها مجموعة من النساء يحملن الأواني، فعليك أن تدخل بغرفة الجلوس حتى يدخلن البيت.

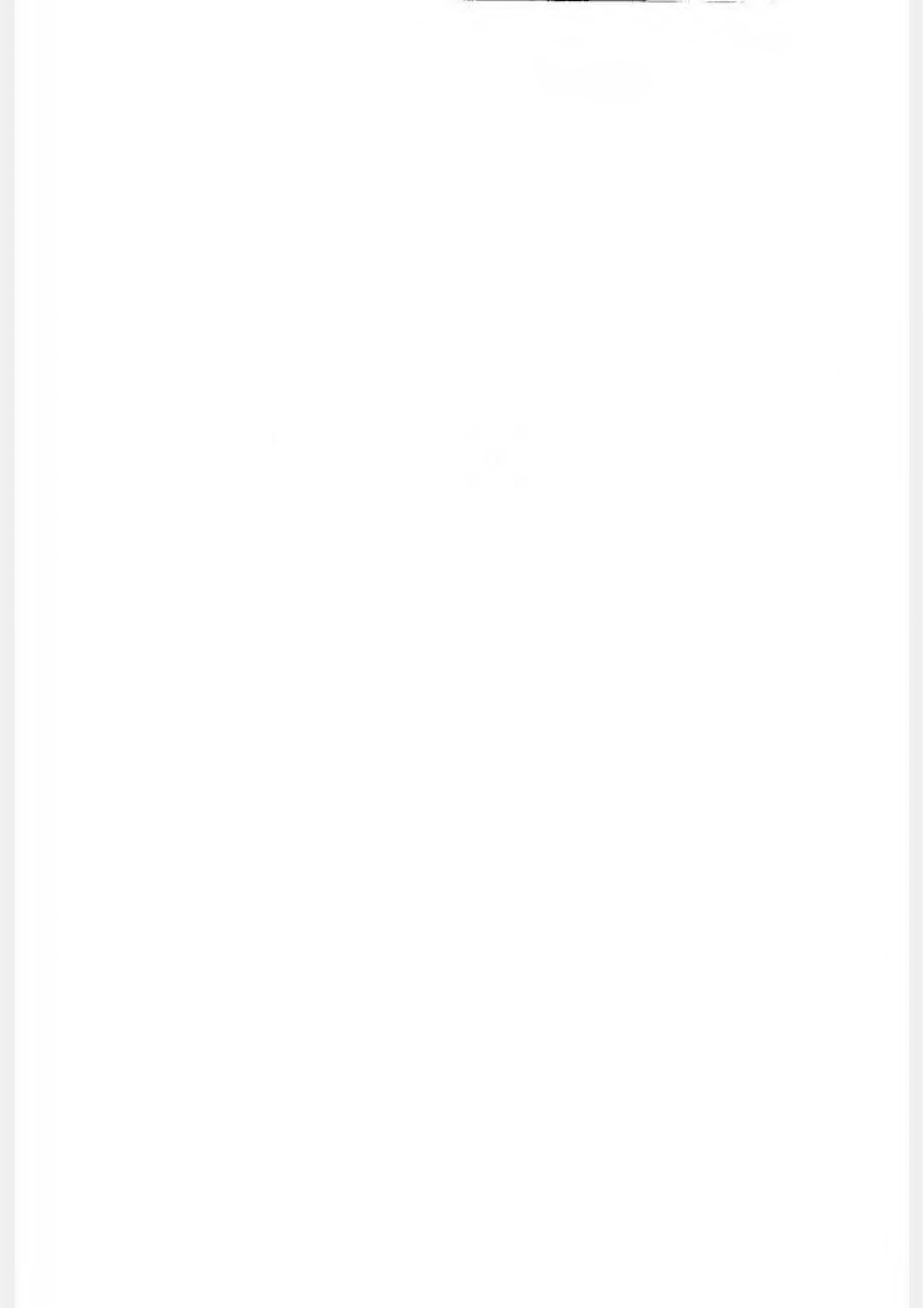
ــ : توكلت على الله.

وبعد أن أنزلت أم عبدالله ما على رأسها من الأواني هي ومن معها سلمت على المعلم من وراء الستار وغادرت المنزل لتحضر دفعة أخرى، وكانت آخر جملة قالها المعلم قد طرقت سمعها، فعادت إلى منزلها مع فيقاتها وهذه الجملة ترن في ذهنها، لله در هذا المعلم الذي يرى الأفضلية في المحافظة على العزة والكرامة، حتى مع الحاجة، الله أكبر!! يبدو أنه من فئة «الذين لا يسألون الناس إلحافاً، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف» وإلا فالمعلم أو «الخطيب أو المطوع» كما يسميه البعض يعيش من دخله البسيط المتواضع الذي يجود به آباء الطلاب وأولياء أمورهم، يدرس الصبي عنده من حلول أشهر الشتاء مقابل صاع من حنطة أو صاع من شعير، ويدرسه طيلة أشهر الصيف مقابل صاع أو صاعين من تمر، وربمااستعيض عن هذه الأصناف من الأطعمة بريال واحد عن السنة بطولها وكم سيجتمع عنده من الطلاب؟ عشرين أو أربعين!؟ وقد يصلون الخمسين؟ ما هذه الحصيلة التي يمكن أن يعيش منها

هو وأسرته، لولا ما يساعده به بعض الأجواد من هبات إضافية، أو قد يكون يمارس مهنة إضافية يرتزق منها كمصدر مساعد، ومع ذلك فهو يوصي زوجته بأنه يتوجب عليها أن تلتزم بعزة النفس، والمحافظة على كرامتها مهما بلغت بهم الحاجة، إيه!! هذه الجملة التي سمعتها، وربما عنفها ووبخها على قبولها ما أهديت إليها؟ فعلا إنها خائفة منه، ولكن إذا لزم الأمر، وعلمت بمضايقته لها فربما حاولت إقناعه، ولكن عسى الله أن يصلح شأنهم، دعني أمر على النجار ليعمل لإبنيَّ لوحين من الخشب حتى يتعلما بهما الكتابة عندما تبدأ الدراسة في الأسبوع القادم ولكن الأولى أن أكمل مهمتي في تأمين الأواني والطعام لهذا المعلم وعائلته، وسأمر على النجار بعد العصر.



قصـــة رقـــم (٢٥)



«أبو حُوْطَتَيْن»

أدبحت الشمس في أقصى الأفق ترفل بثوبها الذهبي المتوهج يتعلق أشعتها وشاح فضي داكن مما أثارته الرياح من صفحة أديم الأرض التي لم يلامسها المطر طيلة تلك السنة المجدبة والركب يحثون مطيهم للإسراع في السير حتى يصلوا إلى بغيتهم قبل حلول الظلام، ولكن أنّي لهم ذلك، فركائبهم لا تستجيب لحثهم إياها، وإنما تسير بهم الهوينى، لفراغ عظامها من المخ مما أصابها من هزال الدهر، فلذلك تراها لا تعبأ بزجرهم إياها بالعصي والخيزران، فهي تسير بهم حسب طاقتها لا تزيد على ذلك، وربما لو حاولوا إجبارها ببذل مزيد من الجري لأسرعت بهم مسافة قصيرة ثم بركت بركة واحدة لا تبرح مكانها، بينا الركب قد لوى أمعاءهم الجوع، وتقلص ما معهم من الماء إلا ما يبل شفاههم عند الحاجة الملحة، ولذلك فهم بأمس الحاجة إلى من يضوون إليه ليلتهم تلك ليجدوا عنده ما يطرد عنهم السغب، ويرفع عنهم وعثاء التعب ويؤمن العلف لركابهم، بعد أن مرت بهذه الأرض الشهباء المجدبة التي لا يوجد بها من المرعى سوى شجيرات الرمث اليابس وبينا هم كذلك في طريقهم يحاولون غذ السير دون جدوى في أرض لا يعرفونها، ولا يعرفون أن حولهم من القرى من يأوون إليه، إذ هم بأثر دواب مرت لتوها من تلك الجادة التي اعترضت طريقهم، فأخذوا في اتجاه أثر الدواب الذي ربما يوصلهم إلى ما يريدون، ولم يمض طويل وقت عندما أشرفوا على عرف ممتد يحجب ما وراءه وإذا المسافرون على الدواب غير بعيد عنهم، فلحقوا بهم قبيل توديع الشمس للأفق بوقت قليل، فسلموا عليهم وتقدم رئيس الركب إلى المقدم من المسافرين وسأله:

ــ: إلى أين تريدون أيها الرفاق؟

: إلى هذا البلد أمامنا.

ـــ: وهل حولنا بلدان؟

: نعم، وغير بعيد عنا.

ـــ: ما اسم هذه البلد؟

: أما تعرفها؟ إنها المُسْتَجِدَّةُ.

ـــ: آه، لقد سمعت بها ولَم أحسبها حولنا.

: يبدو أنكم من غير سكان هذه الناحية.

ـــ: بالفعل، نحن قادمون من جنوب نجد إلى شمالها العربي.

: ما دمتم كذلك فأنتم معذورون.

ـــ: وكم تبعد عنا البلد؟

: إننا على مقربة منها، لم يحل بيننا وبينها سوى هذا الحزم المنقاد، نحن الآن في مراعي سوارحها.

ـــ: حسناً، وإلى أين أنتم ذاهبون؟

: كما أخبرتك إلى البلد.

ـــ: أقصد، أين ستحلون ضيوفاً؟

: عند «أبي حوطتين».

ـــ: «أبو حوطتين»!؟

: نعم، محمد بن ربيعان أما سمعت به.

ـــ: لقد أخبرتك أنني جئت من مكان بعيد.

: لك العذر في ذلك. أما لو كنت من سكان المنطقة لسمعت به فقد غطت شهرته المنطقة كلها.

ـــ: أكثر الله من الأجواد.

: وأنتم أين ستضوون الليلة؟

ـــ: لا ندري، على أحد الأجواد ممن يقوم بأودنا هذه الليلة.

: لا شك أن الأجواد ممن يقرى الضيف منتشرون على طول البلد وعرضها، ولكنهم قد لا يكونون بدرجة هذا الكريم من الشهرة والسخاء.

ـــ : أترانا نكون ضيوفاً عليه؟
: إذا أردتم ذلك وأطعتم مشورتي.
ـــ : إنني أعتقد أننا لو حللنا ضيوفا على أي واحد لقام بضيافتنا.
: لا شك في ذلك، وكلهم أجواد وأبناء أجواد، ولن يدخر أحدهم وسعاً في تقديم القرى لضيوفه والعلف لركائبهم غير أن الشهرة أحياناً لها قيمتها.
ـــ : حسناً، ولكننا كما ترى أكثر من خمسة عشر رجلاً، وأنتم مجموعة أيضاً، وبحلولنا وإياكم على رجل واحد قد يثقل عليه العبء.
: نثقل عليه!! حقاً، إنك لا تعرف الرجل، فلو رأيت ما يحل عليه يومياً من الضيوف لما قلت هذا الكلام.
ـــ : يعني أنه، يتحملنا وإياكم!؟
: ضمن عشرات من الضيوف الذين يحلون عنده يومياً.
ـــ : ما دام هذا شأنه، فسوف نحل عليه، ولكن ألا ترى أننا قد لا نصل إليه إلا متأخرين؟
: أبداً، سنصل إليهم في الوقت المناسب بين صلاتي المغرب والعشاء، وهو وقت الإحتفاء بالضيوف.
ـــ : هل حللت عليه ضيفاً قبل هذه المرة؟
: مرات عديدة، كلما مررنا بهذا المكان.
ـــ : مادام بهذه الدرجة فالنكن رفاقاً لكم.
: حياكم الله.

وحل الفريقان ضيوفاً على من قصدوه، قبيل أذان العشاء الأخير حيث وجدوا الذبالات التي تعمل بالودك تضيء بوابة المدخل لتلك البَنِيَّة المعدة لاستقبال الضيوف واحتواء ركابهم، ومنها يدخلون مع بوابة ثانية إلى غرفة استقبال الضيوف «القهوة» حيث وجدوا لركابهم ودوابهم العلف الكافي قد وضع في المعالف، مع ركاب ودواب من سبقوهم ثم أدخلوا أمتعتهم في الغرفة المخصصة لذلك، ودلفوا إلى غرفة الاستقبال ليجدوا أمامهم مجموعات أخرى من الضيفان الذين سبقوهم في الوصول، فأخذوا أماكنهم وأديرت عليهم

القهوة مع صواني التمر وسط كلمات الترحيب والعواطف الفياضة، ولم يمض طويل وقت حتى طلب منهم الانتقال إلى بهو داخلي واسع حيث توضع هناك صواني الطعام وعليها من لحم الخراف ما يتوجها، فطعم القوم على كثرتهم ثم عادوا إلى أماكنهم في غرفة الجلوس، بعد أن أدوا صلاة العشاء جماعة في المسجد المجاور للمنزل، واستمر سمر من أحب السمر، وأوى إلى فراشه من أتعبه مسير يومه، ومن ضمن من اضطجع في فراشه رئيس الركب الجنوبي الذي لم ينم وإنما غرق في تفكير عميق تصور فيه الحالة التي كان عليها مع رفاقه قبل ساعات معدودة حينما كانوا يشقون متن البيداء مع أصيل ذلك اليوم لا يدرون أين يتجهون، ينقصهم الماء والغذاء ويعز على ركابهم العلف لولا أن منَّ الله عليه بمصادفة ذلك الركب الذين هدوهم لضيافة هذا الجواد الكريم، إيه، الحمد لله الذي هدانا لهذا، كيف تكون حالنا لو أمرحنا هذه الليلة بدون ماء ولا طعام ولا مرعى لركابنا؟ في تلك الأرض التي نجهل طرقها ومواردها ومصادرها. لأصبحنا في حالة سيئة ولكن الله لطيف بعباده، ومن لطفه أن هدى مثل هؤلاء الأجواد، وأعانهم على استقبال هؤلاء الضيوف وإيوائهم وتأمين المأكل والمشرب والمبيت لهم، والعلف لركابهم ودوابهم، إيه إن الله لا يقطع من جانب إلا ويصل من جانب آخر، نزل هذا الدهر بالناس، فجاعوا وهزلت مواشيهم، وصعبت أسفارهم، وهيأ الله هؤلاء الأجواد المنتشرون في هذه القرى حيث ينزفون من العرق ليخرجوا الماء من جوف الأرض ويزرعون عليه الحبوب ويفرعون النخيل ليقدموا غلتها وثمرها طعاماً لهؤلاء الضيوف مثلنا وأمثالنا، نعم إنهم يلحون من لحم أكتافهم وأذرعتهم وأعضادهم بالجهد والتعب ويقدمون ذلك وجبة سائغة لضيوفهم وقاصديهم مع تأمين المأوى الدافىء في أيام الشتاء، والعلف المتوفر لركابهم ودوابهم، ولو اقتصر هذا التقديم على سنوات الشدة والعوز لكان له ما يبرره، لكن ذلك مستمر في أوقات الشدة والرخاء، مع أنه في أوقات الشدة أبلغ أثراً وأكثر نفعاً، يا الله، ما أعظم أجر ذلك عند الله، تقديم هذه النعمة يومياً على طول أيام الدهر لمن يعرف ولمن لا يعرف، المهم أن من وصل إلى هذا المكان، وأناخ ركابه ضيفاً عند هذا الباب فقد

هيء له مايريد، بل لم يكتف بذلك وإنما من مر حول هذا المكان فلابد أن ينيخ ركابه أو يضع عن دوابه ويتفضل على ما يبذله هذا الكريم عدا ما أشاهده ممن يفد عليه من مختلف القبائل ومختلف الاتجاهات يا الله!! كم من الضيوف عنده هذه الليلة؟ فلو حسبناها بالشهر أو السنة أو السنوات فكم من الأفواه تطعم عنده؟ وكم من الأنفس ينقذها من غائلة الجوع لتستمر في مسيرة الحياة؟ يالله!! ما أعظم ثوابه عند الله، وياليتني أحتل مكانة كمكانته، أتراه لوحده في هذا البلد؟ لا أعتقد ذلك فالبلد يوجد بها أمثاله كما ذكر رفيقنا الذي دلنا عليه، فكل بلد فيها حقها من الرجال الأجواد، وإن كان قد رشحه رفيقنا ليكون أفضلهم لكن هذا لا يعني أنه المتفرد بهذا الجانب، فكل إنسان دون حقه، وكل معد لما يسره الله له، وعلى كل حال، فمضيفنا قد وفقه الله فنال الشهرة والسمعة الطيبة في الدنيا حيث ضربت سمعته أنحاء منطقته، وربما تعدتها إلى غيرها، وسيجد أمامه عند ربه الأجر والثواب جزاء لما قدمه من عمل إنساني، إيه!! الحمد لله كيف نسأل غداً عن القرى الواقعة في طريقنا إلى هدفنا لنمر عليها فنتزود بالماء والطعام ونؤمن لركابنا العلف حتى نصل إلى بغيتنا؟

كانت هذه الجملة الأخيرة قبل أن يداهم ذهنه النوم.

* * *

غص مضيق الريع بهذه المجموعة الكبيرة من الدواب التي امتطاها أصحابها طالبين شراء ما يحتاجونه من الطعام من ذلك البلد الواقع إلى الجنوب عن بلدتهم، وكان من بين الركب رجل ذرب اللسان، حاد الصوت تكاد صفحات الجبال أن ترد صدى صوته عندما سأل أحد رفاقه قائلاً:

ــ: من ذا الذي يتحمل ضيافتكم هذه الليلة؟

: لا تخف، فهناك من يتحملنا.

ــ: لابد أن نقسم أنفسنا إلى أربع أو خمس مجموعات

: أبداً ، سنحل بكاملنا ضيوفاً عند رجل واحد.

ـ : وكيف يتحملنا؟ وهل لديه المكان الكافي لاستيعاب دوابنا؟

: لديه كل شيء.

ـ : كأنك واثق مما تقول؟

: كل الثقة.

ـ : لا تنسى الوقت الذي نحن فيه فالناس ينقصهم الطعام في هذه السنة الشديدة، ألا ترانا قد أتينا إلى هنا ليحصل كل منا على بضعة أصواع من الحب بالذهب والفضة التي تملأ جيوبنا.

: أعلم ذلك، ورغم ما ذكرت فإن الرجل سيتحمل ضيافتنا عنده ليوم أو يومين وربما ثلاثة، مع تأمين العلف لدوابنا.

ـ : لكنني أشك في ذلك، أما ترى عددنا؟

: بلى، ولكن أما تعرف الرجل؟

ـ : أسمع به ولا أعرفه شخصياً، ولم يسبق أن حللت ضيفاً عليه.

: إنه أشهر من نار على علم، وقد إرتكى لمنطقة جنوب الجبل في كل ضيوفه.

ـ : هذا ما نسمعه عنه، ولكن جماعة كرفاقنا أعتبرهم كثير.

: هذه وجهة نظرك، ولو رأيت ما يرد عليه من الضيوف وما يصدر عنه لما استكثرت رفاقك.

ـ : لا أكاد أصدق، ولكن دعونا ننقسم إلى عدة مجموعات لتحل كل مجموعة على أحد الأجواد المنتشرين في أنحاء البلد وذلك للتخفيف على الآخرين في هذه السنة الغبراء التي لا يكاد الواحد يحصل فيها على قوت عياله.

: إذا رأيت ذلك فلن أمانع لأن البلد يوجد بها عدداً من الأجواد الذين يحجون ويذرون، يكرمون الضيف ويقضون حاجة المحتاج، ولكن على أي حال سأذهب مع مجموعة من رفاقي إلى هذا الجواد الكريم.

ـ : لماذا أنت مصر على الذهاب إليه؟

: لأنني سأجد في أحد مَضِيْفَيْه مجموعات من الركبان قد جاءوا من مختلف الأصقاع، فاستمع منهم الأخبار عن تلك الأنحاء البعيدة، وربما وجدت من

الطرائف والمِلَحْ والقصائد التي يتبادلها ويتناقلها الركبان ما يسليني.

ــ: إذاً لك هدف أبعد من الضيافة؟

: بلا شك، فالأسفار لها عدة فوائد أما سمعت قول الشاعر:

تُفَرِّجُ همّاً واكْتِسَابُ مَعِيْشَةً   وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

ــ: لقد صرت تحدثنا بلغة الشعر يارفيقي !! هاه، كأني سمعتك تقول أحد مَضِيْفَيْهِ، هل صدق سمعي أم خانتني الذاكرة؟

: بل صحيح، إن له مضيفان، يضيِّف في كليهما.

ــ: مضيفان في هذا الظرف الصعب!!؟

: إيه!! تمرُّ سنوات الرغد وظروف الشدة على متون هؤلاء الأجواد، لا ينحنون لثقلها ولا تضيرهم شدتها، بل يتحملون أعباءها وتبعاتها بنفس راضية وجبين ضاحك، ويد لا تتوقف أو تتواني عن البذل والعطاء لكل من وقف ببابها من عابري السبيل وطالبي الحاجة.

ــ: حقاً إن هؤلاء الأجواد كما ذكرت، ولا شك أن الله قد بارك لهم في رزقهم لينال منه غيرهم.

: لو لم يهد الله هؤلاء الأجواد من أهل البادية والحاضرة ويجعل ما في أيديهم من رزق ينال منه المسافر وعابر السبيل والفقير والمحتاج لهلك أناس كثير من الجوع وخاصة في سنوات الدهر، مثل هذه السنة، وسنوات حلت علينا أكل الناس خلالها مالا يجوز أكله من شدة الجوع، ومع ذلك فترى هؤلاء الأجواد مستمرين على طريقتهم بإكرام ضيوفهم وقاصديهم مما يتيسر لهم من طعام وشراب.

ــ: الكف الندية تبقى ندية مهما أحاط بها من الجفاف.

: هذا شيء مؤكد، أما سمعت قول الشاعر:

«عَظَمْ النّدَا يَنْدَى وَلَوْ كَانْ بَالِيْ   يَنْدَا وَلَوْ هُوْ بَالْمِرَاحْ مْحِيْل»

ــ: صحيح، ولكنك شوقتني للذهاب معك إلى مضيف ذلك الكريم ما دمنا

سنجد هناك أعداداً من الضيوف قد نجد معهم أخباراً طريفة وحكايات مسلية.

: إذا ذهبنا أنا وأنت لنفس المكان فلا أعتقد أنه سيشذ عنا أحد من هؤلاء القوم.

ـــ: ما دمت تقول إنه يتحمل فلا بأس من ذهابنا جميعاً إليه.

: أراك غيرت رأيك!!؟

ـــ: كنت أهدف إلى التخفيف عن الرجل، وما دام باستطاعته تحمل ذلك فإليه نذهب ونرجو الله أن يمنحه القوة والفضل.

: إنه الحَيْدُ الذي لا يتضعضع ولا ينحني امام مجموعة مثل رفاقنا.

ـــ: على أي شيء يعتمد الرجل؟

: على الله ثم على فلاحته ونخيله الذي يعمل فيه مع مأجوريه وعماله، ويقدم غلة زرعه وثمرة نخله بتلك الصحون لضيوفه وقاصديه.

ـــ: عوض الله عليه جزاء ما قدم.

* * *

التقى الركبان ظهراً على أحد المناهل، وعرف أحد رئيسيهما الآخر لأنهما من قبيلة واحدة فدعاه ورفاقه لتناول القهوة وقضاء وقت القيلولة تحت أشجار الطلح المتقاربة في مسيل ذلك الوادي غير بعيد عن الماء، ولبى المدعو الدعوة وأناخوا مطيهم، وتجمعوا تحت ظل دوحة كبيرة حيث تجهز القهوة والطعام، وتبادل الرجال الحديث في شتى المواضيع حتى وصلوا إلى طريق مسيرهم، ومن مروا عليه في طريقهم ومن كان مضيفهم البارحة فقال غازي:

ـــ: لقد كنا البارحة عند «أبي حوطتين».

: هاه!! ماذا تقول؟

ـــ: أقول ما سمعت.

: نحن كنا في ضيافته ولم نركم!!

ـــ: في أي المضيفين كنتم؟

: هاه!! لا أدري، أعتقد أننا في الشرقي.

ــ : ونحن في المضيف الغربي، ولذلك لم ير أحدنا صاحبه وكل منا قد طعم وأمرح ليلته وذهب في حال سبيله دون أن يعلم بالآخر.
: من كان معكم؟
ــ : أوه، معنا أناس كثيرون من مختلف القبائل والقرى.
: ونحن كذلك أناس من مختلف اللهجات.
ــ : «حَيٍّ والله هَكَالْحِجَاجْ» يقرى هذه المجموعات الكبيرة من الضيوف ولا يدري أحدهما بالآخر.
: ولذلك لقب بهذا اللقب «أبو حوطتين» أي صاحب البَنِيَّتَيْن المحاطتين بالجدر ينزل فيها الركبان ويضعون بها أمتعهم مدة بقائهم في ضيافته.
ــ : آه، لقد فهمت، بالفعل لقد أنخنا بتلك البنية فوجدنا بجانبها أكواماً من العلف لركابنا، وبهواً وضعنا فيه أمتعتنا إلا ما رغبنا بقاءه بجانب ركابنا، ثم دخلنا إلى غرفة الاستقبال في القهوة.
: وكذلك فعلنا.
ــ : هنيئاً له على هذا الفضل الذي يبذله للآخرين، لقد أدى حق ماله، وبرَّ نفسه، ونفع مواطنيه ومن يأوون إلى مكانه.
: هذا مايُغْبَطُ الإنسان عليه، بما يقدم من فيض عطائه للآخرين، انطلاقاً من إنسانيته ومروءته، وما يمليه عليه دينه الإسلامي الحنيف.
: لقد كسب هذا الصيت العريض الذي أصبح يضاهي به غيره من قمم الكرم في هذه المنطقة التي تتوجها سجية كرم حاتم الطائي.
ــ : أين وجهتكم؟
: نحن قاصدون المدينة المنورة للاستبضاع.
ــ : وماذا تحضرون من هناك؟
: ما خفَّ حمله وغلي ثمنه من الملابس والحلي والعطور فنحن كما ترى خمسة عشر رجلاً على ركابنا.
ــ : أما تخافون من مخاطر الطريق، سيما وأن عليكم هيئة حسنة؟
: نسير تحت حماية الله ثم أسلحتنا، مع أننا نتخذ من كل قبيلة نمر عليها أحد

أفرادها ليحمينا من أفراد قبيلته مقابل مبلغ معلوم من المال حتى نصل إلى بغيتنا ونعود منها.

ــ : وهل تغطي أرباح ما تحضرونه من بضاعة هذه التكاليف التي تدفعونها؟

: هذا شيء لابد منه لكي نحمي أنفسنا ونضمن سلامة أموالنا، وما زاد على ذلك من مكاسب ففيه البركة.

ــ : لماذا تتجهون إلى المدينة بالذات؟

: لم يكن الاتجاه إلى المدينة لوحدها، بل نتجه إلى مكة المكرمة والشام والبصرة والكويت والنجف وعمان، وفي كل سفرة من السفرات نأتي ببضاعة قد تختلف عما أحضرناه من البلد الآخر حسب توفر هذه البضاعة في البلد ومناسبة سعره.

ــ : وفي كل سفرة تدفعون هذه المبالغ لأفراد تلك القبائل؟

: نعم، ولولا هذا لهلكنا، أو ذهبت أموالنا نهباً لقطاع الطرق، أو اللصوص في هذه الطرق الطويلة.

ــ : ولكني أراكم مسلحين، أفلا يحميكم سلاحكم؟

: بلى، يحمينا، ولكن من باب الاحتياط ندفع تلك المبالغ الزهيدة لأولئك الأفراد لحمايتنا من أفراد قبائلهم وعشائرهم الذين قد يعترضون طريقنا.

ــ : إيه، أعانكم الله.

قضى الرُّكْبان تلك القيلولة، وطعما وشربا القهوة ثم ودع كل فريق رفاقه متجهاً إلى حال سبيله، وكان «حماد» في مقدمة رفاقه، وجملة رفيقة «غازي» لازال صادها يطن في أذنه «حي والله هكا الحجاج» نعم حي والله ذلك الجبين الضاحك الذي يقرى الضيوف بهذه الكثافة بجهتين من قصره وكل جهة بنيخ الركبان عندها ويجدون طعامهم وشرابهم ومأواهم وعلف دوابهم، يأكلون ويشربون وينامون ثم يغادرون في اليوم الثاني أو الثالث، أو بعد أن يقضوا ما أرادوا من وقت دون أن يعلم بهم رفاق لهم في المضيف الآخر.

هكذا يجرى بهذه السنوات الغبراء التي يعز على الإنسان فيها أن يجد

لقمة العيش، بالإضافة إلى سنوات الخصب والرخاء التي يبقى فيضهم فيها متدفقاً لا يغيض مدده، ولا غرو في ذلك، فهذه البقعة عامرة ولله الحمد بمثل هؤلاء الأجواد، هذه «هيفاء»[١٥٩] هي الأخرى لها مضيفان أحدهما في شرقي قصرها والآخر في غربيه، وتضيف بأحدهما دون أن يعلم ما في الآخر وإلى جانبها «زيد»[١٦٠] و «لقَّاح»[١٦١] وإلى أسفل منهم «ناصر»[١٦٢] وإلى أعلى منهم «حليَّانْ»[١٦٣] هؤلاء الأجواد وغيرهم كثير يحيطون بهذا الجبل الأشم جبل رَمَّان إلى جانب الأجواد الآخرين الذين يكتنفون جبلي أجا وسلمى الشامخين من جميع الإتجاهات، وكل قد شرع بابه على مصراعيه لضيوفه وقاصديه مرحباً بهم، يتهلل وجهه بالبشر، يحاول أن يقدم لهم أغلى ما يملك، يعتنون بضيوفهم عناية فائقة لا يماثلهم فيها عناية أصحاب خانات وفنادق دمشق وبغداد والبصرة، مع أن أولئك يقدمون تلك الخدمات مقابل مبالغ نقدية من المال، أما هؤلاء فإنهم يقدمون ما يقدمونه مجاناً بكل طيبة نفس ورحابة صدر ولا هدف لهم سوى المحافظة على سجية الكرم العربي، ورجاءً لما عند الله من الأجر والثواب، لا يخامر عقولهم شك في أن ما يقدمه الإنسان من البذل والعطاء لهؤلاء المسافرين، ومساعدة المحتاجين أنهم سيجدونه أمامهم في سجل الحسنات عند ربهم يوم لقائه، بالإضافة إلى الجاه العريض، والصيت الذائع والسمعة الطيبة التي يحتلونها في مجتمعهم، وهذا ما سوف يخلد ذكرهم في صدور الناس حتى بعد رحيلهم عن هذه الحياة، وقد يورثون هذه السجية لأبنائهم الذين سيخلفونهم في هذه الأماكن، سواء ما كان منهم في هذه القرى الثابتة، أو تلك البيوت الشَّعرية المتنقلة والمتناثرة على أديم هذه البقعة، وما دام هناك جبين يندى كرماً، فلا خوف على مسافر أو عابر سبيل من سغب أو ظمأ، إيه لقد وهبهم الله هذه السجية على غيرهم، وهيأ لهم من الموارد التي يكدحون فيها ليوفروا لقمة العيش لهؤلاء الضيوف، أعانهم الله على المحافظة على هذه السجية، هاه!! ما لي أرى رفاقي وكأنهم قد مالوا عن الطريق، أم أن مطيتي هي التي حادت بي، إذاً، سأعود إليهم.

* * *

لم يزل «خلف» بقامته القصيرة وجسمه الممتلى، وجوشنه البارز يتنقل من مقهى إلى مقهى من أسفل البلد حتى أعلاها يحتسي فنجاناً من القهوة ويأخذ تمرة أو إثنتين من كل صحن يقدم إليه مع القهوة، ويلتقط ما دار من أخبار أو ما استجد من قصائد، يمسك البلد من أسفلها مع صلاة الصبح حتى ينتهي في أعلاها قرب أذان الظهر.

وعندما يصل إلى مضيفي «محمد» يضع عصا ترحاله اليومي، بحيث يبقى بين هذين المضيفين بقية يومه وصدر الليل، ثم يبدأ من صباح الغد يبث ما التقطه من أخبار الركبان والمستجدات في يوم أمس، وهكذا يبدأ في دورة جديدة مع ذلك اليوم الجديد، وليس هو لوحده من ينتهج هذا السبيل، بل هناك غيره ولكنه أبرزهم وأحذقهم، هذه الفئة التي تنتشر الأخبار على ألسنتهم، وينقلون الحكايات والروايات والقصص عن الركبان، ويحفظون أغلب ما يقال في تلك المجالس والمقاهي من القصائد، يتصدرون المجالس والمنتديات بجانب عِلْيَةِ القوم، يستأنس بوجودهم الجميع، ويجد الزائر بوجودهم ما يسليه وينقله إلى الأجواء المرحة أحياناً وإلى الأجواء الأدبية أحياناً أخرى، حتى قال مرة أحد الحضور: مجلس لا يوجد فيه «خلف» كطعام بدون ملح ولهذا كان «أبو حوطتين» يحرص أشد الحرص على أن يبقى عنده يتنقل بين مضيفيه، يسلي ضيوفه، ويغسل عنهم وعثاء السفر، ويذهب عنهم همومهم، لكن طبيعة عمله تجعله يتنقل من مكان إلى آخر، لتجميع مادة جديدة يضيفها إلى ما عنده، وإن خصص أغلب وقته لهذا الجواد الكريم الذي يتمنى هو الآخر لو أن لديه من الذكاء والمقدرة على الإحاطة بكل هذه المعلومات ما لدى خلف، ولذلك فقد استدعاه ذات مساء بعد أن هجع الضيوف ليسمرا معاً ودارت الأحاديث في مختلف الإتجاهات فقال محمد:

ــ: كيف استطعت أن تجمع كل هذه القصص والحكايات والقصائد؟

: لقد جمعتها بالمثابرة وكثرة التردد على هذه الأماكن التي يتجمع فيها الرجال.

ــ: وكيف حفظتها؟

: توجهت إليها وألقيت لها بالي فحفظتها.
ــ: ولكني قد أكون سمعت أكثر مما سمعت أنت!!
: صحيح، ولكن انتباهك واهتمامك لغيرها.
ــ: ماذا تعني؟
: إن اهتمامك بشئون الأضياف والسهر على راحتهم وتقديم كل مستطاع لهم مما أشغلك عما سوى ذلك.
ــ: آه، فعلاً، إنني مشغول الذهن في مثل هذه الأمور.
: ولذلك فأنت لا تحفظ كثيراً من هذه الأمثال والقصص أما أنا فقد تفرغت لهذا الجانب، وأغرمت به فحفظت الكثير منه.
ــ: ليتني أحفظ مثلك.
: أتريد زيادة على ما عندك!؟
ــ: ليس عندي شيء يذكر.
: أعني اشتهارك بالكرم، وهذا يغنيك عما سواه.
ــ: لا غنى عن مثل هذه الذخيرة التي تحفظها بصدرك من كلام الرجال وأمثالهم وقصصهم وتجاربهم في الحياة، التي لا يماثلها شيء ولا يقدر لها ثمن.
: أما يكفيك هذا الجاه العريض والصيت الذائع في المنطقة؟
ــ: ولكن ما لديك في كثير من الأحيان أفضل عندي مما بلغته.
: هكذا الرجل الطموح يريد كل شيء.
ــ: ماذا تعني؟ يقول ذلك بتغابي.
: أعني أنك قد بلغت شأواً بعيداً في الكرم والمروءة وهذا ما هيأه الله لك، وما يسر لك سبيله وتريد أن تضيف إلى ذلك ما يملكه صعلوك مثلي قد تفرغ لجمع هذه الأخبار والقصص والقصائد والأمثال من أفواه الرواة والركبان الذين يحلون في مضيفيك ومضائف الأجواد الآخرين من أهل بلدك أو البلدان المجاورة الأخرى.
ــ: صحيح، ولكن لارتفاع قيمة هذه الأشياء عندي وسمو هدفها وددت إضافتها إلى ما عندي.

: إن ما تقوم به الآن تفوق في كثير من الأحيان ما عندي، فإطعام الأفواه يفضله الكثير على امتاع العقول بهذه القصص.

ــ: وإن يكن فليتني أعرفها.

: لتبق أنت «أبو حوطتين» كما اشتهرت واستمرأنا «أبو قصتين» أو كلمتين أو قصيدتين. يقول ذلك بروح مرحة وكلمات ممطوطة.

* * *

أعد الأمير جيشاً قوامه حوالي بضع مئات من المقاتلين لتأديب بعض العناصر التي شقت عصا الطاعة عليه من قبيلة في أحد أطراف إمارته، وكان الطريق المقرر لهذه المهمة يمر بقرب البلدة التي يسكن فيها محمد وهي بطبيعة الحال مهمة سرية لمباغتة أولئك القوم، ولكن محمداً، ما إن نمى إلى سمعه احتمال مرور الأمير وصحبه بقربهم حتى أسرع إليه من يومه ذاك، وطلب منه أن يكون مبيتهم تلك الليلة عنده، وقد مانع الأمير في تلبية الطلب لكثرة الرجال الذين معه إن هم حلوا ضيوفاً على رجل واحد غير أن محمداً أصرَّ على هذه الدعوة، ورجى الأمير أن يستجيب له قائلاً:

ــ: أيها الأمير، أرجوك ألا ترد لي طلباً هذه المرة.

: لم يكن رداً كما فهمته. يقول ذلك الأمير بنغمة هادئة.

ــ: قد تكون أويت لي، ورأفت بحالي في هذا الأمر!؟

: ربما كان من هذا القبيل، يقول ذلك وهو يبتسم.

ــ: أرجوك ألا تفعل، لأن مروركم بقرب حقنا من الأرض يحتم علينا استقبالكم ومن معكم بكل ما يتاح لنا من وسائل الحفاوة والتكريم.

: لكن الركب كثير لا تستطيع استقبالهم؟ يقول ذلك بلهجة حازمة.

ــ: مهما كثروا فلن يضيق بهم مكاننا. يقول ذلك بلهجة الواثق.

: وماذا عندكم من الأماكن لتستوعب ما معنا من الرجال؟

ــ: لدينا ما يسعهم ولو كان إلى جانبهم مثلهم. يقول ذلك بنغمة حزم.

: إذا كان ولابد، فليكن ذلك عند عودتنا. يقول ذلك محاولاً التملص من هذا الموقف.

ــ: قد تغيرون الطريق عند عودتكم، وليس هناك أفضل من هذه الفرصة.

: هاه!! ووجم الأمير قليلاً ثم استأنف: يمكن أن يمر عليكم جزء منا، سأعرج عليكم مع عدد محدود من رجالي نشرب عندكم القهوة ونعود إلى ربعنا.

ــ: بقدومكم البركة، ولنا الفخر باستقبالكم أنتم وكامل من معكم من جيشكم.

: ولكنكم لن تتحملوا ذلك. يقول ذلك لمحاولة التخلص.

ــ: بل نتحمله، فعلى الرحب والسعة تحلون ومن معكم ضيوفاً علينا، وستكون أجفاننا السفلى لكم فراشاً والأجفان العليا لكم غطاءً.

: لا حول ولا قوة إلا بالله!! هل أنت مصر على ذلك!؟

ــ: كل الإصرار «ياطويل العمر»!! فالعشاء عندنا هذه الليلة.

: ولكن الوقت ضيق!! نحن الآن في وقت الظهر، ولم يبق غير ساعات قليلة على موعد العشاء. يقول ذلك عله أن يجد مبرراً يثني به محمد عما عزم عليه.

ــ: بل هناك متسع من الوقت، لدينا نصف نهار بكامله.

: مادمت مصراً هكذا فتوكل على الله، ولكن..

ــ: أرجو ألا يستثني الأمير شيئاً.

: ليكن الأمر مقصور عليكم.

ــ: هذا ماتملكون زمامه ولا أملكه. أستودعكم الله.

وانطلق محمد على صهوة جواده يسابق الريح، وحال وصوله أمر بسبع جزر فنحرت، ومئة رأس من الغنم فذبحت وخلال ساعات قليلة كان قد عمل الترتيبات اللازمة لإستضافة هذا الجمع الغفير من الناس، وفي بستانه بين صفوف النخيل أمر بالفرش فصفت على الأرض شقائق نسيج السفيف فمدت ووضع عليها سلسلة متشابكة منقادة من أكوام التمر على طول هذه الفرش فصارت كأنها سلسلة الجبال، عشرات الصفوف من هذه الفرش بين صفوف النخيل، وغير بعيد عنها صفوف أخرى من الفرش وعليها أرتالاً من الصواني المليئة بالطعام المتوجة بالخراف المطبوخة، وكتعاً من لحوم الإبل، أما القسم الخاص بالأمير وكبار رجاله فقد وضع فيه عدداً من الصواني الكبيرة التي وضعت فيها الجزر بكاملها مبركة وسط الصينية بعد أن طبخت، وأحيطت

بعدد من الخراف المطبوخة بكاملها، إلى جانب ما على الطعام من الأبازير والأفاوية وغيرها، وقبيل أذان المغرب وصلت تلك الجموع وأناخو مطيهم حيث أنزلت عنها أشدتها وأدخلت في بنية بعد أن أعد لها من العلف ما يكفيها، وما إن أدى الناس صلاة المغرب حتى تقدم المضيف ضيوفه وعلى رأسهم الأمير إلى موائد التمر أولاً ثم إلى موائد الطعام.

فرحب المضيف بضيوفه الترحيب اللائق، وشرع الناس في العشاء على ضوء الذيالات المضاءة بالودك والشحم فانبهر الأمير مما رأى والتفت إلى أحد رجاله الخاصين وقال له:

ــ : لا أكاد أصدق ما تراه عيناي!؟

: ماذا تعني، أطال الله في عمرك.

ــ : هذه الكميات الهائلة من التمور، وتلك الكميات الضخمة من الطعام الذي تفضل هذا الجواد بتقديمه إلى رجالنا مع أنني أُخْبِرْتُ أنه كان نائماً قبيل أذان العصر في أحد أطراف البستان، فليت لي جفناً مثل جفنه.

: كثَّر الله خيره، ولا قطع بذر الأجواد.

ــ : أتراه قد أعد العدة لمثل هذا الأمر!؟ وإلا كيف يستطيع أن ينام من عنده مثل هذا الأمر، إنني أرى بعض الناس إذا كان عنده دعوة صغيرة توترت أعصابه وجف ريقه وبدأ يولول هنا وهناك، وهذا قد أخبرني من أخبرني أنه وجده نائماً في أحد جوانب البستان عند أذان العصر.

: الناس يختلفون في تحمل المسئوليات وضبط الأعصاب، أما عن معرفته بمجيئنا فلا أعتقد ذلك، لأن خطتنا سرية وطارئة كما تعلمون منذ يومين فقط، وحتى رجالنا لا يعرفون أين نريد، ولا إلى أي وجهة نقصد حتى سرنا يوم أمس.

ــ : أعتقد أن مثل هذه الوليمة تحتاج إلى علم مسبق!!

: لا شك صدق حدسك!! يقول ذلك من باب المسايرة له.

ــ : قد يكون الرجل قد علم بخط سيرنا إلى جانب بلده في وقت كافي.

: كن متأكداً «ياطويل العمر» أنه حتى صباح هذا اليوم لم يعرف أحد من أي

مسير سنتجه، وحتى عندما قَيَّلنا ظهر هذا اليوم الذي جاءنا فيه لم يعلم أحد عن خط سيرنا.

ـــ : أجل كيف استطاع في هذه الساعات المعدودة أن يرتب كل ما ترى، وفوق ذلك يستطيع أن ينام لفترة من هذا الوقت الضيق!؟

: مثل هذا الرجل لايربكه أمر كهذا، فقد تعود عليه وألف ممارسته هذا «أبو حوطتين»!!

ـــ : أعلم أن باستطاعته استضافة عشرين إلى خمسين إلى مئة رجل في آن واحد لكن يضيف بضع مئات من الرجال ويجهز لهم ما ترى في خلال ساعات قصيرة هو ما دعاني للعجب!!

: إن من يستطيع استيعاب مئة رجل يستطيع استيعاب الخمسمائة والألف، فمتى تعود الإنسان على شيء سهل عليه أمره، سيما وأن عنده من النساء الطيبات اللواتي يجهزن هذه الكميات الهائلة من الطعام ويقمن بطبخه وتجهيزه في أي وقت بالليل أو النهار على مدار اليوم والليلة.

ـــ : صحيح إن النساء الطيبات هن سناد الرجل والدعامة التي تسند ظهره وترفع رأسه وتساعد على رفع صيته لكنني أتعجب من هذه الكميات كيف تم إعدادها ومن أين مصدرها؟

: كما ترى لديه عدد من الحيور والبساتين والأراضي الزراعية التي يفلحها ويقدم من ريعها وثمرها ما يقدم لضيوفه على مدار السنة.

ـــ : بلا شك، على مدار السنة!! يقول ذلك وهو يهز رأسه ثم يستأنف: أعانه الله على ما في وجهه، وبيَّض الله وجهه فقد بيَّض وجوهنا أمام الغادي والرائح من الأقارب والأجانب.

: بيض وجوههم!!؟ يقول ذلك رغبة في الاستيضاح.

ـــ : نعم، أما تدرى أنه ينقل عنا عبئاً ثقيلاً في تحمله لهؤلاء الركبان، وفي نفس الوقت فإن بلده ضمن أمارتنا ويعتبر واجهة جيدة لنا بما يقدمه للآخرين.

: أما هذه الناحية «فطويل العمر» محق فيها.

ـــ : أما تعلم أن ما يقدم صاحب بلدة المستجدة أو الحفينة والوسيطاء والروضة

والسليمي وسميراء والسبعان وطابة وفيـد والقصير والأجفر وجبة وقنا وأم القلبان وبقعاء والشقيق وموقق وجفيفاء وقفار وعقدة وقصر العشروات وضـر غد والغزالة والجوف وتيماء وغيرهم من أهل القرى بالإضافة إلى ما يقدمه الكرماء من سكان البادية يعتبر مكملاً لما نقدمه في حائل نحو إكرام الضيف الذي اشتهرت به هذه البقعة؟

: لا شك في ذلك.

ـــ: إن ما يقدمه هؤلاء الأجواد من المروءة والمعروف في إكرام الضيف نعتبره تاجاً رفيعاً على رؤوسنا ونفتخر به.

: هذا شيء لا يحتمل قولان.

ـــ: لقد بيض وجوهنا هو وأمثاله عند أعدائنا قبل أصدقائنا.

: أكثر الله من أمثاله.

هذا ما جرى من الأمير وأحد رجاله حتى طعموا وغادروا المكان ليحل من بعدهم دفعات متعاقبة من الناس سكان هذه البلدة وما حولها من بادية، وقد جلس أحدهم على طرف جوانب إحدى الموائد وقد أخذته الدهشة والإنبهار حين وقعت عيناه على ما يرى فدار في نفسه عدد من الأسئلة، أين نحن الآن؟ أحقاً أننا نعيش في بلدنا التي يعوز فيها الكثير من الأسر لقمة يومه؟ أم انتقلنا إلى مكان آخر من الدنيا؟ أو نكون قد انتقلنا إلى عالم آخر تتوفر فيه الأطعمة بهذه الكمية؟ أحقاً أن هؤلاء هم رفاقي وجماعتي؟ «فقلت وأنكرت الوجوه هم هم» حقاً هم جماعتي وربعي الذين من بينهم أناس أعرفهم يبيتون على الطوى، يغتبقون الماء، ويصطحبون القهوة وما تيسر معها في مقاهي الأجواد، أما أسرهم فلا تسأل عنها!؟ نعم هؤلاء رفاقي وقد تهيأ لهم هذه الليلة مالم يشاهده بعضهم منذ أكثر من سنة لم يشاهد مثل هذه الصفوف من الصواني إلا في يوم العيد حين يقدم الناس وجبة يوم العيد في الشوارع في صفوف شبيهة بهذه الصفوف وإن كانت أصغر منها حجماً وتنقصها أحياناً كمية اللحم الموجودة فوق هذه الصواني ولم يشاهدوا كذلك أكوام هذا التمر المنضود على هذه السفر إلا في أيام الجداد عندما تكون فرش التمر

تجمع عليها كميات كبيرة منه لتتميره من عذوقه وتنقيته من الشوائب كأطراف العذوق والقموع والحشف تمهيداً لبيعه أو تخزينه، يا الله!! إن هذه الكميات تعيد إلى ذهني تلك الأيام في موسم الجداد، ترى لماذا قدم الرجل كل هذه الكميات؟ أكل هذا من أجل الأمير ورجاله؟ ليتضلعوا من هذا التمر والزاد، ها هم أكلوا وشربوا ولم ينقصوا هذه الكميات بشيء، أم أن بعض الأجواد قد أخذه الحياء وأراد أن يقدم شيئاً يليق بمقام الأمير ورجاله. ويبيض وجهه عند هذه الجموع المحتشدة من كل حدب وصوب؟ يالله!! كم تمنى الكثير منا أن يشبع ولو مرة واحدة من التمر في هذه السنة الغبراء؟ ها هو جارنا الفقير المسكين يحاول أن يلتهم الطعام التهاماً من شدة ما به من الجوع وربما يود لو أتيحت له الفرصة وسمح له بأخذ كمية من التمر في خاصرة عباءته، يالله!! كم من الأطفال والنساء القابعين في بيوتهم والذين يود لو يتمطق الواحد منهم بمص فلق تمرة من هذه الأكداس المنثورة على السفيف نثراً، وكم من الأفواه الجائعة من العجائز والشيوخ الذين لا يستطيعون الوصول إلى هذا المكان لعجزهم وإقعادهم وكم من الرجال من منعتهم عزَّة النفس عن المجيء إلى هذا المكان فباتوا الطوى أو ما يقاربه حين تناولوا ما تيسر لهم من الطعام وناموا على عزة نفوسهم، آه، ليت لي حق التصرف، والله لأنطلق إلى أمثال هؤلاء وأصلهم بما يكفيهم من هذه النعمة في بيوتهم ليطعم الطفل اليتيم والأرملة الحائرة. والعجوز والشيخ المقعد، ومن منعته شيمته وأنفته من أن يأتي إلى هذا المكان لمجرد دعوة عامة، ترى كم تكفي هذه الكمية منهم؟ أوه!! إن ما على ثلاثة أو أربعة صفوف من التمر سيشبع معظم هذه الأسر الفقيرة التي أشرت إليها أياماً وأيام، فضلاً عن هذه الكميات الكبيرة من الطعام واللحم، ترى لو أنني فعلت خيراً وتسببت لأولئك الأجواد، وذلك بتنبيه هذا الجواد الكريم أو الاستئذان منه لإيصال كمية من الطعام والتمر لأسر أعرف أنهم بأمس الحاجة إليه في هذه الليلة؟ لا أعتقد أنه يمانع في ذلك. فقد وصلت هباته لمثل هذه الأسر في ظرف غير هذا، ولكنه قد يكون مشغولاً مع الأمير ولن تتاح لي فرصة الوصول إليه هاه!! سأحاول ما أمكنني ذلك،

فهذه الكميات الكبيرة من الطعام يجب أن يستفيد منها الفقراء في هذا البلد وما جاوره من الأعراب الذين أقعدهم الجدب بأكناف هذا البلد، لن أجلس في هذا المكان المنزوي، سأكون قرب الممر لعلي أرى محمداً فأعرض عليه الأمر الذي ارتسم أمامي إن لم يكن تبناه من قبل.

* * *

الوقت ضحى عندما كان محمد جالساً مع بعض رفاقه في ظل أثلة بعد أن سرحت الإبل من عندهم، إذ قدم إليهم رجل من خارج البلد ينقل إليهم ما رأى، وهي مجموعة من قوافل الإبل قد اندلقت مقدمتها مع الريع الذي يفضي على البلد من ناحيتها الشمالية الغربية مقبلة على البلد، ويعتقد أن هذه القوافل، إما قوافل تموين لأناس آخرين أرادت أن تمر بالبلد للارتواء، أو غزو يريدون مكان ما، وهدفهم من المرور ليشربوا ويوردوا مطيهم، ويحلوا ضيوفاً على الشيخ محمد، وعندها قال القادم: « يامهنا جاءك ما تمنى» موجهاً كلامه لمحمد الذي رد عليه بقوله:

ـــ : يا أبا سلامة، لقد أصبت من نفسي موقعاً طيباً بكلامك هذا.

: عجباً!!

ـــ : ولِمَ العجب؟ والله لقد وددت لو استمر المدد من ريع البكر من الضيوف الليل مع النهار.

: الله !! الليل مع النهار!؟

ـــ : نعم، وإن أسعد لحظات عمري عندما ينيخ الضيوف ركابهم عند بابي، فإنني أجد لذة في ذلك لاتماثلها لذة، وفرحة لاتوازيها فرحة.

: متع الله بحياتك يا أبا سالم.

ـــ : هذا الأمر يا أبا سلامة قد امتزج في دمي وسار في عروقي وأصبحت أشعر بالكآبة في اليوم الذي يقل فيه ضيوفي أولا يحل عليَّ ضيوف فيه.

: حقاً، حقاً، إننا نلاحظ عليك ملامح السرور والبهجة في اليوم الذي يكثر فيه ضيوفك، بينما نجد البعض إذا دخل عليه ضيفاً عبس جبينه واربَدَّ وجهه

وتغيرت نفسيته ونشزت تصرفاته وجف ريقه.

ــ : كل إنسان وما وهبه الله يا أبا سلامة!! ولكن قد يكون ما ذكرت من تفاعلات تحدث لرجل تعسره الأمور ويصعب عليه تحصيل وجبة ضيفه.

: أبداً، لم يكن هذا هو السبب، وإنما طبيعته هكذا.

ــ : مادام هذا ما وهبه الله، فإنه لا يملك في تغييره صرفاً ولا عدلاً، المهم دعنا من هذا وأخبرني أين القوافل التي رأيت؟

: عهدي بأولها قد انداحت مع فم الريع.

ــ : عد مع طريقك وتأكد ما إذا كانت ستمر علينا أو ستجنبنا.

: إن جاءت أهلاً وسهلاً وإن جنبونا فلترافقهم السلامة.

ــ : لا، لا يا أبا سلامة.

: وماذا تريد بهم؟

ــ : سأرسل إليهم من يعترضهم ويدعوهم للاستراحة عندنا لتناول القهوة ووجبة من طعام الغداء أو العشاء.

: أتريدني أن أعود مع طريقي لهذا الغرض؟

ــ : أنت أخف مني، وأصغر سناً من كل هؤلاء الموجودين بالمجلس.

: أبشر، أبشر يا أبا سالم، كفى الله المؤمنين القتال.

ــ : ماذا تعني؟

: هذا غنام قد جاء مع ذات الطريق ولا شك أنه رأى ما رأيت وسيخبرك الخبر اليقين.

ــ : لكن غناماً قد تجنبنا.

: سأدعوه للحضور إلى هنا.، ها هو قد حضر.

ــ : ماذا رأيت خلفك يا غنام؟

: رأيت قوافل منقادة من ريع البكر، وتكاد تصل مقدمتها إلى البساتين، ولا أدري ما مداها من الخلف.

ــ : أين اتجاهها؟

: إنها قادمة إليكم يا أبا سالم كما يبدو.

ــ: أهلاً وسهلاً. يقول ذلك وهو يعقد أكمام أردانه الطويلة وينسفها من خلف رقبته على كاهله وينطلق ووجهه يتهلل بشراً لمقابلة طلائع هؤلاء الضيوف القادمين.

جرى هذا الحديث وأحد الشيوخ الجالسين ساهماً لا يتكلم وإنما ينظر للإنفعالات التي ترتسم على محيًا محمد بين الحين والآخر، تنبسط أسارير وجهه تارة وتنقبض أخرى، يتهلل جبينه حيناً ويعبس آخر، وعندما غادر محمد المكان تنهد الشيخ وزفر زفرة عميقة أردفها بكلمات يجذبها من أعماق أعماقه حيث قال: كأنني بصوت ناعى هذا الجواد الكريم يقول[1]

حَفْيَتْ ذِلْوْلِيْ مِنْ كِثِيْرَ الْقِرْبِيْ غَدَا قْعُوْدَكْ مَالِقَى مِنْ يْلَفِّيْهْ
قَبِلْ قْعُوْدَكْ مَاتْ أَبُوْ خُوْطَيَنْ اَلضَّيْفْ لَوْ يَجْفِلْ بِعِيْرَهْ يْعَشِّيْهْ

آه!! ترى من يحل محله؟ من يقوم مقام هذا الأبلج؟ من يسد فرجته إن توارى عن هذا المكان؟ ثم رد على تساؤله بنفسه بصوت متهدج، لم أقصد أن المكان سيخلو تماماً، لا، فالمكان مليء بالأجواد من بني عمه وغيرهم ممن يكرمون الضيف، ويقضون حاجة العاني ويؤون المحتاج، ولكني أراه يستبشر بقدوم الضيف وكأنه قدم عليه أحد والديه أو أولاده الذين طالت غيبتهم عنه ويتلقاهم بصدره وقلبه وحواسه وجميع جوارحه.

ثم قفزت من عينيه دمعتان مسحهما بإبهام يده وسبابتها محاولاً مواراتهما عن أعين الحاضرين، وأخذ عصاه للإستعانة بها على القيام فنهض متثاقلا يجر قدميه الحافيتين على ذلك الرمل الناعم الذي جلس عليه الحضور تحت ظل الأثلة، وبعد أن غادر الشيخ المكان اختلفت آراء الحاضرين فيما عناه الشيخ، فمن مؤيد له إلى حد القطع ومن معارض له إلى درجة التنافر، ومن رماه بالهوى الذي في نفسه لمحمد لأنه عاش في كنفه فترة طويلة، سيما بعد أن فجع بمقتل أبنائه الثلاثة في إحدى الغزوات، فكان محمد خير عون له على

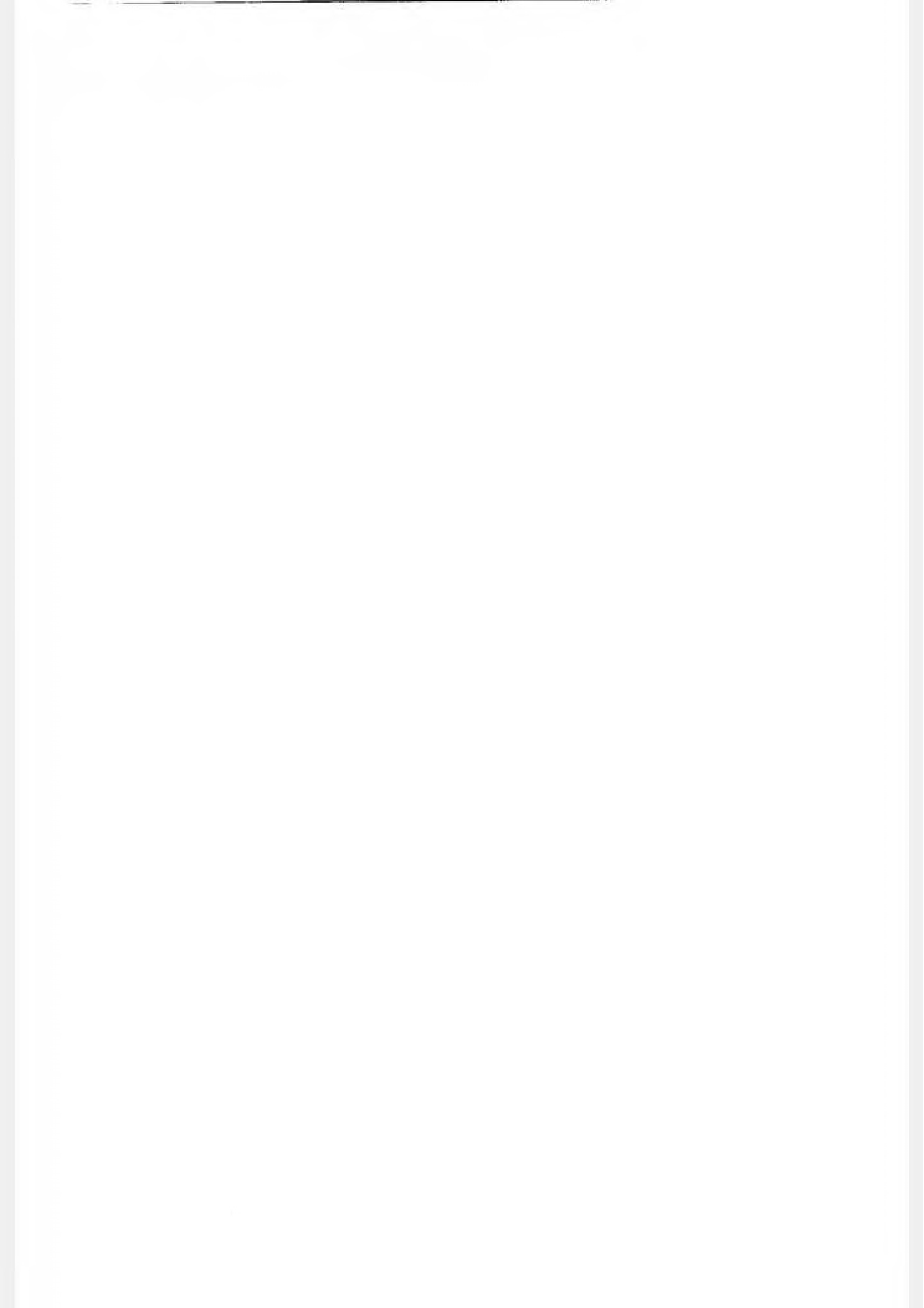
---

(١) الشعر للكليخ.

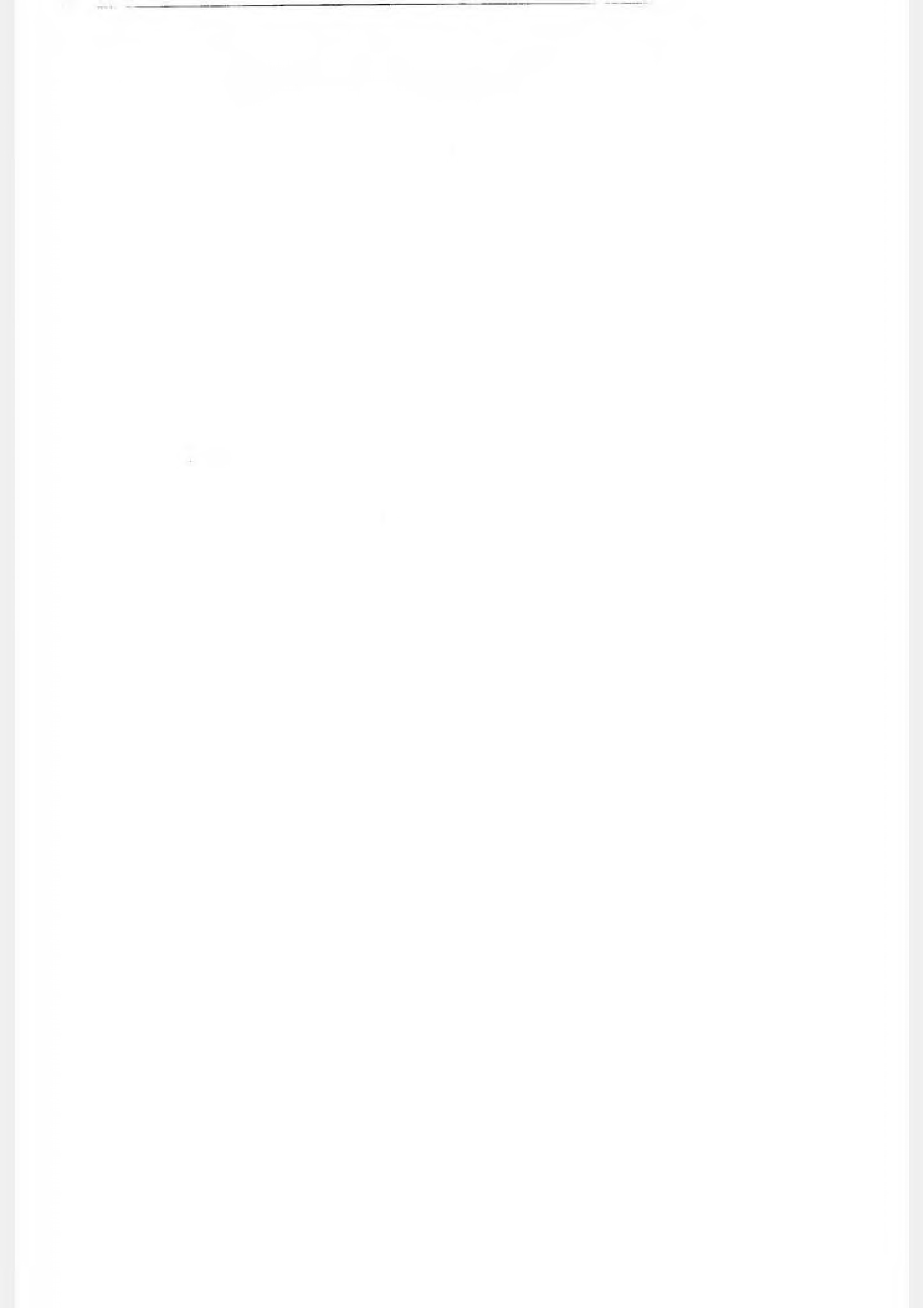
أود الحياة في شيخوخته، وصار له بمثابة أحد أبنائه البار منهم وضفَّه وقام بشئونه هو وزوجته العجوز، ولذلك فهو لا يرى بعين الرضى غيره، وإلا فإن حدسه قد لا يكون بمحله، فالأجواد كثر، وإن اشتهر محمد بهذه المزية، لكن هناك غيره، وفيهم البركة وإن لم يبلغوا ما بلغه، وربما ظهر من بينهم من يبزُّه. كان صاحب هذا الرأي يدلي بهذه الكلمات وهو يغادر المكان هو الآخر.

وقد صدق صاحب هذا الحدس إلى حدٍّ ما، فقد ظهر من أحفاده وأقاربه وأبنائهم وأحفادهم من حافظوا على هذه السجية، وإن لم يبلغوا شأوه، إلا أنهم بزوه في مواطن أخرى، لم يتصور ذلك الشيخ الذي أعجب بتهلل وجه محمد عندما علم أن الريع قد غص بالقوافل الذين يحتمل أن يكونوا ضيوفاً عليه، أو ما علم أن من أقاربه وأحفادهم من جلسوا عند القاضي لهذا السبب.

جلسوا عن القاضي للتنافس على إكرام الضيوف القادمين من هذا الريع، الكل منهم يقول إن الريع يفضي باتجاه باب منزلي والضيوف القادمون منه يجب أن يكونوا عندي لا عند أحد غيري، وتشتد المنافسة ويحكم القاضي لأحدهما بالضيوف القادمين من ريع البكر وما شماله وللثاني بالقادمين من ريع قارح وما جنوبه، ويرضى الطرفان بهذا الحكم وتظل المنافسة على أوجها جيلاً بعد جيل، وتبقى هذه الدوحة كغيرها من دوح الكرم يتظلل بظلها من لجأ إليها، وكلما هرم غصن أو يبس خرجت في مكانه أغصان أخرى تحل محله.



قصـــة رقم (٢٦)



الحــب العفيف(*)

بينا الليل يضفي ستاره على الكون، إذ ركاب تلك القافلة يخبون الخطى للمبيت بقرب ذلك المورد ليلتهم ليرتووا ويسقوا ركابهم، وعندما اقتربوا من المنهل وجدوا حوله قافلة أخرى قد حطوا رحالهم وشبوا نارهم لتجهيز وجبة العشاء عند ذلك تنحى القادمون عمن سبقوهم قليلاً وأناخوا ركابهم ثم وردوا الماء من ساعتهم، وبينا هم كذلك إذا جاءهم رسول ممن سبقوهم يدعوهم للحضور لشرب القهوة معهم وقد تمنعوا في بداية الأمر إلى أن عاد إليهم الرسول للمرة الثانية والثالثة فما كان أمام رئيس الركب «الدعيمى» إلا أن يلبي الدعوة التي وجهها إليه «الحبيبي» رئيس القافلة الأخرى فوصل إليه مع مجموعة من رفاقه، وأضرمت النار فشقت ستار الظلام وامتلأت تلك البقعة من الضوء إتضح كل ما حولها فبانت ملامح الوجوه واتضحت تقاسيمها فسلم الرجال على بعضهم البعض دون سابق معرفة. وقدم كل واحد رفاقه لصاحبه بالإسم الأول، وأخذ كل واحد مجلسه ثم أديرت القهوة، وتبودلت الأحاديث الأولية وعرف كل واحد على مقر صاحبه بحيث اتضح للحبيبي أن الدعيمي أحد وجهاء الكويت وتجارها كما اتضح لصاحبه أن الحبيبي أحد وجهاء وتجار المدينة المنورة، واستمر السمر تلك الليلة بأحاديث ذات شجون ضربت كل منحى، حتى حان وقت النوم فتفرق القوم وأخذ كل واحد مضجعه عدا هذين الرجلين فقد استمر الحديث بينهما يضرب كل اتجاه وشعرا أن هناك تقارب وتآلف وانسجام بينهما، وأن صداقة قد ولدت بمحض الصدفة تلك الليلة، وهكذا استمرا في جلستهما حتى انهرس الليل وركعت النجوم نحو المغرب، فاستأذن الدعيمي من رفيقه ليأخذ كلاً منهما قسطاً من النوم إلى لقاء مع أذان الفجر.

(*)ورد في فهرس مخطوطات بجامعة ليدن بهولندا «أن ماجد ولد راع الخرج».

وبعد أن حان موعد صلاة الفجر أيقظ كل منهما رفاقه وصلوا الفجر جماعة ثم انتقلوا إلى رفاق الدعيمي حيث تصنع القهوة هناك، ومع إدارة القهوة على الجلوس دارت معها الأحاديث فقال الدعيمي موجهاً كلامه لرفيقه:

ــ: ما رأيكم لو نقيم هذا اليوم قرب هذا الماء؟

: نقيم !!؟

ــ: نعم، لتستريح ركابنا اليوم وترعى غير بعيد عنا، فالأرض يبدو أنها قد أصابها مطر الصيف وأعلق شجرها، ونحن في نفس الوقت نستأنس لبعضنا، ويرى بعضنا بعضاً في وضح النهار.

: كل ما ذكرته طيب ولكن...

ــ: أرجو ألا تستثنى يا أبا ماجد، فما عرضته عليك ليس صعباً.

: لم أرد ما أشرت إليه، وإنما كنت أود القول إن قربنا من الماء وإقامتنا حوله قد تلفت إلينا أعين الناس وخاصة الطامعين منهم، سيما وأن معنا من التجارة والبضائع ما يسيل له اللعاب.

ــ: في هذا معك حق، ولكن المكان أمين كما يبدو.

: وإن يكن، فقد تخرج من تحت الحصاة عقرب أو حية.

ــ: إذاً ننزح قليلاً عن المكان ونلوذ في أحد مثاني الأودية لنقيم تحت ظلال الطلح غداً والليلة القابلة .

: هاه!! قد يتأخر مسيرنا، فيتأخر وصولنا مما يقلق من ينتظروننا.

ــ: آه، هو يوم لن يقدم أو يؤخر يا أبا ماجد.

: هاه!! يقول ذلك وهو يمسح وجهه ويمرر كفه على آخر لحيته.

ــ: أطعني ووافق، أرجوك.

: لا بأس.

ــ: إذاً فأنتم مدعوون عندنا، وأنتم بمثابة ضيوف علينا.

: يا أبا محمد، في السفر ليس هناك ضيف أو مضيف.

ــ: هذا رجاء خاص مني إليك، نحن بخير كما ترى، هذه الأحمال من كل نعمة، ومعنا من الزاد مايكفي لعشرات غيرنا لعدة أيام. وليس بيننا وبين أهلنا

سوى مسافة بسيطة.

: إذا كان الأمر ولا بد فلنتقاسم هذه المهمة، في النهار بضيافتكم وبالليل أنتم بضيافتنا.

ــ: لا إشكال في ذلك، لكل حدث حديث.

: حسناً لم نكمل حديثنا البارحة يا أبا محمد.

ــ: أتينا من الشام.

: من الشام!؟ لماذ أتيتم من هذا الطريق؟

ــ: آه!! لقد علمنا أن القبيلة الفلانية قد رفعت الإتاوة التي تأخذها ممن يعبرون أراضيها، وقد أطلقوا العنان لقطاع الطرق فيها أن يتصرفوا كما يشاؤون ولهذا اضطررنا إلى التوجه جنوباً حتى نتجنب أراضيهم ثم اتجهنا شرقاً حتى نصل إلى بغيتنا.

: غريب أمر هؤلاء الناس، كم من المشاكل أوجدوها في طرق التجارة وعرقلة سير القوافل.

ــ: صدقني يا أبا ماجد، أن نصف أرباحنا إن لم يزد على ذلك تذهب إتاوات لهذه القبائل!!

: لا شك في ذلك فقد مرَّ علينا مواقف مماثلة، وما هي نوع بضائعكم؟

ــ: أصناف كثيرة، من الملابس والأواني المنزلية النحاسية والزجاجية وأشياء متعددة أخرى.

: أما تأتيكم مثل هذه الأصناف عن طريق الخليج العربي؟

ــ: بلى، تأتينا أصناف من الهند والسند وفارس والشرق ولكن بضاعة الشام لها وضع خاص ولها راغبوها ومريدوها.

: بلا شك، فلها نكهة خاصة.

ــ: لم تخبرني عن مسيركم؟

: لقد أتينا من العراق، من بغداد ومررنا بكربلاء.

ــ: وماذا وجدتم هناك؟

: فرش من المنسوجات الصوفية والقطائف وبعض المنسوجات الحريرية،

بالإضافة إلى حبوب التوابل التي توجد هناك، وبعض العطور التي تأتي بغداد من أصفهان وشيراز وتلك الجهات.

ـــ: أما تأتيكم بضائع الشرق عن طريق البحر الأحمر؟

: بلى، ولكننا تعهدنا بنقل وحماية قافلة من الحجاج إلى بغداد، ولما وصلنا إلى هناك لم نرد العودة بدون شيء، ومثل هذه المنسوجات لها سوق رائج عندنا في موسم الحج.

ـــ: هل يشتريها الحجاج؟

: نعم، وقد يشتريها حجاج العراق أنفسهم أو غيرهم وهم يظنونها من منسوجات المدينة المنورة فيتبركون بها.

ـــ: عجباً، يتبركون بها!؟

: نعم، يأتي إلينا الحجاج فيشترون سلعاً من مختلف الأصناف وهم يعتقدون أنها من المدينة، وفيها بركة الأماكن المقدسة، وهي على الأقل قد وصلت إلى الأماكن المقدسة، وقد تكون هذه البضائع قد صنعت في بلادهم أو في بلاد أخرى، المهم أنه اشتراها من المدينة ولذلك يدفعون بها أغلى الأثمان.

ـــ: إيه!! قد يثيبهم الله على قدر نيَّاتهم، وكيف حركة الأسواق عندكم؟

: تنشط في موسم الحج، وتسير سيراً وئيداً بقية العام عدا بعض الإنتعاش الذي يحصل لها في موسم الزيارة الرجبية، ولكنها على كل حال تسير بدرجة مرضية.

ـــ: أنتم أحسن منا حالاً، حيث لا يوجد لدينا من المواسم سوى موسم صيد اللؤلؤ حين تصل فيه المنافسة قمتها ويأتينا المشترون من أنحاء الجزيرة العربية والأقطار المجاورة الأخرى.

: وهل تتاجر باللؤلؤ يا أبا محمد؟

ـــ: أدخل في تجارته في موسمه بجزء من مالي قد لا يتجاوز الربع، وبقية تجارتي في الملابس القطنية والحريرية والكتانية والأطعمة بأنواعها.

: تجارة رابحة بلا شك، لأن معظمها لا يدخله العطب.

ـــ: تفضلوا ننتقل إلى المكان الذي سنقيم فيه بقية يومنا بالابتعاد قليلاً عن الماء.

وتحركت القافلتان من مكانهما مع طلوع الشمس إلى مكان غير بعيد، وركب أبو محمد كور مطيته ولم تزل تطن في ذهنه تلك الجملة التي ذكرها صاحبه، من أن الحجاج يشترون هذه البضائع للتبرك بها على أساس أنها مصنوعة بالمدينة المنورة، حتى ولو كانت هذه البضائع قد صنعت في بلدهم، وتخيل هذه الطيبة والبساطة التي تقترب في بعض الأحيان من حدِّ السذاجة، لكن التأثير الديني القوي يجعل هؤلاء الحجاج يتصورون أن هذه الأشياء مصدرها من الأماكن المقدسة، ولما لهذه الأماكن من علو المكانة في صدور الآخرين، وقدسية تلك الأماكن الطاهرة التي يشعر بها الإنسان كلما كانت بعيدة عنه، ووصوله إليها عسيراً، أما إذا كانت قريبة منه وتيسر وصوله إليها فإن درجة ارتباطه بها وانجذابه إليها يصاب ببعض الفتور وقد يصبح كل شيء عنده عادياً، والارتباط الروحي بالأماكن المقدسة لا يقتصر على ديانة واحدة، فليس المسلمون وحدهم هم الذين يلتصقون بهذه الأماكن، نجد ذلك جَلِيًّا في الديانات الأخرى، والتبرك بما يوجد في هذه الأماكن من مصنوعات ومقتنيات قاعدة عامة يتمسك بها الكثير من معتنقي الديانات على مختلف مذاهبها، وأكثر من ذلك الإقتراب من هذه الأماكن والسكن حولها، لعل ذلك أن يكون شفيعاً لأمثال هؤلاء في التخفيف من ذنوبهم وقد يتمنى البعض منهم أن يودع الحياة الدنيا في هذه الأماكن ويدفن فيها، لعل ذلك أن يكون له صلة بين المكان الذي عاش فيه في أخريات حياته الدنيا وأوائل حياته الأخرى، هذه الاعتقادات التي قد لا تقدم ولا تؤخر في حياة الفرد أو مقره في آخرته، فلن يصل إلى ما يتمناه إلا برحمة ربه ورضوانه وجزاء ما قدم من عمل يتساوى في ذلك من فارق الحياة وهو في أبعد مكان عن هذه الأماكن أو أن يكون بقربها أو داخلها، وربما كان ذنب من عاش في هذه الأماكن أعظم وزراً ممن عاش بعيداً عنها، هذه الأماكن التي تشد إليها الرحال من أقصى أطراف المعمورة وترسل لها الصدقات وتخصص لسكانها الهبات والأموال التي يرجى ثوابها من الله عز وجل وربما عاش سكان هذه الأماكن وما حولها على هبات وصدقات السلاطين والملوك والأثرياء، إذا كان هذا الإعتقاد سائداً على هذا

المستوى، فما بالنا نلوم هؤلاء الحجاج الأبرياء عندما يعتقدون أن هذه الهدايا والبضائع من إنتاج هذه الأماكن المقدسة وهي على خلاف ذلك، والمفروض أن ينبه هؤلاء لمثل هذا الجانب، ولكن ربما لو نبهوا إلى ذلك فربما لن يصدقوا، وفي مثل هذا التنبيه ما قد يضر هؤلاء التجار أمثال رفيقي الذي أحضر في طريقه هذه الحملة ليبيعها على الحجاج في العام القادم وآخر مثله يأتي ببضائع قد صنعت بقطر إسلامي آخر، وربما باعها على حجاج من هذا القطر أو ما يجاوره، مثل هؤلاء التجار لو نُبّه على الحجاج وعرفوا مصدر البضاعة لربما جلب الخسارة لمجاوري هذه الأماكن المقدسة، ثم إن هناك عامل مساعد لعدم فهم مثل هؤلاء الحجاج وهو عامل اللغة التي تختلف من مكان إلى آخر في العالم الإسلامي وغيره بالنسبة للأديان الأخرى، ولكن الله كفيل بهؤلاء ليجازيهم على قدر نياتهم.

* * *

وأقام الركبان ذلك اليوم وليلته جرى خلال هذه المدة عدة جلسات وضربت الأحاديث كل مضرب وازدادت نواحي المعرفة بين الدعيمي والحبيبي وبدأت وشائج الصداقة يشتد نسيجها بين الرجلين وتعهد كل واحد منهما بالاستعداد التام لخدمة رفيقه بنفسه وبماله وعرض لصاحبه أصناف التجارة التي تتوفر لديه وقد تنفق في سوق رفيقه، وبعد هذه الجلسات الطويلة خلال يوم وليلتين وعند افتراق القافلتين قال الدعيمي:

ـــ: يا أبا ماجد، إني مودعك وراجياً منك أن تزورني بالكويت في الوقت الذي تراه مناسباً.

: سأزورك إن شاء الله، وإنني أدعوك أن تزورنا في موسم الحج القادم، ولتكن زيارتك لنا بالمدينة لغرضين، الأول هو الحج، والثاني أن تعرج علينا في طريقك للحج ونستأنس بوجودك في ضيافتنا، إيه!! تضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل.

ـــ: لا بأس، لكن وقت الحج بعيد نوعاً ما، وبإمكانك أن تزورنا قبل هذا الوقت.

: لكن عندي رحلتان خلال هذه المدة الزمنية الباقية على الحج إحداهما لليمن وحضرموت والشحر بطريق البحر والثانية إلى مصر عن طريق البر.

ـــ: ماذا تحضرون من حضرموت والشحر واليمن؟

: آه، نحضر منها الكثير من الأشياء السالكة عندنا في السوق كالقهوة البرية، وأنواع اللبان والمصطكي والبخور وكثير من الأعشاب والعقاقير التي نبيعها كأدوية، ومختلف الأبازير والأفاوية المستخدمة للطعام.

ـــ: ومن مصر؟

: المسنوجات القطنية الممتازة والحريرية والكتانية العالية الجودة، بالإضافة إلى بعض المصنوعات الجلدية والمنحوتات الخشبية والمصنوعات النحاسية.

ـــ: وهل تستغرق الرحلتان كل هذا الوقت؟

: كما تعرف كم تستغرق الرحلة الواحدة من شهرين إلى ثلاثة وبينهما شهرين أو ثلاثة للراحة عند الأهل فهذه المدة المتبقية على الاستعداد لموسم الحج القادم، ولهذا فإن دعوتي اليك في مكانها.

ـــ: ومتى تكون زيارتكم لنا؟

: ستكون بعد ذلك، إن لدي النية لزيارة سوق البصرة، وربما تعديت ذلك شرقاً إلى شيراز وأصفهان.

ـــ: وأين تريد هناك؟

: لدينا عدد من الأصدقاء من التجار وقد دعوني وشجعوني لزيارة تلك النواحي، ووعدوني بالمساعدة وذلك بالبحث عن البضائع الجديدة على سوقنا من هناك.

ـــ: لكن أصفهان بعيدة عليك يا أبا ماجد!!

: لا بعيد على طالب الأرباح.

ـــ: صحيح، ولكننا نتردد أحياناً في الذهاب إلى هناك.

: وانتم قريبون منه!!

ـــ: كما تعرف مخاطر الطريق، ومخاوف السفر تجعل الواحد يقنع من الغنيمة بالإياب في بعض الأحيان.

: أما تذهبون إلى هناك؟

ــ: بلى، ولكن في كثير من الأحيان نترك هذه المهمة للتجار الفرس لتحمل مخاطرها، وإن أخذوا علينا بعض الأرباح فإنهم يعرفون بعضهم البعض ويخلصون أنفسهم، أما إذا ذهبنا إليهم فإن مشاكل الطريق تصعب علينا.

: أجل، فإنك لا تنصحنا بالذهاب إلى هناك؟

ــ: لا، إنني أقول: جرب على الأقل لتأخذ فكرة عن سوقهم وربما صادفت بضاعة جيدة تستفيد منها.

: سأباشر هذه المهمة بعد موسم الحج القادم إن شاء الله، وسوف أعرِّجُ عليكم في هذه السفرة ذهاباً أو إياباً.

ــ: لتكن زيارتك في حالة الذهاب وربما صاحبتك في هذه الرحلة أو وجدت من يصاحبك من رفاقنا ليؤانسك، وربما استفدت ممن سبقك إلى تلك الأسواق، وسلك تلك الطرق.

: سأزورك في ذلك الحين إن شاء الله، وأنت ألا تريد أن تحج هذا العام؟

ــ: قد أفكر بالحج، لأنني سبق أن حججت وبقينا في الطريق خمسة وثلاثين يوماً في الذهاب ومثلها في الإياب وكانت في وقت الحر، وقد أتعبتنا مسيرة الحج تلك.

: سيكون أعظم للأجر إن شاء الله، أما وقت الحج الآن فهو مناسب جداً حيث الجو الربيعي المعتدل.

ــ: بالفعل، وهذا مما يشجع على أداء هذه الفريضة.

: إذاً نحن في انتظاركم مع طلائع الحجيج في الموسم القادم.

ــ: إن شاء الله.

: الآن إذا كنتم بحاجة إلى شيء أو طرأ عليكم أي خدمة فما عليكم إلا أن تخبرونا بما تريدون، وسيصلكم ما رغبتم فيه.

ــ: كثر الله خيركم، ونحن بدورنا نرجو أن تعتبرونا بنفس الموقف.

: أشكركم جزيل الشكر واستودعكم الله.

وتعانق الرجلان طويلاً، وكأن هذه المعرفة أو الصداقة التي نزلت عليهما

خلال هذا اللقاء القصير نسبياً كأن عمرها عشرات السنين وودع كل منهما صاحبه بالنشيج والدموع حين ضرب كل واحد إلى وجهته، فقال الحبيبي في نفسه؛ إيه!! رب صدفة خير من ميعاد!! لم أكن أعرف هذا الرجل من قبل ولم يعرفني اللهم إلا إذا سمع عني بالذكر، وجاءت تلك الساعة التي وردنا فيها على الماء لتكون نقطة الإلتقاء التي انبثق منها شعاع المحبة ونور الصداقة، وإذا بصاحبي كأنه لم ير إنسان غيري، ووقعت محبته في قلبي موقعاً لم يسبق أن شعرت به إزاء أي إنسان سوى والدي وإبني، اللهم إجعل آخر هذه المحبة خيراً من أولها، رجل من أقصى شرق الجزيرة العربية تجده في ساعات قصيرة يميل قلبه إلى رجل من غربها!! صحيح إن بيننا رابطة الدم والدين، ولكن لماذا هذا الرجل بالذات؟ وإن عندنا في نفس البلد أناس كثير تربطني بهم وشائج قربىٰ عديدة كالرحم والجوار، وعلاقات تجارية ومصالح مشتركة ولكن لم أجد لهم في قلبي ما وجدته لهذا الرجل من الألفة والمحبة رغم هذا البقاء القصير، وقد تمنيت لو امتد لقاءنا أياماً طويلة وشهوراً متعاقبة، ولكن حال دون ذلك ارتباط كل منا بمواعيد ومصالح مشتركة، ولكن كيف لو بقينا مدة أطول؟ ربما لن يستطيع أحدنا أن يسلو عن صاحبه يوماً واحداً!؟ هاه!! ومن يدري!؟ فقد يكون بقاؤنا مما يؤثر في عرى هذه الصداقة!؟ قد يزيدها ذلك فتوراً أو برودة!! أبداً أبداً، لن تكون وفق هذا الهاجس لتزداد متانة وقوة، فإذا كانت هذه الفترة القصيرة قد وصلت هذا المستوى فما بالك بالفترة الأطول منها؟ بلا شك أنه ستشد الروابط، وتصبغ القلوب بطابع المحبة سبحان الله، الأرواح أجناد مجندة، يأتلف منها ما أتلف، ويختلف ما اختلف وتبقى المحبة هي الرباط المتين بين هذه القلوب المؤتلفة التي قد تكون الطبائع هي لُحْمَةُ الوشائج وسَدَاهَا، قد يرتاح الإنسان للآخر من أول نظرة إليه دون أن يعرفه، فتنبسط له أسارير وجهه وينفتح له قلبه قبل أن يكلمه، نعم قبل أن يسمع منه نبرة واحدة، إنما هي النظرة الأولى التي يطرحها عليه، ولو من بعيد فتنعكس منها خيوط الإرتياح وبذور المحبة، وقد يكره هذا الإنسان من أول نظرة ينظر به إليه حتى لو لم يكن يعرفه أو يكلمه، وإنما مجرد أن تصطدم عيناه به فتعكس

معها سلبيات تترسب في أعماق ذهنه، ويبقى هذا الإنسان غير محبب إليه، فإذا تصرف هذا الإنسان أو تكلم إزداد عنه بعداً أو زاد إليه التصاقاً، وأحياناً أخرى تأتي هذه الإنطباعات عكسية، فقد ينظر الإنسان إلى شخص آخر فيرتاح إليه بادىء الأمر، حتى إذا تكلم أو تصرف انعكس هذا الارتياح وزاد عنه بعداً ونفوراً وقد يحصل خلاف ذلك، فقد تطفح إلى مخيلته قشور الاشمئزاز وثقل الطينة في هذا الماثل أمامه، حتى إذا تصرف معه أو كلمه وتعامل معه تحطمت هذه القشور وانقلبت إلى طبقة من نسيج المحبة والألفة، إيه!! سبحان مغيِّر التصاريف ومقلب الأمزجة!! ترى ماذا رأى مني؟ قد يكون رأى ما رأيت منه، سماحة المحيا، وبساطة النظرات، والابتسامة التي لا تفارق ثغره، طيب النفس وسهولة المنطق، لطافة الحديث رقة النبرات في صوته، هذه الأمور التي رأيتها في صاحبي وقد لا أملك معظمها، فربما رأى أشياء ارتاحت لها نفسه فتقاربت قلوبنا والقلوب أجناد.

* * *

وتبودلت الزيارات بين الإثنين فحج الدعيمي سنة بعد أخرى وزار رفيقه، يستقر عنده كل مرة بكل ما تعنى الحفاوة والتكريم، كما شد الحبيبي الرحال لزيارة صديقه الدعيمي ثم عرَّج عليه في طريق رحلاته التجارية ليمكث عنده بعض الوقت بكل حفاوة وتكريم أيضاً وصار كل واحد يكن لصاحبه الإخاء المحض والود الصافي، يترجم الواحد لأخيه هذه العواطف عند ما يزوره في بيته أو عندما تأتيه منه رسالة، بل عندما يأتي مجرد ذكره على لسانه أو لسان محدثه، وذات مساء كان الشاب ماجد الحبيبي إلى جانب والده يتحدثان عن الصداقة والأصدقاء، حين اعتدل الوالد في جلسته وقال:

ـــ: أي بني !! الصداقة التي لا تكون مثل صداقة رفيقي الدعيمي لا أعتبرها صداقة أبداً.

: قد يكون هذا رأيك الخاص يا أبي؟

ـــ: بالطبع هذا رأيي، ولكنه رأي مبني على حقيقة، أرأيت صديقاً مثله؟

: الواقع أن الأصدقاء الذين رافقتهم من الشباب، لم أجربهم حتى الآن، وربما لو جربتهم على حقيقتهم لوجدت فيهم من هو مثل صاحبك.

ـــ: لا أستبعد ذلك يابني، لا أستبعد!! ولكن...

: أراك وجمت ياأبي!! ماذا تريد أن تقول؟

ـــ: آه!! الأصدقاء على كثرتهم يابني، قد يكونون أصدقاء منفعة، أو أصدقاء رخاء، حتى إذا جد الجد ووضعت الواحد منهم على المحك تبين لك خلاف ما كنت تتوقع منه.

: وهل جربت رفيقك على المحك؟

ـــ: نعم، لقد جربته وبلوته وأثقلت عليه أكثر من مرة لأسبر غوره، وأعرف كنهه، فوجدت منه الجبل الراسي احتمالاً، والمزن المسبل انهلالاً.

: ولكنك كنت تحتفي به عندما يزورنا هنا لدرجة قد تتعدى المنطق وتجتاز المألوف.

ـــ: لم أقدم له معشار ما يقوم به نحوي إذا زرته أو أتاه مني رسولاً، بل إنني ألمس ذلك في العبارات التي تحويها رسائله المرسلة إليَّ.

: هذه عواطف متبادلة بينكما، وكل واحد يحب أن يكون السباق إلى الأفضل والأرقى منها.

ـــ: ليس هذا فحسب، وإنما وجدت فيه المعدن النفيس والجوهر الصافي، والإخلاص والتفاني بكل ما تعنيه هذه الكلمات.

: أتراه وجد فيك ما وجدت فيه؟

ـــ: لا أدري يابني، ولكن أين نحن وأين هو!؟

: ماذا تعني؟

ـــ: إنه أفضل مني بعشرات المرات.

: في أعتقادي أن هذا تواضع منك يا أبي، وإلا فأنت ولله الحمد لا تقل عنه شأناً.

ـــ: هذا الحكم يابني لا نستطيع إطلاقه على أنفسنا بل نترك أمره للآخرين.

: ولكن ما دمنا واثقين من أنفسنا فهذا ما نعتقده.

ـــ : آه!! يا بني لا تعدم صديقاً مثله.
: كيف تعرفت عليه؟

ـــ : آه، تعرفت عليه يا بني وأنت لا تزال في سن الرضاع بطريق الصدفة في ليلة مباركة، وها أنت الآن تجتاز أعتاب العشرين من عمرك المديد إن شاء الله ومنذ ذلك الوقت. أي منذ عقدين من الزمن وأنا أعرفه، أعرفه بكل ما تعنيه هذه الكلمة فهو صديق حميم.

: لم أسمع من قبل من يتحدث عن صديقه بهذه اللهجة!!

ـــ : لا يزال الوقت مبكراً بالنسبة لك، إنك لم تجرب الحياة، ولم تحتك بالناس وتعرف غثهم وسمينهم، وصديقهم من عدوهم، وجوهرهم من زائفهم.

: صحيح، أنا معك في هذه الناحية.

ـــ : أبنيَّ ماجد!! ليكن صديقك أو أصدقاؤك من هذا النمط وإلا فلا.

: هذا يخضع للتجربة والبرهان.

ـــ : لا شك، لا شك. يقول ذلك وهو مطرق بعد أن وضع إبهام يده بين حاجبيه رافعاً بها رأسه، ثم استأنف.. أُبَنَيَّ ماجد!! حاول أن تحافظ على صداقتك معه، ومع من تجد أمثاله في حياتي وبعد مماتي.

: هاه!! يقول ذلك بفزع، وكأن هذه الفقرة الأخيرة نقلته إلى حديث جديد.

ـــ : أُبَنَيَّ ماجد!! إذا استرد الله وديعته مني وانتقلت إلى الدار الآخرة فأول ما أوصيك به أن تشد الرحال إلى رفيقي وصديقي الدعيمي لتعزيه وتجدد الصداقة معه.

: بعيد عنك الشر ياأبي!! وقاك الله كل مكروه يقول ذلك بفزع.

ـــ : وأنا أردد ما تقول، ولكن لكل أجل كتاب، فمن أولويات ما أوصيك به، تجديد العلاقة بهذا الرجل، لا أريد أن يكون حبل وينقطع، أريده حبلاً متصلاً متيناً، يقعد صغاك عند الحاجة، يشد ظهرك عند العوز، يسندك عندما تميل، وتقف معه نفس الموقف أو تزيد عليه.

: بعد عمر طويل يا أبي، فداك روحي.

ـــ : تسلم يابني لي عضداً وسنداً؛ هاه أنظر من بالباب قام ماجد وهذا الموضوع

الذي أثاره والده يشغل باله وتبادرت إلى ذهنه الأسئلة، هل أحس والدي بشيء يجعله يقول ما سمعت منه؟ هل شعر بدنو أجله ورحيله من هذه الحياة؟ حتى جعل من أوليات ما يوصيني به زيارة رفيقه الذي طالما تردد علينا وعرفته عن كثب، وكان أبي يكرمه غاية الإكرام، هل تراه يكن لوالدي من الود بمقدار مايجد عنده؟ صحيح، لقد فهمت من والدي أن عمر هذه العلاقة يقارب عمري، ومنذ ذلك الوقت وكل يوم يمر عليها يزيدها قوة ومتانة، حيث استحكمت عراها، هذه الأواصر التي لا يريد لها أبي أن تتصرم، بل يريدها أن تزداد مع الأيام، يخلِّفها الآباء للأبناء، هاه!! ولكن حسب علمي أن رفيق والدي ليس له من الأبناء الذكور أحد، ولم يبق له مما رزقه الله إلا بنتاً واحدة، ولهذا فقد تختل موازين المفاهيم، فقد لا تنتقل الصداقة من الآباء للأبناء كما كنت أتوقع، اللهم إن كان ذلك في مجرى آخر، وهل يصدق حدس والدي في هذا الجانب من أن رفيقه سيحافظ على مستوى صداقته مع الابن الذي لا يعرفه ولم يجربه؟ أم أن هذه الصداقة ستهتز وتظهر فيها الشروخ التي ربما أتت إلى تصدعها؟ ذلك مالم نتبين معالمه الآن، وإنما ستأتي الأيام بمضمونه غير أنني لا أتوقع الخطأ لتخمين أبي، لمعرفته التامة لرفيقه الذي لم يوص على غيره، فأعمامي وأقاربي وأخوالي لم يعطهم والدي الأولوية التي أعطاها لصديقه ولو لم يكن واثقاً مما يقول لما أعطاه كل هذه الأهمية، أتراني في ذلك الوقت أذهب إليه بنفسي رأساً؟ أم أرسل له رسالة لأرى مردها ثم أذهب إليه؟ هاه!! قد أذهب إليه، لأن الذهاب أفضل لتنفيذ وصية والدي حرفياً، إيه!! مالي ذهبت بي الأفكار إلى تلك النقطة البعيدة وكأن الأمر واقع!؟ الحمد لله لا يزال والدي يتمتع بكامل صحته، وعنفوان حيويته، فما لي ذهبت إلى ذلك الوضع؟ الأمر لا يعدو كونه وصية بحديث عابر جرى تحت جنح الليل في هذه الأمسية عندما تطارحنا الحديث عن الأصدقاء ومقدار وفائهم، وكون أحدهم صديق بحق، والآخر صديق منفعة، أو صديق رخاء، حتى إذا حان وقت الحاجة تملص من بين أصابعك كما تزل كرة الزئبق من فوق راحة اليد لا تستطيع الإمساك بها للحظة واحدة، ولم تتمكن من رؤيته، مثل هذا

الصديق الذي يحذر والدي من ملازمته أو حتى النظر إليه ولو بطرف العين، أما الصديق الصدوق فذلك ما يريدني والدي أن أقطع إليه تلك المسافات الشاسعة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة العربية لأوثق الصداقة معه!! لم يركز والدي عليه إلا وهو واثق أنه سيبقى بما عهده فيه، صحيح هذا إذا نظرنا إلى الموضوع من الزاوية الطيبة وحسن النية من جانب والدي، ولكن يا مقلب القلوب والأبصار فقد لا يتم على هذا الحال إذا فقد رفيقه الأساسي، وجاء من بعده ابنه الذي ربما حمله محمل الطيب أن يكون مثل أبيه، وقد تتطابق نظرة الشباب مع نظرة الشيوخ في بعض المواقف وتختلف معها في مواقف أخرى، مما لا يغنى معه أن يكون فلان الشاب هو ابن رفيقي أو صديقي، وسوف يسير على نفس النهج الذي سار عليه، إذ ربما تكون نظرة الإنسان لمن يحب تطغى في جوانبها الإيجابية على جوانبها السلبية، ويرى سيئاته حسنات في الوقت الذي ينظر بها صاحب النظرة العقلية كل شيء على مقدار حسنه أو قبحه دون مواربة أو تعمية فإذا قدمت إليه لا يرى في حضوري سوى شاب في مقتبل العمر قد يطغى عليه نزقه وعنفوانه في مواقف لا توافق ما يرغبه من كان في سن والده!؟ إيه، لقد ذهبت بعيداً في هذا الأمر وكأنه ماثل للعيان الآن، مع أنه بعيد الاحتمال إن شاء الله.

* * *

ودارت الأيام دورتها في عدد من السنين حين مرض أبو ماجد ذلك المرض الذي لم يقم منه حيث لاقى وجه ربه في نهايته ولم يكن أمام ماجد سوى أن ينفذ ما أوصاه به والده فأخذ عدداً من رفاق والده في السفر ليصاحبوه إلى هدفه وبعد أن طوى هذه المسافات الشاسعة من غرب الجزيرة الجنوبي إلى شمالها الشرقي حين حلّ ضيفاً على رفيق والده بالكويت، الذي ما إن علم بقدومه حتى هب من مكانه لإستقباله ومن معه مجنّداً كل من يستطيع الاستعانة بهم للحفاوة بهذا القادم والسهر على راحته، وسارع على سؤال عن والده، ولم يرد ماجد أن يخبره بحقيقة الأمر من ساعتها، بل طمأنه أن والده

بصحة جيدة، وجاء حاملاً معه سلامه، فقام المضيف بكل ما يستطيع من صنوف الحفاوة والتكريم، وكان ماجد على درجة من الوسامة الملفتة للأنظار، فقد لفتت طلعته وجميل محياه الكثير ممن قابلوه أو شاهدوه، بالإضافة إلى لين جانبه ولطافة حديثه، وكان محط أنظار الجميع لا يمل أحد من النظر إلى محياه، ومضت تلك الليلة الحافلة بالحفاوة والتكريم التي تمثلت بتلك الوليمة الكبيرة التي دعى إليها المضيف أعيان البلد على شرف الضيف، وبعد أن طعموا استمرت جلسة السمر تلك إلى حوالي منتصف الليل، استمتع الجميع بتلك الليلة الحالمة إلى أن تفرقوا في وقت متأخر من الليل، وكان قد أعد لماجد مكان خاص على سطح المنزل، وغطى السرير الذي ينام عليه بظلة من القماش الأبيض الرقيق الشفاف «ناموسية» لتقيه شر لسعات البعوض أو تطفل الذباب في الصباح، حيث لا يوجد من وسائل التكييف ما يعوض عن ذلك، وتمشياً مع حال الحياة السائدة يومذاك اضطجع ماجد تلك الليلة المقمرة في فراشه الأبيض الناصع ونام فيه حتى الصباح وبعد قهوة الصباح أراد أن يفاتح رفيق والده بالحقيقة فقال له:

ــ: لقد قدمت إليكم يا أبا محمد بإيعاز من الوالد.

: أهلاً وسهلاً بكم وبمن قدمتم من أجله.

ــ: الأمر في غير ما توقعت، فوالدي رحمه الله، قد انتقل إلى جوار ربه عز وجل، «ويطلبكم الحل».

: هاه!! ماذا تقول !؟ مات والدك؟؟ يقول ذلك ووجهه يعج بمختلف التفاعلات، ويداه تكاد أن تتجمد على ما فيها، وقد جحضت عيناه وفغر فاه.

ــ: لقد انتقل إلى جوار ربه قبل عشرين يوماً، وأوصاني بمبادرة القدوم إليك لتعزيتك فيه، وتوثيق عرى الصداقة بيني وبينك باعتباري بمكان والدي.

: رحمك الله يا أبا ماجد، وأسكنك فسيح جناته، كانت هذه الكلمات تخرج متقطعة بين حشرجات الصدر وغصص البكاء وموجات النشيج وهو يحاول الوقوف لعناق ماجد الذي وقف يقبّله، وتعانق الرجلان طويلاً وتأثر كل منهما

من نشيج صاحبه، ثم سرت جمل الثبات المتمثلة في الآية الكريمة **﴿والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾** وما شابهها حتى دخلت الطمأنينة إلى النفوس بعد فترة، عاد كل إلى مكانه يمسح آخر ما على خديه من الدموع، تلا ذلك الدعاء والتضرع إلى الله العلي القدير باسباغ المغفرة والرضوان على روح الفقيد، ثم استأنف ماجد.

ــ: كانت أولى وصية أوصاني بها أن أنقل إليكم التعازي وأجدد معكم العهد نيابة عنه.

: رحمك الله يا أبا ماجد، والأمر يابني لا يحتاج إلى تجديد، فما بيني وبين والدك أقوى من أن تفصم عراه، وأمتن من أن يناله الوهن والضعف، ما بيني وبين والدك لا يمكن أن يغيره شيء.

ــ: لا شك في هذا، ولكن من شدة حرص الوالد أن تبقى هذه العلاقة بيننا، كان هذا ما يحوك في صدره.

: أنت بمكان والدك، أنت بمكان والدك يقول ذلك وهو يربت على كتف ماجد.

ــ: هذا شيء مؤكد، ولكن كما تعرف الصداقة بين اثنين قد عرف كل واحد منهما صاحبه لفترة طويلة قد يحدث عليها شيء من التجديد سيما مع شاب حدث.

: لا يابني، لا تقل هذا، العود من تلك الشجرة.

ــ: لكني لست كأبي!!

: إنك بمكانة أبيك، مادمت على قيد الحياة، وأي شيء يخطر ببالك أو تحتاج إليه فكل ما أملك تحت تصرفك.

ــ: سلمت يا أبا محمد، وأمد الله في عمرك.

: سوف تستمر علاقتنا مع بعضنا، وسوف تزداد صداقتنا رسوخاً إن شاء الله، وإن أردتم توسيع تجارتكم فبإمكاننا أن نمثلكم هنا.

ــ: سلمك الله «ياعم» يقول ذلك بحكم عامل السن، وليس لدينا النية في التوسع إلى هذا الحد، بل نكتفي بما لدينا في بلدنا.

: سأذهب بك بعد أن تستريح عندنا أياماً في رحلة بحرية وسنمر في طريقنا على الموانىء المطلة على رأس الخليج العربي في بلاد فارس والعراق، وتستمتعون برؤية البحر وترون الحياة في البحر، فهي نزهة تجارية.

ــ: هذا شيء جميل.

: متى رأيت نفسك مرتاحاً يابني قمنا بهذه الرحلة، وربما صادفنا في طريقنا نوعاً من ضروب التجارة تصلح عندكم.

ــ: وهذا شيء طيب أيضاً. يقول ذلك من باب مجارات الشيخ.

: عليك أن تخبرني متى وجدت نفسك وقد أخذت قسطاً من الراحة.

* * *

ومضى اليوم الثاني من الضيافة بنفس حرارة اللقاء ولياقة المكانة، وقد حاول المضيف إضفاء جو من المرح ليغمر الضيف به وينسيه ما هو فيه من الحزن بفقد والده، ولذلك استمرت الجلسات والمسامرات حتى انتصف الليل، ثم تفرق الجميع، وقصد ماجد الفراش الذي أعد له فوق السطح ليتعرض لنسيم البحر العليل وبعد أن استقر في فراشه، وبدأ النوم يدغدغ جفنيه أحس بخيال أقبل إليه ظنه أحد الخدم وقد أحضر له شيئاً من الماء أو غيره، لكن ما إن اتضحت له الرؤية على ضوء القمر حتى تبين أنها فتاة فارعة الطول ممشوقة القوام يحاكي محياها قمر الخامسة عشر المطل عليه من الشرق ويقترب من منتصف السماء، عند ذلك تظاهر بالنوم، وبدأ يرمقها بعينه عندما اقتربت منه ووقفت غير بعيد عنه إنه يشاهد دائرة وجهها، لكنه لا يرى تفاصيله، ولا يتبين الخلجات التي ترتسم عليه، لا يرى العيون وما ينعكس فيها من اللواعج والأحاسيس، لا يميز الثغر وما يتجسد عليه من التعابير والقسمات، وبقى صامتاً متمدداً على فراشه وكأنه يغط في نوم عميق، فخيِّلَ إليها أنها لم تأت من قبل وجهه لعدم اتضاح الرؤية عندها بسبب ذلك الغطاء الأبيض الشفاف، فدارت حوله إلى الجهة المقابلة ووقفت في الجهة الثانية تبحلق بعينيها علها أن تستطلع الأمر وتستجلي الحقيقة، لكن ساورها الشك مرة أخرى فدارت مرة

ثانية إلى مكانها السابق، وهكذا كلما وقفت في مكان ظنت أنها على خطأ فانتقلت إلى غيره، تدور حوله عدة مرات وهو مشدود في فراشه لا يتحرك، يتحكم في أعصابه المشدودة أمام هذه الزائرة له في فراشه، وقد دار في ذهنه عدد من الرؤى وانهالت عليه الأسئلة من نفسه، ترى من هذه الفتاة التي جاءته في هذه الليلة؟ أهي إحدى الخادمات اللاتي يعج بهن بيت مضيفه ذو المكانة المرموقة والجاه العريض؟ جاءت إليه لترى ما إذا كان الجو حاراً لتحرك الهواء من حوله بمروحة الخوص؟ تقف بجانبه وتحرك الهواء بهذه المروحة حتى يبرد الجو ويغالبه النوم، أم تراها أرسلت من قبل سيدها لتستمع ما قد أبوح به من صدى تلك المواضيع التي طرقناها في جلساتنا في ذلك اليوم؟ ولكن هذا القوام الرشيق والوجه الوضاء والملابس الفاخرة ما كان لها أن تريديها خادمة، أتراها سيدة البيت؟ ولكنها بعمر الزهور، ليست سيدة بيت في قرب سن أبي محمد، أتكون فتاة عروس تزوجها أبو محمد لتوه وهي في ريعان الشباب كما هي عادة التجار في مثل هذه السن يحب الواحد منهم أن يمتع نفسه؟ قد يكون.. ولكني لا أعلم عن هذا الموضوع، أتراها ابنته الوحيدة «سارة»؟ وفي هذه الحالة، فماذا تريد مني في الهزيع الأخير من الليل؟ إنني رجل غريب عليها أو لا يمكن أن تتجرأ فتاة في مفاتحة رجل غريب قد حل ضيفاً على أبيها، قد تكون مخطئة في تخمينها ومجازفة في حدسها!! أتراني أكلمها لأعرف ماغايتها؟ لا، لا يمكن... احتراماً لنفسي وإكراماً لأبيها الذي أعده بمثابة والدي، وما دام أنها اعتقدت أنني نائم فسأظل على نفس الوضع، فإن أيقظتني تصرفت معها تصرفاً آخر، وإن ذهبت من نفسها فذلك ما كنت أريد، وبقيت تدور، وتدور علّها ترى منه حركة تدل على يقظته لتطرح عليه التحية، لكنها لم تر شيئاً يدل على ما في نفسها فداخلها الوسواس، وتبادرت إلى ذهنها هذه التساؤلات، هـل ستوقظه من مرقده؟ وإذا أيقظته فما هي ردة الفعل التي تتوقعها منه؟ هل سيرحب بها ويرد عليها التحية ويسمح لها بالجلوس بقربه؟ أم سينهرها بحكم وجوده ضيفاً على أبيها؟ وفي هذه الحالة قد يفتضح أمرها بين خدمها، سيما في هذا الوقت من الليل الذي هجع فيه

الناس، وخيم سكون عميق على البيوت بحيث يمكن أن تسمع رنَّة الإبرة لو سقطت على الأرض، وكيف لها أن تتغلب على هذا الصراع المحتدم في قلبها من العواطف المتأججة، والمحذورات الصارخة؟ هل ستقدم أم ستحجم؟ أخيراً قررت أن تبقى تترقب حركة يتحركها إثر لسعة بعوضة تسللت إليه من تحت الغطاء أو تخللت مع فتحات نسيجه، فجثمت على جسمه وغرست فيه خرطومها، لربما أيقظته من نومه، أو قد يتصبب العرق بتأثير الرطوبة والحر على أحد مراقِّ جسمه فيحاول تخفيف هذا الإزعاج بالإنقلاب على الجزء الآخر من جسمه فيستيقظ وعندما يفتح عينيه يراها أمامه، ويأتي الكلام منه إليها، لكن هذه التوقعات ذهبت أدراج نسمات البحر الباردة التي حملت البعوض بعيداً عنه ودغدغت مراقَّ جسمه برقتها ولطافتها فلم يعد بالإمكان أن يتحرك ولا يستيقظ، وهكذا دارت حتى ملت وعادت من حيث أتت.

وتنفس ماجد الصعداء، بعد أن غادرت المكان، ولم يلبث طويلاً حتى داهم النوم جفنيه، فغط في سبات عميق لم يوقظه منه سوى أشعة الشمس اللاذعة المطلة عليه من الشرق، فاستيقظ فزعاً من تأخره عن أداء صلاة الفجر، حيث أسرع ليتوضأ ويؤديها، وكأن ما مرَّ به البارحة خيال مارق، أو حلم ليل عابر، ومضى ذلك اليوم حسب البرنامج المرسوم له بزيارة الأسواق، والتعرف على معالم المدينة ونواحيها وزيارة بعض الوجهاء الذين دعوا المضيف وضيفه لتناول القهوة وفي المساء التالي عندما أوى إلى فراشه بنفس المكان، لم يمض طويل وقت حتى دنفت للمكان نفس الفتاة التي دارت حوله ليلة البارحة، فالتزم الهدوء والصمت كما فعل في الليلة السابقة، وهي في هذه الليلة أكثر أناقة وأجد لباساً، يفوح من أردانها بنَّةُ عطر خفيفة، ربما كانت من مثاني ملابسها عندما كانت معلقة في خزانتها فوقفت إزاءه، حيث وجدته ملقى على سريره لا حراك فيه وتساءلت؛ هل نام بهذه السرعة؟ لقد أتيت مبكرة هذه الليلة لأتمكن من وجوده مستيقظاً، لكنه لا حركة فيه، أتراه غط في هذه السرعة؟ لا أظن أن شاباً في مثل سنه وحيويته ينام بهذه السرعة مهما

متعباً، أتراه لم يأبه بي؟ ولم يلتفت لفتاة في عمر الورد تريد منه ردَّ التحية، تريد منه كلمة ينطق بها، لا تريد أكثر من كلمات مؤانسة، أسمع لحديثه ويسمع مني، البارحة لم تكن ملابسي كما ينبغي، فغفل عني أو تغافل، أما الليلة فقد لبست أجمل ما لدي من الملابس التي لم تر النور إلا في المناسبات العزيزة على نفسي، ومع هذا فلم أر ما يحرك شعوره نحوي، أتراه خجلاً مثل بعض الشباب الذين لا يستطيعون محادثة الجنس اللطيف من شدة الخجل؟ أم تراه استحى من امرأة غريبة تأتي إليه لتحدثه في مرقده؟ أم أخذته الشيمة والمروءة فتلاشى التحدث معي إحتراماً لكرم الضيافة الذي يغمره به والدي، وإجلالاً لقدر أبي؟ ولذلك لاذ بالصمت البارحة والليلة، فلم ينبس ببنت شفة!! وتعدىٰ ذلك إلى التوقف عن الحركة تماماً، فلا يحرك أي جزء من جسمه، قد يتحمل لسعات البعوض ويتركه يمتص من جسمه مايريد من الدم دون أن يتحرك، أم تراني، لم أعجبه؟ قد يكون هذا الاحتمال وارداً، فقد يكون من الرجال الذين لا يحبون الفَرَاش الذي يتساقط على ضوء المصباح، بل يريدون المرأة المتمنعة التي تشمخ بأنفها وتبتعد عن الرجل فتجذبه إلى نفسها أشد الجذب، ولكن لا أظن ذلك، فأكثر الرجال ينجذبون للمرأة من بعيد، تجذبهم بزولها، بنظرة أطرافها، بلمحة وجهها، برائحة ثيابها، بمشيتها، بإيماءتها، بأي حركة من حركاتها، ولكن قد يكون من نفس القلّة الرزينة التي لا يحركها أي من هذه الإغراءات، وقد يحسبني من تلك الخادمات اللواتي يمتليء بهن قصرنا من مختلف الأشكال والألوان هاه!! قد يكون هذا الاحتمال وارد خاصة في ملابسي الليلة الماضية، أما هذه الليلة فلا يوجد سيدة في مجتمعنا تملك مثل هذه الملابس فضلاً عن الخادمات، بالتأكيد أن هناك مانع قوي يمنعه من محادثتي، ولكن دعني انتظر حوله، فلعله أن ينفد صبره ويسألني، أو يرمي إليّ بأي كلمة، وبقيت على حالها تنتقل من مكان إلى آخر حول سريره، بينما هو قد شد أنفاسه، ولنزم الصمت وهو يختلس النظرات إليها على ضوء القمر الخافت هذه الليلة، لكن رغم الضوء القمري الباهت إلا أنه رأى منها ماشد انتباهه وزاد من غليان مِرْجَلِ عروقه، سيما تلك البَنَّة الطيبة

التي تصافح أنفه كلما مرت من أمامه من جهة هبوب النسيم، ويرى في هذه الفراشة البيضاء التي تدور حوله، وقد تلقى نفسه فتحترق فوق ألسنة شعلته، وباحتراقها ما قد تنطفىء ذؤابة ضوئه، فهل يكلمها ليرى سر مجيئها إليه؟ إذ ربما جاءت إليه لغرض ثاني، قد تكون من تلك اللواتي يحببن من جاء من الأماكن المقدسة ويردن التبرك بالحديث إليهم، وقد تريد أن توصيني لأمر ديني، بحكم قربي من مسجد رسول الله ﷺ، فقد تكون من تلك الفئة التي إذا ارتكبت خطيئة وتريد الكفارة عنها توجَّب عليها أن تتصدق بكفارتها على فقراء الأماكن المقدسة، قد يكون هذا الاحتمال وارداً، لكن لو أرادت مثل هذا لأوصت لي أحداً، أو لوقفت لي بالممر المؤدي إلى فراشي، وسألتني وهي متلفعة بردائها، أما أن تأتيني بفراشي بعد أن يهجع الناس فذلك ما أشك فيه، ويأخذ مني مأخذ الريبة إذاً ما دام الأمر كذلك، فلا بدَّ لي أن أصبر هذه الليلة، فإن تكرر منها هذا الموقف في ليلة قادمة تركت هذه المدينة وغادرت إلى بلدي قبل أن أقع في مشكلة أرباً بنفسي أن أكون أحد أطرافها، فدعها تدور حتى تمل وتذهب هذه الليلة كما ذهبت البارحة.

وبالفعل دارت حتى ملت وعادت من حيث قدمت، ومع انبلاج الصباح شعر ماجد بالراحة، وأمضى يومه ذاك مع مضيفه وفق ما رسم له وفي مساء اليوم الثالث حاول أن يطيل في مجلس السمر حتى انهرس الليل، ثم قام متثاقلاً إلى فراشه ولم يكد يأوي إليه حتى عادت إليه تلك الزائرة الجميلة وهي في هذه الليلة قد تأنقت أكثر من ذي قبل، وربما أراقت على ثيابها شيئاً من العطر لتلفت به نظر من تدور حوله، وقفت هذه الليلة غير بعيدة عنه، وهي جازمة بأنه لم ينم بعد، ولم تطل الوقوف أو الدوران حوله كما كانت تفعل في الليلتين الماضيتين وإنما اكتفت بمرتين أو ثلاث ثم رفعت طرفاً من الغطاء «الناموسية» ثم رمت بنفسها جالسة على منضدة موازية لفراشه وهي تقول:

ــ : السلام عليكم.

: وعليكم السلام.

ــ : حياك الله من ضيف كريم.
: وأبقاك.
ــ : حاولت هذه الليلة أن آتى إليك مبكرة قبل أن تنام.
: حياك الله.
ــ : أتعرف من أنا؟
: لا.
ــ : أنا سارة.
: سارة!!
ــ : نعم، إبنة رفيقك.
: أهلاً وسهلاً !!
ــ : وبك مثلها آلاف الآلاف، ولكن ذلك لا يكفي.
: هاه !! لا يكفى !؟
ــ : نعم، إن هناك ما هو أعمق من هذه الجملة وأبعد غوراً في النفوس، وأشفى لما في حنايا الصدور.
: لم أفهم ما تعنين !؟
ــ : لست غبياً، ولكنك تتغابى؟
: أبداً ، أبداً، يقول ذلك بصوت مرتجف، لا خوفاً منها ولكن رهبة من الموقف، وما قد يحدث عنه فيما لو سلك طريقاً نشازاً.
ــ : ما لصوتك قد تغير؟ لقد جئت لأحدثك حديث المؤانسة حتى يغلبك النوم. تقول ذلك لتطمئنه حتى يهدأ من الموقف الذي يتصور نفسه فيه وتدرك هي أبعاده.
: لا.. لا لم يحدث شيء. يقول ذلك بعد أن تنحنح وحاول تصنع صوت طبيعي.
ــ : كن مطمئناً ياماجد، لقد جئتك لتستأنس بحديثي بما قد يغسل من نفسك أوضار الحزن، إن لم يكن في ذلك إزعاج لك، أو تنغيص عليك. تقول ذلك لتشده إليها.

: على العكس فإنه لا يزعجني وجودك ولكن ..

ــ: أدري... أدري ماذا ستقول، وأدرك ما أنت فيه من الحيرة ولكني جئتك لهدف نبيل.

: هدف نبيل !! يقول ذلك بنغمة حادة.

ــ: نعم، لا يزعجك هذا الأمر، فلقد أعجبت بك خَلْقاً وخُلُقاً.

: أعجبت بي !!؟

ــ: نعم، وأنت.. !! أما أعجبتك !؟

: أجاب يتلعثم، لم أر وجهك إلا على ضوء القمر الخافت فلم تتضح لي معالمه.

ــ: أما أعجبك ما رأيت؟

: بلى.. بلى. يقول ذلك من باب المجاملة.

ــ: ربما رأيته فيما بعد في غير هذه الليلة.

: هاه !! يقول ذلك بنغمة بلهاء.

ــ: لن أطيل عليك هذه الليلة.. أستأذنك، سأتركك تنام ولنا لقاء آخر.

تقول ذلك وهي تسحب نفسها من تحت الغطاء تاركة رائحة عطرها يعبق بالمكان، منصرفة إلى شرفتها وغرفتها الخاصة في القصر، تاركة لماجد صدى هذا الحديث الذي يرن جرسه في مسامعه، محاولاً تقريب معناه إلى نفسه من شتى الزوايا ومن مختلف الأبعاد، ولكنه لم يصل إلى نقطة يرتكز عليها، حيث يجد المفاهيم التي تضمنها حديثها تسير مع مفاهيمه بخطين متوازيين لا يمكن أن يلتقيان في هذا الوقت بالذات.

* * *

ودارت في مخيلته هذه الأفكار، لإن أعجبت بي وأعجبت بها، فلا يمكن أن أخطبها من والدها في هذا الظرف بالذات، لقد جئت لرفيق والدي ورفيقي من بعده معزياً، فكيف يتسنى لي أن أطرق مثل هذا الباب، ولئن مكثت ليلة ثانية أو ليال فربما جرني الحديث إلى أشياء غير مرغوبة، وقد يفتضح أمري،

وتصبح صداقة رفيقي في خبر كان، وهذا ما أحرص على اجتنابه، إنني أربأ بنفسي عن مثل هذه الأمور الخطيرة، وبالذات إذا حدث مني في بيت صديقي ووسط محارمه، فقد يكون للجدران آذان تسمع ما يجري من حديث، وقد يكون لها عيون أيضاً تبصر كل حركة من الحركات والسكنات، وبالكاد أمضيت هذه الليالي الثلاث التي اتضح في آخرها ما تهدف إليه هذه الفتاة من مجيئها إليَّ، هاه!! قد يكون في تغيير مكان نومي إلى مكان آخر حل للموضوع، قد يكون في الصالون الرئيس الذي ينام به أناس غيري قطعاً لدابر هذا الأمر، لكن مضيفي قد اختار لي هذا المكان العالي حرصاً منه على راحتي لأنام على نسمات البحر اللطيفة أما في الصالون على ما أتوقع من حماية فقد لا أستطيع النوم فيه من شدة الحر ونزف العرق الذي قد لا أتحمله، إننا أثناء جلوسنا فيه لا تكاد أيدينا تتوقف عن تحريك مروحة الخوص حول وجوهنا وصدورنا، التماساً لنسمات الهواء الباردة التي تحدث عند تحريك المروحة، فكيف بالمرء إذا نام وليس عنده أحد يحرك المروحة من حوله؟ لا شك أنه سيتصبب عرقاً مما سيطير عنه لذة النوم، بالإضافة إلى ما سيبعثه هذا التصرف مني إن أنا طلبت ذلك من تساؤل المضيف عن السبب!! قد يقول: لماذا عاف المكان الذي اخترته له والذي أعتبره مناسباً لمكانته، واختار النوم بين هؤلاء الخدم وصخبهم وحركاتهم؟ إذاً، فالأفضل أن أستأذن رفيقي بالسفر اعتباراً من الغد حتى وإن ألغيت بعض ارتباطاتي، هاه!! هذا قرار قد يثير بعض التساؤلات عن سبب هذا السفر المفاجيء، وبهذه السرعة، مهما كانت النتائج فهي أفضل من بقائي، حتى لا يشعر رفيقي بشيء مما جرى، أو ما قد يجري، سأعتذر إليه بأن لديَّ أعمال تستدعي عودتي بسرعة، نظراً لما أحدثته وفاة أبي من التزامات ينبغي أن أشرف عليها، وأمور يجب أن أصفيها حتى لا يحدث اهتزاز لتجارتنا.

وهكذا ما إن أصبح الصباح حتى استأذن ماجد من مضيفه وصديقه، ورغم تشدد المضيف وتشبثه به للبقاء مزيداً من الوقت وذلك لاستكمال بقية

الترتيبات التي أعدها له، لكنه استطاع إقناعه أن هذا سيكون في زيارة قادمة نظراً للظرف الذي يمر به الآن، فأعد العدة للسفر من يومه ذاك، وهكذا غادر ماجد مع رفاقه متجهين إلى بلدهم، تاركاً سارة بعد أن انقطع بيدها خيط الأمل الذي كانت تمسك بطرفه، حيث أصيبت بالاكتئاب وخيم عليها ضباب الحزن فملأ عليها القصر على سعة جنباته فتكاثف ظله وزادت ظلمته حين علمت بمغادرة الركب فلم تستطع أن ترى ما أمام ناظريها، وما إن غادر ماجد البلد حتى انقشعت عن بصره تلك الغشاوة التي كانت تبرقع عينيه، وأحس بالراحة تغمر فؤاده، ولكنه ما إن ابتعد عن المكان حتى أحس بلواعج الشوق تعصف بقلبه كلما تصور ذلك اللقاء الخاطف الذي جرى بينه وبين سارة، ولا تلبث هذه اللواعج أن تغوص في أعماق أعماقه عندما يتخيل تلك الليالي التي بدأت فيها سارة تطوف حوله في فراشه، تقف عند رأسه تارة، وعند قدميه تارة أخرى، تقف أمامه حيناً ومن خلفه حيناً آخر، وبدا يسرح في تفكير عميق وشرود ذهني، لاحظه عليه رفاقه في السفر، فهو على غير ما كان عليه في قدومهم من أهلهم، وعندما يسألونه عما به يعود إلى ذاكرته وكأنه قد أيقظ من نوم على حين غفلة منه، وظل هذا دأبه حتى وصل إلى أهله، وأصبحت سارة هاجسه الذي يشغل تفكيره، بحيث لا يفارق خيالها ناظريه لحظة واحدة وجاشت الخواطر بين جوانحه، ولم يرد أن يبوح بسره لأحد حتى رفيقه والد الفتاة لم يرد أن يفاتحه في الموضوع حتى يعرف ما لدى الطرف الثاني الذي أوقعه في شراكه، أيكون حبها ومودتها له نابعة من صدق وعاطفة حقيقية أم يكون من ذلك الحب الذي تطرقه بعض العابثات بأفئدة الآخرين حتى إذا تورط في حبها انسلّت منه كما تنسل الشعرة من العجين، أو بقيت تلعب بعواطفه تضرب بها هذا الحال تارة، والحال الآخر تارة أخرى، وأخيراً قرر أن يجس نبضها قبل أن يكلم والدها في الأمر، وذلك ليعرف حقيقتها، وكان هذا المقياس هي أبيات من الشعر ترمز إلى هذه العواطف، فاستدعى مندوبه «طوق» الذي يعتمد عليه في مثل هذه المهمات، وأرسل معه هذه الأبيات بعد أن أوعز إليه أن يتنكر إذا أتى بيت رفيقه، وأن يدور حول القصر وتحت

المقصورة التي تقيم فيها صاحبة الشأن وأن يبين طرف الورقة التي كتبت فيها الأبيات حتى يأتيه من يأخذها من خادماتها، وينتظر ردها على ما كتب، وهكذا نفذ المرسل ما كُلِّف به وأوصل هذه الأبيات:

١٦٤ ـ يَاطَوْقْ يَاقَازِيْ عَلَى كُوْرْ ضَامِرْ تِبُوْجَ الْفِيَافِيْ نَاحْلَاتٍ خذَائِمَهْ

١٦٥ ـ لَاسِرْتَهَا يَاطَوْقْ عَشْرٍ كِوَامِلْ وْطَالَعْتْ قَصْرٍ لَلدَّعَيْمِيْ عَلَائِمَهْ

١٦٦ ـ سَلِّمْ عَلَى قَصْرَ الدَّعَيْمِيْ وْمِنْ بُهْ أَجَاوِيْدْ مَادَاسَوْا بَنَا قَطْ لَائِمَهْ

١٦٧ ـ سَلِّمْ عَدَدْ مَاهَلْ وَبْلٍ مْنَ الْحَيَا وْمَا لَايَغْ الْقِمْرِيْ بْلَيْلٍ وَلَائِمَهْ

١٦٨ ـ تِرْجِبَّهُمْ يَاطَوْقْ كَالنَّقْرِ بَالصَّفَا وْنَقْرَ الصَّفَا مَا عَادْ تِمْحَى رِسَائِمَهْ

١٦٩ ـ نَقْرَ الصَّفَا لَوْ هَبَّتْ الرِّيْحْ مَا نْجَلَى وْلَوْ جَا الْحَيَا مَاضَيَّعْ الْمَا عَلَائِمَهْ

وسار «طوق» بهذه الرسالة الشعرية إلى ديار الحبيبة التي جافى النوم جفنيها، وانصرفت نفسها عن الأكل والشرب منذ أن غادر ماجد المكان، فبقيت طعما للهواجس والأوهام حتى نشت حالها، وبان النحول على جسمها، وأصيب أبوها بالقلق إزاءها فأحضر الأطباء لعلاجها، وبينا هي تترقب وتقول في نفسها إن ماجداً ربما يزورها أو يرسل لها رسولاً أو رسالة، ولعل في هذا ما يطفيء غليلها ويروي ظمأها إذ من المستبعد من شاب مترف كماجد، قد تربى في رغد من العيش ونعيم الحياة لا يشغف قلبه حب فتاة جميلة مثلها ولو حتى من باب العبث، ولو كان من الشباب العابثين غير العابئين بنتائج الأمور لاستغل هذه الفرصة السانحة منها، لكنه من الرجال الذين يقدرون مواقع أقدامهم، ونتائج أعمالهم، ولذلك فلابد أن يرف قلبه إليها، وظلت تترقب بنفسها، ثم أوصت إحدى خادماتها ألا تغفل عن الإطلال من شرفة القصر لترى ما إذا كان هناك قادم أو مسافر وأناخ مطيته عند بيت أبيها ودخل في مضافته فتسرع هذه الخادمة إلى تحسس وتشمم أخبار هذا الوافد وتأتي سيدتها بأخباره؛ وذات ضحى أطلت من الشرفة كعادتها، فرأت رجلاً يسير في ظلال القصر روحة وجيئة وبيده ورقة قد بان طرفها، فأسرعت إلى سيدتها تخبرها الخبر، حيث أمرت هذه على الفور أن تذهب إليه وتحضر الورقة التي معه، وتأمره أن يعود إلى نفس المكان في ضحى اليوم الثاني ففعلت، وعند

عودتها أخبرت سيدتها أن هذا الرسول من ماجد ومعه هذا الخطاب ويريد له الرد، وفضت الخطاب وقرأت ما فيه من الأبيات قراءة متأنية، اطلعت من خلالها على ما يكنه لها من المودة والحب، وخاصة البيتين الأخيرين، فأخذت الدواة والقلم وخطت في ظهر الورقة الرد عليها، هذا الرد الذي يتمثل في الأبيات الآتية:

١٧٠ ـ يَاطَوْق لَاجِيْتَ اَلْحَبِيْبِي مَاجِدْ وْهُوْ بَالْمِعَادِيْ بَايْنَاتٍ وِسَايْمَهْ
١٧١ ـ مِنْ هَابْ وِرْدَ اَلْمَا صِدَرْ مِنْهْ مَا رْتِوَىَ لَوْ كَانْ بَالْمَا شَارْعَاتٍ كِظَايْمَهْ
١٧٢ ـ وْمِنْ كَثَّرَ اَلتَّصْدِيْد عَمَّنْ يْوِدَّهْ عَلَى غَيْر بِغْضٍ مِخْطِرٍ مَايْلَايْمَهْ
١٧٣ ـ وْمِنْ بَاتْ يَرْجِيْ بَالْعَسَى مَاتْ بَالْعَسَى وْتِلْهِيْهْ غَارَاتْ اَلصِّبَا عِنْ وَلَايْمَهْ
١٧٤ ـ عَشِقْتَكْ وَانَا اَللِّيْ كِلْ شَيْخٍ يِقُوْلْ لِيْ لَاوَاهَنِيْ بَالْعِمِرْ مِنْ هُوْ يْلَايْمَهْ
١٧٥ ـ مْلَاعْبِيْ وَلْدَ اَلْحَبِيْبِيْ جَنَّـةْ وْلَا جَنَّةْ اَلدِّنْيَا لْحَيٍّ بْدَايْمَهْ
١٧٦ ـ رِيْحَكْ عَلَى جَيْبِيْ وْطِرْيَاكْ فِيْ فِمِيْ وْرُؤْيَاكْ تُوْقِظْنِيْ وْلَوْ كُنْتْ نَايْمَهْ
١٧٧ ـ كَمْ لَيْلِةٍ بِتْنَا زُوِشْ بَاتْ بَيْنَنَا حِذَا اَلْخِيْفْ مَحْتِيٍّ بَالْأَيْدِيْ نِظَايْمَهْ
١٧٨ ـ أَقُوْمْ وَانَا أَطْهَرْ مِنْ حَمَامَاتْ مَكَّةْ وِالَاًّ فَرِطْ ثُلْوَىَ بالَايْدِيْ حَزَايْمَهْ

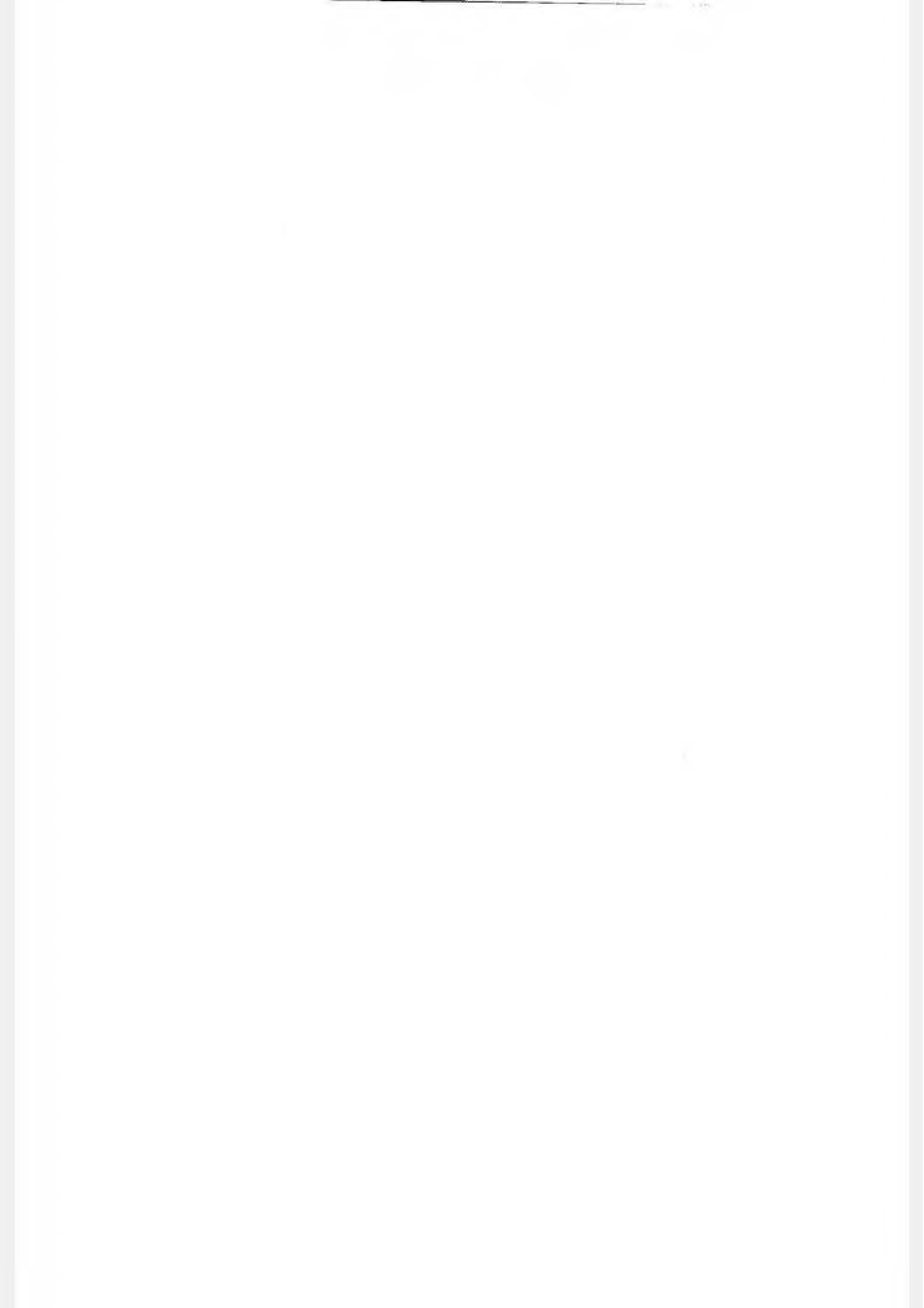
وفي الموعد المحدد سلمت الورقة لخادمتها لتسلمها بدورها إلى المندوب، وخرجت الخادمة تترقب مجيئه والورقة في يدها في هذا الوقت عاد الدعيمي إلى بيته من السوق لبعض شأنه فوجد الخادمة واقفة في ظلال القصر، فحاولت إخفاء الورقة عنه، لكنه لمحها من بعيد، وعند وصوله طلب منها الورقة، أسقط في يد الخادمة لكنها لم تستطع رفض ما طلبه سيدها، فناولته الورقة وقرأها واستوضحها عن الأمر فأعطته كامل التفاصيل، فطلب منها أن تخيره عندما يأتي الرجل، ودخل إلى منزله ولم يطل وقت الانتظار حتى جاء الرسول، فطلبت إليه أن يدخل، فاستقبله صاحب المنزل وعرف منه تفاصيل ما جاء من أجله، فأوعز إليه أن يذهب إلى السوق ليجد هناك كاتباً يكتب له رسالة على لسان ماجد، يطلب فيها يد ابنته سارة وأن يأتي يوم الغد في وضح النهار وينيخ مطيته عند باب القصر لتكون إعلان الخطبة بهذا الوضوح، بينما أكد الدعيمي على خادمته ألا يخرج منها أي كلمة تدل على هذا التصرف أو

ما جرى، وإلا فقدت حياتها.

خرج الرسول مسرعاً واتجه إلى مطيته التي أناخها في أحد أطراف البلد، ونفذ ما أمر به الدعيمي، وفي الغد شاع الخبر أن ماجداً قد أرسل رسولاً لخطبة ابنة الدعيمي فما كان منه إلا أن أجاب ماجد بالقبول، وأنه لم يدخر ابنته ويمانع في زواجها ممن خطبوها من وجهاء بلده وعِلْيَةِ القوم فيها إلا لتكون من نصيب ابن صديقه.

وعاد الرسول بهذه النتيجة التي غمرت ماجد بالسعادة فأقبل مع مجموعة من رجاله بجهاز العروس، وفي ليلة مشهودة تم الزفاف، واجتمع هذا القلبان، وذابا في إطار واحد من المحبة والوئام، وطفحا بالفرحة وحلقا يرفرفان في عالم المحبة الزوجية.

قصــة رقــم (٢٧)



الرفيق أولاً

ما كاد الصيف ينقضي ويدخل الخريف، حتى عَنَّتْ فكرة الغزو في ذهن «غُرَيِّبْ» وهو عقيد قومه، ولم يكد هذا النهم الطارىء يحوك في صدره حتى أدار تفكيره بمن حوله فوجدهم من أفراد عشيرته وقبيلته فتلا في غزوهم لأسباب قد تكون مروءته وحميته هي التي صدته عن ذلك لعدم تفريطه بأي من أفراد قبيلته من أجل بعير وما شابهه، وربما لحالة الهزال التي تحيط بأنعام أهل المنطقة التي يقيم فيها مع أفراد قبيلته فمدَّ نظره بعيداً حيث تعدى نطاق قبيلته إلى قبيلة مجاورة لديهم وفرة من المال، وإبلهم قد رعت أعشاب وحشائش الربيع وتراكم الشحم في سنمها، ورغم ما دونها من الرجال الشجعان الذين يحمونها إلا أنه صمم على أن يغزو هذه القبيلة.

فبدأ بجمع المعلومات عن هذا الهدف من أفواه الركبان، ولم يكتف بذلك، بل أرسل من رجاله من يسبر له هذه القبيلة ليعطيه المعلومات الأكيدة عنها، ولم يطل الوقت حتى تجمعت لدى غريب ما أراد من معلومات، فالتفت إلى رفاقه من نقوة الرجال الذين يختارهم بنفسه لمصاحبته في مثل هذه الغزوات، وكان ينتقيهم بعد التجربة الفعلية ثم يدربهم على فنون القتال التي يراها مناسبة لكل موقعة، بدأ في إعداد رفاقه هؤلاء، وكان من بين هؤلاء الرجال شاب شجاع في عنفوان الشباب وهو وحيد أمه، غير أن هذا الشاب لم يكن من أبناء عشيرته أو أي فرع من فروع قبيلته بل من قبيلة مجاورة، وقد صار من ضمن هذه «المَنْقِيَّةْ» أو الفئة المنتقاة التي اختارها غريب، وهو بحكم الجوار يعد من أفراد هذا القطين منذ أن أنضم وأمه في حي غريب قبل سنوات، وبرَّز على أقرانه من فتيان هذا الحي في محاولات الفتوة والفروسية والشجاعة وتألق بينهم، فلذلك صار ضمن المختارين لتنفيذ هذه المهمة

التي يرى غريب أنها تحتاج إلى مجموعة من الرجال الذين يمتازون بسرعة الحركة، وقوة الشكيمة، وصرامة الإقدام، لأنهم سيغيرون على قوم في مواطنهم، ويأخذون إبلهم، وربما داهموا أحياءهم، ولهذا فلا بد أن يحسب لكل موقف حسابه.

وبعد أن تجمعت المعلومات الكافية عن الهدف المقصود لم يخبر عقيد هذه المجموعة أحداً عن الوجهة التي يريدها وحتى رفاقه مخافة أن يتسرب الخبر إلى الحي، فتسمعه آذان الشجر ومسامع الحجر وتنقله أفواه الركبان إلى الجهة المعنية، ففضل كتمان السر حتى يخرجوا ويبعدوا عن الناس ويتحدوا في مكان بعيد ثم يكشف لرفاقه خطته ويبين لهم هدفه.

أخذ الركب اتجاهاً لا يمت بصلة إلى الوجهة التي يريدونها حقيقة متتبعين موارد المياه يسيرون مع حلول الظلام يسرون الليل بطوله تحت ستاره الكثيف حتى يصلوا إلى المكان الذي يريدون مع انبلاج نور الصباح، ينيخون مطيهم في مكان يقيهم حرارة الشمس وعيون المارة، ليستريحوا طول يومهم، حتى إذا دنت الشمس من مغربها تجهزوا للرحيل لاستئناف المسير، ولما ابتعدوا عن الأحياء وأصبحوا في دَوِّيَّةٍ من الصحراء سلك بهم الطريق المقصود حتى شارفوا على مرابع القوم، كشف لرفاقه عن هدفه، وبين لهم غايته، وأطلعهم على خطته الهجومية التي سيتبعها في الاستيلاء على إبل القوم، وكان يشرح لرفاقه هذه الخطة عند جلوسهم للراحة، حتى استوعبوها تماماً.

وفي الليلة التي كمنوا فيها قرب مراتع نعم القوم، وفي جلسة لشرب القهوة قال أحد الرفاق موجهاً كلامه للعقيد :

ــ : أترانا يا غُرَيِّب سننال بغيتنا منهم؟

: بلا شك، إن شاء الله.

ــ : أترى تخمينك صائباً؟

: لماذا تحاول التشكيك بخطواتنا يا راجي؟

ـــ : لم يكن ما رميت إليه ولكن...

: ماذا تريد أن تقول؟

ـــ : لاشيء، لكن مهاجمة قوم في مواقعهم، وأخذ إبلهم من بين أيديهم ما يجعلني أنظر لهذا الموقف بإمعان.

: هذا ما يميز ما سنقوم به من عمل على غيره.

ـــ : لم أستوعب ما رميت إليه!؟

: أظنك تتغابى عن الأمر، وإلا فإنك تدرك ما أعني، فأنت تعرف ما نتميز به من مفاجآت ومباغتات خاطفة والوصول إلى هدفنا وانتزاع غنيمتنا بأقصى سرعة.

ـــ : لا شك، ولكن بغير هذه الصورة.

: أي صورة تعنى؟

ـــ : كوننا ننقض على هدفنا وهو لا يبعد عن المدافعين عنه بمسافة كافية تمنحنا فرصة حيازة غنيمتنا والذهاب بها بعيداً قبل أن يلحقنا الطلب شيء اعتدنا عليه، لكن أن نهجم على إبل قوم قرب مضارب بيوتهم وفي متناول فرسانهم بحيث تدركنا خيلهم قبل أن تأخذ مداها في الجري وبشوط واحد فهذا شيء به كثير من المغامرة.

: مغامرة!!؟ يقول ذلك وهو يتحفز في جلسته.

ـــ : نعم وخطر علينا.

: ألا تعرف أنني أعشق المغامرات وأهيم في تجشم المخاطر فهي جزء من كياني وتختلط في لحمي ودمي. يقول ذلك باندفاع.

ـــ : هذا شيء مسلم به، لكن مغامرة من مغامرة!؟

: ماذا تغني؟

ـــ : بعض المغامرات موت محقق، وبعضها فيه احتمال الهزيمة أو النصر.

: هذه الأخيرة لا تسمى مغامرة، فالمغامرة في نظري ما يحتمل فيها الموت المحقق أو النصر المؤزر.

ـــ : يعنى مثلما سنقدم عليه!! يقول ذلك بصوت مجرور.

: بالضبط. يقول ذلك بنغمة من وجد ضالته.

ــ : ألا ترى أن نتريث قليلاً حتى تعزب إبلهم وتبعد عن بيوتهم، بحيث نأخذها إذا ابتعدت عن البيوت؟

: ومتى سننتظر حتى تعزب إبلهم؟

ــ : كلها يوم أو يومان، وتصدر الإبل بعد أن ترتوي لتسرح إلى مرعاها ونقتفي أثرها فنأخذها من هناك.

: حتى لو صدرت عن البيوت فإنها لن تبتعد عنهم كثيراً لأن مواردهم ليست بعيدة عن مراعيهم.

ــ : على الأقل تبعد عن مضاربهم بعض الشيء بحيث نتمكن من حماية ظهورنا منهم.

: سنحمي ظهورنا ونحورنا منهم إن شاء الله حتى لو كنا في وسط جموعهم.

ــ : لا تقل هذا ياغُرَيِّب فهم رجال شجعان دون حقوقهم.

: ونحن دون غنيمتنا يا راجي. يقول ذلك بلهجة المندفع.

ــ : لا ينبغي الاستهانة بالرجال.

: ومن قال لك هذا؟

ــ : ولكن ما نحن بصدده قد يدل على ذلك.

: أبداً، سنختطف غنيمتنا ونتوارى عن الأنظار.

ــ : يعني أنك مصر على هذا الأمر؟

: بكل تأكيد. يقول ذلك بلهجة الواثق من نفسه.

ــ : أعانك الله يقول هذه الجملة بصوت مجرور.

: مالي أسمع بصوتك نغمة التراخي؟

ــ : إنني معكم قلباً وقالباً، وما هذا الكلام الهامس بيني وبينك إلا محاولة طرح وجهة نظري، فلعلك أن تغير من خطتك وتتخذ بديلاً عنها، خطة يكون فيها المكسب أكثر من الخسارة.

: ومتى رأيتني أحسب للخسائر حسابها؟ يقول ذلك بنبرة حادة.

ـــ : هاه!! ما دام أنك مصر على هذا الأمر فتوكل على الله.

: وجم غُرَيِّب قليلاً ثم استأنف: ولكن ما هو الرأي البديل الذي تراه صائباً؟

ـــ : استجمع راجي ذهنه من شروده ثم رد عليه: لو أردت أن تتبع رأيي لصار لك خط آخر.

: ماذا تعني؟ يقول ذلك بنبرة متحفزة.

ـــ : يبدو أنك غير مهيأ لتقبل رأيي الآن مادمت في هذه الدرجة من غليان الدم في عروقك.

: وهل تتوقع مني غير هذا الوضع؟

ـــ : إذاً مادمت في هذه الحالة النفسية فلا داعي لطرح أي رأي جديد.

: إحتفظ برأيك لغير هذه المرة، سيكون له مكان في خطة قادمة. يقول ذلك وهو يربت على كتفيه كنوع من الاسترضاء وامتصاص ما قد يترسب في صدره من أشياء مكبوته.

وهكذا انسحب راجي من الموقف وفي صدره ما فيه بما لا يستطيع التعبير عنه سوى بالتمتمة غير المفهومة واتجه إلى مطيته المعقولة غير بعيد عنه، فانحنى عليها يمرِّر يده على ظهرها الذي نزع الشداد عنه قبل قليل ليرى ما إذا كان العرق قد جف عن متنيها ودفيها وغاربها ومردفها، هذه اللمسات الحانية التي تحس بها الناقة وتجد لها أثراً يخفف عنها عناء المسير وجهد المسافة، فبدأت تعبر عن ذلك تهمهم بحنين خفيف دلالة على سعادتها بهذه اللمسات اللطيفة من صاحبها، عند ذلك دارت في مخيلته هذه الأفكار: سبحان الله، حتى هذه البهائم تشعر بالسعادة إذا أحست من الإنسان بالجانب اللين واللمسة الرحيمة، ولكن الإنسان نفسه قد يركب رأسه إذا رأى من أخيه الإنسان هذا الجانب اللين، مما قد يشعر معه أنه موطن ضعف، وتضييع فرصة سانحة كما يفعل عقيدنا الذي يريد أن يزج في رفاقه المحدود عددهم في بحر متلاطم الأمواج من الرجال الذين لا يقلون عنا إقداماً وجرأة. وبالقرب من بيوتهم للاستيلاء على إبلهم وربما أخذ ممتلكاتهم، بلاشك أنها مغامرة مهلكة مهما كانت فوائدها، لاشك أنه سيسقط منا عدد

من الرجال في مقابل الحصول على مجموعة من الإبل، لا أحد ينكر شجاعة عقيدنا وصرامته وإقدامه ولا أحد يشك في تصميم رفاقنا وتفانيهم في الوصول إلى غايتهم والحصول على غنيمتهم، ولكن أيضاً لا يخفى على أحد قوة الخصوم واستماتتهم في الدفاع عن أنفسهم، وممتلكاتهم، سيما أمام أناس قد غزوهم وهاجموهم في عقر دارهم وحاولوا انتزاع أغلى ما يملكون وهي الإبل، لهذا السبب فإنهم سيستميتون للدفاع عنها، فضلاً عن بيوتهم وكيانهم، وعقيدنا هداه الله، إذا أصر على شيء من الصعب ثنيه عن رأيه، وإلاَّ ما الفرق بين أخذ هذه الإبل من قرب البيوت وأخذها عندما تكون سارحة في رأس مفلاها؟ في ذلك المكان قد لا يوجد معها سوى رعيانها البعيدين عن أهلهم، وفي حالة نجاة أحد منهم وعودته إلى أهله يستصرخ القوم، ومجيء الأفزاع نكون قد قطعنا مرحلة من الطريق، أو بلغنا حد الأمان، أو على الأقل قد رتبنا خطة معينة للدفاع عن الغنيمة، والفرق بين هذه الخطة وتلك هو انتظار أيام قلائل لتحين الفرصة ونكون بعيدين عن الأنظار، أما ما يرمي إليه عقيدنا فهو الإقدام ولا شيء غيره، بصرف النظر عما يترتب على هذه الخطوة من مخاطر، إيه، هداه الله، إنه ينقض على خصومه كالسهم لا يثنيه دون هدفه شيء، وطالما نجح في كثير من تلك الانقضاضات وعاد سالماً غانماً، ولكن حسب هجسي أنها تختلف عن هذه المرة، صحيح أنني لم أشترك معه إلا مرتين لكنها كانت بأوضاع مختلفة عما نحن فيه الآن، كنا نأتي الغنيمة على طرف وعن بعد معين عن أهلها، أما أن نأتيها في وسط أصحابها فهذا ما أشك في نجاحه، ويعتبر نجاحنا من الأمور الخارجة عن المألوف، لكن.. «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» وعسى الله أن يكتب ما فيه الخير، هذا هو يناديني... وربما عنَّتْ له فكرة جديدة.

* * *

وعندما وصل راجي إلى عقيد القوم، وجدهم قد التفُّوا حوله يتلقون منه آخر التعليمات بشأن الإغارة في صباح الغد الباكر، وأمرح الرجال ليلتهم تلك غير

بعيدين عن الهدف ومع خيوط الفجر الأولى تحفزوا للانقضاض بعد أن أدوا صلاة الفجر جماعة، ولم تكد أذواد الإبل تنقاد إلى مفلاها مع آخر غبشة الليل في ذلك الصباح الخريفي حتى أغار عليها غريب ورفاقه وصبحوا القوم، فاقتطعوا من الإبل قطعة جزلة، إستاقها بعضهم، وتحفز البعض الآخر للدفاع عن رفاقهم ضد أي طلب يأتي إليهم من أهل الإبل، ولم يمض طويل وقت حتى ارتفع صريخ الرعاة فجاءت الأفزاع على ظهور الخيل وأكوار النجائب، واشتبك المدافعون عن رفاقهم بالمدافعين عن إبلهم، وأدرك بعضهم من هرب بالإبل، فدافع عنها من معها، وبعد عراك طويل، وكرٍّ وفر تمكن أصحاب الإبل من استخلاص بعضها وبقي بعضها الآخر مع من حموها من رفاق «غُرَيِّب» وبعد ساعات من الجولات الحامية بين المهاجمين والمدافعين وقد رأى المهاجَمُون أن إبلهم قد عاد جزء منها وهم يحسبون أن الذي عاد هو كل ما أخذ حصل منهم فتور في ملاحقة المهاجمين وتتبعهم، بينما لحق غريب ومن نجا من رفاقه بربعهم الذين معهم جزء من الإبل المقتطعة.

وبعد أن أمنوا على أنفسهم ومن معهم من الإبل نظر عقيد القوم إلى رفاقه وتفقدهم فوجد غالبيتهم سالمين، واستقصى عن أخبار المفقودين فعلم أن بعضهم قد قتل بالتأكيد بشهادة من رأوه من رفاقه غير أنه لم يجد من يدله على رفيقهم «عبد الله» الذي ينتمي إلى قبيلة أخرى ورافقهم بحكم الجوار، وحاول الاستقصاء عن آخر المعلومات عنه فلم يعثر له على ما يدل على أنه من القتلى في ميدان المعركة، عند ذلك إسودت الدنيا بعيني غريب وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فصار يستجوب رفاقه واحداً واحداً عن آخر المعلومات عنه، وعندما لم يعثر على أي معلومات من رفاقه عزم على أن يبحث عنه بنفسه لعله أن يعثر على جثته مع رفاقه في ميدان المعركة، أو قد يجده أسيراً لدى القوم المهاجمين، واستراح رفاقه ليلتهم تلك، بينما إتّكأ على كور مطيته، تتصارع الأفكار في ذهنه، وتساءل: أين ذهب رفيقنا؟ هل قتل مع من قتل من رفاقنا ولم يره أحد من الأحياء، فقد يكون سقط بجذع شجرة واختفى، أو قد يكون رآه أحد الذين قتلوا من بعده؟ هاه!! قد يكون أسيراً لدى

القوم؟ وفي هذه الحالة يعتبر تركه مسبَّة علينا، أن نترك رفيقنا أسيراً عند قوم آخرين وهذا ما يعتبر عيباً أيضاً، ألا نحمي من يكون بجوارنا؟ ونذود عمن يلوذ بحمانا؟ آه!! لن يهجع لي جفن ولن أستريح في مكان ما لم أقف له على أثر، حتى لو كلف ذلك حياتي، ما الذي يستر وجهي من أمه؟ تلك العجوز الكبيرة التي هو وحيدها الباقي لها في هذه الحياة!؟ ماذا أقول لها إذا جاءت تسأل عنه؟ هل أقول لها إنني وقفت على جثته مقتولاً في ميدان المعركة مع رفاقه في طلب الغنيمة، وهذا نصيبك من الغنيمة التي ذهب ثمنها حياة إبنك مع آخرين؟ هل أقول لها إنه أسير يرسف في قيود الأسر ينتظر من يفك إساره ويعيده إليها؟ أم أقول لها إنه ضاع ولم يعثر له على أثر؟ سيكون سؤالها بالطبع: لم يعرف عنك يا غريب أنك تضيع رفاقك فلماذا ضيعت ولدي بالذات؟ ألأنه ليس من أفراد قبيلتك ولذلك أهملته ولم توله اهتمامك؟ لِمَ لَمْ تقف على جثته ولم تعد به سالماً أو جريحاً؟ قد يحلو للبعض أن يكذب على مثل هذه العجوز فيقول لها: إن ابنها قتل دون أن يتأكد من ذلك، ولو فرضنا أننا سلكنا هذا المسلك، وقلنا لها هذا الكلام وبعد أيام أو شهور عاد إليها ابنها سالماً، أو علم بأنه أسير على قيد الحياة، ما الذي يستر وجهي منها أمام الله وأمام أفراد قبيلتي والناس جميعاً؟ بالتأكيد سوف تنتزع الثقة مني ومن كلامي، لن يبقى هناك من يثق بأي كلام أقوله، وقد تكون مَعِيَّرةً عليَّ وعلى قبيلتي، سيما وأنه من قبيلة مجاورة، بيننا وبينهم احتكاك دائم بحكم الجوار، ماذا يكون موقفي لو عيَّروني بأنني مضيع رفيقه؟ هل لي أن أنكر ذلك؟ بالطبع لا، لا لن يلذ لي طعم أو ينام لي جفن أو يرتاح لي بال حتى أقف على حقيقة هذا الشاب، حتى ولو دفعت حياتي ثمناً لهذا الأمر، سأعود من مكاني هذا، سأخبر رفاقي بأن يعودوا إلى أهلهم بما معهم وأرجع أنا إلى القوم، نعم سأعود، بلاشك أنها مغامرة خطرة ولكن لابد منها، ماذا تراهم فاعلون بي لو عثروا عليَّ وأمسكوني؟ رجل هاجمهم في عقر دارهم وتسبب في قتل بعض رجالهم وجرح البعض الآخر وأخذ جزء من إبلهم ماذا تراهم يفعلون به لو أمسكوه؟ لا شك أنهم سيقطعونه إرباً إرباً، ولكن حتى لو حصل لي هذا فهو أهون عليَّ من

أن أعود إلى عشيرتي دون أن يكون معي رفيقي المفقود، وربما أنجاني الله من كل سوء لحرصي على رفيقي، هاه!! سأقترب من الحي حتى إذا هجع الناس تسللت بنفسي إلى بيت رئيسهم وحاولت أن آكل من بيته أي شيء أو أشرب أي شراب، وهذا في عرف العرب كفيل بأن يمنعهم من قتلي مادمت عندهم ثم يمنحوني ثلاثة أيام بعد ذلك وهي «المُهَرِّبَاتْ» لو عثروا عليَّ بعد ذلك وهم عازمون على قتلي قتلوني، ومادام هناك هذه الحماية العرفية فسوف أستفيد منها فلعلي أذوق ملح القوم قبل أن يعثر عليَّ أحد فأعرف آخر الأخبار عن رفيقي إن كان حيًّا أسيراً عندهم فككت إساره حتى لو أبقيت نفسي مكانه، وإن كان ميتاً عرفت ذلك منهم، إذاً سأبلغ رفاقي الآن وأعود من مكاني هذا على مطيتي حتى إذا اقتربت من نزلهم كمنت حتى يحل الظلام وأنفذ خطتي.

* * *

ثم نهض من مكانه وأبلغ رفاقه أنه سيعود للبحث عن رفيقه، ورغم محاولات رفاقه أن يعودوا معه، أو يعود معه إثنان أو واحد منهم إلا أنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً، وطلب منهم الاستمرار في طريقهم إلى أهلهم، وسوف يلحق بهم بعد أن ينهي مهمته ثم غادر مكان رفاقه من ساعته عائداً إلى حيث يريد. إقترب من مضارب القوم، واختبأ في مكان لا يراه أحد أمام بيت رئيس القبيلة الذي أوقد النار وتجمع حولها الرجال حتى إذا جنَّ الليل اقترب أكثر فأكثر وأشرف على ربوة غير بعيدة عن البيوت حتى إنه ليكاد يسمع لغط الرجال ورغاء الإبل وثغاء الغنم، وبقي ينتظر حتى انهرس الليل، بقي يحدث نفسه: أتراني أصل إلى هدفي وأجد رفيقي أو الخبر اليقين عنه؟ أم أن هذه الليلة هي آخر ليلة لي في هذه الحياة الدنيا؟ أتراني كمن نقل حتفه على كتفه؟ أو من يسعى إلى الهيجاء بدون سلاح؟ أيًّا كانت النتائج فلن ينال الإنسان إلا ما كتب له في جبينه، إن كانت هذه آخر ليلة من حياتي فقد بلغت ما في نفسي أن أموت دون العار، ويقال أنه فادى بنفسه في سبيل إنقاذ رفيقه، أو الوقوف على أثره، وإن نجاني الله ووصلت إلى غايتي فذلك ما كنت أطلب، ولكن أتراني أنجو

من القوم بعد أن أخذت بعض إبلهم وأفزعت قطينهم وتسببت في قتل رجالهم؟ إن وصلت إلى بيت شيخهم «حديثة الخريشا» قبل أن يعترضني أحد وطعمت في بيته فقد نجوت، ذلك لأنهم عرب ويعرفون تقاليد العرب وأعرافهم. وإن إعترضني أحد وتغلب عليَّ قبل أن أصل إليه فربما كانت هذه الليلة هي آخر ليلة في حياتي، لكن أترى يعترضني أحد في هذا الوقت من الليل؟ لا يستبعد ذلك لأنهم لا يزالون في وقت فزع، فالغارة كانت عليهم صباح هذا اليوم، ولا يمكن أن يناموا بهذه السرعة فيتركون بيوتهم بدون حراسة على الأقل لبضعة أيام، هذا احتمال وارد وقد يكون هناك احتمال آخر، وهو أن فرسانهم ورجالهم منهم الجريح والمتعب بعد غارة اليوم وقد لا يعبأون بالحراسة الليلية، سيما وأنهم موقنون أنه لايمكن مداهمة حيهم من غزو تحت ستار الليل، فالمتعارف عليه أن الغزو لا يكون إلا في الصباح الباكر أو في وضح النهار، أما في الليل فلم يعتد العرب أن يداهمهم غزو في هذا الوقت مهما كانت درجة العداء بين الفريقين إلا ما ندر ولهذا فلن يحسبوا لذلك حسابه ولن يحرسوا مضاربهم في الليل، إنهم يعرفون إنه لن يقترب من البيوت في الليل سوى اللصوص أو من لهم غرض فردى ومثل هؤلاء فالكلاب كفيلة بطردهم أو على الأقل التنبيه إليهم، سأعقل مطيتي بمسيل هذا الوادي المنخفض، إيه!! وماذا أفعل بهذه الكلاب الشرسة حتى أتقي نباحها!؟ هاه!! سآخذ من التمر الذي بخرج المطية عدداً من الكتع فأرمي لكل كلب في كتعة من التمر يأكلها ويتلهى بها حتى أجتاز الطريق إلى غايتي، عسى أن تلهى هذه الكلاب وتسكت عن النباح، كأن القوم قد هجعوا!؟ أرى نار الأمير وقد خمدت، ويبدو أن السُّمَّار قد غادروا المكان لم أر أي بصيص نار في الحي، لقد أطبق السكون على الحي تماماً، حتى الكلاب التي كانت تنبح بين الحين والآخر يبدو أنها أحست ببرودة آخر الليل وخلدت إلى الراحة، لا شك، فنحن الآن في الثلث الأخير من الليل، لم يبق غير ساعة على تباشير الفجر، إذاً سأتسلل حاملاً معي قطعاً من التمر وقطعاً من بقايا اللحم المشوي

التي بقيت معي من الليلة الماضية، ومعي بندقيتي وخنجري، قاتلك الله من كلب عقور، لقد بدأ يهر من بعيد سأرمي إليه بقطعة التمر وذرة من اللحم، حسناً لقد التهمها وسكت وهاهو خلفي يحرك ذنبه منتظراً قطعة أخرى، هاء!! لقد جاء الكلب الثاني، سأقذف إليه مثل سابقه، وأقذف للأول الذي يتبعني الآن، لقد اقتربت من البيوت أكثر، هاه!! ما هذا الكلب الذي أسمع ركضه على الأرض وكأنه ركض حصان، لقد وصلني.. لكنه هدأ عندما رأى أخويه يجريان خلفي إذاً إليه هذه القطعة الكبيرة من التمر وهذا العظم المنشم، وهي آخر ما بيدي لعلني أنجو من آخر ينقض عليَّ الآن وليس معي ما أسكته به، حسناً، لقد بقيت هذه الكلاب الثلاثة تتهارش خلفي وتقفز متلاعبة طربة وقد خدرتها قطع التمر وبقايا نتف اللحم المشوي التي لا تزال تتطعم بها، الآن قد اقتربت من بيت الشيخ «حَدِيْثَةْ» وكل شيء فيه هادىء، السكون يلف القطين بكامله، لا تسمع أي نسمة ولا ترى أي شيء سوى جهام البيوت والأنعام الباركة والرابضة في مرحها تحت ضوء النجوم الخافت المنعكس على الأرض، لم يبق أمامي غير خطوات... هذه عِنَّةُ الحطب قرب موقد النار، ها!! هذا حضن من الحطب على النار، وهذا إناء كبير به مريس أقط، وهذه أول غَرْفَةٍ أشربها منه، سأتضلع منه مادامت النار تشتعل في الحطب، الحمد لله لقد ارتويت، هذه دلة القهوة ساخنة على النار، وهذا أول فنجان أشربه منها، لقد ارتفع لهب النار في عنان السماء ومزق الظلام حول القطين، هؤلاء الرجال وعلى رأسهم الأمير «حديثة» قد جاءوا مسرعين فزعين بسلاحهم رأوا فنجان القهوة في يدي، وطاسة المريس التي قد شربت منها في يدي الأخرى، لم يعرفوني لأول وهلة، لأنني ألف جزءاً من وجهي باللثام، وقف الأمير وقال في لهجة حادة :

ـ : من أنت؟

: ضيف طرق حيكم بالليل وشرب من طعامكم وارتشف من قهوتكم.

ـ : عرف الأمير نبرات صوت غريب وأراد أن يتأكد: ولكن من هذا الضيف؟

: غُرَيِّبْ. يقول ذلك بعد أن كشف اللثام عن وجهه.

ــ : غريب!! ماذا جاء بك؟؟ يقول ذلك بنبرة حادة.

: جاء بي القدر، وها أنذا بين أيديكم، وفي متناول أقرب واحد منكم.

ــ : هل شربت من هذا الإناء؟

: نعم، وشربت من هذه الدَّلَّة.

ــ : أنت في وجهي حتى أعرف مقصدك.

: أيها الأمير، هذا عدونا وأوقعه الله بين أيدينا.

يقول ذلك أحد رفاق الأمير.

ــ : قلت لكم إنه بوجهي ولن يمسه أحد بأي مكروه.

: ولكنه قد فعل بنا ما فعل!!

ــ : أما تعرف عادات العرب!؟ إسكت يقول ذلك. بنبرة حادة. ثم يستأنف: ماالذي جاء بك يا غريب في هذا الوقت بالذات؟

: جئت أبحث عن أحد رفاقي.

ــ : أحد رفاقك!! تبحث عنه عندنا!؟ يقول ذلك بلهجة المتغابي.

: نعم، لم يكن ميّتاً فيقبر ولا حيًّا فيذكر.

ــ : تفضل هنا، فليس مكانك أن تجلس قرب كانون النار مكان عامل القهوة، وإنما مكانك بجانبي على هذه الأريكة، تفضل، إجلس معززاً مكرماً وحدثني عن رفيقك.

: آه!! رفيقي شاب جار لنا، ولم يكن من أفراد قبيلتنا ففقدناه ولم نقف له على جثة ولم نسمع عنه خبر، وهو وحيد أمه، وقد رافقنا في هذه الغزوة، ولم أستطع العودة مع بقية رفاقي دون أن يكون معنا أو نقف له على أثر.

ــ : أحد رفاقك!! أحد رفاقك!! يقول ذلك وكأنه يتذكر، ثم يستأنف قد يكون الشاب الأسمر مربوع القامة له جديلتان على صدره!؟

: نعم هو، بشرني... أين هو؟ يقول ذلك وهو يتحفز ويكاد أن يقفز من مكانه.

ــ : إنه سليم ومعافى. لقد أطلقنا صراحه عصر هذا اليوم.

: أطلقتم صراحه!؟

ــ : لقد وقع في أسر أحد فرساننا وبعد انتهاء المعركة عرفنا لهجته ولم نعلم أنه

رفيق لكم في بادىء الأمر، وإنما ظننا أنه قد صادته الشبكة مع إغارة الفرسان واسمه على ما أظن «عبد الله الأركع» فقلت لرفاقي إن كان من رفاق غريب فسوف يأتي بنفسه للبحث عنه، ثم استأذن منا فأذنا له.

: أين هو الآن؟

ـــ : قيل لي أنه التحق بقافلة من العقيلات معهم إبل متجهين إلى الشام مروا بنا عصر هذا اليوم.

: متجهين للشام!!! من أي طريق؟

ـــ : لا ندري، ولكن يبدو أنها مع هذا الاتجاه. يقول ذلك وهو يشير بيده إلى الطريق العام الذي يتجه للشام.

: أستأذنكم في المسير.

ـــ : أين تريد؟

: لألحق بهم وأدرك رفيقي.

ـــ : إسترح هذه الليلة، وعند الصباح تذهب إلى بغيتك.

: لن أستريح أبداً حتى أظفر برفيقي.

ـــ : أمرح هذه الليلة، وكل مطرود ملحوق يقول ذلك بصوت مجرور.

: بل يجب أن أصل إلى رفيقي أولاً.

ـــ : لن أسمح لك هذه الليلة لما أخشاه أن يقع لك من سوء وأنت في وجهي، حتى إذا أصبح الصباح أذنا لك، ولتنقل حذرك بعد الثلاثة أيام.

: لا حول ولا قوة إلا بالله، أما تأذن لي هذه الليلة لعلي أدركه قبل أن يبعد أو يدخل الشام؟

ـــ : لن يكون هذا، وستدركه في الطريق أو في الشام.

: آه... المشكلة إذا دخل الشام في أي المدن أجده؟

ـــ : ستجده عاجلاً أم آجلاً. يقول حديثة هذه الجملة وكأنه يريد أن ينهي هذا الحديث.

: الأمر لله!!

ـــ : ولكن قل لي، ماالذي جعلك تتجرأ وتدخل بيتي بعد أن جرى منك ما جرى؟

: لأنني واثق أن أمامي أمير يقدر مواقف الرجال مهما جرى بينهم من المنازعات وما دار بينهم من المعارك.

ـــ : أطرق الأمير بعد أن أطربته هذه الجملة ثم استأنف: حسناً فعلت، ولكن لو لم تتمكن من دخول بيتنا وتذوق ملحنا فربما لم تسلم من أحد رجالنا.

: لقد حسبت لكل شيء حسابه، وقدرت لكل موقف قدره.

ـــ : كيف وجدت رجالنا في الميدان؟

: أشدَّاء على حقهم، ألدَّاء لخصمهم، صعبى المراس، شديدي العزم والباس.

ـــ : كيف تجرأتم إذاً على مهاجمتنا؟

: طلباً للغنيمة، وأنتم الموالون لنا، ونحن نحب مقارعة الخصوم الأقوياء، خير من اللجوء إلى خصوم ضعفاء.

ـــ : إنك شديد الاعتداد بنفسك يا غُرَيِّب حتى وأنت في هذا الموقف!!

: الرجل لا يضعف أمام الرجال في أي ميدان يقف.

ـــ : ولكنك في موقف فيه ما فيه!؟

: أنا هنا أقف فوق أرض صلبة، وتحت مظلة ضافيه، رافع الرأس، شامخ الأنف.

ـــ : بلا شك، بلا شك، يقول ذلك محاولاً إنهاء هذا الحديث ثم يستأنف: أين تريد أن تنام؟

: «الضيف ماله غير رأي المعازيب»!!. كما قال الشاعر.

ـــ : جهزوا للأمير غريب فراشاً نظيفاً. هكذا أمر حديثة أحد رجاله.

: هذا ما كنت آمله.

ـــ : نم هانئاً، آمنا مطمئنّاً ما دمت في حمانا وتصبح على خير.

: تلقى مثله.

* * *

إفترق الأميران وتبادرت إلى ذهن الأمير المضيف عدة خواطر عندما اضطجع في فراشه، حين تصور جرأة خصمه في مجيئه مقامراً بحياته للبحث عن أحد رفاقه هذا من جهة ومن جهة أخرى لقد حدث منه ما توقع، فقد

أخبر رفاقه قبل ساعات أن غريب سوف يأتي للبحث عن رفيقه الضائع وهذا ما حدث إيه، «حي والله هذا الجبين» من هذا البطل الشجاع الذي غامر بحياته للبحث عن رفيقه، هذا والله الذي يستحق أن يصاحبه الرجال، لا يترك أحداً من رفاقه إلا وقف له على أثر، أو وجد عنه خبراً مؤكداً، فإما أن يكون قد قتل في المعركة مع رفاقه، أو يكون قد سلم وتأكد من مكانه، فهو من عشيرة 'الشِّلْقَان» الذين اشتهروا بنقل رفيقهم الجريح لمسافة طويلة على أكتافهم وهم حفاة على أقدامهم في مهلكة من النفود، وهذا الغصن من تلك الشجرة، ولكن أتراه يعود من مكانه بعد أن علم أن رفيقه سليم وقد غادر هذا الحي قبل ساعات!؟ لا أظنه كذلك، فهو عازم على مغادرة هذا الموضع ليصل إلى رفيقه فوق أي أرض وتحت أي سماء، لم يكتف الرجل بأخبار أهله وذويه أنه فقد من بين رفاقه أثناء المعركة ولم يقف له على خبر كما يفعل بعض عقداء الغزو، وإنما كلف نفسه عناء البحث وتجشم المخاطر في سبيله، لا لشيء إلا أن يصل إلى حقيقة ثابتة عن رفيقه، وهذه إحدى السجايا التي يتميز بها العربي الصميم والمسلم الحق، إذا تجاوزنا عن الهدف الأساسي لهذه الغارات التي تقتضيها الظروف المعيشية القاسية، فنحن مثلهم نغير على الآخرين ويغيرون علينا كما فعل صاحبنا ورفاقه مع أن مثل هذا العمل لا يقره الإسلام ولكن «مجبر أخاك لا بطل» إيه!! أهم ما في هذا المقام موقف الرجل من رفيقه والبحث عنه حتى يقف له على أثر، ثم هذه الجرأة والإقدام الذي غامر به الرجل!! كيف يقتحم كيان قوم قد أغار عليهم بالأمس ونهب بعض إبلهم، وقتل بعض رجالهم؟ حيث لا يزال دم القتلى ساخناً لم يبرد بعد، ولم يقف النزيف من المكلوم بعد، ولاتزال الصدور تغلي عليه غيظاً وحنقًا!؟ إذ يمكن أن يقتل من أدنى رجل في القبيلة، وربما نال هذا القاتل شهرة واسعة بين القبائل لقضائه على هذا العقيد الفذ، كما يشتهر بعض الناس منذ أقدم العصور، فما بالك لوظفر به أحد الرجال الشجعان فضلاً عن أن يدخل إلى بيت الأمير الذي يعتبر الحصن الحصين للقبيلة، والسد المنيع أمام أعدائها ولكن إذا عرفت مثل هذا الرجل فإنه يبطل العجب، ولا يبقى لأي افتراض

مجال من الاحتمال، فهو رجل مقدام له سطوات نافذة، وغارات مشهورة، ولا يستكثر منه مثل هذه المغامرة إيه!! والله لو لم يدخل بيتنا ويذوق ملحنا فلن يرى النور مرة أخرى، ولكن قدر الله وماشاء فعل. ثم داهم النوم جفنيه. أما غريِّب فقد بقي يتململ في فراشه وكأن ما تحت جنبيه من أشواك القتاد العاسل، لا قطيفة من صنع العجم، بدأ يتقلب على جنبيه في ساعات كانت الدقائق فيها تعدل الأيام يترقب انسلال خيوط الفجر، لتبدأ بتمزيق ستار الليل من الجهة الشرقية ليخف هذا الحمل الذي يجثم على صدره، فهو ينتظر في هذه الساعات الطويلة، وهو يتمنى لو أذن له شيخ القبيلة لينساب من حيث أتى حتى يصل إلى مطيته فيلوذ بكورها ولا تطلع الشمس إلا وقد قطع مسافة طويلة تمكنه من اللحاق برفيقه قبل أن يصل إلى الشام، ولكن هيهات فقد حيل بينه وبين ما يريد، فلم يأذن له رئيس هذه القبيلة التي ينتشر أفرادها على امتداد هذه الرقعة التي يتطلب قطعها بضعة أيام، ولهذا فقد يكون عرضة للخطر في هذه المسافة فيما لو خرج بدون إذن رئيس هذه القبيلة، ففضل أن يبقى عندهم يتحمل ثقل هذه الساعات التي تزحف على صدره بدقائقها التي تضاهي ثقل جلامد الصخر، ولسان حاله يقول: لماذا لم يسمح لي بالخروج، من توى لأذهب إلى غايتي؟ أتراه خائفاً عليَّ بعد أن جعلني في وجهه وهو داخل بيته في مجموعة من الرجال؟ إن كان قصده الخوف، فلا يخف عليَّ سأخلص نفسي ممن يتوقع أن يعترضوا طريقي، وسوف أصل إلى بغيتي دون إحراج له، ولكن ربما خشي أن يكون هناك عصابات يكمنون لي ويباغتونني على غفلة. بحيث لا أتمكن من مواجهتهم حين لم أحسب لهم حساباً، أما لو قابلوني وجهاً لوجه فلن يظفروا بأي مغنم، وقد تكون خشيته على نفسه من العار والمسبة، كيف ينال من رجل جعله في وجهه أي مكروه فضلاً عن أن يقتل، فتكون مسبة عليه وعيباً، وكما أنه يخشى العار فهو كذلك ربما أراد أن يكون إعلانه لهذا الموقف في صبيحة الغد أمام ملأ من الناس ليكون للخبر وقع أكبر في نطاق أفراد قبيلتة وشهرة أوسع، بعد أن يتناقل الركبان الخبر لمختلف الاتجاهات، كل هذه الاحتمالات واردة، ولكن أين ترى رفيقي الآن؟ أين

ذهبت، «يَارَاغْ العَلْيَا»؟ هل سألحق بك قبل أن تدخل الشام وأعود بك إلى أمك؟ أم تراك تضيع داخل إحدى المدن الشامية ويتطلب البحث عنك مدة أطول حتى نصل إليك ونعود بك؟ إيه!! الله أعلم أين نجدك، ولكننا عازمون إن شاء الله ألا نعود إلا بك مهما كلف ذلك من مشاق الطريق، أو عناء البحث والحمد لله على ما قدر، هاه!! هذه تباشير أشعة الصباح قد انداحت من الشرق، وهذا مؤذن النباه يطلق صوته، الله أكبر، لقد أصبحنا.

وبعد صلاة الصبح اجتمع القوم في بيت شيخهم «حديثة» وتناولوا القهوة حيث أخبر غريب مضيفه أن مطيته معقولة من خلف تلك الرابية على بعد معين عن البيوت حيث أرسل المضيف من يحضرها، وعند ذلك ودع غريب قائلاً له: أنت في وجهي ثلاثة أيام «المُهَرَّبَاتْ» من أفراد عشيرتي وبعدها عليك بأخذ حذرك، ولاذ غريب بكور مطيته أمام هذا الحشد من الرجال الذين يتحرقون على أخذ ثأرهم منه لولا دخوله تحت حماية وجاهة رئيسهم وانطلقت النجيبة بصاحبها، ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى أشرف على الخروج من أرض تلك القبيلة التي أغار عليهم بالأمس، وما كاد يخرج من نطاق تلك القبيلة حتى دخل في نطاق قبيلة أخرى قد تكون أشد من سابقتها، حيث أمسكوا له معابر الطريق الوحيد، ولم يوافقوا على مروره إلا بعد أن يدفع لهم إتاوة معينة من المال حيث قال له أحدهم :

ـــ : من تكون أيها الراكب؟

: رجل من العرب.

ـــ : نعلم ذلك، ولكن ألا تعرف أعرافنا؟

: لا، لا أعلم عنها شيئاً.

ـــ : تعلم أن هذه أرضنا، ولا نسمح لأي إنسان يمر مع هذا الطريق إلا بعد دفع مبلغ كذا من الجنيهات الذهبية أو الريالات الفضية «الفرانسا».

: ولكني لا أملك من هذا المبلغ شيئاً.

ـــ : نأخذ بدل النقود هذه المطية.

: مطيتي!؟

ـــ : نعم، ونرد عليك ما يزيد من ثمنها.

: ولكنها مطيتي ولا يمكن أن أتنازل عنها، أو أقبل بها أي ثمن مهما كان، فهي التي ستنقلني وتوصلني إلى غايتي... إنها جزء مني لا يمكن التنازل عنه.

ـــ : مادامت غالية عليك لهذه الدرجة، نأخذ عنها البندقية.

: أوه... بندقيتي!؟

ـــ : نعم.

: ولكنها سلاحي الذي أدافع به عن نفسي، ولا يمكن التفريط بها لأي ظرف من الظروف.

ـــ : أوه.!! مادامت ناقتك غالية عندك، وبندقيتك عزيزة عليك فكيف تتصرف؟

: بالفعل إن أي منهما لا يمكن التفريط به.

ـــ : وماذا معك غيرهما؟

: لا شيء، سوى هذا الخنجر.

ـــ : دعه عنا، وعليك أن تدفع إما المطية أو البندقية.

: لن أتنازل عن أي منهما.

ـــ : أخشى أن تفقد نفسك.

: نفسي!! إذا وصلت الأمور إلى النفس فليس دون الحلق غير اليدين.

ـــ : إذا عد من حيث أتيت.

: لن يثنيني عن غايتي أحد.

ـــ : وأين تريد.

: أريد الشام.

ـــ : إذاً أنت تاجر، ولابد أنك تملك من المال ما طلبناه.

: ليس لديَّ من المال سوى ما ينقذ حياتي من الهلاك.

ـــ : لا يهمنا هذا، ولن تمر من هنا إلا بعد أن تدفع ما طلبناه.

: قلت لكم أنني لا أملك من المال شيئاً.

ـــ : إذاً أنت قطاع طرق.

: لست كذلك أيها الرجال، وإنما مررت من هنا لهدف نبيل. لأبحث عن أحد رفاقي الذين قد عبروا هذا الطريق مع أحد قوافل «عقيل».

ــ : هكذا يقول لنا حتى اللصوص الذين يمرون بنا، من أنهم يسعون لمساعى نبيلة وأهداف سامية.

: يختلف وضعي عنهم.

ــ : كل يدعي ما تقول.

اسمحوا لي أن أعبر هذه المرة، وإن عدت من هذا الطريق فسوف أدفع لكم ضعف ما تطلبون.

ــ : أوه قد مللنا من هذه الوعود، فلن تعبر هذا المضيق مالم تدفع ما طلبنا... وإلا...

: وإلا ماذا؟

ــ : ستفقد مطيتك أو بندقيتك.

: لن تؤخذ مني أي منهما مادامت بي نبضة من حياة.

ــ : وقد تفقد حياتك.

: عند ذلك لا يسعني إلا أن أقول «لا حول ولا قوة إلا بالله» يقول ذلك وهو يلكد مطيته لحثها على العبور.

ــ : قفز أحد الرجال وأمسك برسن مطيته وهو يقول: والله لن تعبر المضيق ونحن أحياء.

ترك غريب من أمسك بالمطية وصوب بندقيته للرجال الواقفين عن يمينه وشماله وقتل عدداً منهم وفر البقية ثم عاد على من أمسك بزمام المطية فأرداه قتيلاً وأرخى الزمام لمطيته ولكدها فانطلقت به تحت جنح الظلام وعلى دوي طلقات البندقية بين صفحات تلك الجبال وتردد صداه اجتمع الناس من أفراد القبيلة من أودية الجبال وتلاعها وشعابها، وما كاد هذا الحشد من الرجال يقرر متابعة الفاعل حتى كان غريب قد اجتاز المضيق الخطر الذي يمكن حجره فيه والسيطرة عليه وأفضى به الطريق إلى فساح من الأرض أدى به إلى شط الأمان.

* * *

واصل غريب ليله بنهاره على كور نجيبته حتى وصل الشام مبتدءاً بمعان ثم عمان والقدس وحيفا ويافا وغزة، ثم اتجه شرقاً إلى السويداء ودرعا ثم دمشق. وبقي يتقصى أخبار رفيقه من مكان لآخر ومن مدينة إلى أخرى في مدة زادت عن الشهر والنصف، وكلما جاء إلى مدينة أخبر أنه خرج منها قبل يومين أو ثلاثة أيام، وربما يسبقه بيوم واحد، حتى إذا وصل إلى دمشق للمرة الثانية وجد رفيقه قد غادرها لتوه مع قافلة إلى وجهة ثانية مما حداه أن يلحق به ويعيده من منتصف الطريق، وبعد هذه المتابعة المضنية أدرك رفيقه، وكان لهذه المفاجأة وقع كبير في نفس المبحوث عنه عندما رأى مالم تصدقه عيناه، فقال بصوت يمتزج فيه الانبهار بوقع المفاجأة.

ــ : غريب!!؟ هل حقيقة ما أرى!؟

: نعم، كل الحقيقة.

ــ : ما الذي جاء بك؟

: جئت أبحث عنك؟

ــ : أنت تبحث عني؟

: نعم، كما ترى... أبحث عنك.

ــ : عقيد قومه، غريب يبحث عن شاب مثلي!!؟

: هكذا تقتضي الشيمة والحمية للمحافظة على الرفاق.

ــ : ولكنه من غير المتوقع أن تبحث عني بنفسك يا غريب!!

: لماذا؟

ــ : لأنني لست من أفراد عشيرتك، أو قبيلتك.

: ولكنك رفيقي!!

ــ : رفيقك!؟

: نعم رفيقي ولو لم يكن من أفراد قبيلتي فإنني أحرص عليه حرصي على نفسي.

ــ : ونعم العقيد، «تغشاك البيضاء، وترفرف لك البيضاء على كل مكان رفيع» ولكنك جشمت نفسك من العناء ما أنت في غنى عنه.

: لا تدرك الطائلات إلا بالتعب، ماذا أقول لأمك لوعدت بدونك؟

ـــ : أمي!!

: أمك ربما جاءتني تتلهف عن أخبارك، ولسان حالها يردد قول الشاعر :

١٧٩ ـــ لأزِمْ تجيْكْ أمُّهْ بْكَبْدَهْ لِوَاهِيبْ ... تْبَكِيْ وْمِنْ كِثْر ألْبِكَا مَاتْدَارِيْ
١٨٠ ـــ وْتْنَشِدْكْ بَاللّيْ يَعْلَمْ السِّرّ وَالْغِيبْ ... وِيْنْ ابْنِيْ اللّيْ لَكْ رِفِيْق مْبَارِيْ

ـــ : لكن أمي ليست كما قال الشاعر.

: لا تقل هذا، فالأم هي الأم، وشعورها نحو ابنها لا يختلف فحواه، وإن حصل اختلاف في مظاهره.

ـــ : لقد تكبدت عناء السفر ومخاطر الطريق من أجلي، فقد تسنمت ذروة الوفاء مع الرجال الأوفياء.

: هذا جزء من الواجب، المهم أن تجهز نفسك لنعود هذا اليوم إلى أهلنا.

ـــ : ولكني لا أملك مطية تحملني.

: سأردفك معي على مطيتي.

ـــ : أتحملنا معاً؟

: فيها بركة.

ـــ : إذاً سأشتري لوالدتي بعض الملابس من المدينة المجاورة.

: لا تتأخر.

وعاد غريب برفيقه على كور مطيته إلى أهله، وكان لهذا الحدث أثره البالغ في نفس رفيقه مما جعله يسرح في تفكير عميق عندما كان رديفاً لغريب ترقل بهما المطية فقال في نفسه : الله أكبر، هكذا يكون الوفاء!! رجل في هذا المقام عقيد رفاقه، يتعب نفسه للبحث عن رجل ممن انضم إليهم في هذه الغزوة مع أنه من غير أفراد عشيرته، ربما لو كان غير هذا الرجل لما أولى مثل هذا الأمر جل اهتمامه، إذ ربما بعث أحد رفاقه الآخرين للبحث عنه، وقد لا يبحث عنه إطلاقاً مثله مثل من قتل أو من لم يعثر له على أثر وما أكثرهم في مثل هذه الغزوات، أو حتى السفرات العادية، فما أكثر من يفقد ولا يوقف له على خبر، فيذهب وتطوى أخباره لكن هذا الرجل، الرجل بما تعنيه هذه

الكلمة لم تطاوعه نفسه أن يغضى عن رفيقه مثلما يغضى الكثيرون، فلا يأبه بتحسر أب أو تأوه أم أو نحيب زوجة أو صرخات أخت أو غيض أخ، لا يهمه ما يحدث من ذوي المفقود وإنما يترك تلك التفاعلات تمر من خلف أذنيه دون أي تأثير وتتعامى عنها عيناه وكأنه لم يرها، ويتجاهلها وجدانه فلا تجد لها مكاناً ترفرف فيه، أما رفيقي فقد حسب حساباً لسؤال والدتي عندما يعود مع رفاقه يحدون غنيمتهم من الإبل بعد أن سقط من رفاقهم من سقط في ميدان المعركة وفقد من فقد فيأتي ذووهم لسؤال عقيد القوم عن مصير أبنائهم أو إخوانهم، وفوق هذا دفعت به حميته وشهامته ومروءته للبحث عن رفيقه أو رفاقه لأنه يعتبرهم أمانة في عنقه حتى يعودوا إلى أهلهم. ولهذا السبب قطع هذه المسافات الطويلة متنقلاً بين هذه المدن فيما يقارب الشهرين بحثاً عني. يا الله!! إنني لا أكاد أصدق نفسي، أن عقيداً مثل غريب يبحث عن شاب مثلي ما كاد يفلت من قبضة من وقع في أيديهم حتى التحق بأول قافلة مرت بقربهم، حتى إذا وصل إلى أول مدينة بدأ يعمل راعياً لأذواد من الإبل، وأجيراً يصاحب هذه الأذواد المجلوبة من الإبل من مدينة لأخرى مقابل أجر معين، ولا تكاد تستقر قدمه في مدينة حتى ينتقل إلى أخرى وراء طلب الرزق، وما يدري أن صاحبه يتابعه باحثاً عنه في كل طريق يسلكه حتى عثر عليه في منتصف طريق جديد وأمسك به. يا الله!! كيف تحمل هذا الرجل هذه المهمة الصعبة، وفرَّط بزهو النصر لمن عاد مع رفاقه بغنيمة كسبوها، كيف لم يحسب لفرحة سكان الحي من عشيرته وقد عاد عقيدهم سالماً غانماً مع معظم رفاقه يحدون هذه الهجمة من الإبل؟ كيف فرط في موقفه بنشوة الإنتصار عندما يأخذ خزيزته من هذه الغنيمة ويقسم الباقي على رفاقه حسبما رآه من مواقفهم القتالية في ميدان المعركة؟ كيف استعاض عن هذا كله بالبحث الجاد عن واحد من رفاقه ومن قبيلة ثانية!؟ وترك سبيل ذلك القلق يقرع قلوب رفاقه وأفراد عشيرته عن مصيره وربما جعلهم يتوقعون أن يكون أصيب بمكروه، وربما لاقى في طريقه هذا من العوائق والمشاكل ما لم يخبرني عنه، وذلك بفعل أنفته وكبريائه، ولكنه بلا شك قد تعرض لمشاكل في طريقه،

هذا الطريق الذي سلكه لا يخلو من الصعاب والبلاوي وقد لمست ذلك بنفسي مع قوافل كبيرة، فكيف بمن جاء لوحده على كور مطيته، لا شك أنه مخاطر في نفسه، كل هذا فعله من أجلي!! من أجل والدتي، لقد خشي أن يتحطم قلبها أمامه كما يتحطم الزجاج، بل ساقته حميته وأنفته ومروءته إلى البحث عني حتى وجدني، فجزاه الله أفضل الجزاء. هاه!! إنه يحاول إناخة مطيته ربما لتناول القهوة أو الغداء في هذا المضحىً.

وهكذا استمر مسير هذه المطية الوحيدة براكبيها حوالي عشرين يوماً بلياليها حتى ثنت خفها في حي فريق غريب، عند ذلك عمت الفرحة الحي بكامله بعودة عقيده ومعه رفيقه المفقود الذي فرحت به أمه وكاد يطير لها، فدوى خبر هذه العودة وتناقله الركبان في كل اتجاه.

* * *

ومضت السنون والشهور والأيام تطوي في عمر غريب وقواه، حتى أحس بالضعف ودنو أجله، وعند ذلك أحس من أعماقه بأنه يجب أن يتوجه إلى تلك الأماكن المقدسة ليقضي فيها بقية حياته فأمر ابنه «شولاح أو فرحان» بأن يصحبه إلى هناك وسار به من صباح اليوم الثاني وفي طريقهما مرّا على أمير المنطقة الذي حاول أن يثنيه عما عزم عليه وأن يوجهه إلى جهة فيها طبيب ربما عالجه لاستعادة صحته وبعض قواه التي فقدها لكنه أصر على الذهاب إلى الأماكن المقدسة ووصل إلى المدينة المنورة وقد أنهكت قواه وشعر بدنو أجله فقال لابنه :

ـ : أي بني!! إن اختارني الله إلى جواره فلي طلب أرجو أن تنفذه.

: بعد عمر طويل يا أبي.

ـ : الأعمار بيد الله يا بني، ولكن...

: ما هو مطلبك؟

ـ : طلبي أن تزوج أختك وضحاء لمرضى الرفدى.

: لمرضى!!؟

ــ : نعم إذا وافقت على ذلك ونفذت هي رغبتي.
: ولكن لماذا هذا الرجل بالذات!؟
ــ : آه... لأنني وعدته إياها من قلبي، كان ذلك عندما كانت صغيرة.
: كيف؟
ــ : إه!! لذلك قصة قديمة يا بني!! لقد كانت أختك طفلة صغيرة، وكان جالساً عندي يتناول القهوة، فخرجت علينا من داخل البيت تبكي وإذا ملابسها رثة ووجهها يحتاج إلى تنظيف كما هي حالة بعض الأطفال عند استيقاظهم من النوم فنهرتها وأمرتها أن تعود إلى أمها لتنظيف وجهها فزاد بكاؤها فتناولها مرضى وأقعدها في حجره يربت على كتفيها، يمسح دموعها يقبل وجنتيها كعادة الواحد منا مع أي طفل يعطف عليه، ثم قال على سبيل المزاح: إذا كنتم لا تريدون هذه البنت فأعطوني إياها زوجة لي. فقلت له «جتك خذها» فقال قبلتها وعليك إبقائها عندك حتى تكبر، فقلت له إنها من نصيبك ونويت بها له منذ ذلك الحين، والآن كما تعرف فتاة في سن الزواج وهو شيخ قبيلته وعقيدها فهو كفؤ لها وهي كفؤ له وإن لم يكن من قبيلتنا.
: لا شك أنه رجل كفؤ ويستاهل، ولكن أخشى ألا توافق.
ــ : أعرض عليها رغبتي ولا أظنها ترفض لي طلباً فهي ابنتي وأعرفها.
: أبشر، أبشر يا أبي، هل هناك من وصية أخرى؟
ــ : أبداً، لكن هذا الموضوع هو الذي يحوك في خاطري فإن أحياني الله نفذته بنفسي وإن اختارني الله إلى جواره فأرجو تنفيذه من بعدي.
: ستتم رغبتك إن شاء الله.

ولم تطل الحياة بغريب بجوار الرسول الكريم ﷺ حيث وافاه الأجل هناك ودفن بالمدينة المنورة عام ١٣٥٤هـ وعاد ابنه إلى أهله ينقل لهم العزاء بهذا المصاب الأليم، وفي طريق عودته تراءت له الصور العديدة التي انعكسب فيها مواقف الوفاء التي وقفها أبوه إزاء من اقتربوا منه أو احتكوا به من أقاربه أو أصحابه أو حتى رفاق سفره، الله أكبر، رحمك الله يا أبي ما أوفاك!! ما أشد

تعلقك بالوفاء حتى الرمق الأخير، لقد وفيت لكل من ربطه بك أدنى سبب، وها أنت الآن تضيف موقفاً آخر من مواقف الوفاء، إنها النية التي قطعها قلبك حينما كانت تلك الطفلة في حالة بكاء بعد النوم وقد تناثرت دموعها على وجنتيها، فأشفق عليها ذلك الرجل الجالس عندك كما يشفق أي واحد منا على طفل يراه يبكي بينا أبوه أو أمه تعتبر هذا التمنع من إظهار العطف عليه نوعاً من التأديب أو التأنيب في إطار التربية العامة، غير أن ذلك الرجل قد أخذها بعضدها ومسح دموعها وأجلسها في حجره أو بقربه وقال كلمة لا يقصد بها شيئاً «زوجني إياها» فكانت تلك الإجابة العفوية، هي لك صحيح أنها كانت من طرف اللسان وتفهم عند الكثير من الناس بأنها لا معنى لها، سيما والصبية في تلك السن، لكنها عند أبي لها ألف معنى ومعنى، لقد أخبرني أنه جزم بقلبه أن يعطيه إياها زوجة له عندما تكبر وتشب سيما وأنه رجل كريم وشيخ عشيرته، وهي بمكانة لا تقبل عن مكانته، إذاً فكل واحد كفؤ للآخر، عدا فارق السن الذي يتم التغلب عليه في معظم الأحيان، إيه!! لعلها أن توافق على هذه الخطوة، ستوافق بدون شك، آه... لا أظنها سترفض رغبة أبي مهما تحملت في سبيل ذلك، إن لأبي مكانته في نفسها، لا يمكن أن ترفض له أي طلب.

هكذا الوفاء والمحافظة على الكلمة، رحمك الله يا أبي، أين أنت من أولئك الناس الذين لا تثق بكلامهم ولا حتى ليوم واحد أو ساعة واحدة وربما لحظات!؟ كلمة قلتها قبل ما يزيد على خمسة عشرة سنة مضت ولا تزال تحتفظ بها حتى الآن، نعم إنها كلمة صادرة من القلب ولابد أن تقع في مكانها في القلب، وما دامت هذه الرغبة قد نقلتها إليّ فستكون بإذن الله بيد أمينة حفية على تنفيذ هذه الرغبة وستكون ابنتك وكريمتك أشد حرصاً على تنفيذ رغبتك. لكن لا ندري ما رأي الجانب الآخر الذي هو الزوج، فقد تكون لديه وجهة نظر أخرى!؟ قد لا تكون لديه الرغبة في الزواج إما لفارق السن بينه وبينها، أو شعوره بأن مثل هذا الزواج في غير محله سيما بعد وفاة

أبيها، أو شعوره بأن قبولها به ربما كان نابعاً من تنفيذ وصية أبيها، فربما لأجل هذه الأسباب أو غيرها لا يتم هذا الزواج، لكن المهم تنفيذ هذه الوصية فإن قبلها وإلا فالنية التي قطعها والدي على نفسه قد نفذت وانتهى الأمر، ولا أعتقد أن الرجل بمكانته بين قومه أن يسيء إلى صديقه فيما يتعلق بإبنته مثل من يتزوجون ويطلقون أبداً، لا أظنه سيتخذ هذا الإجراء فهو أسمى ممن يفكرون بمثل هذه الأمور.

وتواردت في ذهنه الكثير من هذه الهواجس خلال المسافة التي قطعها إلى أهله برحلة استمرت نحواً من عشرين ليلة وعندما وصل إلى أهله، نقل لهم الخبر الأليم فضج البيت بل الحي بأكمله وخيم الحزن عليهم مدة من الزمن، وبعد أن انقشعت قتامة الحزن انتحى بأخته المعنية بالأمر وقال لها :

— : لقد أوصاني أبي وصية وأنت الطرف الفعال في تنفيذها.

: وصية!! أي وصية من أبي سأنفذها بكل دقة وبأسرع وقت.

— : إنها تتعلق بك شخصياً.

: تتعلق بي!! لم أفهم!؟

— : تتعلق بزواجك.

: أنا!!؟

— : نعم أنت، لقد زوجك الشيخ «مرضى».

: الشيخ!!! الشيخ مرضى، لم يكن عندي خبر بذلك!؟

— : صحيح لم يكن عندك خبر، ولكن ذلك حدث عندما كنت صغيرة وقص عليها القصة.

: ما دام أبي قد نوى بهذا الأمر واعتبر تنفيذه وفاءً بوعده فلن أكون أقل وفاءً لأبي من أبي لرفيقه.

— : كثر الله خيرك يا أختاه. هذا ما كنت أتوقعه منك.

: لا فضل لي بذلك، فهذا مطلب من أبي لن أرده حتى لو ترتب على ذلك حياتي كلها.

ـــ : إذاً سأخبره بالأمر وأتصرف.
: كما تريد.
ـــ : وأمك!؟
: أمي... أمي... أنا كفيلة بها.
ـــ : هل أنت متأكدة؟
: بلا شك، وهي الأخرى لا تقل وفاء لزوجها من أن توافق على ما طلب منا.
ـــ : قد يكون لها رأي آخر، كأن تقول إنه رجل كبير أو من غير قبيلتنا وما إلى ذلك من الأعذار.
: ليست أمي من هذا النوع.
ـــ : وقد تكون نوت أن تزوجك أحد أبناء أخيها.
: لن يحول ذلك دون تنفيذ وصية أبي.
ـــ : إذاً أبدأ على بركة الله.
: أنت وشأنك.

* * *

وأراد هذا الشاب أن تكون مفاجأة للشيخ بأن جهز أخته بما يلزمها واصطحبها معه على مطيته حتى وصل إلى منزل ذلك الشيخ الذي رحب به أجمل ترحيب واستقبله بكل حفاوة وحرارة، وعزاه في والده ورفيقه، وبقيت الفتاة جالسة عند المطية عند ذلك قال الشيخ :
ـــ : تفضل، تفضل في هذا المكان وأمر غلامه أن يصب القهوة ثم استأنف، إسمح لرفيقة سفرك بأن تدخل إلى قسم النساء.
: عند ذلك قال الضيف هذه لا تحتاج من يدخلها البيت، إنها صاحبة البيت.
ـــ : ظن الشيخ كلامه من باب المجاملة فقال: وإن يكن فهي غريبة عن البيت ويجب أن تستقبل من أهله.
: وهي من أهل البيت أيضاً، ألا تعلم أنها زوجتك؟
ـــ : زوجتي!؟ يقول ذلك بدهشة.

: نعم إنها زوجتك، هذه أختي وضحاء وقد زوجك إياها، أبي وما عليك سوى عقد القران والدخول بها.

ـ : وبنفس الدهشة قال الشيخ: إنها مقبولة، كريمة وبنت كرام، وهبة كريم، ولكن...

: سأروي لك وصية أبي.

ـ : وصية أبوك!!؟

: نعم، وقص عليه القصة.

ـ : عند ذلك تنهد الشيخ وجذب زفرة من أعماق قلبه، وقفزت الدموع من مقلتيه وأجهش بالبكاء وهو يردد حشرجات بصدره يتخللها كلمات «رحمك الله يا غريب، رحمك الله يا رمز الوفاء، رحمك الله يا رمز الرجولة والشهامة والشجاعة. والإقدام، وبعد أن إرفَضَّ الدمع من مقلتيه مسح ما على وجهه ولحيته من بقايا الدموع ثم استأنف، رحمك الله يا أعز الأصدقاء، لقد وصلتني هديتك بيد أمينة وهي مقبولة وموفورة.

كان لهذا المشهد أثره البالغ بمن حضر المجلس فترحم الجميع على غريب.

: رحمك الله يا أبي، وأفسح لك في جناته.

ـ : وأطرق الشيخ سابحاً في ذكريات عميقة ثم قال: كان رحمه الله من صفوة الرجال البارزين برأيه وأفعاله، فلقد جاورته وعرفته عن كثب في مدة غير قصيرة.

: هكذا الرجال يا أبا فلان.

ـ : ولكن أباك رحمه الله يختلف عن الكثير من الرجال في خصاله الحميدة وخلاله الطيبة.

: لا عليك «زود» يا أبا فلان.

وقدم الشيخ من الحفاوة والتكريم ما يليق بالضيف، وأرسل على عجل في تلك الليلة من يأتي بالكساوي وتجهيزات العروس وقبيل الصبح كان كل شيء جاهزاً، وبعد قهوة الصباح وتناول طعام الإفطار قال الشيخ: هذا الجمل

المجهز بهودجه وتلك الأحمال من الأطعمة والكساوي، وهذا الذود من الإبل مهراً لفلانة خذوها عائدين لأهلكم تصحبكم السلامة، فلقد وفى رفيقي رحمه الله ووفيتم من بعده بما أوصاكم به، ووصلتنا مبرته وهي مقبولة وموفورة ستر الله علينا وعليكم، وقد يكون أحد أبناء عمها من الشباب أكثر مناسبة لها من شيخ مثلي، فأستودعكم الله وفقكم الله لما يحب.

كانت هذه الكلمات الأخيرة مع قبلات الوداع التي تبودلت بين الشيخ وضيفه حينما كانت تساق الإبل بأحمالها والذود يسوقه راعيه أمام القافلة بينما أركبت الفتاة في هودجها وودعت القافلة المكان وتوارت عن الأنظار خلف الأفق.

* * *

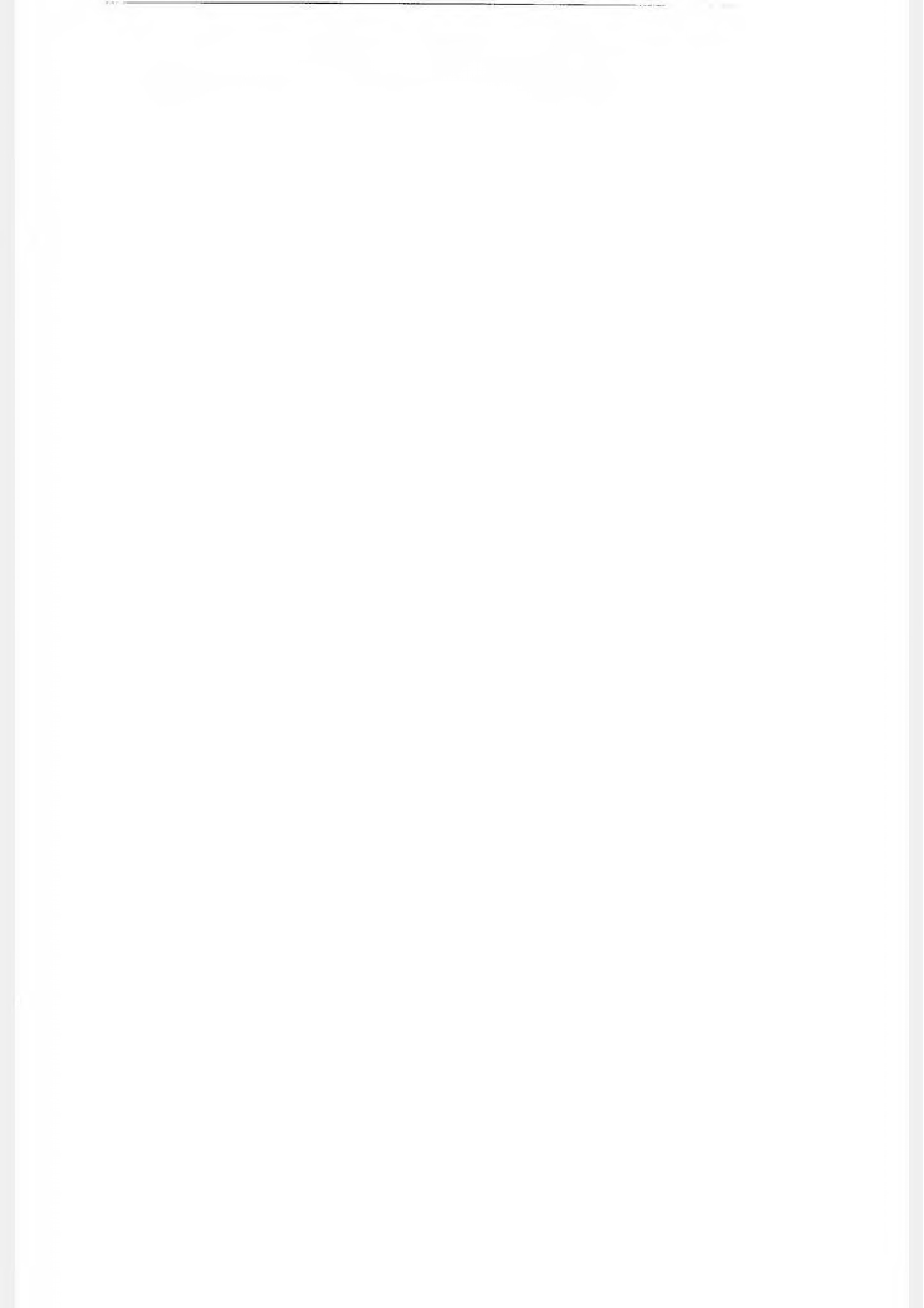
وتلفت الشاب يمنة ويسرة ومعه هؤلاء الرجال الذين يصاحبون الحملة، وساروا يومهم ذاك حتى إذا جن الليل أمرحوا وتناولوا عشاءهم واستمر سمرهم حتى قرب منتصف الليل حيث أخلد كل واحد إلى الراحة في فراشه، فنام خليَّ البال غير أن الشاب ابن غريب لم يداهم جفنه النوم، فقد بقي طوال ليله يصارع أفكاره لقد أدينا الواجب الذي علينا وينبغي أن نؤديه، وأخذت الرجل الشيمة والحمية من أن يعتبر مثل هذه المناسبة فرصة مؤاتية له، فمن ذا الذي يحصل له ابنة شيخ مقدام تأتيه بكل سهولة ويسر ومع هذا فإنه يؤثر الشيمة العربية على أي شيء آخر، يعيد العروس التي يتمناها الكثيرون، ولم يعدها خالية الوفاض، بل أسبغ عليها مما اعتبره مهراً مقدماً لها، وقد وفَّاها مهرها مثل مثيلاتها من كرائم القبائل ورؤساء العشائر، ها هو قد أعطاها ذوداً من الإبل، وهذا الكم من اللباس والهدايا وهذا العدد من الريالات الفضية «الفرانسية» إذاً لقد وفىَّ الشيخ، وتجمَّل، وأعادها إلى أهلها دون أن يراها إلا من بعيد مثقلة بالهدايا، فهو رجل كريم قدَّر المعروف وقدر موقف رفيقه منه، وموقف الفتاة من تنفيذ وصية أبيها وتحقيق رغبته ولهذا فقد أهداها هذه الأشياء لا شك أنها تستاهل أكثر منها، ولكن في ذات الوقت فلن يكون أكرم منا نفساً وفعلاً، لن

يكون موقفه هذا أنبل من موقفنا، ولن يكون أكثر منا إِثْرَةً، فهذا المال الذي دفعه إلينا بأي حق نأخذه منه، لا شك أنه شيخ كريم أعطى فجاد ولكن شيمتنا تأبى علينا أن نأخذ ماله، كما أبت مروءتنا أن نرده عليه في الحال، لما قد يحدثه ذلك من ردة فعل قد تترك انعكاساتها على نفسه ما تترك، لكن بعد أن هدأت نفسه في صباح هذا اليوم واطمأن إلى أننا قد أخذنا ما جادت به أريحيته، وكان مفاجأة لنا، فلا أقل من أن نفاجئه بإعادة ماله إليه موفوراً، ذلك ما تمليه عليَّ شيمتي وأَنَفَتِي العربية سأعيد إليه ماله في الصباح الباكر مع رجاله، وأعود بأختي كما جئنا من أهلنا على كور مطيتنا، هذا ما عزمت عليه وقررته في نفسي وسأنادي أختي وأبلغها قراري، ولكن هل تراها تقبل هذا الإجراء الذي رأيته؟ لا شك أنها تدرك الكثير من الأمور الصائبة وإن لم تدركها فسوف أقنعها تقتنع، عند ذلك قام من فراشه الغير بعيد عنها ونبهها من رقدتها وعرض عليها ما دار في صدره، وما يريد اتخاذه من قرار فقالت: لقد نويت أن أرفض هذا الإجراء من أساسه وعلى مجمع من الناس في صباح هذا اليوم، لكنني تركت الأمر لك، وتوقعت أن يكون لديك إجراء آخر، أما وقد اتخذت هذا القرار فأتممه على بركة الله، وأعد إلى الرجل ماله كاملاً مع رجاله.

عند ذلك عاد إلى مضجعه، وفي الصباح الباكر بعد أن تناول الرجال القهوة وطعام الإفطار أمر الفتى الرجال المرافقين له بالعودة بما معهم من أحمال وأذواد الإبل وكامل النقود والأشياء الأخرى إلى الشيخ بعد أن أوصى بذلك كبير هؤلاء الرجال، وأبلغه أن يبلغ الشيخ وافر الشكر والتقدير والعرفان بالجميل.

وامتطى كور نجيبته التي قدم عليها واستردف أخته وودع الركب العائدين إلى أهلهم ثم توجه إلى مضارب قومه.

قصة رقم (٢٨)



«راعيـة البويت»

ما كاد يلوح بارق الوسمى في فصل الخريف حتى تركزت الأمزان في الجهة الشمالية من الأفق مما حدا بالقبائل التي كانت تسكن إلى الشرق والجنوب والغرب من مساقط الغيث إلى التوجه فوراً إلى الأماكن التي قد جَرَّت عليها السحائب أذيالها، وتراكمت تلك القبائل بمواشيها على تلك الأرض التي أصابها الوبل، ولم يمض طويل وقت حتى اكتست الأرض بثوبها السندسي، وتوالت عليها شآبيب الغيث فرتعت كل قبيلة فيما يواليها من الأرض وشبعت أنعامها في مكانها دون الحاجة إلى النزوح إلى أقرب ما تحتله القبيلة الأخرى من الأرض، فعاش كل في أرضه بربيع وافر وكلإٍ متغطرف وكان هناك ثلاث قبائل رئيسة في هذا المكان هي قبيل شمر والظفير وعنزة بالإضافة إلى القبائل الأخرى التي تعتبر أصغر من هذه القبائل حجماً وكانت هذه القبائل الثلاث وما لحق بها من التقارب والاختلاط حيث لا تستطيع التمييز بين قبيلة وأخرى وكان هذا التجاور وما يتوقع منه حدوث احتكاك بين أفراد هذه القبائل وقبائل أخرى، وقد نظر زعماء هذه القبائل أن يعقدوا حلفاً بينهم يتم بموجبه منع مثل هذا الاحتكاك وكان من عادة العرب أن: إذا ارتكب أحد جرماً ضد طرف آخر أن يدخل على أهل أقرب بيت يواليه ليمنعه صاحب هذا البيت ويحميه من خصومه أيًّا كان مقامهم باعتباره «دَخِيْلَهُ» وعليه تحمل إثم دخيله مما يجعل صاحب هذا البيت يدخل في جريرة رجل لا دخل له به، بسبب دخول هذا الجاني في بيته. وقد أدرك زعماء هذه القبائل ما لهذا الجانب السلبي من مخاطر على إجهاض هذا الحلف وزرع بذور الشر بين هذه القبائل فقد جعلوا إحدى مواده الرئيسة: ألا يدخل أحدٌ أيَّ إنسان قد ارتكب إثماً أو جنى جناية ودخل إلى أي بيت يطلب لحمايته ماداموا

في هذا المكان، بل على صاحب البيت أن يسلمه إلى خصمه في الحال ليقتص منه، دون أن يكون على صاحب البيت أي جرم أو معيبة بين أفراد قبيلته أو غيرهم، وبهذه الخطوة ضمن رؤساء هذه القبائل أن يكون حلفهم قوياً ومتيناً لا يمكن تفكيكه.

استمرت هذه القبائل «في روضة الأديان» تحت مظلة هذا الحلف طيلة الشتاء والربيع، في هذه الفترة كان هناك فتى إسمه «ماجد» على خلاف ما عليه الناس من رغد العيش والانبساط، فقد كان كاظم الغيظ يتجرع مرارة القهر، وهو يرى خافر ذمته حين قتل من استجار به في وقت مضى، هذا الغريم الذي كان صديقاً حميماً له بالإضافة إلى القرابة بينهما، إذ يعودان لقبيلة واحدة ولكنه الآن أصبح عدوه اللدود حيث يتمنى الأخذ بحقه منه وإعادة اعتباره، ولكن صورة هذا الحلف الذي يمنع الاعتداء من أي فرد على الآخر حتى لو كان قاتل أبيه، مع عدم إجارة المستجير مهما كانت الأسباب التي من أجلها إرتكب خطيئته أو جرمه، لهذا بقى هذا الشاب يصارع آلام نفسه، حيث يرى غريمه أمامه في طرف النزل، بل ويسمع بين الحين والآخر الكلمات أو الرموز، أو الإشارات التي توحى بتلك الحادثة التي تعتبر عاراً ومسبة عليه، وكلما سمع شيئاً من هذا شعر وكأن أحد السكاكين وأطراف الخناجر تحز في نياط قلبه، فبقى ساهماً كاظماً لا ينبس بكلمة لأقرب الناس إليه فضلاً عن أبعدهم عنه، وكلما ضاقت الدنيا في وجهه خرج من الحي وانتحى مكاناً نائياً في أنف ذلك الجبل أو كهف أو غابة شجر، يختلي بنفسه هناك، وأحياناً يحمل معه ربابته ليبثها شجونه ويجذب بصوتها بعض آلامه، يمضي يومه كاملاً وأحياناً الجزء الأول من الليل وحيداً في هذا المكان، ومع مرور الوقت انسلت حاله، وهزل جسمه، لا يعلم أحد ما به، يبقي سرُّه مكتوماً بين حنايا صدره، مما حيَّر من حوله، وجعل أقاربه يتساءلون عن السبب الذي أوصله إلى هذه الحالة، حتى ظن رئيس عشيرته الأقربين «عمرو» به الظنون فقال لأحد جلسائه :

ـــ : ما تظن في ماجد؟

: لم أفهم ماذا تريد؟

ـــ : ماجد كما تراه منذ شهور وكأنه مريض، مع أنني تقصيت عن أخباره وسألت

والدته فلم أجد ما يدل على مرضه أو أنه يشتكي من أي آلام أو علة.
: إذاً ما باله هكذا؟
ـــ : حتى الآن لم يتبين لي من أمره شيء.
: قد يكون في نفسه شيء على أحد من رجال عشريتنا ربما تكلم عليه وأشار إلى ما جرى بينه وبين «مفوز».
ـــ : لا أظن، لأن ماجداً لا يصبر على مثل هذا الأمر، ثم أنني قد أكدت على جميع رجال عشيرتنا ألا يتكلم أحد عن هذا الموضوع أو أن يشير إليه من قريب أو بعيد، ولا حتى مجرد إشارة.
: قد يكون سمع همزاً أو لمزاً كأن يكون من أحد الصبيان أو بعض النساء فأثر على نفسيته ولم يستطع منع المتسبب والاقتصاص منه وبقي يطحن غيظه في نفسه.
ـــ : هذا الاحتمال وارد، ولكن لا أعتقد أن أحداً يتجرأ ويعصي أمري.
: وما يدريك، فربما حدث مثل هذا الأمر دون أن تعلم.
ـــ : أبداً، أبداً، قلت لك أن أحداً لن يتخطى أوامري يقول ذلك بنبرة غضب.
: أجل ما سببه يا ترى؟
ـــ : إن صدق حدسي فإنه عاشق.
: عاشق!!
ـــ : كما تعرف منذ أن نزلنا في هذا المكان تجمعت فتيات ثلاث قبائل، وكما ترى هناك تجمع واختلاط عند المياه وحول بيوت الحي والمراعي فقد يكون رأى إحدى الفتيات من إحدى هذه القبائل ودخلت نظره وأحبها ولم يستطع البوح بما يعتلج في نفسه، فصار يبث أشجانه عبر ربابته في خلوته التي يبتعد فيها عن الناس.
: والله إن حدسك لقريب من الصواب، ذلك أن اجتماع هذه البدائد قد يحدث شيئاً مما أشرت إليه.
ـــ : وشعر عمرو بالنشوة عندما سمع حديث رفيقه فاندفع يقول: قد يكون أحب

فتاة من غير قبيلته ولذلك شعر بالحرج من الحصول عليها لأسباب منها أن تلك الفتاة قد تكون «محيرة» من ابن عمها أو تكون مخطوبة لغيره.

: أترى هذا هو السبب؟

ـ : إن صدق ظني، فكما ترى ماجد في عنفوان شبابه ولا غرابة أن يقع في غرام إحدى الفتيات.

: كيف نتأكد من ذلك، ونقطع الشك باليقين؟

ـ : لدي طريقة لكشف سره. يقول ذلك باندفاع.

: كيف؟

ـ : في اعتقادي أن من دخل الهوى إلى قلبه وتعلق بفتاة ما فإنه لا بد أن يرق قلبه عندما يرى فتاة أخرى إذا كانت مماثلة لها أو أجمل منها ولو لم يتعلق بها في الحال ولكن ربما جددت شجونه وأثارت عنده كوامن الحب ولواعج الشوق فعند ذلك نعرف سببه.

: إن ما تقوله يا عمرو لرأى صائب.

ـ : نعم هو الصواب بعينه. يقول ذلك باندفاع.

: ولكن!؟ يقول ذلك ثم يسكت.

ـ : ماذا تريد أن تقول؟

: من الذي يستطيع كشف هذا الأمر؟

ـ : أنا. يقول ذلك بزهو وثقة.

: كيف!؟

ـ سأرسل له أجمل فتاة في حيِّنا بعد أن ترتدي أجمل ملابسها وتلبس حليِّها وكامل زينتها فتمر عليه في المكان الذي يختلي فيه بنفسه وتتحدث إليه وتمازحه فإن رأت منه ميلاً إليها وتعلقاً بها، أو على الأقل أحيت كوامن الشوق عنده لمن تعلق بها، ثم تعود إلينا لتخبرنا بكل ما رأته منه.

: هذه خطة سليمة قد تكشف سره، ولكن ألا تتوقع أن يعتدي عليها؟

ـ : لا، لايمكن أن يحدث منه ذلك، وكلما في الأمر ربما تحدث إليها بلطف إن ساغ له وجودها عنده.

: أترى هذه الخطة تكشف مكنون صدره؟

ـــ : بلا شك، ووالله إن كان عاشقاً لأي فتاة من فتيات حيِّنا فسوف نقف إلى جانبه ونساعده في الحصول عليها، وإن كانت من إحدى القبائل الأخرى لنبذل الغالي والرخيص في سبيل الحصول له على ما يريد.

: كثر الله خيرك، وبرَّك بما تفعل من معروف.

* * *

ومنذ الصباح الباكر أوعز عمرو لتلك الفتاة بأن تدنف إلى ماجد في مكان خلوته وتحاول إغراءه بالكلام وتليين الحديث معه ومحاولة جذبه إليها بما ترتديه من ملابس، وما تلبسه من حلي، علَّها أن تكتشف ما إذا كان قلبه قد هفا إلى فتاة أخرى من فتيات الحي، وهكذا فعلت ما كلفت به وعندما وصلت إلى جانب ذلك «الرِّجْم» وهو مجموعة من الصخور قد ركم بعضها على بعض حتى أصبحت علماً بارزاً مرتفعاً له ظل وكِنٌّ ما إن أطلت عليه وسلمت حتى رد عليها السلام، وكان في حالة استغراب من مجيئها إليه في هذا المكان الذي ينفرد فيه بنفسه دائماً، ووقفت منه على مسافة بضعة أمتار تحدثه بكلام يقطر عذوبة وينساب ليناً إلى السمع، مما زاد في دهشته، وعندما استأذنت منه للجلوس عنده جحضت عيناه وتطاير منها شرر الغضب، فنهرها بالابتعاد عنه، والعودة من حيث أتت وفي محاولة يائسة منها للمكوث عنده بعض الوقت للتحدث إليه وتسليته وتوسيع صدره نهرها بشدة، وعندما حاولت امتصاص ثورته بكلمات لطيفة وابتسامة ساحرة أخذ ملء كفه من الحصى ورجمها به وطردها بعيداً عنه، فعادت تجر ثوب الخجل، وأخبرت من أرسلها بما جرى لها قائلة: إن هذا الشاب خلاف ما تظنون، فليس عنده أي ميل إلى الجنس اللطيف، وربما كانت لديه شجون أخرى، أما هو فبعد أن ابتعدت عنه سرح في تفكير عميق: ما الذي حصل لهذه الفتاة وجعلها تأتي إليَّ في هذا المكان؟ إنني أعرفها تماماً فهي من عشيرتي والتقي بها عند مورد الماء أو قرب بيت أهلها، ولم يسبق أن سمعت منها مثل هذا الحديث الذي

سمعته اليوم رقة وعذوبة، ولم يسبق أن سمعت منها هذا الكلام اللين، ماذا جرى لهـا؟ هل هذا الكلام من نفسها؟ إذا كانت تتكلم بصدق، فما الذي جعلها تتكلم هكذا؟ هل خفق قلبها في لحظة واحدة ونزل عليها هذا الأمر فجأة وبهذه الدرجة من التهافت؟ قبل بضعة أيام قد صادفتها بطرف النزل وأنا في طريقي إلى هذا المكان ولم أكد أسمع منها رد السلام!! فكيف أراها اليوم بهذه الهيئة وأسمع منها هذا الكلام المتدفق الرقراق؟ هذه الفتاة أعرفها وأعرف أمها وأخواتها وكل نسائها، إنهن على درجة من العفة والمنعة بما لا يخامر العقل لأدنى ذرة من الشك، إنهن أنزه أعراضاً وأدفأ أفواها من أن يسمع من الواحدة منهن مثل هذا الكلام لرجل في خلوة نائية بعيدة عن أعين الناس!! هل أصيبت بمسٍّ من الجنون بحيث تقدم على ما أقدمت عليه؟ على العكس إنها تتكلم بكامل قواها العقلية وبكل براعة وفن، ثم إنني في هذا المكان منذ وقت بعيد لماذا لم تهتد إليه سوى هذا اليوم؟ سيما وأنها تعلم كما يعلم غيرها من سكان الحي أن ماجداً يدنف إلى هذا المكان كما يدلف إلى أماكن أخرى غيره، يجلس لوحده، لا يحب أحداً أن يجلس معه، فما الذي أتى بهذه الفتاة في هذا اليوم؟ بالتأكيد أنها مدفوعة من أحد، فقد تكون مدفوعة من «مفوز» يريد أن يضيف خزياً جديداً إلى ما البسنيه من عار، وذلك حينما يشاع أنني اعتديت على إحدى نساء عشيرتي!؟ إنه يريد أن يحطمني دفعة واحدة، ربما نصب هذه الفتاة بمثابة الأحبولة!! ربما أوعز إليها أن تصيح بأعلى صوتها عندما تجلس بجانبي، وعندها ستأتي الأفزاع من النزل وتقول لهم ما تريد أن تقوله، وهي مصدَّقة عليَّ بما تقول بلا أدنى شك، وعند ذلك يزداد وجهي إسوداداً أمام عشيرتي، فربما أتخذ من بعض النساء حبائل لبعض الرجال، أتراها مدفوعة منه؟ والله لو أعلم ذلك لأنتقمن منه أقسى انتقام، هاه!! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قد تكون مدفوعة من غيره!؟ ومن الذي سيدفع بها إليَّ؟ ربما دفع بها أقرب الناس إليَّ!! قد تكون والدتي أو أحد أعمامي؟ ظناً منهم أن ما أضناني وجعل حالي تصل إلى هذا الحد المزري بسبب العشق والهيام!! قد يكون من أرسل هذه الفتاة يحسب أنني ممن تغريه

الابتسامة الساحرة، والتهانف الأخاذ، والغمز الجذاب، والكلمات الرقيقة، والعبارات المترقرقة؟ هل يعتقد أنني ممن يأخذ لُبَّهُ الوجه الصبوح، والجبين الأبلج والأنف الأشم، والعينان النجلاوان، والخد المتورد، الثغر الساحر، والأسنان الأقحوانية؟ أو من يأسر لُبَّهُ العنق الأتلع، والصدر النافر، والقوام الرشيق، والوسط الأهيف، والأرداف الواقفة، وجدائل الشعر الأشقر المنسدل؟ أو من يجذبه منظر الملابس الزاهية، والحلي اللامعة، أو من تشده بَنَّةُ العطر الفواح، والرائحة العبقة؟ أو ما علم أن كل هذه المغريات لا تحرك في قلبي في ظرفي الراهن رَمْعَةً واحدة وإنما يشغل تفكيري، ويشد كامل انتباهي شيء أهم من كل ذلك، لقد شغلت بنزع هذا الجلباب الأسود الذي جللني إياه «مفوز» حين قتل من استجار بي، لقد قتل الرجل وهو يعلم أنني مجيره، وقد رأى بنفسه علامة الاستجارة التي طرحتها عليه، وهي إحدى وحدات ملابسي «عقالي» ومع هذا فقد اعتدى عليه وطعنه برمحه ولم يجهز عليه في الحال فبقى حياً حتى التأم عليه مجموعة من الصبيان والنساء أبلغهم أن قاتله هو «مفوز» بعد أن علم أنني مجيره، وذلك بحجة أنه قاتل أبيه، «سوَّد الله وجهك يا مفوز كما سودت وجهي أمام الناس» أتقتل «دَخِيلِيّ» ومن استجار بي وتريدني أن أعيش عيشة هانئة دون أن أرد اعتباري؟ والله لن يحدث ذلك، حتى آخذ بثأري وأزيح عن وجهي هذا الغشاء الأسود الذي وضعته عليَّ، كيف جاءت هذه الفعلة من أعز أصدقائي، وخير أبناء عشيرتي؟ ولكن للأسف قد لطخني بهذا العار الذي لن يغسله سوى هذا السيف «يقول ذلك وقد جرد سيفه من غمده وهزه بيده عدة مرات ثم أعاده إلى مكانه» إن لم آخذ حقي بيدي هذه فلن يهدأ لي بال، ولن يلذ لي عيش أو يبرد غليل صدري، سيبقى دمي يغلي في عروقي إلى أن يصل إلى درجة الانفجار حتى آخذ حقي، كيف أستطيع الصبر وغريمي أمام عيني؟ متى ينتهي هذا الحلف الذي جمع هذه القبائل!؟ من ذا الذي سيصبر حتى تنقضي هذه السنة؟ هذا الحلف الذي حرم الاعتداء من أي فرد على الآخرين مهما كانت الأسباب، وحرم على أي فرد أن يجير أي فرد آخر يلتجيء إليه بعد أن يقوم بأي عمل من شأنه إيذاء

الآخرين؟ وهل سأبقى أتململ فوق لظى آلامي حتى ينتهي هذا العام؟ ومن الذي سيجيرني إن أنا فعلت ما فعلت؟ هل سيجيرني «الجرباء» أو «ابن هذال» أو «ابن صويط» أو غيرهم من شيوخ القبائل الأخرى؟ لن يجيرني من هؤلاء أحد حيث يخضع الجميع لحلف واحد ينتهي بعد انقضاء هذا العام أوه!! ومن الذي سينتظر حتى نهاية هذا الحلف؟ إن لم أنفذ ما عزمت عليه فقد أحترق قبل أن يمضي عليَّ بضعة أشهر فضلاً عن بقية هذا العام، إيه، دعني أتحدث على ربابتي وأبثها بعض أشجاني بهذه الأبيات.

وأخذ ربابته وجسَّ وترها وبدأ يجربها حتى إذا ضبط صوتها انطلق مع نغمات صوتها بهذه الأبيات :

١٨١ـ يَاعَمْرو يَا لِمْلاَةَ يَانَازِلَ الْخَوْف   عَذْبْتِنِي وِانْتَهْ تْشِدْ مِنَ الْعَامْ

١٨٢ـ يَالحْرْ فْهَيْدْ اللّيْ بَكْ الطَّيْبْ مَوْصُوْفْ   الْكِلْ مِنْكَمْ يِشْبِعْ الطَّيْرْ لاَحَامْ

١٨٣ـ عِنْ خَالِيْ اللّي كِنّها حَالْ اَبَالْعَوْفْ   والاَ الْعَلِيْلَ اللّي عَنَ الزَّادْ صَوَّامْ

١٨٤ـ لَوْقَرّبُوا عِنْدِيْ مِنَ الزَّادْ بصْنُوْفْ   وْلَوْبِهْ فِقَارْ وْسِيّخْ الزَّادْ بِيْدامْ

١٨٥ـ وْلَوْ حِنطَةَ الْبَلْقَا وْتَمْرَةْ هَلْ الْجَوْفْ   مَا تْقِيلَهْ نَفْسٍ عَلَيْهَا الطَّنَا حَامَ

١٨٦ـ وْلَوْ يِعْتِرِضْ لِيْ لاَبِسْ الْخِصِرْ واشْنُوْفْ   فِي دِيْرِةٍ لاَحَوْلْ كِفْرٍ وَلاَ إِسْلاَمْ

١٨٧ـ مَاأعَارِضَهْ لَوْهُوْ بِأَمَانٍ مِنَ الْخَوْفْ   وْلاَ أبِيْهِ لَوْ إنُّهْ عَلَى النَّفْسْ عَزَّامْ

١٨٨ـ شَفّي مْفَوّزْ نْقُوَةِ الرِّبِعْ مَنْقُوْفْ   خَيَّالِهِنْ مَابَيْن عَتْعَثْ وْرَضَامْ

١٨٩ـ اَللّي كِسَانِي ثُوْبِ أسود وَأنَا أشُوْفْ   خلّهْ يِقَعْ فِي سِهِرْ عَيْنِي وَأنَا أنَامْ

١٩٠ـ مِنْ عِقِبْ مَانِي قِبِّ حَطّنِي صُوْفْ   إجُوْزْ لَلْخَضْرَ الْمِقِيمِيْن خَدَّامْ

١٩١ـ أقْطَعْ عَلَيْهَ النّزِلْ طَوْفِ وْرَا طَوْفْ   أقْلِطْ عَلَيْهْ بْرِبْعَةَ الْبِيْتْ قِدّامْ

١٩٢ـ ثُمْ اَضْرِبُهْ بِمْصَقّلٍ يِبْرِدِ الْجَوْفْ   مَا صَوّغُهْ عِنْدِ الصّانِيْعِ بِلْحَامْ

١٩٣ـ إمّا عَلَيْهِ الْبِيْضَ يَصْفِقِنْ بِكْفُوْفْ   وِانْ عَاشْ مَا يَمْشِيْ عَلَى كِلِ الأقْدَامْ

١٩٤ـ وِانْ كَانْ مَا فَعَلْتْ فِي حَدْ مَزْهُوْفْ   وَجْهِيْ مَعْ الْحَفْرَاتْ دِقُّوهْ بُوشَامْ

لم يفت عمرو بيتاً واحداً من هذه القصيدة إلا وصافح مسامعه حيث أقبل إليه بمجرد أن عادت الفتاة من عنده فوجد ماجد يغني هذه القصيدة بأعلى صوته الذي يمتزج مع أنغام الربابة، وما إن فرغ من هذه القصيدة حتى اتكأ

على عباءته بعد أن لفها، وكأنه أفرغ من جسمه شحنة كهربائية عارمة اهتزت لها فرائصه، ظل بعدها لفترة من الزمان مسترخياً في مكانه فيما يشبه الإغفاءة، أو الشرود الذهني وهو يسرح طرفة في مدى الأفق الرحب وكأنه يبحث بطرفه الفاتر عن جسم معلق في تلك القبة السماوية الزرقاء الصافية في الوقت الذي انسحب فيه عمرو من خلف الرجم دون أن يعلم به، وعاد أدراجه إلى بيته بعد أن اكتشف السر الكامن وراء انسلال حال ماجد ونحول جسمه، وأن ما يعانيه لم يكن بتأثير الحب كما كان يتصور، وإنما هو بسبب ما يشعر به من آلام إزاء من كساه ذلك الغشاء الأسود بخفر ذمته، هذه الفعلة التي لم تكد تبرد آلامها بابتعاد مفوز عن القطين الذي ينزل فيه ماجد بعد الحادثة مباشرة قبل فترة من الزمن حتى جمعت بين الخصمين تلك المناسبة في مكان واحد، وعلى مرأى العين ربما في معظم أوقات اليوم، وعند تلك الساعة التي سمع فيها عمرو ما باح به ماجد من مكنونه أيقن أن الشر واقع بين الإثنين لا محالة، وقال في نفسه: الله أكبر!! لقد حسبت أن ماجداً قد نسي هذا الموضوع بعد مرور حوالي سنتين عليه، أو على الأقل مال إلى التغافل عنه أو المصالحة فيه، وإذا هو يحمله بين حنايا أضلاعه!! وإن لم يتضح أمام الناس أنه يحمل أي شيء، ولكن الدم يغلي في عروقه ويكاد أن ينفجر خافقه في قفص صدره، إنه الدم العربي الصميم الذي لا يقبل الضيم ولا يقر المهانة، ولا يتحمل تبعات العار، ويربأ بنفسه عن المكانة الدنيا إلى المكانة العليا، يتفانى في الوصول إلى مكان الصدارة مع من حوله، فياترى ماذا سيفعل؟ أتراه يقدم على الانتقام من غريمه في الوقت الذي منع فيه الاعتداء بين الأفراد والجماعات مهما كانت الأسباب بموجب الحلف المعقود بين هذه القبائل؟ وحتى لو أراد اختراق هذا الحلف والسطو على غريمه فلن يجد من يجيره أو يمنعه، حيث أن من مواد هذا الحلف ألاّ يجير أحد جانباً مهما كانت درجة جنايته ومهما كان السبب الكامن وراءها، ولذلك فلو أقدم على أي عمل سيكون الاقتصاص جزاءه، وقد لا يتمكن من الصبر حتى تنتهي مدة هذا الحلف وتتفرق هذه القبائل إلى مواطنها، سيما وأن

بنيته العامة الهزيلة لن تمكنه من البقاء إلى ذلك الحين إن استمر على ما هو عليه، الله أكبر!! على ذكر البنية أترى ماجد لو أراد أن يفعل شيئاً، هل يستطيع بجسمه الناحل الهزيل الذي لم يبق منه سوى الأعصاب والعروق بين الجلد والعظم أن يفعل شيئاً بالنسبة لمفوز بجسمه الضخم الممتلىء صحة ونشاطاً وحيوية؟ لا أظن أن هناك من التكافؤ الجسماني بين الإثنين فيما لو التقيا وجهاً لوجه، فإن مفوزاً سيتلقى مجموعة ممن هم في مثل جسم ماجد، ليس في ذلك أدنى شك، لكن يجب ألا نغفل ما للجنان من أثر فعال في مثل هذه المواقف، فلا يقطع إلا القلب، ولن يقدم على أي أمر من الأمور إلا صاحب الجنان الصارم، ولن يفعل إلا صاحب الكف الساطي بغض النظر عن ضخامة الأجسام أو قوة العضلات، ولهذا فقد يفعل ماجد بجسمه الناحل ما لا يفعله أضخم الرجال جسماً، ورب طعنة نجلاءمن كف شاحبة الأشاجع، تنفذ إلى الأعماق التي لم توصلها طعنة الكف الثخينة، ورب ضربة بالسيف من يد عارية الأزناد تقطف من الرؤوس ما لم تقطعه ضربات متكررة من ساعد عبل المجاسد، ولهذا لا أتوقع أن يصبر ماجد على ماهو عليه دون أن يقدم على أي عمل قد يطفي ثورة الغضب المحتدمة في وجدانه، وما دام الأمر كما يبدو لماذا لا نتدخل مادمنا قد عرفنا السبب، وننزع هذا الفتيل المتأجج الذي ربما قاد في جريرته إلى أمور سلبية لا حاجة لنا بها؟ ولكن أترى ماجد يقبل مثل هذا الأمر؟ سيما وهو يتجرع مرارة تلك الفعلة منذ مدة طويلة؟ لا أعتقد أنه يقبل هذا الأمر حيث جرت محاولات يائسة لإصلاح ذات البين قبل ذلك فلم يقبل، وخير ما تم التوصل إليه هو التفريق بين الإثنين حتى لا يرى أحدهما غريمه ثم شاءت إرادة الله أن تجتمع هذه القبائل حول هذا المرعى في ربيع هذا العام، ومنعاً للتصادم فقد عقد هذا الحلف المؤقت، حيث وفر الكثير من المصادمات والخسائر، واستفاد الناس بمختلف قبائلهم من هذا المرعى، وبقي شخص واحد لم يستفد من هذا التجمع بل جرَّ عليه ويلات المعانات وبقي يتجرع صابها ألا وهو ماجد.

* * *

أما ماجد فكان ينظر للموضوع بمنظار آخر، فقد كان يخطط للخروج من آلامه المبرحة في الانتقام لكرامته المهدورة وكبريائه الجريحة بأن يعمد إلى خصمه ويأخذ حقه منه، فقد بدأ يحدث نفسه: أين تراني أستطيع الظفر به؟ هل أواجهه على ظهور الخيل؟ لكن لن أتمكن من ذلك، سيحول الفرسان بيني وبينه، هل أواجهه على الأرض في بيته أو بيوت أحد الجيران؟ هل أخاتله وآخذه على حين غفلة منه؟ لا، فهذه ليست من طرق الرجال في مواجهة خصومهم، هل آتيه ليلاً وأقضي شأفة نفسي منه؟ أبداً سيعتبر ذلك من باب الغدر وهذا لن أرضاه لنفسي، هل أتعقبه حول الحي عندما يذهب وراء إبله السارحة إلى مرعاها، أو يستقبلها عندما تكون عائدة منه؟ ولكن هذا سيكون بعيداً عن أعين الناس، ولن يكون لما أفعله أي صدى في هذا الحي، أو الأحياء المجاورة من العرب، هاه!! لقد وجدتها؛ لماذا لا يكون إقدامي عليه عند مورد الماء؟ حيث تتكاثر أعين الناس من الواردين والصادرين وفي نفس الوقت لا يتوقع وجود أحد من الفرسان حول الماء، وفي حالة توارد الأفزاع عند الماء أكون قد نجوت بنفسي على أي وسيلة، لكن مورد الماء بعيد عن النزل بعض الشيء وقد يدركني من يدركني إذا ركضت على قدمي!! لماذا لا أستعين بجوادي، أرسلها مع أحد الغلمان «يُشَكِّرُ» لها ويتركها ترعى غير بعيد عن المورد؟ ثم آتي وأقضي أربي وألوذ بصهوتها فأصل إلى النزل قبل أن يتمكن أحد من اللحاق بي، أترى هذه الطريقة ناجحة أم سيكون مجالها الفشل؟ ولكن حتى إذا نفذت ما في نفسي، فهل ألجأ إلى شيخ قبيلتي أو أحد أفرادها؟ قد لا يجيرني منهم أحد، لأنهم قد عرفوا الموضوع برمته، وفي نفس الوقت فإن الشيخ «مطلق» أحد رؤساء القبائل الذين اتفقوا على هذا الحلف «المشئوم»!! وقد كفل جميع أفراد قبائله، هاه!! قد يكون «ابن هذال» هو الذي يحميني ويمنعني من قومه ومن قومي، نعم إنه شيخ له مكانته بين قومه، ومع رؤساء القبائل الآخرين، هذا شيخ قبيلة مشهورة بكثرة العدد والكرم والشجاعة والحظ، نعم فإن حظهم طيب إذا ما قيس بحظوظ بعض القبائل الأخرى، ولهذا أتوقع أن يضفى علي حظهم فيحمونني، إن أملي كبير بحمايتهم، فهم

رجال يحجون ويذرون، هل تراني إذا فعلت ما فعلت امتطيت ظهر جوادي ولذت بحيهم و«زبنتهم» فأدخل على الشيخ بنفسه في بيته؟ لا شك أنه سيجيرني، هاه!! ولكن لماذا أقتل ابن عمي الذي يعتبر واحداً من خيار رجال قبيلتي؟ لماذ أقتله وأتحمل هذه الجريرة الطويلة التي قد لا يعرف نهايتها إلا الله؟ بودي لو لم أفعل، لكن ما ألبسنيه من ثوب العار قد غطَّى على بصيرتي، وطمس تفكيري، وجعلني لا أكاد أبصر طريقي، وذلك بما فعله من خفر ذمتي مما جعلني لا أستطيع النظر إلى الناس، أخجل من الصبي اليافع، ويندى جبيني عندما أرى النساء، مخافة أن أسمع من إحداهن همسة لرفيقتها وهي تلمزني بكلمة سامة أشعر بلسعها وكأنها ذباب الخنجر ينوش ثومة قلبي، أتصبب عرقا إذا جلست مع الرجال وسرت الأحاديث بقصص البطولات والدفاع عن النفس والذمم، والذود عن الحياض من الوقت الذي أشعر فيه بوخز الرماح تتعاقب على قلبي فأنا مضطر لإزالة هذه الآلام عن قلبي وإزاحة هذا الثقل الجاثم على صدري بما سأفعله، وقد لا أقتله، لأنني إذا قتلته فقد خسرته، وقد ينسى ما فعلت بعد مرور فترة من الزمن، ولكني سأبقى به عاهة يتذكرها كل من رآه، ممن يعرفه أو لا يعرفه على مدى حياته، نعم سأبقى به هذا الأثر الذي يتحدث عنه هذا الحي وأحياء أخرى جيلاً بعد جيل، هذا الأثر الذي ستذكره مدى حياته، هذا إذا جاءت الأمور على ما أريد ونجحت خطتي، أما إذا حصل خلاف ذلك فلكل حدث حديث، ولكن ترى من هو الغلام ا[illegible]ي أكل إليه إيصال فرسي إلى المكان الذي أريده غير بعيد عن مورد الماء و«التشكير» لها بربط عنانها بيدها لتبقى ترعى ولا تستطيع الجري قبل أن أتحرك من هنا؟ بالتأكيد لن يشفيني غير «مرضي» فهو غلام يتوقد حيوية ونشاطاً رغم صغر سنه، حيث لم يتجاوز العاشرة من عمره لكنه يلوذ بصهوة الفرس كفارس متمرس، وفي نفس الوقت فهو كتوم للسر، مع أنني لن أبوح له بأي كلام، وسأكلفه بالمهمة في الوقت المناسب.

* * *

لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى انتشرت قصيدة ماجد في أحياء العرب كلها، فقد تناقلتها الألسن، وأصغت لها الآذان وحفظتها الأذهان، وكانت حديث المنتديات وحلقات السمر في تلك الليلة، حيث تناولها المحللون من مختلف الإتجاهات، هناك من أيَّد ماجد وأطربه ما جاء في أبياتها، ومنهم من تشاءم مما جاء في هذه القصيدة وتوقع منها الشر، وفي إحدى حلقات السمر في واحد من هذه الأحياء جرى حوار بين مؤيد ومعارض لهذه القصيدة فقال مُعَزِّي لرفيقه فرحان :

ـــ : أترى ماجد صادقاً فيما ورد في قصيدته؟

: ولماذا تشك في الأمر؟

ـــ : لأن فئة من الشعراء «يقولون ما لا يفعلون».

: ماجد ليس من هذه الفئة وإنما هو ممن إذا قال فعل، ثم إن من «يقولون ما لا يفعلون» ليس مقصوراً على الشعراء، وإنما هناك الكثير من الناس من يتهدد ويتوعد وعند وصول الأمر إلى غايته يزوغ ويختفي كخفاش الليل.

ـــ : ولكن أين ماجد، وأين مفوز؟

: من أي ناحية؟

ـــ : إن عضد مفوز يساوي حجم جسم ماجد بكامله، وإيماءة من أصبع مفوز توازي قوة ماجد كاملة.

: لا عبرة في ضخامة الأجسام، وقوة العضلات.

ـــ : بل عليها المعول، أجل بماذا العبرة؟

: بالجَنَانْ، وهو موئل الشجاعة والإقدام وما صاحب ذلك من القوة.

ـــ : تصعب المقارنة بينهما.

: من حيث الجسم فأنا معك.

ـــ : وحتى القوة، فكما هو معروف القوة تغلب الشجاعة.

: ولا تنس ما للإندفاع من قوة، وما للإقدام من صرامة، خاصة إذا كان المنطلق الذي تنبعث منه شبيه بما يعيشه ماجد من ظرف قاسي.

ـــ : ماذا تعني؟

: لا يخفاك ما يعانيه ماجد إزاء خصمه، وقد تبين ذلك من قصيدته التي سمعت، ومن هذا المنطلق فسوف يستميت لأخذ حقه.

ــ : ولكنه لا يستطيع وجهاً لوجه للتفاوت الواضح بين الرجلين.

: قلت لك ليس الأمر بالأجسام.

ــ : ولا حتى في الإقدام، فلن يستطيع ماجد مواجهة مفوز بأي حال من الأحوال، وإنما قال هذه القصيدة للتنفيس عن نفسه من شيء يجده فيها، وربما ليقال أن ماجداً قال كذا وكذا.

: إذكر ربك يا رجل، ولا تحتقر الرجال.

ــ : أتراهنني إذا فعل ماجد أي شيء؟

: أتوقع أنه سيفعل.

ــ : ولو افترضنا أنه أقدم على ما أراد ونجا من خصمه فأين يذهب..؟

: سينجو بنفسه.

ــ : بل ستخطفه السيوف قبل أن يدرج من مكانه، وستنوشه الرماح فيما لو حاول الفرار، وتمزق جسمه النحيل إرباً إرباً في أسلحة رجال عشيرة مفوز.

: أراك مستهيناً بماجد!؟

ــ : لثقتي التامة بخصمه.

: ولكن لكل رجل حقه، ومكانته، وموقفه، لا يمكن لأي إنسان أن يستهين به حتى الفرسان الأبطال فيما بينهم تجد كل واحد منهم يقدر قيمة نِدِّه، ويتحاشى الإستهانة بمواقفه.

ــ : أنت واهم، أما تعرف شيئاً عن تحديات الفرسان والأبطال بعضهم لبعض كقولهم «عليك مردود النَّقا»؟

: أعرف ذلك، ولكن عندما يقول الفارس هذا الكلام لا يستهين بشجاعة وقوة خصمه، وإنما يريد أن يستثيره في هذا القول.

ــ : أجل أتصدقه أنه سيقطع النزل بعد النزل إلى أن يصل إلى خصمه فيقتله؟

: لا أستبعد عليه ذلك، فالرجال لا يستهان بهم.

ــ : أوه، إنك تحلم يافرحان، هذا أمر مستحيل، فلو أراد ماجد أن يفعل شيئاً لفعل

ذلك منذ العام الأول، وإنما أقعده عن ذلك عجزه عن تنفيذ ما أراد، ولهذا بقي يطحن آلامه في صدره كل هذه المدة إلى أن أخرجها في هذه القصيدة التي صارت حديث الناس من صباح هذا اليوم.

: أما أنا فأقول... الله الساتر.

ـــ : كن مطمئناً وضع يدك في ماء بارد، فلن يحدث في هذا الربيع ما يكدر الصفو، مادام شيوخ القبائل قد ضمن كل واحد منهم، أفراد قبيلته وكتفوهم فلن ترى إلا الخير.

: خوفي من كبت ماجد أن ينفجر، ويفعل فعلته فيحدث ما لا تحمد عقباه.

ـــ : آه... لا تخف إن حدث منه شيء فسيتحمل جريرة عمله بنفسه ولن ينال أحداً منه شيء، فالنقص عليه وعلى قبيلته.

: أعوذ بالله، كأنك يا معزى لا تحسُّ بإحساس الآخرين!؟

ـــ : كنا نتحدث عن أمر هام، وإذا بك تنتقل منه إلى أمور تافهة.

: إنها مهمة عندي، فهي أهم مما تفكر به.

ـــ : إذا تصبح على خير.

ما إن بسطت الشمس ثوبها الفضي على الأرض حتى توالت قطعان الأغنام تنساب من مختلف الإتجاهات، تكسو الروابي وتطغي على الوهاد، وتجلل الحزون، وتوشي الحزوم، تندلق مع الثنايا، وتنداح مع الأودية والشعاب في اتجاه المورد وأخذ الرعاة وأصحاب الغنم يمتحون لها بأيديهم من هذا المورد الكل يدلي دلوه ممسكاً بمثناة رشائه، يخرج الدلو مليئة بالماء، فيسكبها بحوض الماء الجلدي، فتكرع به أغنامه التي ترسل على أرتال متتالية، فتشرب وترتوي ثم تصدر، وهكذا تتعاقب هذه القطعان الكثيفة حتى انتهت، ثم وردت أذواد الإبل وكثر زحامها على حياض الماء، وجدَّ أصحابها ورعيانها وسقاتها في متح الماء لإخراج الكمية الكافية منه لسقيا إبلهم وحينما يشعرون بالتعب تسمعهم يرددون الأهازيج والحداء بإيقاعات رنانة تلائم وقع أكفهم على الأرشية والحبال التي يخرجون بها الدلاء، هذه الأهازيج تدفع عنهم السأم وتعيد

إليهم الحيوية والنشاط من جديد، حيث يقف الماتح على جانب فم البئر فاحجاً ما بين رجليه، يمتح الدلو إما على بكرة مثبتة على خشبة واقفة بميل نحو البئر، أو يمتح الدلو على يديه بدون أي مساعد آخر، تمر الساعات على هؤلاء السقاة وهم ينضحون الماء ويسقون به أنعامهم حتى قرب أذان الظهر، حين يخف العمل لديهم بعض الشيء، فتقبل النساء يحملن القرب الفارغة لتعبئتها بالماء من هذا المورد من متح هؤلاء الرجال الواقفين قرب فوهة البئر، وإن لم يجدن أحداً من الرجال متحن بأنفسهن وملأن قربهن بالماء.

في هذا الجو الصاخب، وبهذا المكان الذي يعج بالحركة، وبينما «مفوز» يمتح الدلو من البئر قد اكتربت عليه وشدت ظهره وسمرت قدميه على الأرض وانشغلت يديه وتفكيره عن السمع والبصر، انقض عليه ماجد كالعقاب الصارم أو الأسد الكاسر وضرب مفوز مع إحدى رجليه فبتر ساقه في الحال مما أخلَّ بتوازنه، فأطلق رشاء الدلو من يده وسقط على ظهره قرب فوهة البئر، فصاح الناس وفزعوا وحاولوا الإمساك بالفاعل، لكن ماجداً انصلت بسرعة البرق وامتطى صهوة جواده التي قد «شكَّر» لها غير بعيدة عنه وفرَّ هارباً نحو النزل، انشغل من كانوا حول البئر بربط رجل مفوز جيداً، حتى لا تنزف منها الدم فيموت، وارتفع الصياح من النساء، ووصل الصريخ إلى البيوت بعد أن وصل ماجد إلى مبتغاه، حيث دخل بيت الشيخ «ابن هذال» لكنه عند وصوله وجد من يقول له: إن هذا البيت لن يجيرك ولن «يُزَبِّنَكْ» لأن صاحبه أحد أقطاب الحلف، فعليك ببيت الشيخ «ابن سُوَيْطْ» فلوى عنان جواده واتجه من لحظته إلى بيت «دُغَيِّمْ» فدخل عليه فأمنه في بادىء الأمر لكنه وجد من يهمس في أذنه أن دغيم أحد أقطاب الحلف هو الآخر، ولا يمكن أن يخون عهده، أو يحالف أمراً من الأمور التي تم الاتفاق عليها، وهناك بيت يمكن أن يجيرك ويحميك، ذلك هو بيت «أُمّ دُغَيِّمْ» فهو بيت كان مع صاحبته في الحج ولم تحضر الحلف، وكذلك بيتها لم يكن وقت العهد من بين بيوت النزل، فعليك بالدخول في بيتها وستحميك وتجيرك، و«يُزَبِّنَكْ»

بيتها، وعند ذلك خرج من بيت دغيم إلى بيت والدته الغير بعيد عن بيته، فرحبت به تلك السيدة وقالت له: «تَزَبَّنْتَ وَزَبَنْتَ لَلَنْ يَذُوْرَكَ ذَائِرٌ مادُمْتُ عَلَى قَيْدَ الحَيَاةْ» ووقفت تلك السيدة الكريمة ونادت بأعلى صوتها أن ماجداً قد استجار بها، وأنها أجارته، وأي مساس به يعتبر مساس بكرامتها.

* * *

في هذا الوقت أسرعت كواكب الفرسان من قبيلة مطلق متجهة نحو النزل مقتفية أثر الفاعل، فاتجهوا إلى نزل ابن هذال، لكنهم أخبروا أن الجاني قد اتجه إلى نزل ابن سويط، فأسرع الفرسان إلى هناك، فأوقفهم فرسان ابن سويط، وأسرع دغيِّم يطلب التريث حتى يتم. بحث الأمر مع الرؤساء المعنيين، واجتمع أقطاب هذه القبائل عند الشيخ دغيِّم طالبين منه تسليم الجاني فقال مطلق لدغيِّم :

ـــ : عليك أن تسلمنا الجاني الذي لجأ إليكم.

: من تعني؟ يقول ذلك بتجاهل.

ـــ : أعني ماجد الذي أحدث في أمرنا ما أحدث.

: آه... تعني الحِثْرِبِي!؟

ـــ : نعم هذا الذي بتر ساق مفوز، وربما أدى ذلك إلى وفاته.

: لقد دخل ماجد في بويت والدتي. يقول ذلك بصوت مجرور.

ـــ : عليك أن تحضره من البيت الذي دخل فيه.

: لكن بيت والدتي له حرمته، ولن يقترب منه أحد إلا بإذنها.

ـــ : لن يقترب من بيت والدتك غيرك.

: سآخذ رأيها!! يقول ذلك بتراخي.

ـــ : بل عليك أن تحضره، حتى دون موافقتها.

: يستحيل ذلك إلا إذا وافقت.

ـــ : كأنك تريد نقض العهد الذي بيننا. يقول ذلك بنبرة حادة.

: العهد!! يقول ذلك وهو مطرق وكأن وقع هذه الجملة وقع الصاعقة عليه.

ــ : أنسيت ما بيننا من ميثاق يكف الاعتداء بين هذه القبائل ويسلم الجاني مهما كانت جنايته؟

: لا... لم أنس ذلك، ولكن... يقول ذلك بشرود من فاجأه أمر من الأمور.

ــ : ولكن ماذا؟

: لكن لبيت أمي حرمته، لا يمكن إخراج من فيه إلا بموافقتها.

ــ : موافقتها!!

: نعم، ولا أظنها توافق.

ــ : ألم أقل لك أنك تريد نقض الحلف القائم بيننا.

: لا تقل هذا يا مطلق... لكن دعني آخذ رأيها.

وعندما سمعت أم دغيم لغط القوم في بيت ولدها، أطلت على المجتمعين وهي متلثمة وقالت بأعلى صوتها: أيها الرجال ليبلغ الحاضر منكم الغائب بأن ماجداً لجأ إلى بيتي و«زبن» فيه وهو في حرز مكين، فلن يناله نائل أو يذوره ذائر مادمت على قيد الحياة، ومادام لي رجال يذودون عن حرمة «بُوَيْتِيْ» أما ما يتعلق بحلفكم ومعاهدتكم، فإن بويتي لم يحضر هذه المعاهدة، وقد كان معي في الحج حينما عقدتم هذا الصلح والتحالف بين قبائلكم، وعلى هذا فإن البيت وصاحبته لم يكونا حاضرين المعاهدة التي تمت بينكم، وبذلك فإن البيت وصاحبته يعتبران خارج هذه المعاهدة ولها حق حماية من لجأ إليهما واحتمى بحماهما فلا تكثروا الأخذ والرد في هذا الموضوع وعليكم باعتباره منتهياً وسيبقى ماجد في حرز مكين تحميه فرسان «خَيَّالْ الْقِرِوِيْ سُوَيْطْ» فعليكم بالعودة كل إلى نزله واعتبار الأمر منتهياً.

وتدخل ابنها دغيم محاولاً تهدئة غضبها قائلاً: يا أماه... وقبل أن يكمل كلامه قالت له: «اسمع يا دغيم، لقد بيَّنت لكم وللحاضرين معكم في هذا المكان ما استندت عليه في تبرير دفاعي عمَّن احتمى بحماي، ولجأ إلى بيتي، وكلكم يدرك ويفهم ما قصدت، ووالله لئن خفرت ذمتي، وانتهكت حرمتي بأخذ «دخيل» بويتي وأنت حيٌّ دون أن تدافع عني لأقطعن ثدياً

رضعنه من مِشَّة زورى وأرمي به لكلاب الحي، وسأتولى حماية بيتي بنفسي»... ثم غادرت المكان عائدة إلى بيتها.

ــ : تحفز مطلق وقال: هذا كلام عجوز هرفة.

: ليس القول كما قلت، وإنما «القول ما قالت حذام»!!

ــ : ماذا تقول يا دغيم؟

: أقول: إن والدتي معها حق فيما قالت، فلم تكن حاضرة هي وبويتها الحلف الذي عقدناه بيننا وبينكم، وهي مصيبة فيما رمت إليه.

ــ : هذا غير منطقي، نحن نريد الرجل، وإلا يعتبر الحلف ملغي وكل واحد يأخذ حقه بيده. يقول ذلك باندفاع.

: لا تقل هذا يا مطلق، وحكِّم عقلك، ولا تتسرع في أمر قد تكون عاقبته وخيمة.

ــ : ماذا تعني؟ يقول ذلك بحدَّة.

: أقصد أن نفكر في الأمر هذه الليلة ونجتمع غداً مع الشيخ ابن هذال، ونرى صواب مارمت إليه صاحبة البويت ونتفاهم بشأن هذا اللاجىء الذي أثار هذه العاصفة.

ــ : أوه!! غداً!؟ ومن الذي سيصبر إلى الغد؟!

: لا تتعجل، يا أخا جوزاء. يقول ذلك مع ابتسامة عريضة.

ــ : ستقول غداً إن والدتي معها حق في إدخال الدخيل وحمايته!!.

: إنني مع الحق والمنطق، وسيكون الحق تحت حمايتي ورعايتي.

ــ : إنني أكاد أشم التصلب في موقفك من الآن، فكيف يكون وضعك في غداة غدٍ!؟

: كما قلت لكم، إنني مع الحق، وسيكون بويت أمي في حمايتي وتحت رعايني وعنايتي مهما يكن من الأمر.

ــ : هذه بداية التصلب والاعتداد بالرأي. يقول هذا الكلام بلهجة مجرورة.

: في اجتماع الغد سيتحدد كل شيء. يقول ذلك مبتسماً.

* * *

وانفض الاجتماع فعاد كل رجل إلى بيته، لكن هذه الحادثة أمست حديث الناس، يتحدث بها من بيدهم العقد والحل، ومن ليس بيدهم من الأمر شيء، الكل يدلي برأيه، وما يتوقع أن يكون، فمن متفائل بما سيحدث في صبيحة الغد، ومن متشائم بأن تجتاح الخيلُ الخيلَ مع الصباح الباكر، وصار إغارة أناس على أناس الهاجس المزعج لمن نظروا إلى تلك الحادثة بالتشاؤم، وكان «مطلق» يغلي صدره غيظاً وحنقاً عندما غادر المكان وهو يقول في نفسه: كيف يريد دغَيِّم أن يحمي هذا الجاني ويجيره رغم أنه أحد الموافقين على عقد هذا الاتفاق؟ ثم إن الجاني والمجني عليه من أفراد قبيلتي، فالمفروض أن يسلمه إليَّ ولي حق التصرف فيه، الإثنان من قبيلتنا، فكيف يحول بيني وبين الاقتصاص للمجني عليه من الجاني؟ هل هو صادق فيما تفوه به من كلام في هذا المساء من أنه سيحمي من استجار به؟ أم أن هذا الكلام مجرد تصلب في الموقف بادىء الأمر مدفوع بفورة الغضب التي أثارتها أمه أمام هذا الجمع من الرجال؟ وأنه حالما يستعمل عقله ويثوب إلى رشده هذه الليلة، سيعود إلى المنطق ويعيد علينا في الصباح هذا المعتدى لنقتص منه؟ وما الذي حدا بتلك العجوز لأن تقف هذا الموقف، وتدعي مثل هذا الإدعاء وهي كما تقول أنها لم تحضر عقد هذا العهد، ولم يكن بويتها ضمن بيوت النزل عندما تم الإتفاق، أو ما علمت أن هذا الاتفاق يشمل الحاضر والغائب من أفراد هذه القبيلة أو تلك؟ إذا كان كل واحد سيحتج بمثل هذه الحجة فكثير من الأفراد من القبائل الثلاث لم يحضروا الاجتماع إما لكونهم في سفر، أو غزو، فإذا كان كل واحد منهم سيدخل مع هذا الباب الذي تريد أن تفتحه أم دغيم فسيكون هناك اعتداءات متكررة، ويلجأ مرتكبيها إلى هؤلاء الذين لم يحضروا الاجتماع، وبذلك ينفرط عقد هذا الاتفاق، ألم يكن شيخ كل قبيلة يكف أفراد قبيلته كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم؟ إذا كان الأمر على هذا المفهوم، فلماذا لا يكف تصرفات والدته؟ وإذا كان له مفهوم آخر فماذا يعني عنده شيخ القبيلة وأنه يكف أفراد قبيلته؟ أم ترى أن «دُغَيِّماً» قد اشتهى نقض الاتفاق معتمداً على قوة فرسانه، ولم يصدق أن يحصل له مثل هذه الحادثة

لتكون نقطة ينطلق منها ويقوض بنيان هذا الاتفاق الذي عشنا في ظله طيلة هذه السنة لم يحرك فيها ساكناً ولم يُرَعْ أي إنسان؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إذا كان دغيم أراد بهذه الذريعة أن ينقض العهد فالله في عون الجميع لتحمل جريرة ما سيحدث لهذه القبائل الكبيرة والصغيرة بأعدادها الكثيفة ومنازلها المتعاقبة وأنعامها المختلطة في هذا المرعى الخصيب، أما حقنا حسب نصوص هذا العهد فسوف نأخذه، ونستعيد الجاني من دغيم، إن لم يرضخ لهذا العهد رغماً عن أنفه حتى لو جرت الخيل على الخيل في صباح اليوم التالي، لا يمكن أن نسكت على حقنا، إذا كان هو زعيم قبيلته، فنحن زعماء قبائلنا، ولن يقف في وجهنا أحد كائن من كان، ولن نتأخر يوماً واحداً عن حقنا، ولن نتزحزح قيد أنملة عن مكاننا، أما إذا عاد إلى الحق، وحكَّم عقله، وحافظ على تماسك هذا الاتفاق لتنعم هذه القبائل بقية هذا العام في بقايا أعشاب الربيع فهو قَمِيْنٌ بمثل هذا الأمر، ومن أهله، وكفؤ له، وإلى أن يصبح الصباح ونرى ما عنده في الاجتماع المرتقب.

بينما كان دغيم في حالة مغايرة لما كان عليه مطلق، فهو من جانبه مقتنع بأنه مع حق في الذود عن حرمة بيت أمه، وأن والدته محقّة في الحجة التي أدلت بها من أنها لم تحضر العهد وأن هذا البيت لم يكن من ضمن بيوت النزل حينذاك، ولهذا فمن حقها كامرأة عربية أن تجير فيه من تشاء حسب عادات العرب وتقاليدهم ومن واجبنا أن نحميها، ونذود عنها بشتى الوسائل ولا يمكن أن نسلم من أجارت إلى خصومه مهما كلف ذلك من ثمن، وإذا كان مطلق أو غيره من زعماء هذه القبائل يريد أن يأخذ دخيلنا فنحن دون حقنا، سنذود عنه بقوة السلاح، فنحن ندرك ما للدخيل من حقوق على من التجأ إليهم، فهي من الطبائع التي تميز العربي عن غيره في الدفاع عمن استجار به، والتجأ إليه ووالدتي هذه العربية الصميمة، والمسلمة الحقة، تدرك هذا المعنى تماماً، ولولا إدراكها له لما وقفت أمام هذا الحشد من الرجال وأبانت لهم وجهة نظرها التي تعتبر مقبولة لمن أراد مخرجاً من هذا الموقف، وفضل حقن

الدماء على إهدارها، سيما وأن المصاب لم يمت، وإنما بقى على قيد الحياة، وإن حمل هذه العاهة بقية حياته، المهم أنه بقى حيًّا، وإذا أراد مطلق أن يتخذ من هذه الحادثة ذريعة لنقض هذا العهد الذي شارف على الانتهاء، فليس لدينا ما يمنع على شرط أن نحتفظ بحق من استجار بنا ونحميه في هذا الظرف بالذات ومتى انتهى هذا العام وتفرقت هذه القبائل، وعاد كل إلى مواطنه فإن المستجير له الخيار أن يبقى عندنا ويعيش في حمايتنا كواحد من أبناء قبيلتنا أو أن يعود إلى قبيلته فيدركه خصمه أو يقتص منه، في ذلك الوقت نكون قد خرجنا من وزره وغشيتنا البيضاء في حمايته. آه... هداك الله يا أخا جوزاء، هداك الله يا أبا مسلط، أتريد مني أن أسلمك من استجار ببيتي وبيت أمي بهذه السهولة؟ أما علمت بمكانتي بين قومي؟ أما علمت مكانة قبيلتي بين القبائل؟ أما علمت أنني وأنت نعود إلى جذم واحد هو الجذم القحطاني، فكلانا يتفرغ من أرومة طيء، وإن إلتف مع قبيلتي وتحت كنفي فروع من قبائل أخرى، إلا أنني أعتز بإرتباطي ببني لام القبيلة الطائية العريقة، وتريدني أن أتقاعس عن واجبي وأسلم من استجار بي ودخل بيت والدتي بكل هذه السهولة؟ لا شك أنك تعلم ما لدي من القوة التي تمكنني من الدفاع عن حمى قبيلتي فضلاً عن محارمي، ومن التجأ إليَّ ولكنك رغم هذا التجاهل للأمر قد أخذتك الحمية إلى أن تركب رأسك وتريدني أن أسلمك من دخل ببيت والدتي.

إيه!! إن هداك الله إذا اجتمعنا غداً مع الشيخ «ابن هذال» ورأيت أن الأمر صائب، وأن هذه السيدة العربية قد أصابت بحجتها فنحن على العهد الذي كنا عليه، وإن تصلبت وطاوعت نفسك فليس عندي لك إلا «صُمَّ الرَّمَكْ»، ومصقلات الهند، ولكن نرجو من الله أن يتغلب العقل على ما سواه ونطمر آذان هذه الفتنة، ويعتبر الرجل قد استعاد كرامته الجريحة، ورفع عن نفسه ما يعتبره غشاءً أسوداً قد كساه إياه مفوز، حينما خفر ذمته.

ولابد أن تفترق هذه القبائل بعد انقضاء هذا العام وإن كان له حق يمكنه أخذه.

* * *

أما العجوز فقد عادت من فورها إلى بويتها حيث وجدت فيه ماجد جالساً متحفزاً مجرداً سيفه مسنداً رمحه على عارض البيت تلمع عيناه المتقدتين متوجساً لكل حركة حوله، وعندما أطلت عليه في حالته تلك قالت له: إطمئن يا بني فقد وصلت إلى حرز مكين، ولذت في حصن حصين، ولن يذورك ذائر ما دمت في وجهي، وأنا أم دغيم، لاطالت يدٌ ستنالك بسوء، تقول هذا وهي تقدم له شيئاً من التمر والزبد واللبن قائلة له: كل يا بني واشرب ولا تقلق، فدونك آل سويط، هذا الجدار المنيع من الفرسان الذين سيذودون عنك ضد أي محاولة الاعتداء عليك بكل الوسائل، ثم ذهبت عنه لتترك له المجال إذا أراد أن يطعم، وذهبت ولسان حالها يقول: سبحان الله كيف يتحول الإنسان إلى هذا الوضع؟ هذا الشاب النحيل بدا وكأنه الفهد المتوثب، أو النمر المتحفز للإنقضاض يريد أن يلتهم ما أمامه من البشر وغيرهم، كيف جحضت عيناه الغائرتين بالأمس، فجلس على رؤوس أنامل قدميه ممتشقاً سيفه، يتوقع أن يدخل عليه أحد من أعدائه وكأنه في جانب من الخلاء!! كأن لم يكن في بيت!؟ إطمئن يا بني، إنك في بيت من تجير المستجير، وتؤمن الخائف، وتشبع الجائع، وترفد العاني، في بيت أم دغيِّم، شيخ هذه القبيلة العريقة الذي يأتمر بأمره عشرات، بل مئات وآلاف الفرسان يهبون لأقل إشارة، ويقتحمون لأقصر عبارة منه، وهم بذلك طوع بنانه، لا يحيدون عن أمره قيد أنملة سيحمون هذا البويت من أي اعتداء عليه، وحتى لو افترضنا لا سمح الله ولا أعدمنا رجالنا أنه لا يوجد من يحمينا فسوف ندافع عمن دخل في حمانا بأنفسنا، سأجرد هذا السيف وأدافع عن حمى بويتي، وأذود المعتدين عنه بما أوتيت من قوة حتى آخر قطرة من دمي، سأموت قبل أن يُمَسَّ من التجأ إلى بويتي بسوء، فالعربي والعربية لا ترضى أن تخفر ذمتها، ولا أن يقترب من حماها، أو تمس محارمها بأي سوء، أما علمت يا بنيَّ ماجد أنك حين التجأت إلى بيتي أنك أصبحت مثل إبني دغيِّم من حيث الدفاع عنك وحمايتك، ولو أنك ستدافع عن نفسك عند الحاجة، لكن لن تقترب منك يد من الأيادي ما دمت في كنف هذا البويت، الله أكبر ما أجراك

يامطلق!! الله أكبر ما أكثر استخفاف بعض الرجال بأعمال النساء!؟ كيف تتجرأ أن تقول لي أمام هذا الجمع بأن هذا كلام عجوز هرفة!! أما علمت بأنني عربية أَبِيَّة تأبى الضيم على الآخرين فضلاً عن أن تتحمله بنفسها!؟ أنسيت أن للعربية مكانة مرموقة بين قومها ولديها من الشجاعة والإقدام ما تأخذ بهما حقها، وتدافع عن نفسها، وتحمي جارها، وتدافع عن المستجير بها!؟ أما علمت أنها تقري ضيفها وترفد عانيها؟ ولديها من رجاحة العقل وحسن التدبير وسلامة الرأي وصلابة الموقف ما لا يوجد عند الكثير من الرجال!؟ ثم تأتي يا أبا مسلط وتقول إنني عجوز هرفة!!؟ سامحك الله، وإن تقدمت بي السن فلن يزيدني ذلك إلا عمقاً في التجربة وصرامة في الموقف واستنارة في الرأي، وسيصبح هذا الشاب تحت كنفي في مأمن منك ومن بين قومك، فلن يناله أي سوء إن شاء الله مادام هذا الرأس تطرقه الرياح.

ثم اقتربت من عارض البيت وأطلت بحذر لترى ما إذا كان ماجد قد تناول شيئاً من الأكل، أو شرب من اللبن، وإذا هو مطرق ببصره لم يحرك ساكناً سوى يده اليمنىٰ حيث تنقبض على السيف تارة وترتخي أخرى مع تململ في جلسته بين الحين والآخر.

وتساءلت: لماذا يفكر هكذا وقد طمأنته قبل قليل؟ أترى ماجد قد شغله التفكير بمصيره عما سواه!؟ لندخل إلى ذهنه ونرى أنه قد سبح في بحر تفكير عميق وكأن لسان حاله يقول:

لا شك أن هذه السيدة صادقة فيما تقول، وقلبها مطمئن إلى مكانتها بمكانة إبنها فهو بلا شك منيع مناعة هذا الجبل الشامخ، راسخ رسوخ جذوره ولهذا فهي تعنى ما تقول، وقد قدمت لي الطعام تريدني أن آكل، وما علمت أنني لم أذق الطعام كما ينبغي منذ أيام إلا ما يسد الرمق ويبقى الحياة والآن وقد نسيت الطعام فلم يخطر لي على بال، لا من شدة الخوف والفزع، وإنما لا أجد لنفسي رغبة فيه، وما يشغل تفكيري أكبر من ذلك، أترى الشيخ مطلق يصر على ضرورة تسليمي إليه؟ أم سيثنى دوني الشيخ دغيِّم؟ وفي حالة

وحتى لو التجأ إلى شخانيب الجبال فسأصل إليه، حتى ولو كان في عنان السماء، حتى ولو التجأ عند السويط فلن ينجيه مني أحد، أيحسب أنه إذا «زبن» عند صاحبة البويت سيمنعه بويتها مني، لا، أبداً فهو قريب المنال، وكأنه في طرف هذا البيت الذي يظللني، دعني أشفى إن شاء الله وسوف يرى ماذا أفعل به، آه!! ما أقسى قلبك يا ماجد!؟ كيف تفعل برفيقك وابن عمك هكذا!؟ أبعد الرفقة الحميمة الصادقة تفعل بي هكذا!؟ أتريدني أن أبقى معاقاً طول حياتي أعرج بين الناس!؟ لا أستطيع ركوب الخيل كما كنت أفعل، لقد بترت ساقي عند الركبة فأعقتني عن كل شيء، أتريدني أن أبقى عند النساء والصبيان والشيوخ في الوقت الذي يمتطي الفرسان فيه صهوات الخيل يغيرون على الأعداء ويذودون عن الحي؟ لقد قتلتني وأنا حي لقد قتلت معنويتي وأبقيت جسدي حياً ميّتاً، فليتك قضيت على حياتي مرة واحدة لأسلم مما أنا فيه.

أتريدني أن أتركك بعد أن فعلت بي ما فعلت؟ والله لن تنجو مني، آه.. ما أسعد ذاك اليوم الذي أستطيع فيه التحرك!! آه، ليت هذه الآلام تبرد عليّ الآن وسترى ما أنا فاعل بك، ستكون طعماً لشذرة سيفي هذا، سأنتقم منك، سأنتقم.

وزحف من مكانه بدون شعور مما جعل النسوة اللآتي يجلسن حوله يمرضنه ينتبهن إلى هذه الحركات التي تتشنج بها يديه ويتقبض جسمه بمفعولها تارة ويتمدد أخرى، وهن يحسبن ذلك من تأثير الألم إلى أن نطق بكلمة سأنتقم، عندها أدركن ما يجول في ذهنه، فحاولن تهدئته لكنه رفض، مما اضطرهن إلى الاستعانة بمقدار آخر من الشراب المسكن لتهدئته، وعندما شرب الدواء استسلم لنوم عميق.

* * *

وفي اليوم التالي اجتمع روساء القبائل في بيت دغيم ليجدوا حلاً لهذه المعضلة فقال مطلق:

ـــ : لقد انتظرنا على طلبك يا دغيم وها نحن اجتمعنا الآن ماذا وجدت من الحل؟

: الرأى متداول بين الحضور.

ـــ : ماذا تقول يا ابن هذال؟

: أرى أن يسلم الجاني ويقتص منه.

ـــ : هذا ما أراه منذ البارحة. هكذا نطق مطلق.

: ولكنني أعترض على هذا الرأي. قالها دغيم بنبرة حادة.

ـــ : تعترض!؟

: نعـــم.

ـــ : أجل لم تزدك المهلة التي أخذتها البارحة إلا إصراراً وتعنتاً.

: ولكني أعتبر نفسي مع صواب.

ـــ : صواب !! أن تسمح للرجل الذي أحدث في أمرنا ما أحدث أن يلتجيء إليك وتحميه وتقول إنك على صواب!؟

: إنني مصيب فيما فعلت، وما أدلت به والدتي يوم أمس من حجة هو الحق بعينه.

ـــ : ماذا تقول يابن هذال فيما تسمع؟ يقول مطلق ذلك بعد أن التفت إليه.

: يجب أن يتمشي حسب نصوص الحلف ولا يحيد عنه قيد أنملة.

ـــ : هذا الرأي السليم.

: وما دخل هذا بالحلف؟ لو فعل الرجل ما فعل والتجأ إلى أي بيت غير بيت والدتي لقدمته لكم الآن،، لكن والدتي وبيتها لم يحضرا الحلف وهذا ما يجعلني أحافظ على كلمتي.

ـــ : هذا كلام غير منطقي.

: وأنا أعتبره خلاف ذلك.

ـــ : إذاً بإصرارك هذا ستضطرنا إلى نقض هذا الإتفاق.

: لم أجبركم على ذلك، وإذا خرجتم أنتم عنه فأنا دون حقي، وسأدافع عن نفسي، وأحمي من التجأ بحماي وكنف بويت والدتي.

ـــ : هذا معناه نقضك لهذه المعاهدة!!؟

عودتي إلى حوزة مطلق ماذا سيفعل بي؟ أيقتلني صبراً؟ أم سيترك خصمي يأخذ حقه مني؟ ولئن قتلني الآن لا فرق عندي في ذلك، فالموت والحياة أصبحت عندي سيان، بعد أن بردت غليل كبدي من خصمي، ولكن لا أظن أنهم يقتلونني إلا إذا مات مفوز متأثراً بجراحه، أما إذا سلم فلن يقتلونني، وسأتحمل إرش ما فعلت به!! وهذا أمر هين حتى لو دفعت عن ذلك دية كاملة!! إنني متأكد من أن دغيم لن يسلمني مهما كلفه الأمر، حتى لو وصل ذلك إلى انتقاض كامل الحلف، يا الله!! هل أكون سبباً في انتقاض هذا الحلف المعقود بين هذه القبائل قبل أوان انقضائه؟ هل تخسر هذه القبائل الكبيرة المرعى بقية هذا العام بسببي؟ هل تتفرق هذه الجموع من أجلي؟ هل تنشب حروب بين هؤلاء الحلفاء من أجل سلامتي!؟ إن كانت هذه القبائل ستطاحن وتتحارب من أجلي فإنني أقدم نفسي قرباناً لفداء ما قد ينشب بينها من قتال!! يا الله !؟ هل سأكون أشأم من البسوس بين بكر وتغلب؟ اللهم لا تجعلني سبباً في فناء أعداد من البشر، ووالله لئن رأيت أن الأمور ستصل إلى هذا الحد لأخرجن من هذا البويت وأعود إلى قبيلتي ليفعلوا بي ما يريدون، ولا يصل الأمر إلى القتال بينهم، فلقد شفيت ما في نفسي من خصمي واستوت عندي الحياة والموت، أما إذا كان الأمر سيتم بالتفاهم وقرع الحجة بالحجة والذود عني بدون إراقة دماء فهذا ما كنت أتوخاه، مع إيماني أن من لجأت إليهم سيدافعون دوني بكل وسيلة حتى ولو ارتوت الأرض من الدماء، فهم رجال صناديد ومن التجأ إليهم فكأنه في رأس عيطاء منيفة لا ينال ذروتها غير الطيور الطائرة ولقد قتل أميرهم ابنه بابن جارة مما حدا بالشاعر أن يقول:

١٩٥ عْيَالْ السَّوَيْطْ اَللِّي لَهَمْ ذِكِرْ وَاَفْتَانْ　　أَفْعَالَهَـمْ تِذْكَـرْ وْلاَهِي خْفِيَّـةْ
١٩٦ بَالْجَارْ مَا سَاقَوْا مَخَاسِيْر وَاَثْمَانْ　　ذِكِرْ وَلَدْهَمْ مِثِلْ ذَبْحَ الضِحَيَّةْ

وهم ليسوا مثل غيرهم ممن إذا التجأ إليهم المستجير تذرعوا بمختلف الحجج لعدم إيوائه عندهم وحمايته في كنفهم، إيه!! أدام الله عز الأجواد، فإن

المرأة منهم لها مكانة لا تقل عن مكانة الرجل، هذه السيدة منهم قامت بما يعجز عن القيام به بعض الرجال ممن يرون بأنفسهم، ونافحت دوني بلسانها، وهي ولا شك مستعدة لأن تدافع عني بسنانها إذا لزم الأمر، غير أنها تحت مظلة ابنها الشجاع المقدام ورجاله الصناديد الكرام. إيه!! أقول هذا بالطبع دون انتقاص من حقوق الآخرين أو الحط من مكانتهم، هاه!! هذه السيدة وقد أحضرت أصنافاً أخرى من الطعام، أين ماجد والأكل يا أم دغيم!!؟

* * *

هذا ما كان يجري في جانب الحي، أما الجانب الآخر الذي يقطن فيه «مفوز» فبعد أن سارع من حضر الحادثة إلى مفوز وربطوا ساقه المبتورة من أعلى حتى لا ينزف الدم ثم نقلوه إلى بيته وقد أغمى عليه، وبدأت العجائز في علاجه بالضمادات والمسكنات من مساحيق الأعشاب والأدوية والعلاجات، حيث أسرعت إحداهن فأعطته شربة من دواء عندها مما تدخره النساء من الأدوية لمثل هذه الحالات، وبعد بضع ساعات انتبه من غيبوبته فوجد نفسه على هذه الحال، وبدأ يقاسي من آلام ساقه، فناولته إحداهن دواء شعر معه بالراحة وسكنت عليه بعض آلامه فصار يتلفت إلى من حوله حيناً ويسرح طرفه نحو الأفق أحياناً مع معانات بعض الآلام ولسان حاله يقول: لقد فعلها إبن..، لقد أتم ما في نفسه، آه!! ليته قتلني ولم يتركني على هذه الحالة، هذا الوضع الذي سيلازمني طول حياتي، قاتلك الله!! لقد نفَّذ ما عناه بقصيدته، هاه!! ليته قضى على حياتي مرة واحدة ولم يتركني بهذا لوضع أعيش طول حياتي أعرج بين الناس، ويبقى من يعرفني يذكر هذه الحادثة كلما رآني، ومن لا يعرفني قد يسأل عن سبب ما أنا فيه، ثم تقص عليه القصة بكاملها آه... قد يوجز القصة الصديق أو يشير إليها إشارة، وربما أسهب العدو في تفاصيلها إن لم يزد عليها أو ينمقها ببعض الحواشي والزخارف، آه!! ليت عظامي تحملني، والله لأقتصن منه أشد القصاص، ولن يمنعني عنه مانع مهما كان، من الذي سيمنعه مني!؟ لن تستطيع قوة فوق الأرض أن تحول بيني وبينه،

: أيها الرجال، لا تظنوا بي هذا الظن السيء، وحكموا عقولكم رجل التجأ إلى بيت لم يحضر المعاهدة، ولم تكن صاحبته موجوده يومها، فهناك مدخل يبرىء ذممكم ويجعل لكم مخرجاً أمام الناس، فلا يلومكم أحد في موقفكم هذا، ثم إن الرجل المصاب لا يزال حيًّا، وأرى أن ننتظر حتى يشفى بعد شهرين أو ثلاثة، عند ذلك قد نجد المخرج المناسب وربما تسامح الخصمان، أو على الأقل تكون مدة المعاهدة انتهت أو أوشكت على الإنتهاء.

ـــ: أوه!! أتريدنا أن نبقى كل هذه المدة، ننتظر بالشهور ومن ذا الذي سيصبر إلى ذلك الوقت!؟ نحن نريد الآن أن تسلمنا الجاني وإلا اعتبرنا الإتفاق منتقضاً من هذا المكان.

: أنا لا أعتبره كذلك، وإن أجبرتموني على نقضه فسوف أحمي نفسي، وأذود عمن استجار بي بحد هذا السيف ولن أسمح لمن أراد أن يخفر ذمتي أن يتقدم شبراً واحداً.

ـــ: معنى هذا أنك نقضت العهد؟

: لا مزيد عندي أكثر مما أوضحت.

وقام الرجال من مجالسهم وتفرقوا من المكان.

بقي دغيم يحتدم غيظا على هذا الموقف، كان ماجد الغير يعيد عن المكان يصغى بكل حواسه ورقيق مسامعه لما يجرى في الأجتماع من لغط الكلام واحتدام الجدال وربما انسانت إلى مسامعه حتى الأحاديث الخافتة التي تجرى في طرف المجلس، وربما تسربت إلى أسماعه حتى الهمسات الخاصة، ولما انفض المجلس وأدرك القرار النهائي رفع عقيرته بقصيدة منها:

١٩٧ يَارَاكِب حَمْراً رِذُوْم رْحَايِـلْ مَسْلُوْبَةَ الذِّرْعَانْ حَمْراً سِجِلَّةْ

١٩٨ اَللِّيْ تْشَادِيْ مِمْرِسَاتْ اَلْمحَايِلْ أَفْرَدْ بَهَا الجِنْبُوْغ لَلْبِيْر دَلَّةْ

١٩٩ تْلِغِى عَلَى .. أَهْلَ النَّقَايِلْ سُوْدَ الْوِجِيْه مْرَضعِّيْنَ الاسِلَّةْ

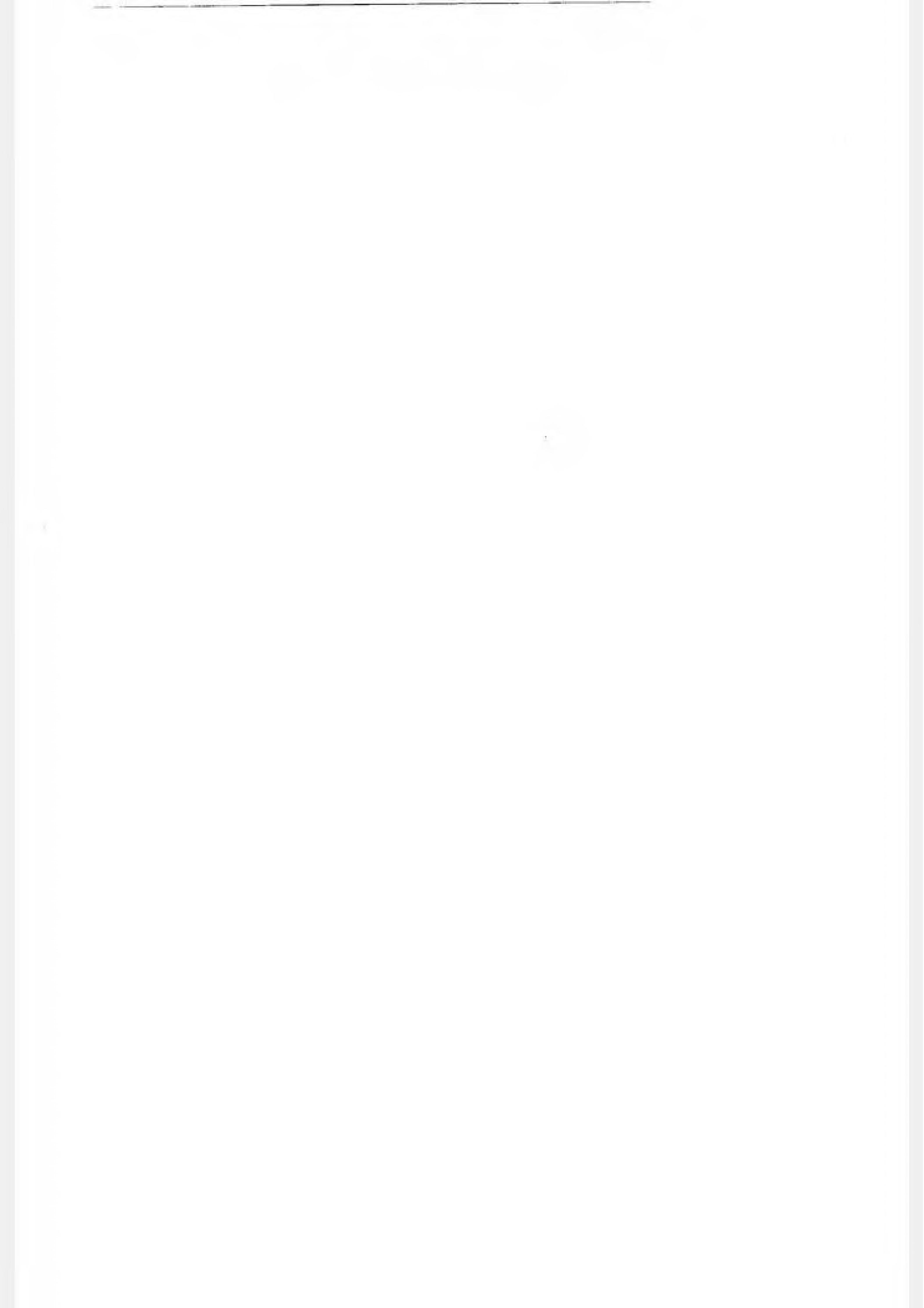
٢٠٠ ....

٢٠١ مَاضَالْ لِيْ غَيْرَ السُّوَيْطَاتْ ضَايِلْ دْغَيِّمْ ثَنَي بَالسَّيْف دُوْنِىْ سَلَّةْ

٢٠٢ سُوَيطَاتْ مَاهَمْ مِنْ رِذَالْ الَحَمايِلْ   لَبَّاسِةِ لَلَجُوخْ وَثْيَابْ مَلَّـــهْ
٢٠٣ سُوَيطَاتْ يِعطُوْن اَلْمِهَارْ الأَصَايِلْ   وَالمَعْرِقَةْ هِيْ وَالرَّسَنْ زَهْوِةِ لَهْ
٢٠٤ مَاسَلْتْ عِنْ رَاسٍ بِهْ الزُّوْم مَايِلْ   إلاَ لِسِعْدُوْنِ فَانَا مِفْنِي لَهْ

سمع دغيم صوته مجلجلاً فهرع إليه حيث وجده يترنم بهذه الأبيات، وما إن رآه ماجد حتى قفز إليه وقبّل جبينه وأنفه وطلب منه أن يسمح له بغناء هذه الأبيات على الربابة، فقال له دغيم، إصبر قليلاً حتى يتضح لك الأمر، فأجابه: إنني في مأمن خلف فرسان آل سويط فقال له: إذاً غن كما شئت.

قصة رقم (٢٩)



الابـن البـار

كاد الفلاح سالم أن يطير من شدة الفرح حينما جاءه البشير ينقل إليه الخبر، أنه رزق بمولود ذكر، وقد تحقق ما رآه في المنام من أنه سيرزق بمولود وسيكون إسمه «مُسْلِما»، هذا ما حصل، فما إن جاءه البشير بالخبر حتى حمد الله وأثنى عليه، ثم أسرع إلى المنزل ليطمئن على الوضع، وليهمس في أذن أمه أنه سيسميه بالاسم الذي رآه في المنام، وهكذا انشرحت أسارير وجهه عندما رأى الحقيقة، وكأنه في بداية الأمر لم يصدق، وذلك لطول المدة التي قضاها الزوجان دون أن يرزقا بأي مولود، وغمرت الفرحة من بالمنزل والأقارب والجيران.

سارت السنوات بشهورها وأيامها ولياليها وساعاتها والطفل ينمو فتجاوز مرحلة الطفولة والصبًا، حتى إذا شب على الطوق أصبح يساعد أبواه في أعمال المزرعة دون أن يرزق الزوجان بغيره، وكانت الأعمال التي تسند إليه في بادىء الأمر خفيفة مما يناسب عمره وقد تدرجت معه هذه الأعمال حتى صلب عوده، وأصبح يتحمل ما يوكل إليه من أعمال، ولم يبلغ هذه المرحلة من عمره حتى خطر له ما لم يكن بالحسبان، فقد مرضت والدته مرضاً شديداً، فأصبحت بحاجة إلى من يعتني بها، ولما كان وحيد أبويه فقد أصبح يساعد أباه في أعمال الفلاحة طيلة النهار وجزء من الليل من قبل أذان الفجر وحتى أذان المغرب، ينتهز الفرص بين الآونة والأخرى ليطل على والدته المريضة ليقدم لها ما تحتاج إليه، في الوقت الذي لا يوجد فيه من المستشفيات شيء والمريض يمرَّض في بيته، بالإضافة إلى اطلالته المستمرة فهناك خالته «سلمى» التي تقوم هي الأخرى بتطبيب أختها بالاستعانة ببعض السيدات وما يجمعنه من الأدوية من مستخلصات الأعشاب ومركبات المواد الكيماوية الخام أو

المصنعة بطريقة بدائية هذه المواد التي تكون في مجموعها الحلتيت والشب والصبر وغيرها إضافة إلى الاستعانة بمن يُجِدْنَ عملية الكي بالنار أو الفصد، من الرجال والنساء.

في هذا الجو وهذا الجهد الموزع بدأ مسلم حياته الفعلية وهو لا يزال يافعاً، طيلة يومه، أما إذا فرغ من عمله في المزرعة عند غروب الشمس أو بعدها بقليل فإنه يتفرغ لخدمة أمه يسهر على راحتها طول الليل، ينام بجانبها، يظل نائماً يقظاً، يصحو لأي حركة تحدثها، أو نبرة تنبس بها، يمد لها الفراش، يضفى عليها الدثار، يلازمها طيلة ليله، فهو بجانبها يقظان نائم، يناولها ماتشتهي من طعام، وما تريد من الماء، يحاول تخفيف آلامها بالكمادات الساخنة حينا والباردة أحياناً أخرى إذا ارتفعت درجة حرارتها، يبرد لها الكمادات في هذه الحالة تحت قاطر القربة المعلقة في مدخل المنزل، أو في قبة البيت، إذا كانت مرتاحة من المرض بعض الشيء يحاول أن يؤانسها بالحكايات التي يعرفها أو الأخبار التي سمعها من هنا وهناك، محاولاً إدخال السرور والراحة إلى نفسها، يتحرى منها أي إشارة إلى نوع معين من الطعام أو الشراب ليقوم بتحضيره وتقديمه لها، تجتمع حولها في المساء عدد من نسوة الأقارب والجيران لزيارتها ومؤانستها لمحاولة التخفيف عن آلامها وذلك بعد أن يفرغن من أعمالهن اليومية، كانت تشكو من آلام مبرحة في المفاصل بيديها ورجليها يستمر أنينها معظم الوقت وترتفع صرخاتها في بعض الأحيان بحيث يسمعها من كان في أقصى المنزل أو خارجه، وكلما اشتد عليها الألم لجأت إلى الأدوية التي أحضرت لها من السيدات علّها أن تخفف عنها آلامها، وأحياناً تجد بغيتها إذا كانت موجة الألم قد خفت وأحياناً أخرى لا يجدى مع حدة الألم أي دواء، وكلما ذكر لها دواء في نوع من الأعشاب أسرع ابنها وأحضره لها ثم بدأ في تحضيره حسب المواصفات المذكورة عنه، وأحياناً تتولى تحضيره أختها، أو المرأة التي ذكرته لها، وذات يوم قالت الأم لابنها في وقت خف عليها الألم وشعرت أنها أثقلت على ابنها في مرضها.

ـــ: آه .. لقد آذيتك يابني.

: بماذا؟

ــ: لقد أثقلت عليك بطلباتي وأتعبتك معي في مرضي.

: لا تقولي هذا يا أماه، فلم أقم نحوك ولا بجزء من الواجب.

ــ: بل قمت بالحمل كله على كاهلك الغض.

: عسى الله أن يقدرني على خدمتك.

ــ: آه... ليت كثيراً من الأبناء مثلك يابني.

: نفسي فداك يا أماه!! ماذا تريدين!؟

ــ: بودي لو أستطيع التخفيف عنك من هذا الشقاء الذي أنت فيه.

: أي شقاء تعنين!؟

ــ: طيلة يومك، تركض بين البيت والبستان، تؤدي عملك هناك ثم تخطف نفسك فتأتي إلى المنزل لتطل عليَّ وتقضي حاجتي.

: يضحك من أعماقه بضحكته المدوية وهو يقول: ألا تعلمين أن ذلك من مصلحتي.

ــ: مصلحتك!! كيف؟ تقول ذلك بانبهار.

: ألا تعلمين أن ذلك ينشطني حينما آتى من البستان راكضاً بشوط واحد وأعود إليه راكضاً كذلك عدة مرات في اليوم؟

ــ: هذا ما أخشى أن يرهقك!! تقول ذلك بلهجة حانية.

: ألا تعلمين ياأماه أننا نجرى في الليل بسباق جاد لمسافات أطول من هذه المسافة مع أقراني من أجل أن نفوز بقصب السبق ولا ينتابنا التعب، فكيف تريدين أن أتعب من شوط أقطعه قبل أن يرتفع نَفَسي!؟

ــ: لكن البستان بعيد عن المنزل يابنيًّ!!

: أوه .. أتعرفين الأثلة الواقعة قرب بستان الفوزان؟

ــ: نعم، أتعنى أثلة الظُّلَيْماء؟

: هي بالضبط، كم تساوى المسافة منها إلى مناخ الإبل؟

ــ: مسافة طويلة.

: كم تقديرين هذه المسافة بالمقارنة بما بين بستاننا والبيت؟

ـــ: لا أدري يابني، ولكنها لا تقل عن الضعف.

: لقد أخذت السبق على أقراني عدة مرات بتلك المسافة وفي شوط واحد.

ـــ: سلمك الله يابنيَّ وستر عليك، تقول ذلك وقد أحست بالإنفراج من التقبض الذي تشعر به وهو ما يهدف إليه.

: ألا تعلمين أنني بترددي يومياً بين البيت والمنزل يعطيني التمرين اللازم على الركض لممارسة مثل هذه الرياضة الليلية التي نمارسها مع أقراننا؟

ـــ: تمارسها ليلياً!! متى!؟

: كما تعلمين قبل أن يصيبك ما أصابك أننا نتبارى بهذه الألعاب بالقرب من مبارك الإبل، وغير بعيد عن النساء اللآتي يعلفن الإبل، وكنت إحداهن أما الآن فإنني أغتنم من وقتي برهة قصيرة بعد صلاة العشاء مباشرة وأشارك أصحابي في هذه الألعاب لفترة وجيزة شوط أو شوطين ثم أعود إليك مسرعاً.

ـــ: لقد حسبتك تذهب لأداء صلاة العشاء.

: بالفعل أذهب لأداء الصلاة مع الجماعة ثم أتوجه إلى أصحابي وأخطف تلك الفترة الزمنية أشاركهم فيها قبل أن أعود إليك.

ـــ: آه .. !! بالفعل إنني أشعر أن وقت الصلاة في بعض الأحيان يكون أطول فحسبت ذلك عائداً لإمام المسجد.

: هذا يحدث إذا رأيتك مرتاحة بعض الشيء، ولست بحاجة ملحة إلى خدمتي في مدة أطول، أما إذا رأيت أنك بحاجة إليَّ فإنني أعود من المسجد لمجرد إنتهاء الصلاة.

ـــ: سلمك الله يابني، تقول ذلك بنغمة حانية.

: والآن ماذا تريدين أن أقدم لك؟

ـــ: بارك الله فيك، فلقد عملت لي خالتك بعض ما أشتهي ولم أعد الآن بحاجة إلى مزيد.

: أما تريدين أن أعمل لك شيئاً من الطعام؟

ـــ: سلمت يداك يابني.

: قد لا يكون يعجبك صنعي للطعام!؟

ـ : وكيف لا !! بل يعجبني وألذ عندي من أي صنع آخر.

: يبدو أن خالتي قد أذاقتك من جيِّد صنعها ما غير مزاجك عما أصنعه من الأكل. يقول ذلك وهو يربت على كتفيها حيث يجلس إلى جانبها وابتسامة عريضة تكسو محياه.

: لن يصرف نفسي عن عمل هذين الكفين أحد في الوجود تقول ذلك وهي تضع كف ابنها قرب أنفها وتمرره على شفتيها تقبله بشغف وشوق ثم تتساقط عليه الدموع حارة متناثرة.

: فداك نفسي يا أماه، عسى الله أن يقدرني على خدمتك وتقديم الأفضل لك. يقول ذلك وهو يمسح الدموع من عينها ويقبلهما.

ـ : لم تقصر في شيء، ولكني أويت لك حيث أضفت إلي ما على كاهلك من حمل عمل الفلاحة ثقلاً جديداً.

: لا تقولي هذا يا أماه، فخدمتك ألزم علي من أي عمل آخر، سأعود إليك بعد قليل، سأعود إلى الفلاحة استودعك الله.

* * *

كانت هذه آخر جملة ترن في آذانها عند مغادرته المكان، فانهمرت الدموع على وجنتيها مرة ثانية وهي تقول في نفسها: حفظك الله يابني، وأبقاك سنداً أعتمد علي الله ثم عليك، يالك من ابن بار، يالك من شاب غيور، ياالله!! من ذا الذي يفعل فعله!؟ من ذا الذي يقسم جهده إلى نصفين، نصف يقضيه ما بين سياق السواني لإخراج الماء من البئر لسقي نخيل والده وزرعه وذلك للحصول على لقمة العيش الحلال، ونصف يقضيه في خدمة والدته المريضة، ياالله!! لقد أثقلت عليه في مرضي هذا وهو لا يزال شاب غض لم يبلغ الحلم بعد، ولكن ما يساعده على هذه المهمة هو طول جسمه وجثالة لحمه وقوة عضلاته، إيه.. صانه الله بعينه من كل سوء، الحمد لله الذي أنزل الرحمة في قلبه عندما وصلت إلى هذا الوضع فكان بي رحيماً، والشكر لله الذي لم يجعله مثل ابن آل فلان الذي لم يحسن معاملة والديه،

إيه.. ولم تكن رحمته خاصة بي، وإنما كان يعطف على والده أيضاً ويحنو عليه، وهو الساعد الأيمن له، يشد أزره على كسب لقمة العيش الحلال حيث يقوم بهذا العمل المضني طوال يومه يتردد في منحاة البئر مع سوانيه، وأحياناً يقوم بتفجير الماء في النخيل أو الزرع، يتعاقب مع والده هذه الأعمال، فإذا حانت له فرصة انطلق إليَّ راكضاً وكأنه الحصان المنطلق، ثم وقف عليَّ ورأى حاجتي فقضاها ثم عاد من حيث أتى، ولم تكن حالة والده المادية تسمح له بأن يستأجر أجيراً يسنى له الإبل أو يفجر له الماء أو يحضر له علف الإبل من البر، وإنما يقومان بهذه المهمات معاً بالتناوب ولكن الله كريم ومعين، آه!! ليت أني أستطيع العمل كما كنت من قبل لأقوم بأحد هذه الأعمال عن إبني و«جَنْيني»، اه.. ليتني أملك من متاع الحياة الدنيا شيئاً من المقتَنيات الثمينة فأبيعه وأدفع ثمنه لمن يساعد إبني على أحد هذه الأعمال التي يقوم بها، إيه.. الشكوى إلى الله، إنني لا أملك من حطام الدنيا سوى هذه الأواني النحاسية القديمة التي نستعملها في حياتنا اليومية، وهي في ذات الوقت لا تساوي شيئاً يذكر، ولو بعتها فلن يبقى لنا ما نستعمله ونقضى فيه حاجاتنا، آه.. ليتي أملك بدل هذه الخواتم المعدنية خواتم من الذهب، أو ليتني أملك أساور من الذهب أو حتى الفضة لأبيعها وأدفع ثمنها أجرة لمن يقوم بمساعدة إبني على أعمال مزرعته، إيه... لا حول ولا قوة إلا بالله، إنني لا أملك من هذه المصوغات الثمينة التي يمكن الإستفادة منها شيئاً، وكلما أملكه بيدي هي خواتم من معدن لا تسمن ولا تغنى من جوع وإنما وضعتها بيدي لا للزينة، وإنما تجنباً للتشبه بالرجال حين تكون كفاي مثل أكف الرجال لا حلية فيها، ولكن الحمد لله على ما قدر وقسم لنا من متاع الحياة الدنيا، وإنما الأرزاق بيد الله إلا أنها تحتاج إلى سعي وجدٍّ واجتهاد لتحصيلها، وما أرجوه من الله عز وجل أن يمنحني الصحة والعافية بعد أن يرفع عني هذا المرض الذي أعاني منه، لأستطيع معاودة عملي ومساعدة زوجي وإبني على أود الحياة ومتاعبها، أو على الأقل أكفي إبني هذا العناء، فأقوم بشئوني بنفسي دون الحاجة إلى أختي التي تأتيني من أقصى البلد لتقضي حاجتي وتعمل لي

بعض متطلباتي، وأخفف عن ابني الذي شطنته وألهيته عن عمله، يا الله... إذا تحقق ما سمعت من أن أختي ستتزوج وتنتقل مع زوجها في تلك البلدة النائية، ومن الذي سيساعد إبني على خدمتي؟ إن أختي تقوم بخدمتي الخاصة جداً، والتي أستحي من أن يقوم بها إبني، فكيف إذا تزوجت وانتقلت عني؟ ولكن الله لا يضيع أحداً من خلقه، لا أريد أن أعترض على زواج أختي من أجل أن تبقى عندي، دعها تتزوج وتذهب مع زوج يسعدها ويؤمن لها لقمة العيش مع طفلها الصغير، فلقمة العيش الآن عزيزة المنال لا يستطيع الإنسان الحصول عليها إلا بشق الأنفس، وبأيدي الرجال ومساعدة النساء بطرق الفلاحة أو العمل عند الآخرين، وما دام الله قد يسر لها هذا الزوج وإن كان في بلد بعيد نسبياً إلا أنني أتمنى لها من كل قلبي دوام التوفيق، ومهما تحملت من فقدها من التعب والآلام فلن يضيرني ما دام ذلك يؤدي إلى سعادتها إيه .. وفقها الله.

أما إبني فأرجو من الله له العون والسلامة والتوفيق، آه... يا الله.. ما هذا الألم الذي أصاب مفاصلي وتورمت بحيث أصبح كل مفصل وقد انتفخ بشكل يلفت النظر، لماذا هذا الورم بالمفاصل فقط؟ لو كان بأحد الأعضاء لأمكن معرفة الموضع الذي يكوى منه، أو عرف الدواء الذي يشرب لشفائه لكن جميع مفاصل الجسم. الظهر والرجلين والقدمين واليدين كل مفاصلها قد تورمت، يا الله.. من أين يكوى مثل هذا المرض؟ لم يبق مفصل من مفاصلي إلا وداهمه الورم حتى رقبتي، يا الله، يا أكرم الأكرمين، يامن شفيت أيوب من مرضه تَمُنُّ علي بالشفاء والعافية هاه!! هذا صوت إبني قد أتى.

وقف مسلم عند أمه وقد سمع شيئاً من تمتمها فضحك ضحكته العميقة المدوية وهو يتساءل:

ـــ: ما الذي كنت تقولينه يا أماه؟

: آه.. لا شيء يا بني، إلا أنني أطلب الله لك العون والتوفيق.

ـــ: جزاك الله خيراً، ومنَّ عليك بالشفاء.

: كنت أتساءل يابني عن سر هذا المرض الذي أصابني!؟

ــ: المرض.. الله أعلم يا أماه.

: لقد حدثتني إحدى العجائز اليوم أنه من تأثير أكل اَلْبْرْوَقْ.

ــ: البروق!؟ وهل البروق يفعل هكذا!؟

: تقول تلك العجوز الطاعنة في السن أن مثل هذا الذي أصابني قد أصاب قريباً لها منذ حوالي عشرين سنة مضت عندما جاءت سنة مسغبة مثل هذه السنة وأكل الناس البروق، وقد حدث في تلك السنة عدة إصابات من هذا المرض.

ــ: هاه!! لا أدري، ولكن لماذا لم يصب بهذا المرض أحد غيرك؟

: الله أعلم يابني وربما أصيب فيه آخرون وكنت أولهم إذ ربما تكون عندي قابلية لذلك.

ــ: لا تصدقي ما يقال لك يا أماه.

: لكن تلك المرأة تتحدث بلهجة واثقة عن صدق ماروته.

ــ: لماذا لم تسأليها عن العلاج؟ يقول ذلك بنبرة حادة.

: العلاج!! تقول ذلك بنغمة المبهوت.

ــ: نعم، أتعرف المرض ولا تعرف علاجه!؟

: لم يكن ذلك لمعرفتها بالمرض إياه، ولكنها ساقت رواية الخبر عندما تساءلت مجموعة من النساء كن عندي عن كنه هذا المرض.

ــ: ألم تقل لك عن علاج يشفى هذا المرض؟ يقول ذلك بتلهف من يحرص على الوصول إلى نتيجة.

: لقد ذكرت لي شجر «اَلْحَرْمَلْ» تنقع غصونه وأوراقه بالماء ثم يصفى ماؤه ويشرب.

ــ: الحرمل!! ولكنه شديد المرارة لدرجة لا تطاق.

: الشكوى إلى الله... نصبر على مرارته طلباً للشفاء.

ــ: هل تريدين أن تجربيه؟

: إي والله يابني.

ــ: سأحضره لك عصر هذا اليوم.

: لا، لا يابني، لقد أخبرتني عن موعد قطافه.

ـــ: هاه!! موعد قطافه؟

: تقول إنه يجب أن يقطف من رؤوس أغصانه قبيل طلوع الشمس بقليل ثم يغمر بالماء قليلاً فيخرج ويجفف بالظل ثم ينقع بالماء الدافىء ويشرب قبيل طلوع الشمس.

ـــ: إنني مستعد لإحضاره لك في الوقت المحدد.

: سلمك الله، ولكن من أين؟

ـــ: أنسيت أنه يوجد في أسفل البلد، ولا يحتاج إلا إلى شوط من الركض وبنفس واحد، وسأحضره لك غداً.

: لا عدمت وجودك يابني.

ـــ: وأرجو أن يكون فيه الشفاء، ولكن ألم تقل لك أم فلان ما تأثيره على المرض؟

: بلى، لقد أخبرتني بأنه يخفف هذه الأورام ويلين عضلات المفاصل.

ـــ: هاه!! لا أدري.. إنه شديد المرارة. وقد يؤدي إلى هضم الورم، ولكنه قد لا يلين الأعصاب.

: نجربه يابني ونرى.

ـــ: أعانك الله على مرارته وجعل فيه الشفاء. يقول ذلك وهو يغادر المكان مردداً بينه وبين نفسه: سبحان الله بعض الناس إذا زار المريض بدأ يعلل ويحلل مرضه، وقد يوهمه عندما يجزم أن مرضه مثل مرض فلان، وأن سببه كذا وكذا، لاشك أن الأمراض تختلف من شخص إلى آخر، وربما تشابهت مواضعها وبعض أعراضها لكن المرض يختلف، والمفروض من هذه الزائرة ألا تقطع بنوع المرض، وتجزم أنه مثل مرض قريبها الذي أصابه قبل عقدين من الزمن، فقد يختلف عنه وقد يختلف مسببه، ويا ترى هل صدقت هذه العجوز أن سبب المرض هو البروق؟ وهل يسبب أكل هذه العشبة مثل هذه الأمراض؟ صحيح أنها عشبة ذات أوراق كأوراق البصل مدببة ريانة تقطر ماءً إذا عصرتها وليس لها طعم طيب ولا خبيث وإنما لها نكهة كريهة تخف أو تزول إذا طبخت، فإذا قطعت وطبخت ووضع معها الملح والفلفل أصبحت عصيدة

خضراء لزجة قد تسد رمق الجائع وتقيم صلبه ولكنها لا تغذيه إلا بمقدار ما فيها من الأملاح والبهارات وقد تضره إذا أصبحت رواية تلك العجوز ثابتة، ولكن لماذا لم تضر أحداً غير أمي؟ أترى هذه الحالة الأولى التي تبين حتى الآن؟ وإذا كانت هذه الوجبة التي رصتنا عليها الحاجة، وأجبرتنا عليها الفاقة حين أصبح لا يوجد في البيت أي شيء يؤكل وجبة ضارة، فماذا نفعل سيما وأن الزرع لا يزال ورقاً لم يتجاوز الشهرين من عمره وقد بقي عليه ثلاثة أشهر من عمره حتى تؤتى أوائله، والطعام شحيح بالبلد وبأغلى الأثمان، ولا يوجد معنا من النقود ما نجلب به وجبة الطعام، فليس أمامنا سوى أن نأكل مما تيسر لنا من أعشاب الأرض مع قليل من اللبن، نأكل بالنهار من جني العشب وفي الليل نأكل من هذه الوجبة التي يعيش عليها الكثير من الأسر الفقيرة في هذا البلد وغيره وإن حصل شيء من طعام فقد نفرد به الوجبات بعد أربعة أو خمسة أيام، أما بعد أن مرضت أمي، فقد خبأت بعض الطحين الذي أحضره أبي في مكان سرى لكي أعمل منه لأمي وجبتها حسب رغبتها، بالإضافة إلى تلك التميرات التي أحضرتها قبل أيام إحدى الزائرات لوالدتي، فقد لبَّدتها هي الأخرى لأناولها منها بين اليوم والآخر قليلاً منها لتحلِّي بها ريقها، وما علينا سوى أن نصبر حتى يفرجها الله.

يا الله.. ما أقوى بأس الإنسان!؟ إذا اضطرته الحاجة أو ضايقه المرض، يأكل أي علاج، يشرب أي دواء، يلتهم أي سفوف يرجو بسببه الشفاء، إذا كان هذا الدواء الذي وصف لها يكاد الإنسان أن يشرق ويختنق من شدة مرارته إذا شمه بأنفه، فكيف يستطيع أن يشربه؟ ولكن في سبيل الشفاء يدفع الإنسان ثمناً للعافية أي شيء يتجرع أشد الأمرار، يتحمل الكي بالنار مع أشد المواضع حساسية بحثاً عن الشفاء من هذا المرض، هذا على أساس التخمين من إنسان لآخر لا يعرف في التطبيب شيئاً اللهم إن مثل هذا الدواء قد نفع الله به فلاناً من الناس، فيمكن أن ينفع هذا الآخر، بحيث يصبح المريض حقلاً للتجارب بهذه الأدوية المستخلصة من الأعشاب والحشائش وقد يضره

بعضها أكثر مما ينفعه!! وماذا يعنى أنه يجب أن تقطع أغصان شجر الحرمل قبيل طلوع الشمس ويجفف في الظل؟ هل يتبخر منها اكسير الشفاء مع أشعة الشمس؟ أم هي من الترهات التي يدعيها أولئك المتطببون ليوهموا المريض بأن فائدتها تكمن بمثل هذه الترتيبات؟ أم تراهم على صواب؟ الله أعلم، المهم أنني سألبي لأمي رغبتها وأحضر لها الدواء الذي أرجو أن يكون فيه الشفاء.

* * *

ما كاد مسلم ينتهى من عمله ويعود إلى المنزل حتى وجداً خبراً مفاده أن أباه قد سافر من البلد للبحث لهم عن طعام، فكان لهذا الخبر وقعه السيء في نفسه، صحيح إن لقمة العيش ثمينة وعزيزة المنال لكن أعباء عمل الفلاحة ستصبح عليه بالكامل من سياق السواني وتفجير الماء، وهذا لا يتيح له فرصة الإطلالة على والدته، سيما وأن خالته قد تزوجت وانتقلت مع زوجها إلى قرية أخرى تفصل بينهما مسافة يوم كامل، ولهذا فقد ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ثم وجد الحل في زوجة عمه «منيرة» وهي التي تحب عمل الخير وتقديم المساعدة للآخرين، وقد عرضت خدماتها على زوجة أخي زوجها عدة مرات، لكن لوجود أخت المريضة غير بعيدة عنها لم يسغ لها أن تزاحمها على خدمة أختها، أما وقد خلت الساحة لها الآن فكانت فرصة جيدة لإسداء خدماتها وتقديم مساعدتها، وبأقل إشارة من مسلم جاءت إلى أمه وأولتها عنايتها ورعايتها طيلة غياب إبنها عنها في عمله اليومي بالمزرعة، وما إن دخلت عليها حتى بادرتها المريضة «هَيَاء» بقولها:

ـــ: أهلاً وسهلاً «يامنيرة» تقول ذلك بصوت متهدج من شدة الفرح.

: الحمد لله على سلامتك، أرجو أن تكوني بخير.

ـــ: بخير ولله الحمد.

: مالي أراك وكأنك متضائقة!! هل تشعرين بأي ألم!؟

: لم يكن ألماً جسمانياً بقدر ما هو ألم نفسي.

ــ: لم أفهم!؟

: لقد سافر «سالم» وترك عمل الفلاحة على عاتق هذا الشاب الذي لا يدري كيف يصنع.

ــ: ألا يوجد من يساعده؟

: كل الناس لاهين بأعمالهم كما تعلمين.

ــ: صحيح، ولكن إذا كان الأمر يتعلق بخدمتك فإنني مستعدة للقيام بما تريدين.

: لا عدمنا وجودك يا أم عبدالرحمن ولكن...

ــ: لا تقولي هكذا، سأكون لك بمثابة أختك الصغرى فلا تحملي همًّا.

: كثر الله خيرك. تقول ذلك بصوت متهدج، ثم تستأنف ولكن إبني الذي أجهده العمل وأنهكه.

ــ: أوه... كل الرجال يقومون بمثل ما يقوم به، لا تنقلي هماً يا أختاه.

: إيه.. سامحك الله يا سالم.

ــ: لقد ذهب ابن الأجواد للبحث لكم عن لقمة العيش فربما لم يجد في البلد من يبيع عليه طعاماً.

: هناك من يبيعه الطعام ولكنه لا نقود معه.

ــ: هذه المشكلة يا أختاه!! فربما ذهب الرجل للبحث عمن يديِّنه طعاماً أو قيمة الطعام حتى يحين موسم حصاد الزرع ودرسه.

: أوه.. أتعنين «الصَّايَرةْ» ومن ذا الذي يدين الآن؟

ــ: كثير من الناس، ولكنهم وللأسف يرفعون الأسعار إلى ما يقارب الضعف.

: لا يهم، فكلها معيشة للمحافظة على الحياة.

: ماذا تعنين!؟ تقول ذلك باستغراب.

ــ: أوه، ألا ترين الفلاح يأكل زرعه وهو أخضر، ويأكل تمر نخله وهو لا يزال بسراً.

: حتى الآن لم أفهم ماذا تعنين!؟

ــ: ألا تعلمين أن الفلاح يأخذ بالدين طيلة فترة الزرع ولا ينتهي من الزرع ويصفيه إلا ويدفعه وفاء لما أكله بالدين، ولا يجدُّ تمر نخله إلا ويدفعه كذلك للوفاء بما عليه من دين.

: آه.. لقد فهمت الآن!! ولكن الفلاحين أحسن حالاً من غيرهم يجدون من يدينهم.

ـــ: ماذا تعنين؟

: أعنى العمال الذين لا مزارع لهم، وكذلك الحرفيين وأصحاب المهن.

ـــ: هؤلاء يعيشون في ظل الفلاحين ولكنهم أريح منهم بالاً.

: لا فرق، لا فرق، المهم ماذا تحبين أن أعمل لك من الطعام؟

ـــ: هاه!! لا أدري، تقول ذلك بارتباك لا أدري ماذا يوجد من الطعام؟

: لا يهم ما يوجد لديكم، فلدي ما سأعمل لك منه ما تشهين.

ـــ: أنت ماينة وتعرفين ما أريد.

: أستأذنك، وهذا صوت ابنك قد دخل الباب.

ـــ: أهلاً به وسهلاً، عافاك الله يابني.

: وشفاك يا أماه، كيف حالك هذا الصباح؟

ـــ: بخير ولله الحمد، ولقد جاءتني أم عبدالرحمن وآنستني وأدخلت إلى نفسي الطمأنينة بعنايتها الفائقة بي.

: جزاها الله خيراً يا أماه، إذا أستأذنك، سأعود إلى عملي ثم أرجع إليك ظهراً.

وعاد مسرعاً إلى عمله وهو يردد هذه الجملة، جزاء الله خيراً يا أم عبدالرحمن، إيه.. الصديق عند الضيق، لقد أحسنت صنعاً، الله كريم، لا تضيق الدنيا على الإنسان من جانب إلا ويفرجها الله من جانب آخر، لقد سافرت خالتي مع زوجها وسافر أبي بالأمس للبحث عن لقمة العيش، فبقيت وحدي في الميدان بين المزرعة وأعمالها المتعددة، والعناية بوالدتي وفزع الله لي حين أسرعت امرأة عمي وابنة عمتي بالقيام بخدمة والدتي، إيه.. هذا المعدن الطيب يخرج منه عنصر طيب، والناس معادن كمعادن الذهب والفضة والنحاس، فالذهب يبقى ذهباً حتى لو تعرض لأي مؤثرات أخرى، بل يزيده الصقل لمعاناً ويزيده الصهر نقاوة وصفاء، وهكذا الإنسان الطيب لن تزيده الشدة إلا تماسكاً وظهوراً على حقيقته، وهذه الإنسانة تمدُّ يدها البيضاء إلى محتاج إلى خدمتها، في وقت شقيت عنها بأعمال المزرعة، هذا العمل

الذي تتوقف على محصوله حياتنا في هذا الوجود، فلو تركت الزرع وعطش لمات وبموته نكون قد خسرنا عملنا لعدة أشهر مضت، وسيترتب على ذلك تراكم الديون التي أخذناها من الآخرين، وصاحب الحق يريد حقه، فماذا نعطيهم وفاء لدينهم في نهاية الموسم؟ إنهم لن يقتنعوا إلا بحقهم كاملاً وما سوف نبقيه لأنفسنا من لقمة العيش ليقوم بأودنا حتى موسم الزرع من العام القادم وأكبر من هذا موضع الثقة بنا والمحافظة على سمعتنا، فإذا اهتزت ثقة الناس بنا، كيف يمكن أن نطلب من الآخرين أن يعطونا بالدين مادمنا لم نوفهم حقهم!؟، وما موقفنا أمام الناس من الفلاحين إذا علموا أننا تراخينا عن سقي زرعنا حتى ضعف محصوله أو هلك؟ لا شك أننا سنبقى أضحوكة للآخرين ومجالاً للهمز واللمز عند الكثير من الناس، وخاصة أولئك الذين لا يعذرون أحداً، وقد لايقدرون المواقف الإنسانية التي يقضها الإنسان من أحد والديه أو من قريب له، فإن بعض الناس يتعامون عن مثل ذلك وينظّرون على النقطة التي يعتبرونها مثلباً، إيه.. الحمد لله على ما قدر، حين جعلنا من فئة الفقراء الذين يلهثون وراء لقمة العيش من غلة مزارعهم وثمار نخيلهم، ينزفون من العرق، ويتحملون من التعب ما يعادل قيمة لذة ما يحصلون عليه، لكنها لقمة العيش الغالية التي تترتب عليها حياة الإنسان فوق هذه الأرض، لا تصل اللقمة إلى فم الإنسان إلا وقد نزف من العرق ما يوازي ثقلها لو وضعت في الميزان، هذا والدي قد ذهب على قدميه إلى القرية المجاورة لمسافة يوم كامل للبحث عمن يبتاع منه صويعات من الحب، وربما لم يجد في تلك القرية من يقبل نقوده ويبيعه بها طعاماً، وربما دنف إلى قرية أخرى، وقد يصل إلى ثالثة أو رابعة يطوى الأرض على قدميه للبحث عن هذه اللقمة العزيزة المنال، فكيف يتسنى لي أن أتقاعس أو أهمل زرع مكوَّن من القمح والشعير وتتكون غلته من مئات الأصواع إن شاء الله، كيف أتراخى عنه في مثل هذا الوقت؟ ومع أنني مشغول بخدمة والدتي وتمريضها إلا أن ذلك لن يقف حائلاً دون القيام بواجبي نحو عملي وسهري على ما يمثل قوام حياتنا حاضراً ومستقبلاً؟ فمن هذا الزرع نأكل الآن، حيث أخذ والدي تلك الدريهمات التي وضعها في

جيبه دينا على هذا الزرع، وسوف يستمر في الأخذ من عميلنا حتى يتم حصاد الزرع فنوفيه حقه وندخر الباقي لنقتات منه بقية العام وحتى الشتاء القادم للحي منا، ولكن الله قد فرجها عليَّ بفزعة هذه الإنسانة الحنونة، وابنة الحلال الحقة حين مدت يد المساعدة إلى أمي، فجزاها الله خير الجزاء في الدنيا والآخرة، يا الله كم أتمنى من كل قلبي أن يمن الله على والدتي بالشفاء العاجل آه، ما أسعدني عندما أرى والدتي تستعيد حيويتها وعافيتها وتقوم على قدميها لا تحتاج إلى من يساعدها، آه!! ليتني أعرف أي دواء يخفف الآلام عن أمي ويؤدي إلى شفائها.

* * *

انتبه مسلم من نومه ذات ليلة على تأوهات أمه لما تقاسيه من آلام مبرحة.

ــ: ما بك يا أماه!؟ فداك نفسي !!

: آه، آه، أنا آسفة يابني أن أزعجتك وأيقظتك من نومك.

ــ: لا ضير عليك يا أماه، فداك روحي.

: لقد اشتدت علي الآلام فارتفع صوتي رغماً عني.

ــ: خفف الله عنك، ترى ما هو الشيء الذي يخفف آلامك؟؟

: لا أدري يابني، فلقد جربت كل هذه الأدوية، ولم أجد من بينها ما يخفف الأوجاع التي أشعر بها في مفاصلي وطغت أمرارها في فمي ولم أستطع شرب أي منها.

ــ: أتريدين أن أحضر لك من يقرأ عليك آي من القرآن الكريم فلعل ذلك أن يخفف آلامك.

: هاه!! يقرأ عليَّ!؟

ــ: نعم، فكما تعلمين في المرة السابقة عندما دعوت لك إمام المسجد وقرأ عليك شيئاً من القرآن بردت عليك آلامك.

: صحيح، ولكن هذا الوقت غير مناسب يا بني، أن تيقظ الناس من رقدتهم وتزعجهم في هذا الوقت من الليل.

ــــ : لا يهم يا أماه!! ما دام سيخفف عليك آلامك ومن سأوقظه فلن يحرمه الله من الأجر والثواب.

: كم تريد يابني، ولكن أليس من الأفضل أن أشرب من ذلك الدواء الذي قرأ فيه الرجل في الأسبوع الماضي؟

ــــ : لا، دعي هذا وسوف أذهب إليه، ألا تعلمين يا أماه أن الرجل من المحتسبين ويفرح بمن يأتيه في أي وقت من الأوقات؟

: لكن الوقت الآن بعد منتصف الليل.

ــــ : وإن يكن، فقد أجده الآن ساهراً لأداء صلاة التهجد التي قيل لي أنه يصلى طيلة الثلث الأخير من الليل وها نحن الآن قريب من ذلك الوقت.

: كما تريد يابني.

ــــ : سأذهب إليه فوراً.

ولم يلبث إلا قليلاً حتى حضر ومعه الإمام الذي طرح السلام على المريضة واطمأن على صحتها ثم بدأ يقرأ آيات من القرآن الكريم أحست ساعتها أنها ارتاحت نفسياً، ثم خرج من المنزل متمنياً لها الشفاء، وعاد ابنها إليها ليطمئن على راحتها، وعلى ضوء السراج الخافت رآها تتضور تحت موجة من الآلام المبرحة وهي تحاول كتم آلامها حتى لا تزعج ابنها فقال لها:

ــــ : ألم يبرد عليك الألم يا أماه؟

: بلى، بلى، يابني. تقول ذلك بتمنع شديد وذلك بالشد على أعصابها.

ــــ : ولكني أرى وجهك تعصف به الآلام!؟

: لقد بردت آلامي وارتحت بعض الشيء عندما كان الشيخ «عبدالمحسن» يقرأ القرآن عليَّ وعندما خرج عادت إليَّ الآلام من جديد.

ــــ : أتريدين أن أدعو لك الشيخ فلان؟

: لا يابني، لا داعي لإزعاج الناس فهذه الآلام ليست من الأمراض التي ينفع بها مثل هؤلاء القراء.

ــــ : ماذا تريدين أن أفعل؟

: لا شيء، سأصبر عليها حتى يأتي الله بالفرج من عنده.

ـــ: الله فراج كريم.

: عليك أن ترتاح يابني.

ـــ: أرتاح وأنت تتألمين بجانبي!؟ والله إنني لأشعر أن قلبي يتمزق مما تعانين.

: الشكوى إلى الله يابني، أرجو أن يرفع هذا الألم من يستطيع رفعه وهو رب العزة والجلال.

ـــ: يارب.. خفف عن هذه المريضة ما تعانيه، سأقوم وأتوضأ وأصلي لله عدداً من الركعات فأدعوه أن يخفف عنك هذه الآلام.

: إيه.. الله سميع مجيب.

وقام الابن بالصلاة والدعاء حتى أذان الفجر الأول، وقرب وقت ذهابه لأداء عمله اليومي، فهيأ لها ما قد تحتاجه من الماء وقرب لها الأدوية التي تتناول منها، ثم ذهب من عندها تحت جنح الظلام للبدء بعمله اليومي وهو سياق السواني قبل أذان الفجر الثاني، خرج من عندها بجسمه، وقلبه يدور حواليها يعتصر ألماً وحزناً، يتمنى أن يجد الوسيلة التي تخفف عنها آلامها، وتعيد إليها راحتها ولكن أنى له ذلك، حيث لا يوجد من طرق الاستشفاء سوى تناول هذه الأدوية المنقوعة بالماء أو المحفوظة على هيئة مساحيق ناعمة يسفُّها المريض ويتبعها جرعة من الماء، أو يستعطها من أنفه على هيئة سوائل، وما عدا ذلك فلا شيء يوجد لتخفيف الآلام عن المتألم والمريض.

* * *

ـــ: إرفق بنفسك يابني، لقد أصبحت ثقيلة عليك. هكذا فاتحت ولدها قبل أن يحملها بين يديه إلى دورة المياه.

: لا عليك يا أماه، لا عليك.

ـــ: آه!! لقد آذيتك يابني، وأثقلت كاهلك.

: آذيتني!!؟ سامحك الله يا أماه، أرجو ألا أسمع منك هذا الكلام مرة أخرى، إنني شاب نشيط ومستعد لحملك إلى أي مكان وكأنك وزن الريشة.

ـــ: زادك الله قوة يابني ولكن...

: لا تقولي هذا.

ـ: آه!! إنني أحتاج إلى العناية والنظافة في أماكن لم تعد يدي تصل إليها بعد أن تصلبتا وتعقدت أعصابها فلا أستطيع تنظيفها أو الوصول إليها.

: إنني مستعد يا أماه لتنظيف أي موضع في جسمك.

ـ: سلمت يداك.. وحتى رجليّ تعقدت الآن وتصلبت وبقيت مثنيَّة لا أستطيع مدها أو كفها.

: أنت بعيني يا أماه، فلا تحملي هماً للوضع الذي أصبحت فيه.

ـ: لكن الأمر سيطول عليك، سيأخذ من وقتك وجهدك الشيء الكثير.

: وهل يوجد لي أم غيرك!؟ ليس لدي أعز منك، ولن أقدم شيئاً على السهر على خدمتك.

ـ: هذا أملي فيك!! ولكن متطلبات الحياة يحتم عليك أن تعمل لتعيش، بل لنعيش معاً.

: لا شك، لكن التزامي نحوك يتقدم على أي عمل آخر.

ـ: سلم لي هذا الجبين.

: سأنطلق الآن إلى عملي ثم أعود إليك.

ـ: أين ذهب أبوك اليوم؟

: لقد سافر إلى البادية يستأجر لنا بعيراً نسقى عليه نخيلنا، فلقد أعطانا صاحب البعير الحالي مهلة ثلاثة أيام.

ـ: وهل انتهت فترة إجاره؟

: نعم، قبل حوالي عشرة أيام، لكنه أمهلنا هذه الفترة حتى يحصل والدي على بعير بديل.

ـ: كثر الله خيره، إذاً إحملني بعد أن قضيت حاجتي وأعدني إلى فراشي.

: سمعاً وطاعة يا أماه.

ـ: إيه، الحمد لله، أعانك الله يابني. هكذا كانت تردد بعد أن وضعها إبنها في فراشها وقرب لها الماء وانصرف إلى عمله.

ثم استأنفت تحدث نفسها، الحمد لله على السراء والضراء لقد أصبحت مقعدة تماماً لا أستطيع التحرك من مكاني، لقد تعقدت أعصاب يديَّ ورجليَّ بحيث لا أستطع مدَّ أي واحدة من رجلي، بل لا أستطيع أن أرفع أي شيء إلى فمي، والحمد لله على ما قدر عليَّ، وقد أصبح إبني ينقلني من مكان إلى آخر كما ينقل القطعة من المتاع، يضع لي الطعام، يضعه في فمي كما تفعل الأم لطفلها الصغير، يسقيني الماء كما كنت أسقيه عندما كان طفلاً في حجري، يفرش فراشي ويضجعني عليه، يضفي علي دثاري، يسهر الليل بجانبي إذا لم أنم، يتململ بحذائي ويتألم إذا أحس بأنني أعاني من بعض الآلام، ينام غير بعيد عني، يصحو لأقل حركة تنتج عني، يتيقظ لأقل نبرة تصدر مني، يتحمل البرد ليدفئني بدثاره، يلتحف الغبراء ليضع فراشه تحت جنبي، يفرح ويبتسم إذا رآني مرتاحة، يضحك من أعماقه لأي كلمة تصدر مني وذلك ليدخل السرور إلى نفسي، يا الله !! ما أبره من إبن !!؟ وما ألطفه من ولد!؟ حفظه الله وأبقاه لي.

* * *

ــ : ماذا ترين يا أماه!؟ هكذا بدأ مسلم حديثه مع أمه بعد تردد طويل.

: بماذا؟

ــ : كما تعلمين لا يوجد لدينا من قوت الحياة ما يسد الرمق، وقد ضاقت علينا الدنيا بعد أن أكل الجراد غلة الزرع هذا العام والتهم طلع النخل، ولم يعد هناك من نستطيع الإستدانة منه على أمل الوفاء من تمر النخل، وقد بقى علينا الدين لعميلنا من العام الماضي.

: كل ما ذكرته صحيح، ولكن ماالعمل يابني؟

ــ : إنني في حيرة من أمري بين الذهاب إلى المدينة لطرق باب الرزق والاشتغال عند الآخرين، وبين البقاء بجانبك أرعاك وأشرف على راحتك، وكلا الأمرين يحتم عليَّ الوفاء به ولا أدري أيهما أقوم به.

: لا تتردد يابني، إنك إذا بقيت عندي سنعاني من لسعات الجوع معاً، أما إذا

ذهبت لطلب الرزق فإننا سنعيش عيشة كريمة من كسب يدك المعطاء.

ـــ: والاشراف عليك!؟

: لن يضيعني الله، فلدى أم عبدالرحمن سوف تشرف علي ولن تقصر نحوي بشيء.

ـــ: سلمها الله من كل سوء، ولكن أخشى أن يثقل عليها الأمر.

: لا تخف يابني، فهي امرأة تحتسب لله في أي عمل تقوم به، ولكن على أي شيء ستذهب إلى المدينة.

ـــ: هاه!! على قدميَّ.

: على قدميك، مسيرة يومين بلياليها!؟

ـــ: لن تبعد عليَّ مسافة أستطيع بعدها أن أحصل على لقمة العيش الحلال.

: شد الله أزرك يابني، وهل سبق أن دخلت المدينة؟

ـــ: كما تعلمين لأول مرة أغترب فيها عن بلدي.

: أخشى أن تضيع في المدينة.

ـــ: أضيع!! وهل ضاع أحد قبلي؟

: لا أدري، لكن المدينة كما يتحدثون عنها كبيرة الرقعة كثيفة السكان كثيرة الشوارع يكاد المرء الذي يأتيها لأول مرة أن يضيع فيها.

ـــ: لا تخافي يا أماه، لا تخافي. أستودعك الله وسأمر على أم عبدالرحمن وأوصيها عليك، يقول ذلك وهو ينحنى عليها ويقبل عينيها وجبينها ويودعها.

: رعاك الله يابني ووقاك من كل سوء إن منيرة لا تحتاج من يوصيها. تقول ذلك والدموع تنهمر من عينيها بغزارة. بينما أخذ مسلم طريقه إلى أم عبدالرحمن وأوصاها بأمه خيراً، ثم اتجه صوب المدينة على قدميه متسلحاً بعصى في يده، وقد تحزم بحزام يشد صلبه ليذهب عنه لسعات الجوع التي تلوى جوفه، واستمر في مسيره يقتات من وريقات بعض الأعشاب، ويربوع اصطاده في طريقه تلك الليلة، وهكذا واصل ليله في نهاره حتى أطل على المدينة، فبهرته مبانيها الشاهقة، وعندما وصلها أدهشته كثرة الحركة في أسواقها، عند ذلك تذكر كلام أمه، لكنه تمالك نفسه وسار بخطى وئيدة يتعرف على أجزاء

السوق، يتفرس في وجوه الناس بنظرات المبهور مما يرى، يركز بنظراته البلهاء على الناس والأشياء، وكأنه يبحث عن شيء قد ضاع له، وقد ذهل نفسه ونسي حالة الجوع التي يعاني منها، وقد أخذته حالة الإنبهار هذه وقال في نفسه: يا الله!! كيف أبدأ مع هؤلاء الناس؟

الكل يسعى حثيثاً، الكل ينهب الأرض نهباً!! ترى أين يذهبون؟ هذه الوجوه الجديدة التي أراها في كل لحظة من أين تأتي وأين تذهب؟ وماذا يعمل هؤلاء الناس في حركتهم الدائبة؟ إذا كان هذا عملهم بهذه السرعة فكيف يتسنّى لي أن أعمل معهم؟ إذا كنت قد أتيت إلى هذه المدينة للحصول على لقمة العيش، فكيف أستطيع الحصول على ما أريد وسط هذه الجموع الكثيفة ذات الوجوه الجادة والنظرات المتحفزة؟ وهل تتاح لي فرصة بمعرفتي البسيطة، أن أنتزع لقمة العيش من بين تلك الأيدي المتقبضة؟ هاه!! ولكن الله جواد كريم، سأجد من بين هذا الحشد من الناس من يحتاج إلى عمل أستطيع القيام به حسب معرفتي فهؤلاء الناس يحتاج بعضهم إلى ما أتقن من مهارات لكني أري نشاط السوق يرتكز على البيع والشراء وتحميل البضائع ونقلها على الدواب، وهذا ما أفتقر إليه، فلعلني أخرج من معمعة هذه الحركة، وأتجه إلى أطراف المدينة قرب المزارع علني أجد من الفلاحين ممن يحتاج إلى ما أتقن من خدمة، هاه!! ولعلي أجد عند تلك المباني الجديدة التي مررت بها من يحتاج إلى عمل مما أستطيع القيام به، دعني أرتاح قليلاً بجانب هذه السارية قبل أن أستأنف طريقي نحو ما سعيت إليه، وقبل أن يأخذ مجلسه على السارية شعر بيد رجل تمسك به على الكتف والتفت إليه فوجده واحداً من أقاربه الذين سبقوه إلى المدينة للاشتغال بها في فصل الصيف، وسلم عليه ثم أخذه معه إلى البيت الذي يسكنه مع مجموعة من رفاقه العمال.

* * *

وفي الصباح شق مسلم طريقه في عمل مع أحد رفاقه لأداء عمل عنيف

يتطلب ذوي العضلات القوية ويحصل في أدائه على أجر يساوى نصف ريال في اليوم مع الأكل والشرب، وهذا يعتبر أجراً مجزياً، وبعد مرور عشرة أيام على اشتغاله بهذا العمل، غلبت عليه عاطفته وتاقت نفسه للاطلال على أمه والاطمئنان على صحتها وراحتها، فاشترى بتلك الدريهمات صاعين من «التِّمَّنْ» الأرز العراقي مع بعض اللوازم الضرورية لأمه ووضعها في كيس صغير على كاهله واستأذن من رب العمل لمدة يومين ثم امتطى قدميه وسرى ليلته تلك بطولها وعند ظهر اليوم التالي وصل إلى والدته بعد مسيرة ثمان عشـرة ساعة متواصلة، وقد أهل باطلالته البشر على والدته وأحضر لها ما تتوق إليه نفسها وقدم لها مما أحضر تلك الوجبة الشهية التي كانت تتمناها، وكان والده غائباً وقتها وفي جلسة هادئة قالت له:

ــ: الحمد لله على رجوعك بالسلامة يابني، هاه!! كيف وجدت المدينة؟

: أوه، مباني شاهقة، وحركة دائبة، ونشاط مستمر لا ينقطع، ووجوه كثيرة لا تكاد تعرف منها أحداً.

ــ: أما ضعت وسط الزحام؟

: أضيع!! سامحك الله يا أماه.

ــ: لقد خفت عليك، وأنت تعرف يابني قلب الأم نحو ابنها.

: كما تعلمين أنني رجل ولله الحمد، أكاد أقترب من بلوغ الحلم، ومن المستبعد أن يضيع أحد في سني.

ــ: صحيح، لكن الإنسان إذا دخل المدينة لأول مرة قد يغتر ببعض الناس، وقد ينخدع بالبعض الآخر سيما وأنت في غضارة شبابك.

: لا تخافي يا أماه فالرجل يعرف كيف يتصرف.

ــ: أخبرني كيف حصلت على العمل؟

: الواقع أنني في بداية الأمر عندما رأيت كثرة الناس وحركتهم وحيويتهم قد داخل نفسي بعض الشك في عدم الحصول على أي عمل، ولكن الله جواد كريم، فقد التقيت بفلان في الشارع، وآواني عنده ذلك اليوم مع مجموعة من

الرفاق واصطحبني أحدهم إلى العمل الذي يقوم به حيث بدأت العمل منذ اليوم الثاني لوصولي.

ــ: وفقك الله يابني، ربما كان ذلك بسبب دعواتي فلعل ربي قد استجاب دعواتي لك منذ أن غادرت هذا المكان.

: لا حرمنا الله من دعواتك الطيبة.

ــ: أرجو ألا يكون العمل الذي قمت به قد أتعبك؟

: أبداً يا أماه، صحيح أن العمل شاق ومرهق ولا يستطيع الكثير من الناس القيام به، لكن بفضل الله ثم بقوة هذه العضلات قد استطعت إثبات جدارتي والقيام به على ما يريد صاحب العمل.

ــ: رعاك الله يابني.

: وقد أعجب عملي صاحب الشأن ومن شدة تعلقه بي لم يسمح لي إلا بيومين فقط للعودة إليه لمدة شهر آخر.

ــ: منحك الله القوة والعافية وأرجو أن تكون محل ثقة من تعمل عنده.

: سأثبت جدارتي إن شاء الله في كل عمل.

ــ: أليس من الأفضل الاستمرار في عملك لمدة أطول؟

: بلى، ولكن قلبي يأبى أن يطاوعني لأبقى مدة أطول، لقد كانت نفسي تنازعني عندما أفرغ من عملي وأفكر فيك وأتصور ما ستكونين عليه، وما تحتاجين إليه من العناية والرعاية، فلا أكاد أضطجع في فراشي حتى تأتيني هذه الهواجس، وأبقى متململاً حيناً ثم أقوم وأقعد حيناً آخر، تتنازعني الهواجس، وتعصف بي لواعج الأسى، حتى أن بعض رفاقي في المسكن قد فطنوا إلى هذه الحركات، أبقى الصدر الأول من الليل أصارع أفكاري حتى يغلبني النوم بعد الإجهاد والعمل اليومي.

ــ: رعاك الله يابني، ووقاك من كل سوء. تقول هذه الكلمات وقد أجهشت بالبكاء وغصت ببقية الكلمات.

: لا عليك يا أماه، لا عليك. يقول ذلك وهو يربت على كتفها وينحني مقبلاً جبينها.

ـــ: وبعد أن هدأت العاصفة استأنفت: لا تخف عليَّ يابني، فاالله قد هيأ لي هذه الإنسانة اللطيفة الرقيقة القلب التي تقوم بخدمتي وكأنني طفلها الصغير الذي تمدد في أحشائها هذه الإنسانة توليني من الاهتمام والعناية مالا تولي أم رؤوم لطفلها الوحيد.

: جزاها الله خير جزاء.

ـــ: إنني أدعو لها يابني مع والديَّ بعد كل صلاة بأن يجزيها الله خير جزاء، وأن يوفقها لما فيه خير الدارين وأن يبذر لها الذرية الصالحة.

: إنها كفؤ، وتستأهل كل خير.

ـــ: إذاً لا ينشغل بالك نحوي مادامت هذه الإنسانة بجانبي واذهب إلى عملك، ويمكنك أن تنام وأنت مطمئن أن والدتك بأيد أمينة حفية.

: سأعود غداً إلى عملي، حتى أحصل على مبلغ من المال أستطيع به تأمين احتياجاتنا من الطعام. يقول ذلك وهو مكب عليها يودعها.

ـــ: وفقك الله يابني. وتغرورق عيناها بالدموع وتكتم صوتها حتى لا تؤثر عليه.

* * *

وعاد الفتى إلى المدينة ممتطياً قدميه بصحبة أحد الرفاق حيث واصل عمله لفترة من الوقت عاد بعدها بكمية من الطعام وملابس لوالديه وشيء من الحلوى التي نزلت أسواق المدينة جديدة لأول مرة حيث أخذ منها كمية معينة وآلى على نفسه إلاّ يذوقها قبل أن تذوقها والدته، حتى إذا وصل إلى أمه فتح علبة الحلوى بين يديها وأخذ يناولها القطعة بعد الأخرى فتذوقت منها قطعة وناولته قطعة منها قائلة:

ـــ: تفضل يابني فداك نفسي، إنني أعلم أنك لم تذق هذه الحلوى قبلي.

: فتبسم وقال: وما يدريك، جعلت فداك.

ـــ: أعلم يابني أنك لم تذوق لحم العصفور إذا اصطدته ووقع بيدك حتى تشويه وتناولني إياه كاملاً لآكله أو أعطيك بعضه.

: وهل فطنت لمثل هذه الأمور يا أماه!؟

ـ: ولم لا؟ وأنا أذكر أنك تأتيني بأوائل الرطب تلتقطه من عذق النخلة وتحضره إليَّ بجيبك دون أن تذوقه وأنت بأمس الحاجة إليه وأشد شهوة لأكله.

: هذا أمر بسيط يا أماه.

ـ: أنسيت تلك الليلة التي جلست عندي وأنا نائمة ولم ترد إيقاظي لتعطيني قطعة لحم كانت نصيبك من بين رفاقك حين اشتريتم تلك الذبيحة وطبختموها، وأكلوا لحمها ولم تشاركهم في الأكل بل طلبت نصيبك منها كاملاً وأخذته بيدك وأحضرته إليَّ دون أن تذوقه وأنت بأشد حالات الجوع وجلست عند رأسي حتي استيقظت وأكلت نصيبي منه؟

: أوه، ألم تنسى ذلك!؟

ـ: ولم أنس يابني تلك الليلة التي أحضرت لي فيها لبناً في أول موسم اللبن، وجلست تهز به عند رأسي تنتظرني حتى استيقظت، وكان اللبن في ذلك الوقت من السنة نادراً ولم تذقه حتى صحوت فوجدتك جالساً وبيدك طاسة اللبن!؟

: أوه، وتذكرين هذا يا أماه!!

ـ: وأذكر أنك قد أتيت بذلك اللبن من مسيرة يوم من رفيق لك بالبادية كل ذلك من أجلي.

: هذه أمور تدخل ضمن الواجبات التي تستحقين أكثر منها.

ـ: روحي فداك يابني.

: سلمت روحك، وأعاد الله إليك عافيتك.

ـ: تفضل يابني خذ هذه، وربما عاد والدك من السفر هذا اليوم فليتك تبقى له شيئاً منها.

: لقد ادخرت لوالدي نصيبه، وإن كان لا يفضلها، إنما من باب المساواة بينكما، ولقد أحضرت له ما تشتهى نفسه.

ـ: ماذا تعني؟

: لقد أحضرت له كمية من القهوة وبهار الهيل وهذا ما تتوق إليه نفسه.

ـ: أجل كل منا قد أحضرت له ما يشتهي!؟

: نعم، أنت هذه الحلوى وكمية من السكر والشاى، أما هو فالقهوة، والهيل والقرنفل بالإضافة إلى كمية من الطعام والملابس.

ــ: أطال الله عمرك يابني، ووهبك الصحة والعافية وسلمك من كل مكروه، أهذه الثياب لي!؟ تقول ذلك وهي تشهق بصوت مرتفع.

: نعم، وتستأهلين أحسن منها.

ــ: لكنها يابينيَّ ثياب فتاة شابة ترفل بها وترقص وتمرح.

: وأنت!؟ ألست شابة مثل بقية النساء؟

ــ: آه جعل الله الدنيا شابة في وجهك يابني ووقاك من كل سوء ثم أجهشت بالبكاء تختلط دموع الفرح بلواعج الأسى ثم أسهمت مطرقة تتأمل هذه الأقمشة التي أحضرها وسرحت من تفكير عميق عندها قام ابنها يرد على طارق خلف الباب، ودار في ذهنها عدد من الصور وهي تردد في نفسها، سلمك الله يابنيَّ ونعم الابن، لقد عوضني الله فيك عن كثرة الولد، فأنت ابني الوحيد، ولست كبقية الأبناء، إنك تساوي العديد منهم، لقد رحمني الله عندما صرت إلى هذه الحال بك حين أصبحت مقعدة لا أستطيع حتى قضاء حاجتي، ولا رفع الطعام إلى فمي أو إيصال الماء إلى شفتي، عوضني الله بك، جعلك الله لي يداً تناولني طعامي وتسقيني، تمهد فراشي وتدثرني، تحضرلي ما أريد من مسافات بعيدة، تذهب على قدميك إلى المدينة، وتبذل من الجهد والعرق لتحصل لنا على لقمة العيش، ثم تسرع به عائداً على قدميك لتقدمه لي ولوالدك، لقد وهبك الله هذا الإيثار على النفس تحتفظ بالشيء الطريف لا يتجاوز شفتيك، ولا يذوقه لسانك حتى أتطعم به قبلك، تحرص على راحتي أشد الحرص، تسهر الليل بطوله لأنام، لا تريد إيقاظي من سبات النوم حتى لا تزعجني وأنت تحمل بين يديك شيئاً تتهالك نفسك عليه وتمنعها، وتلجمها بالصبر حتى استيقظ من نومي وأذوق ما بيدك، تقطع مسافة بعيدة إلى أحد رفاقك عندما علمت أن لديه بوادر اللبن لتحضر لي شيئاً منه، وتجلس به عندي حتى أستيقظ لتناولني إياه ونفسك تتفتت شهوة له، يا الله!! ما أبرك من ابن !!، تأتيى لوالديك بالغذاء والكساء لا تنحنى لضغط الحاجة تقطع البيداء

على قدميك، تبذل من الجهد والعرق ما تقيم به صلبك وترفع هامتك، لا تركع لعامل الفاقة، تلحي من عضلات عضديك وذراعيك لترفع به كابوس العوز عن والديك وتزيح به غبار الفاقة عن والدتك، تحب أن تفرح والديك بكل ما تتوق إليه نفس كل منهما، الأم تحضر لها ما تريد، والأب تحضر له أعز شيء عنده وهو القهوة، ما أبرَّك يابني، وما أطيب أصلك وأزكى أرومتك، وما أرحم قلبك، وأقوى أواصر روابطك حين لم تترك أحداً من أقاربك إلا وأحضرت له هدية من سفرتك هذه، وما ألطفك وأبصرك في تقييم الناس ومحاولة مكافأتهم، حين أحضرت لأم عبدالرحمن من الثياب مثلما أحضرت لي، وما أمرحك حين أحضرت لي هذه الثياب التي لا يلبس مثلها إلا الشابات، وتوخيت بأنني لا أزال شابة أفرح وأمرح، فلك مني كل الحب والدعاء من الأعماق أن يوفقك الله إلى خير ما تصبوا إليه نفسك وحقق آمالك في الدارين الدنيا والآخرة.

* * *

واستمر مسلم في خدمة والديه وبصفة خاصة أمه التي يقف على خدمتها لدرجة تعوقه بعض الأحيان عن عمله بمزرعته مما جعل أباه يلومه أحيانا على هذا الإخلال بعمله. لكنه لا يأبه بأي أمر يحول دون خدمته لأمه والسهر على راحتها، وما إن حان فصل الصيف وبدأت أعمال البناء تنشط في المدينة حتى استأذن والدته وذهب إلى المدينة مع السيارة التي بدأت تمر ببلدتهم مرة واحدة في الأسبوع، حتى إذا جاء يوم الجمعة بحث عن أي سيارة شحن تذهب إلى أهله أو تمر بقربهم، خاصة وأن هناك طريق عام للشاحنات بين المدينة ومدينة أخرى رئيسة تمر السيارات يومياً مع هذا الطريق، وإن كان طريق هذه السيارات يبعد عن بلدته حوالي ثلاثين كيلاً إلا أنه كان يتحملها مشياً على قدميه للوصول إلى والدته والإطمئنان عليها والبقاء بقربها يوم الجمعة ثم يعود إلى عمله قافلاً إما بالسيارة التي تمر ببلدته أو مع ذات الطريق التي جاء منها على قدميه ليعترض السيارات العائدة إلى المدينة، هذا دأبه طيلة أشهر الصيف الثلاثة، حتى إذا أقبل الشتاء عاد إلى أهله ومعه أعز

ماتحب أمه من كساء وغذاء وأجمل هدية لائقة بأم عبدالرحمن، وأغلى مايتمناه أبوه وهو طقم من دلال القهوة التي لا يملك مثلها سوى بعض الصفوة من رجال المجتمع مع ما يلزمها من أدوات عمل القهوة، وكان لهذه الهدية النفيسة أكبر الأثر في نفس والده، حيث استبدل دلال القهوة القديمة الموجودة لديه بأربع دلال جديدة من النوع النادر الثمين، وأصبح بذلك ممن يشار إليهم بالبنان خاصة إذا علمنا ما للقهوة العربية وتقديمها للضيوف والزوار من صدى واسع رنان في المجتمع آنذاك، ولهذا السبب فإن هذا الشاب قد نال مكانة مرموقة بين أقرانه بالإضافة إلى ما أدخله في نفس والده من البهجة والسرور، وما يحيط به والدته من العطف والحنان، وذات مساء دعا والده مجموعة من الرجال المرموقين لشرب القهوة في بيته فقال أحد الزوار:

ــ : ما شاء الله، من أين لك هذه المجموعة الجديدة من الدلال؟

: فابتسم ابتسامة الرضى وقال: هذه هدية من إبني سلمه الله ووقاه من كل سوء، فلقد أحضرها في مجيئه الأخير من المدينة.

ــ : هذه من النوع الممتاز.

: نعم، فلقد عوضني بهذا «الطقم» عما كان عندي من الدلال القديمة.

ــ : بارك الله لك فيه.

: لم يكتف بهذه الهدية، وإنما أرفق بها مجموعة من الهدايا الأخرى لكافة أهل بيته ومن يرتبط بنا.

ــ : لو لم يفعل سوى عطفه على والدته التي نسمع عنه أنه يعتنى بها عناية فائقة لا يوجد لها مثيل لكفى.

: أما عنايته بأمه، فلا أتصور أن أحداً يقوم بما يقوم به.

ــ : ونعم الرجل، هذا ما سمعناه عنه منذ صارت أمه إلى هذا الوضع.

: لم يقتصر نفعه على أمه يا أبا سعد، إنه لا يترك فرصة يستطيع أن يخدمني فيها إلا وبذل قصارى جهده، والله إنه في بعض الأحيان يصل به الجهد والعناء مبلغاً لا زيادة عليه، ومع ذلك فهو بنبري لأداء أي عمل عني أو جلب أي مصلحة لنا جميعاً.

ـــ: من برٍّ والديه برَّه أبناؤه.
: لا شك، وليتنا نستطيع أن نزوجه فيكون له أبناء.
ـــ: ستتحسن الأمور إن شاء الله وربما استطاع هو بنفسه أن يتزوج.
: لا شك أنه يستطيع، ولكنه مرتبط بوالدته لا يريد عن خدمتها غياباً، ولا يرضى فيها تهاوناً.
ـــ: هذا ما يرفع قدره عند ربه إن شاء الله.
: إيه!! ولكن...
ـــ: لا تقل هذا، فشاب يسهر على خدمة والديه وخاصة والدته المريضة ويبذل الغالي والرخيص في سبيل خدمتها وراحتها سوف يرفعه الله في الدنيا إلى أعلى المراتب ويجزيه ما بذل في سبيلها أعظم الجزاء.
: نرجو له التوفيق.
ـــ: ألا تعلم أن كل خطوة يخطوها المرء في سبيل إرضاء والديه في طاعة الله، فإن الله سيرفعه بهذه الخطوة درجة، حيث أن رضى الله عز وجل من رضى الوالدين.
: كنت أريد أن أقول...
ـــ: أعلم أنك ستقول إنه حانٍ على والدته، وبعض الأحيان يعطل بعض أعماله أو يؤخرها في سبيل راحتها، وأنت معذور في أحد جوانب هذا الاعتبار، لكن لا تنسى أن هذه المريضة المقعدة التي لا تستطيع تحريك أي جزء من جسمها كما يقال، بأمس الحاجة إلى من يكون بجانبها ويسهر على راحتها ليل نهار، وخير من يقوم بهذا العمل هو ابنها، وقد قام بواجبه خير قيام كما اشتهر عنه، ورجل بهذا الوضع سيرفعه الله وسينال الربح الوفير في هذا السبيل في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا قد حصل على السمعة الطيبة والثناء الجميل من الناس وفي الآخرة سيجد إن شاء الله الأجر والثواب من الله.

أكرمك الله، هكذا خرج محمد مستأذناً، ولا يزال يدور في ذهنه بقية الحديث الذي دار بينه وبين رفيقه إيه.. هكذا يفكر سالم أن ابنه مقصر نحو

عمله!! الله أكبر ما أفضله من ابن، وأبره من ولد حين يستطيع التوفيق بين خدمة والدته المريضة المقعدة وعمله اليومي الشاق في فلاحة والده!! وما أجوده من شاب حين يضيع الكثير من الشباب ما يكسبه في عمله في فصل الصيف في شراء الملابس والأمور التافهة، وتجده يبرز ما كسبه في خلال هذه الفترة في أشياء لوالده تُبَيِّضُ وجهه عند الرجال الآخرين مثل «طقم» الدلال وتجديد فراش غرفة القهوة، هذا فضلاً عما سمعت بأنه أحضر لوالدته ولزوجة عمه القائمة على خدمة والدته من هدايا نفيسه، حقًا إنه ابن بار، ولكن في بعض الأحيان قد لا يوفق الإنسان في الواجهة المقابلة لجهده، فقد يكون الابن باراً ولا يرى قبيله أثر هذه المبرة، وقد يكون الأب مجتهداً متفانياً لإسعاد ابنه أو أبنائه، ولا يجد عندهم في المقابل أثراً لهذا الاهتمام، وقد تكون الزوجة لطيفة رقيقة تحاول بكل جهدها إسعاد زوجها لكنه لا يشعر بذلك، وقد يكون الزوج متهالكاً في إرضاء زوجته وتأمين متطلبات حياتها وهي تنظر إليه بعين الجحود... مشكلة إذا فُقِدَ الوجه الآخر الذي تنعكس عليه الصورة الحقيقية لما يبذل نحوه وجزاك الله خيراً أيها الشاب الطموح الذي لا يقف طموحه عند حد خدمة والديه وإدخال البهجة والسرور إلى نفسيهما، بل يتعدا ذلك إلى أمور الحياة الأخرى، لقد حدثني ذات مرة أنه يطمح أن يتعلم، وأن يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب فيصل إلى أعلى درجات العلم والمعرفة وكان يتلهف في هذا الأمر أشد التلهف، لكن للأسف لا يوجد في البلد من سبل طلب العلم سوى إمام المسجد الذي يعلم الناس القرآن الكريم وبعض الأحاديث، وحتى هذا لم يلق حضوة عنده، ولم يلمس أي بادرة طيبة نحو تعليمه، إيه!! بارك الله فيك من شاب مكافح تصل الليل بالنهار لكي تؤدي غرضين مهمين، أحدهما خدمة والدتك وتمريضها وثانيهما السعي الجاد لتأمين لقمة العيش لوالديك ولقد ذهبت إلى المدينة على قدميك مرات ومرات لتحصل على لقمة العيش وتحرم نفسك منها فلا تذوقها قبل أن تأكل منها أمك وأبوك، وها أنت الآن تذهب في فصل الصيف وتأتى بنتاج عرقك، هذه

الأشياء التي رفعت بها رأس والدك بين الرجال، ومع هذا فإنه يتجرأ ليتهمك بأنك تقصر في أداء عملك.

* * *

كان للخبر الذي سمعته الأم المقعدة وقع هائل فجَّر عندها طاقات الفرح والابتهاج، وما إن دخل عليها ابنها حتى بادرته بقولها:

ـــ: أحقا ما سمعت يابني؟

: ماذا سمعت؟

ـــ: لقد سمعت إن أباك سيخطب لك!؟

: نعم، لقد أخبرني به عمي الآن، وكنت سأزف إليك الخبر لكن السبق كان من نصيبك.

ـــ: ومن تكون تلك الفتاة؟

: لقد أخبرني عمي أنها «نورة ابنة عمي فهد» وقد تم ذلك بتأثير من عمي.

ـــ: أي عمك؟

: زيد بالطبع فهو الذي سعى في الموضوع ويمكن أن يتم الأمر عن قريب.

ـــ: وفقك يابني في الدارين تقول ذلك بنغمة هادئة وصوت رزين وهي سارحة في التفكير ثم تستأنف، وهذه الزوجة ستنقل عنك أعباء عمل المنزل.

: عسى الله أن يوفق.

ـــ: إنها من نساء طيبات. وهي في نفس الوقت من أقاربك.

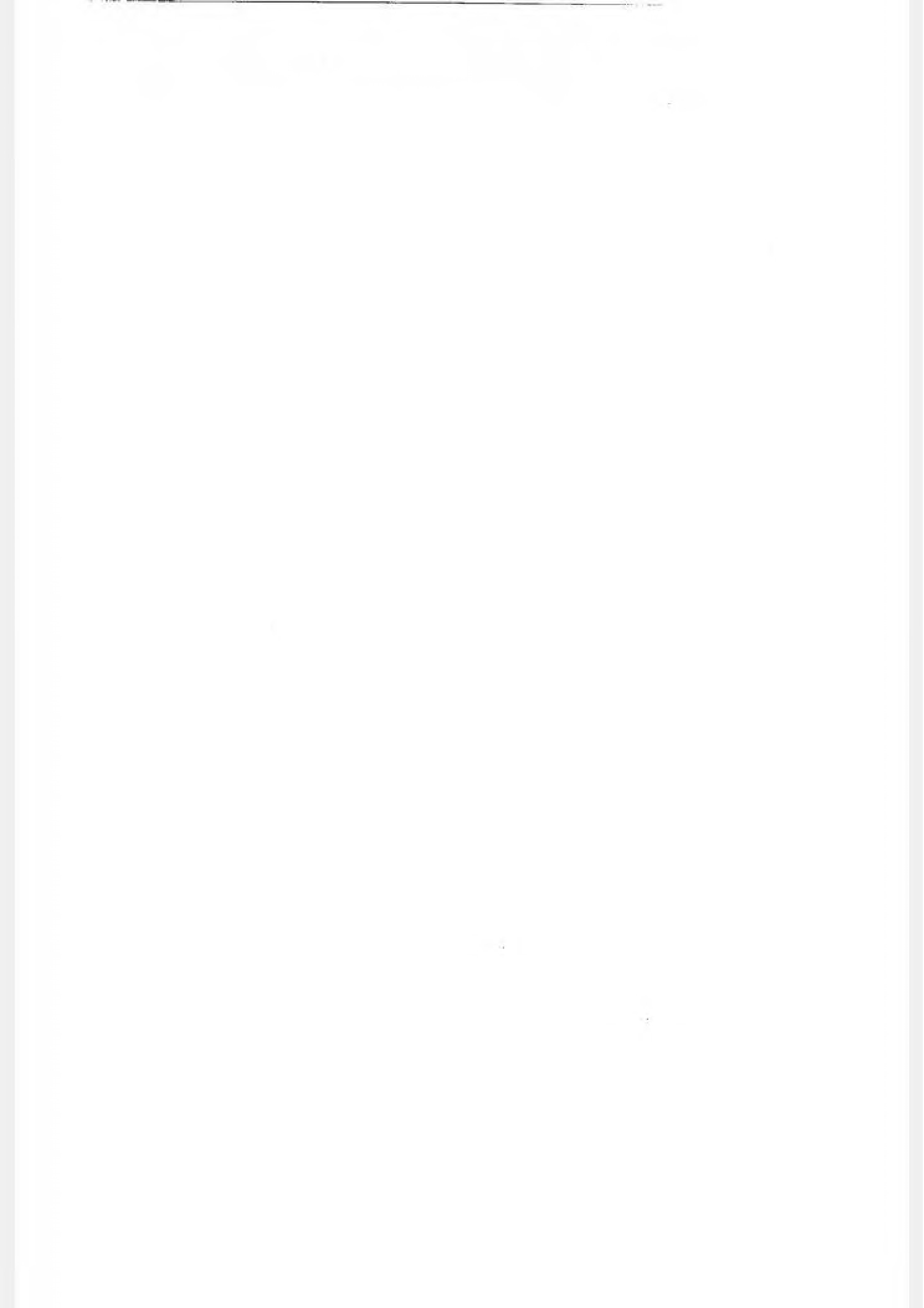
: بلا شك، أستأذنك للذهاب إلى البستان، أتريدين حاجة؟ يقول ذلك وهو يغادر المكان

ولم يمض طويل وقت حتى تم الزواج ودخلت العروس إلى بيت الزوجية فأدخلت معها السعادة والبهجة لزوجها والخدمة المتفانية لهذه المريضة المقعدة، وقامت بخدمة المنزل وترتيبه على أحسن ما يكون ولم يكد يمضي على هذين العروسين العام الثاني حتى رأى الشاب أنه بحاجة إلى الدعم المالي للوفاء بالتزاماته، فترك والديه وزوجته ونزل إلى المدينة ليكسب بعرق

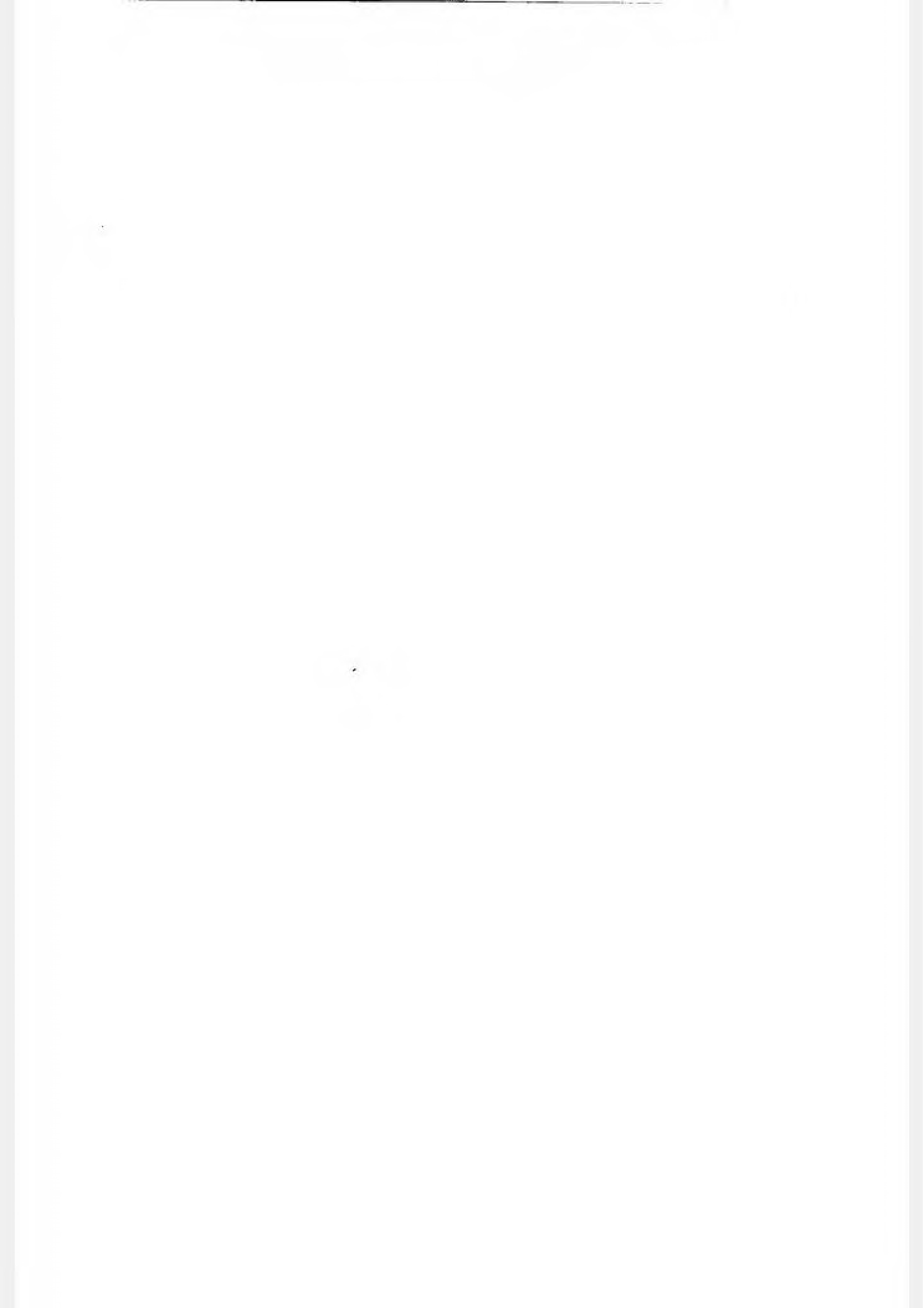
جبينه ما يقوم بحاجته، وبدأ العمل من أول يوم هبط المدينة بمادة الأسمنت التي لا يعرف أسرارها ومضارها، فبدأ يخلطها بقدميه دون أية أحذية واقية كما كان يخلط الطين وقد ظنها مثل الطين، هذه المادة الجديدة التي دخلت المنطقة حديثاً، ولم يدرك مضارها التي تكمن في المواد الكيماوية المخلوطة معها، وبقي طول يومه بوسط خلطة الأسمنت، وفي المساء أحس بالآلام المبرحة التي حرمته من النوم، وتورمت قدماه ثم ارتفع الورم إلى ساقيه، واضطر أن يعود إلى أهله في اليوم الثاني ومكث عند والديه وزوجته بضع ليال بعدها سلم روحه إلى بارئها تاركاً خلفه هذه الأم المسكينة المقعدة تحت رعاية الله ثم رعاية زوجها وأم عبدالرحمن.

ووقع الخبر على الأم وقع الصاعقة، وإن لم يقل حزنها عليه حزن والده وزوجه وأعمامه وأقاربه، وتسرب الخبر المحزن إلى أهل بلده، إلا أن والدته فاقت الجميع في هذا المصاب الجلل، حيث بقيت حزينة كسيرة القلب محطمة النفس تنهمر زخات الدموع منها بين اللحظة والأخرى، لا تكاد تنتهي زخة من هذه الدموع حتى تتصبب أخرى، فهي تتذكره في كل لحظة، ويعصف بقلبها الألم مع كل حركة وسكون ومع كل نبرة صوت حتى فقدت بصرها من البكاء عليه، ورغم ما ينقله إليها المعزون من طمأنتها ومحاولة إعادتها إلى صوابها إلا أنها لا تتمالك نفسها، ولا تستطيع كبح جماح عاطفتها عندما تتذكره، وما الذي لا يذكرها إياه؟ تتذكر ضحكته المدوية، وكلماته العاطفية الرقيقة، ولطفه المتناهي وحنانه الجم، ورحمته الفائقة، وخدمته العالية، وعزة نفسه، ورجولته وشهامته، وحديثه اللطيف الذي ينسيها حالتها التي تعيشها، وينقلها إلى حالة من المرح والحبور، كل هذه الخصال تجعلها لا تنساه لحظة واحدة وفي ساعة من ساعات الليل أفاقت مما هي فيه، وبدأت تناجي ربها قائلة: اللهم لا جزعاً مما فعلت، اللهم إنه أمانتك في يدي أعطيتني إياها فترة معينة من الزمن ثم استرددتها من يدي في هذه الفترة التي كانت بيدي استفدت منها الاستفادة الكاملة، وأدت لي خدمة جليلة

قلمّا يؤديها ابن لوالدته، فاللهم اجعل جنة الفردوس مثواه، واجزه خير الجزاء على ما قدم لي من خدمة جليلة، وعلى ما بر به والده وذويه من مبرة واسعة، وعلى ما بذل في سبيل إسعادي من عرق وجهد وتعب، وأكثر من أمثاله بين أبناء وبنات المسلمين الذين يرعون حقوق الوالدين، ولا تفتني بعد موته، واجز أفضل الجزاء من أحسنوا إليَّ من بعد ولدي وأصبحوا يعاملونني كما يعاملني إبني، ولا تؤخر حياتي فتطوى أكثر مما ينبغي فأكون عبئاً ثقيلاً على الآخرين يا أرحم الراحمين، هكذا كانت تردد له الدعاء في كل ساعات النهار طوال ساعات الليل لبضع سنين عاشتها من بعده.



قصة رقم (٣٠)



«خوينا بالحق ما به جدالي»

ما إن تألقت شمس ضحى ذلك اليوم الربيعي المشرق حتى ظهرت طلائع قافلة من الإبل مع الجادة المحاذية لقطين الشيخ خلف، يسير إلى جانبها وأمامها وخلفها الحرس الموكول إليهم حماية القافلة، فأشرأبت الأعناق تتشوف هذه القافلة وحدَّقت العيون تعدد هذه الإبل التي تنوء بأحمالها، وبدأت الأطماع تدغدغ شهية ذوي النفوس الدنيئة بالاستيلاء على هذه القافلة، لكن ما يبدو من كثرة الحرس عليها جعل هذه الأطماع ترتد إلى نفوس أصحابها محطمة مبعثرة، ما كاد خلف يرى طلائع هذه القافلة حتى أرسل طليعته من رفاقه ليأتيه بخبرها، فامتطى جواده ولكده نحوها، ولم يلبث هذا الطليعة سوى وقت قصير حتى عاد بالخبر اليقين أن هذه القافلة لأحد الأمراء مرهوبي الجانب الذي لا يستطيع هو أو غيره أن يقترب منها، عند ذلك جلس القوم في رفة البيت يرتشفون القهوة ويتطارحون الأماني بإمتلاك هذه القافلة ويجترون الذكريات التي اعتاد بعضهم أن يرويها فيما غنمه في يوم من الأيام سواء أكان ذلك حقيقة أو من نسج الخيال، وما إن وازت القافلة بالقطين حتى انفصل منها صاحب بعير واحد ميمماً الحي، ومع اقترابه من القطين شيئاً فشيئاً حتى أكلته الأعين، وانهالت التساؤلات عنه، وكثرت التنبؤات، واحتدم الحدس والظنون حتى اقترب من الفريق وأماط لثامه، وإذا هو التاجر المدني «محمد» الذي اعتاد أن يفد إلى خلف بين الحين والآخر مرتين أو ثلاث مرات كل سنة. يحضر من المدينة ويجلب معه البضائع المختلفة يبيعها على سكان قطين خلف ومن جاورهم، ويكون مقره عند خلف، إلى أن عرف «بتاجر خلف» عند ذلك فرح القوم وتباشرت النساء لما يحضره من الأقمشة والعطور التي يشتريها لهن أزواجهن أو

يشترينها بأنفسهن، وما إن وصلت الراحلة إلى بيت خلف وأناخها صاحبها حتى هشَّ خلف ورجاله وبشُّوا في وجه القادم وأفسحوا له المكان، وباشره عامل القهوة بعدد من فناجين القهوة حتى انتعش وانقشع عنه تعب السفر، وبعد ذلك أعطاه خلف ماء ليغتسل ويتنظف، ثم يعود ليقدم له طبقاً من التمر مع إناء من اللبن، وبعد فترة أديرت القهوة مرة ثانية. وبدأت الأسئلة تنهال عليه فقال له رفيقه خلف:

ـــ: من أين أتيت يا محمد؟

: لقد قدمنا من المدينة واغتنمت فرصة مرور هذه القافلة التجارية بالقرب من منزلكم فاتفقت معهم أن أصاحبهم لكي آمن على نفسي وتجارتي تحت حمايتهم حتى أصل إليكم.

ـــ: عسى ألا تكون قد صادفتكم مشاكل في الطريق؟

: لا يخلو الطريق من المشاكل، ولكن لهيبة القافلة وقوة حمايتها أثر جيد في طرد الأعداء عنها، فلقد قام أمير القافلة بأخذ استعداده من الرجال المسلحين ليقوموا بحمايتها، وقد صادفنا في الطريق أفراداً من قطاع الطرق ولكنهم كانوا متفرقين وقلة قد لا تتعدى المجموعة منهم الثلاثة والأربعة وليس لهم طاقة في مثل هذه القافلة الكبيرة.

ـــ: إذا ستر الله عليكم من الغزو من أناس أقوياء فالشراذم من قطاع الطرق لن يقتربوا من مثل هذه القافلة الكبيرة.

: لقد سمعت من أمير القافلة أنه لا أحد يستطيع غزو هذه القافلة لأنها لأمير مهيب الجانب.

ـــ: هذا صحيح إذا كانت لفلان، ولكن في بعض الأحيان حتى مثل هذا الأمير يأتيه من قطاع الطرق من ينهبون قوافله ويختفون بالجبال سيما في مثل الطريق الذي سلكتموه.

: والله لقد سمعت هذا الكلام من أمير القافلة، فقد كان هاجسه الوحيد الخوف من مثل هؤلاء عندما كنا نسير مع ريعان تلك الجبال الوعرة قرب المدينة،

وعندما خرجنا من تلك الجبال والحرار سمعته وكأنه يتنفس الصعداء قائلاً: الحمد لله لقد اجتزنا مرحلة الخطر.

ــ : بلا شك فهي منطقة خطر، قد يكمن للقافلة رجل واحد أو عدة رجال في صخرة من صخور الجبل عند مضيق أحد الريعان أو ملاوي الحرار، ويكون من الرماة الجيِّدين فيقضي على رجال القافلة ويستولى عليها.

: الحمد لله الذي أوصلنا إياكم بالسلامة.

ــ : عساكم أحضرتم لنا أشياء جديدة وجيدة.

: لقد أحضرت معي من كل شيء جديد من الأقمشة الرجالية والنسائية والعطور وطيب العود وأشياء كثيرة جداً.

ــ : كثيرة جداً وهي على ظهر هذا البعير!!؟

: نعم في هذا الحمل الذي تراه البركة، فلقد تحاشيت إحضار الأشياء الثقيلة، وأحضرت معي ما خف حمله وغلي ثمنه من إبرة الخياطة حتى العود والزعفران والهيل والقرنفل.

ــ : أحسن الله إليك، وما يدريك أننا محتاجين لمثل هذه البضائع، فالمدينة بعيدة عنا، وحَدْرَتُنَا التي تذهب للعراق لا تكاد تحضر لنا المواد الغذائية، ثم إن الملبوسات التي ترد للمدينة أفضل بكثير مما يأتي من العراق وذلك لمناسبتها لنا، أضف إلى ذلك البهارات والعطور التي تأتينا عن طريق «طيبة» لا يماثلها شيء آخر.

: متى تريد أن ترينا بضاعتك؟

: كما تريدون، لو أردتم الآن.

ــ : آه.. الآن قد اقترب أذان الظهر، وأخشى إن فللت بضاعتك ألهتنا عن صلاة الظهر حتى يفوت وقتها ولكن دعها حتى نصلى الظهر.

: كما تريدون، كما تريدون!!

ــ : وكيف بيعك هذه المرة؟ هل تصرُّ على البيع بالنقد أم تبيع «بالمعاريض» أعنى المقايضة شيء بشيء كما كنت تفعل في بعض المرات.

: سأبيع عليكم باليسر والمسامحة، إذا توفرت النقود من الريالات الفضية

«الفرانسي» أو «النيرات الذهبية» كان ذلك أفضل عندي وأخف وإن لم يتوفر فسوف أقبل البيع بالسمن والأقط وغيره.

ــ : حسناً، إذا قبلت البيع بالسمن والأقط فسوف تقبل عليك نساء الحي وربما اشترين كل ما معك بهذين الصنفين من السلع وذلك لتوفرهما هذه السنة المربعة ولله الحمد.

: سأتصرف وآخذ من السمن والأقط بمقدار معين.

ــ : لا تخف يامحمد ستبتاع منه بأقل من سعره في سوق المدينة.

: لكن ذلك سيكلفني نقله إلى هناك ومخاطر الطريق كما تعلم.

ــ : لا تخف، ستبيعه بالمدينة القريبة منا وليست المدينة المنورة، وسوف تكسب فيه، وليس هناك أي مخاطر عليك علماً بأننا سنوصله لك إلى هناك.

: حسناً، حسناً!!

ــ : أذّن ياعقيل للصلاة، وبعد الصلاة يكون خير.

: الله أكبر.

* * *

مكث التاجر عند خلف قرابة الشهر باع شيئاً من بضاعته في هذا الحي، وجلب بعضها إلى الأحياء المجاورة حتى انتهى، وبقى عند خلف بانتظار قافلة تعود إلى المدينة ليصحبها، وذات ليلة خريفية جانب النوم عينية فاستلقى على ظهره في فراشه وحلّق في خيال مجنّح مع النجوم السابحة في أفلاكها يناجي نفسه، سبحان من خلق هذا الكون على عظمته وسعته وزينه بهذه النجوم المتلألىء بعضها والمتوهج بعضها الآخر، وكأن بين غمزاتها وسكناتها سرّ كامن لا يعرفه إلا الله!! إيه .. سبحان الحكيم العليم، نجوم وكواكب كل منها قد عرف مجراه يدور في فلكه لا يحيد عنه شعرة واحدة منذ أن خلقه الله حتى ينتهى أجله، لا يحاول أن يقترب من مسار جاره ولا يحتل مكانه، لا يزاحمه في مساره ولا يأخذه منه، فمابا لنا نحن البشر!؟ ليتنا مثل هذه النجوم الكل يسير في مداره ساعياً وراء رزقة دون أن يؤذي الآخرين أو يسلب

ما بأيديهم وينهب ممتلكاتهم وربما وصل الأمر الخطر على أرواحهم، ما بالنا نحن البشر نسير بطريقة غير سليمة، نحاول إيذاء غيرنا بنهب أموالهم، نعترض قوافلهم، نضربهم ونجرحهم بل ونقتلهم لنظفر بممتلكاتهم العينية والنقدية وحيواناتهم، ويصل ببعضنا الأمر إلى درجة سلب ملابسهم التي على أجسامهم، يا الله!! ما أقساها من صورة!!؟ وما أشنعه من عمل عندما يصل الأمر إلى سلب الملابس، وقتل الأرواح، يا الله!! كيف لا يأمن الإنسان على نفسه أن يسافر من مكان إلى مكان إلا مع قافلة كبيرة تحميه حتى يصل إلى موطنه وأهله، أما يرعوى قطاع الطرق هؤلاء ويكفوا عن هذه الأعمال التي يقومون بها؟ أما يخافون الله يوم لقائه!! ياإلهي.. كيف أصل إلى أهلي!؟ هل أصل إليهم بأمان؟ هل أصل إليهم وهذا المال الذي معي لا يزال بحوزتي أطعم منه أولادي وأستعيد تنمية تجارتي فأعود مرة أخرى إلى هنا، إلى جوار هذا الرجل الطيب؟ أم يعترضني في طريقي أحد قطاع الطرق فيسلب مالي بأسهل طريقة؟ سأعود سأعود إن شاء الله مع أول قافلة تمر من هنا ويثق في رجالها رفيقنا خلف، ولكن حتى وإن كنت مع هذه القافلة فيجب عليَّ ألا أظهر أن معي من المال شيء ويتطلب مني أن أخفى صرة هذه الريالات الفضية والجنيهات الذهبية في داخل متاعي وفي وسط وعاء الطعام حتى لا يعرف أحد عنها شيئاً حتى من أفراد القافلة ولكن... هاه!! أخشى أن يجنى وعاء الطعام على ما بداخله، هذا شيء متوقع لأجعلنها في صرة داخل ثيابي صرة !!؟ قد تبين الصرة، وقد يكون من الأفضل أن أفرقها في داخل جلد حزامي العريض وأحزمها على بطني فلا هي تبين ولا أحد يعرف إن كان معي شيئاً من المال أم لا، وهل يأخذها جوف حزامي الجلدي؟ لأضع فيه الجنيهات الذهبية وتبقى الريالات الفضية أستطيع تدبيرها هنا أو هناك في جيوب ملابسي أو مثاني جبتي، ولكنها ستفضحني بصوت رنينها، هاه!! لماذا لا أخيط على كل مجموعة منها في مثاني جبتي الخلقة المتهلهلة التي لا يطمع فيها حتى قطاع الطرق، ولكن لو اعترضنا قطاع طرق وكانوا من ذوى النفوس الرديئة، وسلبونا حتى ملابسنا فلا شك ستكون الكارثة بالنسبة لي، سيأخذون كل ما جمعته

وما ربحته، ولكن... أين سأضع هذه النقود وأخفيها...؟ إيه... لا يسعني في هذه الحال إلا أن أطلب من الله الحماية والستر، وسوف أتأكد من ضمان القافلة التي سأرافقهم إلى المدينة حتى لو طلبوا مني مبلغاً مضاعفاً من المال على ما يأخذه من غيري، وذلك ضماناً لسلامتي وصيانة لمالي، ولقد وعدني رفيقي خلف أن يتأكد من القافلة التي سأصاحبها أمانة وقوة ومنعه ضد المعتدين، وسأعود إن شاء الله إلى هنا بعد ذلك في وضع أحسن.

* * *

طال غياب التاجر محمد المونى، وكاد أن ينساه فريق خلف لطول غيبته عنهم، وكان يحضر لهم الكثير من البضائع الممتازة، وذات يوم جلس إلى خلف مجموعة من رفاقه في رفة البيت يتذاكرون رفيقهم فقال رديني:

ـــ: ترى أين ذهب رفيقك ياخلف؟

: من تعني من رفاقي؟

ـــ: أعني رفيقك التاجر محمد الذي انقطع عنا منذ أكثر من سبع سنين.

: آه، لقد غاب عنا من ذلك الحين ولم نعرف له أي خبر غير أن أحد رجالنا في العام الماضي قد أخبرني أنه رآه بالمدينة وقد حمله لي ولكم السلام.

ـــ: ما باله قد انقطع عنا؟

: الله أعلم، قد يكون تعب من السفر خارج المدينة، وقد يكون تهيب المجازفة في ماله ونفسه عبر هذه الطريق الخطرة.

ـــ: وربما تضعضعت أحواله وقلت تجارته!؟

: لا أظن ذلك ياثويني، فالرجل لديه أموالاً كثيرة حسب إفادته، إلا أن يكون أصيب بكارثة أو خسارة أفقدته أمواله.

ـــ: وقد يكون بقى له ديون عند سكان حينا أو الأحياء الأخرى؟

: أما هذا فلا، لقد استوفى جميع أمواله وأخبرني عندما ودعني أنه لم يبق له أي مبلغ على الناس.

ـــ: أجل ما باله توقف عنا كل هذه المدة؟ سيما وأنه أفاد من هذه السفرة التجارية

: ربما أنه ينوي أن يأتينا بتجارة أكبر من تلك التي يأتينا بها على بعير واحد.

ـــ: وهل يستطيع أحد الآن أن يحضر تجارة بقافلة كبيرة؟

: نعم كما يفعل كبار التجار.

ـــ: حتى لو أراد فلن يتحمل حيِّنا استيعاب تجارة لقافلة من الإبل.

: حتى لو لم نتحمله فبإمكانه أن يصل إلى الأحياء المجاورة لنا أو إلى هذه القرى المتناثرة حولنا، وفي نهاية المطاف قد يجلب بقية ما معه إلى تجار المدينة المجاورة لنا.

ـــ: صحيح، سيفعل كما يفعل في المرات السابقة، يترك الثقيل من تجارته عندك، ويتردد بالخفيف منها يبيع منه شيئاً حتى يستنفد ما معه.

: إيه كالمعتاد.

ـــ: لقد فقدنا والله طِيْبَ العود الممتاز والبهارات الفاخرة من الهيل والقرنفل، كما افتقدت نساءنا الملابس الزاهية الناعمة والمتينة، والحلي الذهبية وعقود الخرز من المرجان وغيره.

: إيه.. ربما سيعود، وكل حيٍّ على الحيِّ عائد.

ـــ: لا أعتقد ذلك، أبعد سبع سنين يعود هنا؟

: الحي يعود، ولو بعد عشرات السنين، وما الذي ذكرك بهذا التاجر يارديني؟

ـــ: ذكرتني إياه ابنتي الصغيرة، التي تسألني هذا الصباح قائلة: متى يعود التاجر محمد لكي تشترى لي أمي منه «خصور ومخناقة»؟

: ومن أعلمها به؟

ـــ: تقول إن أمها قد وعدتها إذا عاد التاجر أن تشتري لها تلك المنظومات الخرزية التي يعلق بعضها في العنق «المخناقة» وبعضها بمعاصم اليدين وهي «الخصور».

: ما أطيب نفسيات الصغار!! يتعلقون بالوعود الصادرة من والديهم حتى وإن كان بعضها من باب التسلية والتَّعِلَّة.

ـــ: لئن عاد لأشتري لإبنتي منه ما يسمح نفسها.

: سيعود إن شاء الله، سيعود.

* * *

لمح محمد عند بعد في المسجد النبوي أحد الرفاق الذين عرفهم عند صاحبه خلف، وحاول الوصول إليه لكن زحمة الناس عند الخروج من المسجد أضاعت عليه الفرصة، ووصل إلى دكانه وهو يمضغ الأسف لإفلات هذا الرفيق منه وعندها تذكر أولئك الرفاق وما جناه من الأرباح بقربهم وتلك الليالي والأيام الحلوة التي قضاها عندهم فعقد العزم من فوره على معاودة الرحلة إليهم، وسيحمل معه هذه المرة بضاعة كبيرة وأصنافاً كثيرة على مجموعة من الإبل بقافلة كاملة، وأخذ يعد العدة لهذا الأمر محاولاً الإستفادة من موسم عودة قوافل الحجاج إلى بلدانهم وذلك للاستئناس بقربهم حتى يصل إلى هدفه ولم يمض بضعة أيام حتى جهز الأحمال واستعان بأحد أصدقائه ليصحبه في هذه الرحلة التجارية، وعندما سارت إحدى قوافل الحجاج العراقيين سار معهم بعد أن نسق مع أمير القافلة بما يلزمه من مال لقاء حمايته وقافلته حتى يصل إلى مبلغه، كان يماشيهم يبيت مبيتهم، ويقيل مقيلهم ويرد مواردهم، حتى إذا وازى مواطن رفاقه ودع صحبه من الحجاج وأخذ الاتجاه الذي يريده، وبعد مسيرة يوم كامل حين بلغ منتصف الطريق إلى رفاقه، صادفه ركب من الغزو من قبيلة رفاقه بقيادة عقيدهم «سعد» حيث عدوا هذه الحملة غنيمة سعت إليهم دون أن يقصدوها وبحثوا الركاب نحوها فأخذوها بكاملها من صاحبها ورفيقه وقد أخبر التاجر عقيد الركب: إنه التاجر الحضري الذي يأتي دائماً إلى «خلف» غير أن العقيد ورفاقه لم يأبهوا لأقواله ولم يعيروها أدنى اهتمام أمام إغراءات البضائع التي يسيل لها اللعاب، سيما وأنهم اعتبروها غنيمة باردة سعت إليهم، وسار التاجر ورفيقه على قدميهما بعد أن سلب ما بأيديهما من الأموال والبضائع، وحلاً ضيفان عند أحياء العرب الواحد بعد الآخر يقيمان في هذا الحي يومين أو ثلاثة حتى وصلا إلى رفيقهما خلف.

أما سعد ورفاقه فقد عادوا من غزوتهم تلك ومعهم هذه البضائع التي سلبوها من صاحبها واقتسموها فيما بينهم، وأخذ كل واحد منهم ما خصه من القماش والأشياء الأخرى فوزعها على أهله وذويه، وانتشر الخبر في الأحياء العديدة من عشائر سعد، وتناقلت الركبان الأخبار إلى أن وصل الخبر إلى خلف قبل أن يصل رفيقه التاجر، من أن رفيقه التاجر الحضري قد استلبه ماله أحد رجال قبيلته، فلم يغمض له جفن ليلة سمع الخبر وتأكد من رفيقه فأخذ يعد العدة للتوجه إلى سعد لمطالبته بإعادة ما أخذ من رفيقه، وعزم على اصطحاب اثنين ممن يثق بهم من جماعته في الصباح الباكر متوجهين إلى ديار سعد، وبقي تلك الليلة متكئاً على شداد مطيته الموجود بمجلس الرجال من بيته وهو يضرب أخماساً بأسداس ويتساءل: كيف تجرأ سعد على خفر ذمتي حين أخذ تجارة رفيقي الذي قد أخبره أنه رفيقي وجاري منذ سبع سنوات خلت، صحيح أن المدة طويلة ولكن يكفى علمه أنه رفيق لي في يوم من الأيام، أما يكفيه أنه ذكر اسمى؟ ألا يعرف من أنا؟ أيعنى هذا تهاوناً بوجاهتي؟، ألا يعلم أنني عقيد مثله؟ هل غاب عنه أننا من قبيلة واحدة وأبناء عم يَقْذُلُنِيْ ما يقذله؟ هل أراد النقيصة لي بهذا العمل؟ هل أعمته الرغبة في هذه الأصناف المتعددة من البضائع فنسى أنها بوجه إنسان سيطالب بها، وإذا طالب بها فسوف يحصل عليها بكل تأكيد؟ لقد أخطأ حدسك ياسعد، أما تعلم أن بضاعة هذا التاجر ستعود إليه بعينها أو أقيامها وأرباحها كاملة غير منقوصة؟ آه!! ليت هذه الفعلة من غيرك ياسعد، لكان ذلك أهدأ للنفس، وأبرد على القلب، ولكنها جاءت منك، وفي هذه الحالة فلا مناص من المطالبة فيها وردها إلى صاحبها مهما كلفني ذلك، يا الله!! يكفيك ياسعد أنه ذكر اسمي عندما داهمته أنت ورفاقك، المفروض أن تحميه حتى توصله إلى هدفه، لا أن تأخذ ماله وتتركه يتنقل بين القبائل والأحياء ويروي لهم ما حدث له، إيه... سوف تعيد له كل شيء إن شاء الله.

* * *

وفي الثلث الأخير من الليل امتطى خلف وصاحباه أكوار مطيهم متوجهين إلى هدفهم وبعد مسيرة ثلاثة أيام وصلوا إلى حي سعد حيث حلوا ضيوفاً عليه، فأكرمهم غاية الإكرام وفي جلسة هادئة قال خلف:

ــ: لقد جئنا إليكم لغرض ذكر عندكم.

: غرض!! أي حاجة لكم فاعتبروها بحكم المقضية.

ــ: هي حاجة ولا كل الحاجات.

: هاه!! ماذا تعنى ياخلف!؟

ــ: أعنى مال التاجر الذي أخذتم. يقول ذلك وهو يبتسم.

: آه!! مال التاجر!؟ يقول ذلك بنغمة مجرورة.

ــ: نعم، هذا ما جئنا من أجله.

: إيه!! تلك غنيمة عرضت لنا واعتبرناها فرصة سانحة فأخذناها واقتسمناها في وقتها مثل أي غنيمة نحصل عليها.

ــ: ولكن هذه تختلف عما سواها.

: كيف؟

ــ: ألا تعلم أنها بوجهي!؟ يقول ذلك بلجة تعجب.

: بوجهك!!؟ يقول ذلك مستغرباً.

ــ: نعم، أما قال لكم صاحبها إنه رفيقي!؟

: بلى... ولكن ...

ــ: ولكن ماذا؟

: لقد أخبرنا أنه التاجر الذي نزل عندكم في سنة من السنين.

ــ: ألا يكفى هذا لحمايته منكم؟

: أوه!! لو أن كل من نزل عند أناس ضفى عليه ستارهم لما وجدنا من نأخذ من ماله شيئاً، فكم نزل عندك وعندي من الناس من الضيوف والتجار وعابري السبيل ولم يمنعهم نزولهم عندنا أو حلولهم ضيوفاً علينا.

ــ: ألا تعلم أنه ذاق ملح زادي؟

: بلى أعرف، ولكن لو كان كل من نزل عندك وطعم من زادك منعته أو منعت

الناس منه لأصبحت شيئاً آخر.
ـــ: بل إن ذلك يمنعه.
: والله لو كنت الحاكم لما قلت ما قلت.
ـــ: كل واحد دون حقه ياسعد.
: أنا لا أعتبر لك حقاً عندي، أمن أجل ذلك التاجر الذي قال أنني التاجر الحضري الذي كنت أسكن عند خلف قبل سبع سنين وأتاجر عنده، تريدنا أن نكف عن غنيمة عارضة لنا؟
ـــ: المهم أنني أطالبكم بإعادة مال التاجر.
: أوه، ذاك مال أخذناه واقتسمناه ولم يبق منه شيء.
ـــ: ولكني أطالبكم برد قيمته.
: قيمته!! وهل أنت جاد في كلامك أم تمزح؟
ـــ: الكلام جد وليس فيه مزاح.
: ماذا دهاك يا خلف؟
ـــ: أنت تدرك موقفي تماماً، أما علمت بأن العرب أصبحت تتحدث منذ جرت الحادثة من أنني مخفور الذِّمَّة ليس لي هيبة عند أقرب الناس إليَّ وهم أبناء عمي فما بالك بأبعد الناس عني؟
: لم أسمع مما تقول شيئاً!؟
ـــ: أنت رجل عاقل ومدرك، وتعرف كل شيء ولكنك تتغابى عن مثل هذا الأمر الذي لا يمكنني السكوت عليه.
: يارجل، أنت تعرف أن الناس يغزو بعضهم بعضاً، ويكسب بعضهم من بعض، وأحياناً يحدث ذلك من فروع قبيلة واحدة، ويفنى في سبيل ذلك من الرجال العدد الكثير للحصول على الغنيمة، فما بالك تتجاهل الوضع الذي نعيشه؟ ثم تأتي تطالبني بغنيمة ظفرت بها مع رفاقي واقتسمناها في حينها!؟
ـــ: دعنا من هذا ياسعد واسمع ما قلته لك.
: أما ماقلته فلن أسمع منك.
ـــ: أنت ابن عمي ولك مكانة في نفسي ولا أريد أن يقع بيننا الشر من أجل توافه المال.

: أتهددني!!؟ عليك أن تَعِنَّ من خيلك عشر.

ـــ : لم آت في بيتك لأهددك، وإنما أطلب منك اللجوء إلى العقل وتدارك الأمر قبل أن يقع الشر.

: ماذا تعني بالعقل؟

ـــ : لو لم يذكر الرجل إسمي وأخذتموه لما جئت أطالبكم، ولكنه مادام ذكر إسمي فلابد أن أرد إليه ماله بأي ثمن.

: لن أعيده إليك أبداً.

ـــ : إن كنت ابن عمي ولي عندك من القدر مالك عندي فأعد إليَّ مال الرجل.

: هاه!!

ـــ : ليحكم بيننا واحد من أعقل الرجال.

: نحكِّم!! نحكِّم!؟ لا أعقل عندنا من «العَارِفَةْ»

ـــ : سمه ما شئت، المهم إنه الرجل الذي تحتكمون إليه في حل المنازعات وإصلاح ذات البين.

: وماذا سيقول في مثل هذا الأمر؟

ـــ : ليقل ما يقول، فهذا شأنه.

: مادام الأمر هكذا فلا بأس من تحكيمه، فهل ترضى بحكمه؟

ـــ : إذا كان غير مجحف ورضي به من يحضر من عقلاء الرجال.

: إذا ننتظره حتى يعود من سفره بعد ثلاثة أو أربعة أيام.

وأمضى خلف يومه ذاك يدافع عن رأيه في مختلف المنتديات والمجالس والمقاهي التي يدعى لها، فوجد بعض الآراء التي تؤيده لكنه يجد الكثير من الآراء المعارضة لوجهة نظرة سيما وأن معظم الناس يعدون ذلك غنيمة عارضة وكسباً مباحاً قد تعارفت عليه هذه الشريحة من المجتمع، ولكن ما يمس سمعته وخفر ذمته هما اللذان يشفعان له عند الكثير من الناس، وفي المساء عندما أوى إلى فراشه تمثلت أمامه فقرة من الحديث الذي دار بينه وبين سعد وهي قول سعد: إن الناس يغزو بعضهم بعضاً، وينهب أموال بعضهم البعض

الآخر، فكان لهذه الكلمات المتتابعة وقعاً سيئاً في نفسه، كيف يتجرأ الإنسان على قتل أخيه الإنسان واستلاب ماله؟ بأي حق يهدد دمه؟ بأي مبرر يستبيح ماله؟ لأي شيء يحدث هذا؟ أنسى الناس أنهم مسلمون يشهدون ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجون البيت؟ بأي شرعة يسيرون؟ وكيف يتسنى للواحد منهم أن يفعل ما يفعل بأخ له عربي مسلم وقد يكون من قبيلته وعصبته!؟ هل إن الجهل بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف قد ران على العقول، فأعماها عن طريق الصواب، وسلك بعض من طمس الجهل على عقولهم هذا المسلك؟ أم هل بلغ بهم حد الجوع والعوز إلى أن أنساهم نصوص تعاليم دينهم؟ هل بلغ بهم الفقر إلى هذا المستوى فجعلهم يأكل بعضهم بعضاً؟ لا أظن ذلك فإن لديهم الآن من سبل العيش ما يسد رمق الفقراء منهم أما الأغنياء والأقوياء جسديا وهم الذين يقومون بعملية الغزو فإن لديهم من لقمة العيش ما يكفيهم عن احتلال أموال الآخرين، أم ترى هذا العمل العدواني يحفزه اعتبار اجتماعي بادعاء الشجاعة والفروسية والبطولة!؟ هذا الإدعاء الذي تعود جذوره إلى الجاهلية الأولى، قد أبرضت أغصانه الهامدة منذ أمد بعيد ونثرت وريقاتها وترعرعت أغصانها من رذاذ الجهل الذي غطى على معالم نصوص الدين الإسلامي، وأصبح الشاب منذ أن يشب على الطوق وهو يتطلع إلى اليوم الذي يغزو فيه مع رفاقه ويعود بالغنيمة التي اكتسبها بنفسه أو مع رفاقه وبذلك يكون حديث المجالس والمنتديات، ينظر إليه بإجلال واحترام، يقدره رجال عشيرته، تعتز به أمه وأخته وابنته وعمته وخالته، وتتشوق إليه صبايا عشيرته، وتأنس بوجوده فتيات حيِّه من أجل أنه أحضر هذه الغنيمة المنهوبة من مَنْ؟ قد تكون من حي من أحياء العرب المجاورين له، وقد تكون من أحد أحياء قبيلته، هذا لا يهم، المهم أن يكون هذا الحي الذين أغار عليهم من المستضعفين، أو الذين يشعر الغزاة أنهم أقوى منه، وأحياناً يقع الغزاة بقوم أقوى منهم فيذهب بعضهم أو أكثرهم ضحية لهذا الطمع الذي سعوا إليه على أقدامهم أو ظهور مطيهم وربما عاد من يكتب له النجاة منهم على قدميه، فيهلك من العطش

ويلحق برفاقه الذين ماتوا تحت غبار المعركة، كل هذا من أجل الطمع في الحصول على المال، أو الحصول على لقمة العيش، يا ألله!! بإمكان هؤلاء الغزاة الذين يذهبون إلى رفاقهم وبني جلدتهم ليقتلوهم ويستلبوا منهم أموالهم بإمكان هؤلاء أن يتخذوا طرقاً أخرى للحصول على لقمة العيش الحلال بالطرق المشروعة، كفلح الأرض وزراعتها وتنمية مواشيهم والاقتناع بما عندهم من الرزق، والابتعاد عن هذا التفاخر بالبطولات الزائفة التي تكون لبعضهم على البعض الآخر كما قال الشاعر:

وأحيانا على بكر أخينا إذا مالم نجد إلا أخانا

وادخروا طاقة هؤلاء الشباب التي تذهب هدراً في أمور تعود عليهم بالنفع، ووفروا من يسقط من زهرة أولئك الشباب وثمار أولئك الكهول في ميادين القتال من أجل عصعص بعير أو أذن شاة أو قرن عنز أو هرس بيت أو أخلاق ملابس أو لقمة طعام، وبقى أولئك الشباب والكهول والشيوخ لتكاثر عددهم وملأوا هذه الصحاري الشاسعة والبراري المقفرة، ولو تنازلوا عن ذلك الافتخار بالأفعال المشينة من بعضهم ضد بعض وعاشوا جنباً إلى جنب في مودة وأخوة حقيقية، لو عاش الناس كذلك لما تجرأ ابن عمي على أن يأخذ إنساناً سبق أن جاورني وذكر اسمي على مسامعه مما اضطرني إلى الدفاع عن وجهي برد أمواله إليه بأي شكل من الأشكال.

* * *

وبعد فترة قدم العارفة إلى الحي فحضر عنده سعد وخلف ليطرح كل منهما وجهة نظرة فقال خلف:

ــ: لقد حضرنا إليك لتحل مشكلتنا.

: أي مشكلة هي؟

ــ: لقد أخذ سعد هذا الجالس أمامك أموال جاري.

: أخذ أموال جارك!!

ــ: نعم.

: بأي حق يأخذها؟

ــ: كما تعرف أن من عادت العرب ألا يسمح لأحد أن يعتدي على جاره أو أن يمس شيئاً من أمواله.

: بلا شك، هذا شيء متعارف عليه، وإن كان أخذ شيئاً من مال جارك فيجب أن يرده إليه فوراً، وإن اعتدى عليه فالمفروض أن يرد اعتباره دون أدنى مواربة.

ــ: مادمت حكمت بهذا فيجب أن تجبره برد ما أخذ من جاري.

: ليس قبل أن نعرف ما عنده.

ــ: هاه!!؟

: نعم، ما عندك ياسعد؟

ــ: لقد خرجنا للغزو كما هو الحال في هذه الأيام طلباً للرزق وصادفنا حملة صغيرة معها رجلان يدَّعى أحدهما أنها ملكاً له، فأخذنا الحملة باعتبارها غنيمة لهؤلاء الغزو واقتسمناها فحاز كل واحد منا نصيبه.

: لكن خلف يقول إنها لجاره.

ــ: أبداً، ليست لجاره وإنما هي لتاجر من حضر المدينة كما يدَّعي.

: وما الذي جاء به لخلف إذاً؟

ــ: يدَّعي خلف أنه سبق وأن نزل بجانبه بتجارته في سنة من السنين يبيع بضائعه لفترة ثم رحل شأنه شأن التجار الذين يتنقلون في أحياء العرب وينزلون بقرب البيوت، يبعون ويشترون، يقيمون اليوم واليومين ثم يرتحلون إلى حي آخر.

: آه!! إذاً الوضع هكذا.

ــ: نعم هكذا، ولو أن كل واحد من أهل الحي ادعى جيرة مثل هؤلاء التجار الذين يعدون بالعشرات ينزلون كل يوم في أحياء العرب لتغير مفهوم الجار المعتبر.

: صحيح، إن التجار كثيرون كما أسلفت ويحلون بأحياء العرب للبيع والشراء لمصلحتهم، وغالباً ما يكونون على حسابهم في طعامهم وشرابهم، إلا أن يدعوهم أحد لتناول القهوة والطعام والشراب، ثم إن هذا الرجل ليس عند بيته

أو قريب منه حتى يدعى علينا بهذا الادعاء وإنما كان بوسط البرية حيث وقع بيد هذا الفريق من الغزو الذين أخذو ما معه واقتسموه، ولو لم يأخذوه هم لأخذه غيرهم.

: بلا شك فالوضع في هذه الأيام مضطرب والقوي يأكل الضعيف.

ــ: إذاً أنا رجل غير ملزم بما ادعاه على خلف.

: حتى نسمع رأيه الأخير. ماذا تقول ياخلف؟

ــ: أقول إن الجار جار، سواء نزل عنده يوماً وليلة أو حتى ساعة وذاق ملحه وطعم زاده وشرب من قهوته فهو جار له ما للجار وعليه ما عليه حسب عادات العرب المتعارف عليها.

: ينبري سعد قائلاً: إذاً على هذا الاعتبار ينبغي لك أن تدافع عن كل إنسان نزل بقربك في يوم من الأيام!!

ــ: يرد عليه خلف: إن هو استنجد بي واستعان بي فسوف أدافع عنه بكل ما أملك.

: هذا شيء متعب بالنسبة لك، إذا كنت ستدافع عن كل إنسان. هكذا يرد العارفة.

ــ: سأتحمل أي متاعب، أعتبرها دفاعاً دون جاري.

: متى جاورك الرجل؟

ــ: قبل حوالي سبع سنين.

: إيه.. هذا وإن أعتبر جاراً فمن المرتبة الثالثة.

ــ: لا تقل هكذا، فالجار يعتبر جاراً وإن طال الزمن، فوالله لو أخذ ماله رجل غير سعد لكان ذلك أبرد على نفسي ولاستعدت مال جاري بالقوة، ولكن عند أبناء العم يجزُّ في النفس استعمال القوة مادام هناك مجال لاستخدام العقل، أما يكفي ابن العم سعد أن هذا الرجل قد ذكر اسمي حين قال له: إنني جار خلف؟

: أوه... هكذا الرجال أصحاب الشهرة كل واحد يحاول أن يستظل بظلهم ويستفيد من سمعتهم.

ـــ : وهم بالمقابل يحمون جيرانهم ويصونون سمعتهم.
: على أي حال حسب رأيي: أنه ليس لك عند سعد شيئاً فالرجل مع رفاقه في غزوة وصادفوا غنيمة فأخذوها كما هو الحال بالنسبة لك، وأنت تعرف أن الناس في هذا الوقت يغير بعضهم على بعض وينهب بعضهم بعضاً.

فتنهد خلف وقال: وهذا آخر ما عندك!! سأذهب إلى من هو أقدر منك على حل هذه المشكلة.

: إذهب لمن تريد فلن تجد غير ذلك.

* * *

وغادر خلف المكان مغضباً وهو يتمتم بكلمات لا يفهمها حتى من كان واقفاً عنده وهو يقول في نفسه: أهذا عاقل القوم وعارفتهم الذي يرجعون إليه في حل المنازعات!؟ سبحان الله .. لماذا نحتكم لمثل هؤلاء وعندنا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ ياالله!! ما لأمثال هؤلاء الرجال الذين يتدخلون في أحكام هي من شأن الشرع؟ لكن الشرع أساساً لا يقر مبدأ الغزو والسلب والمسلوب، فهذا مما حرمه الإسلام ونهى عنه، وقد التزم بهذا المبدأ غالبية الناس في حين نَدَّ عنه بعضهم، واتبعوا هذه الطريقة العدوانية، وبدأوا يحاولون حلَّ ما يترتب عليها من مشاكل عند مثل هؤلاء الرجال الذين يكون في العادة ممن يحفظون العديد من عادات الأعراب وتقاليدهم، ويتصفون بالهيبة والوقار عند أفراد عشائرهم، إلى جانب ما وهبهم الله من الذكاء الفطري لهذا السبب رضى بهم أفراد قبائلهم وعشائرهم لحل مشاكلهم الصغيرة التي لا يستدعى حلها اللجوء إلى النصوص الشرعية أو التي لا يقرها الشرع أساساً، ولهذا كنت ممن لجأ إلى مثل أولئك، ولكن هذا الرجل الذي تداعينا عنده قد يكون لديه بعض التحيز لسعد لأنه من أفراد عشيرته، ولأن سعداً يتمتع بمكانة مرموقه بين أفراد عشيرته وربما كان لهذا الاعتبار ما رجح كفته عليَّ، صحيح أننا من قبيلة واحدة ولكن كل واحد منا من بطن من بطون هذه القبيلة فربما مال معه ضدي لاحتياجه إلى سعد أكثر مني في كثير من شئون حياته هاه!! هل أنا

محق فيما أرمي إليه؟ أم أن ذلك من وساوس الشيطان؟ ولكن حتى لو افترضنا أن الأمر كما يدعي فليس ما أصدر من حكم يعتبر أمراً عادلاً، فلو أنه كان بموقفي لما رضي عن مطالبة خصمه بديلاً، آه.. لو أن هذا «العارفة» استند إليه أحد وذكر اسمه كما حصل لي لاكتسب الحصانة ضد أي معتد عليه، ولوقف هو يدافع عنه بقوة وثبات حتى يحصل له على استرداد حقه غير منقوص، وهذه من أقل ما يطالب به العربي إزاء من التجأ إليه، أو طالبه بحق كما هي عليه عادات العرب ومروءاتهم، فكيف إذاً يُمَلِّصُنِي من حقي؟ ويدعى أن مطالبتي ليس لها وجه حق؟ ولكني لن أترك مال جاري يذهب هدراً مهما كلفني الأمر، سأذهب إلى من هو أعلم منه بهذه الاعتبارات، ومن بطن ثالث من بطون قبيلتنا حتى أكون أنا وهو بعيدين بعض الشيء عن هذا البطن الذي سنتداعى عند «عارفته» فلعله أن يصل إلى حل أقتنع به ويزيح عن نفسي مما أكابده من معاناة إزاء مال رفيقي الذي استلب من بين يديه، أترى هذا الرجل الذي سنذهب إليه سيدرك ما أعانيه من هذا الموقف؟ أم أنه سيصم أذنيه ويتجاهل تأثير هذا الموقف على نفسي وعلى سمعتي؟ وهل ترى سعد يوافق معي للذهاب إلى ذلك الرجل في البطن الثاني من قبيلتنا على مسافة خمسة أيام؟ أم أنه سيحرن عن المسير ويكتفي بما توصل إليه عارفة عشيرته؟ لا شك أنني سأجد من يساعدني عليه من أعيان عشيرته أو رئيس العشيرة، هذا إن لم يسر من نفسه دون الإشارة من أحد.

وفي اليوم التالي طلب خلف من سعد الحضور عند رجل من فرع آخر من قبيلتهم، فلبى سعد طلبه، وسافر الإثنان إلى الرجل الذي اختاره خلف، وبعد مسيرة بضعة أيام وصل الركب إلى ذلك الرجل، فحلوا مع صحبهم ضيوفاً على الحي حيث فرح أمير الحي وسكانه بهم وأكرموهم بما يستحقون وبعد أن استراح الركب اجتمع خلف وسعد عند «عارفة» الحي فقال لهم:

ــ : ماذ تريدان ياخلف، وسعد؟

: نريد أن تحل خلافاً قد حصل بيننا.

ــ: أي خلاف تعني ياخلف؟

: لقد اعتدى سعد ورفاقه على سمعتي وأخذوا مال رجل ذكر لهم أنه بمعرفتي وسبق أن جاورني.

ــ: زدني تفصيلاً فيما حدث.

: سرد خلف عليه ما حدث ثم أردف قائلاً: والآن أنا بوجه الله ثم وجهك أن تحل هذا الإشكال مع ابن عمنا.

ــ: إذا كان هذا ما حدث بالضبط فإن سعداً قد أخطأ.

: جزاك الله خيراً، إذاً فالحق لي.

ــ: لا بأس ولكن لنستمع إلى رأى سعد، ماذا عندك ياسعد؟

: لم أعتد على مال جاره أبداً.

ــ: أخبرني بما حدث بالضبط.

: قص سعد ما حدث فيه ومن رفاقه وبين له الظروف والملابسات التي جرت فيها هذه القضية.

ــ: والله إن الأمر بينكما يكاد أن يكون متساوياً.

: كيف يكون كذلك وأنت تدرك تمام الإدراك ما تعنيه شيم العرب وعاداتهم وتقاليدهم. هكذا تكلم خلف.

ــ: لا شك أنني أدرك ذلك لكن الأوضاع السائدة في هذا الظرف بالذات ربما أوجدت مبرراً لما فعله الرجل.

: مهما كانت الظروف، فالعربي يبقى متمسكاً بعادته وتقاليده وعلى العكس فإنه يحافظ عليها في أوقات الشدة أكثر مما يحافظ عليها في وقت الرخاء.

ــ: هاه!! لم أفهم؟

: لو جاءك ضيف في أوقات الشدة هل تعتذره عن تقديم القرى، وتقول له عليك بالعودة إليَّ في وقت أكون فيه ميسور الحال؟

ــ: بالعكس سأقدم له قراه بأي وسيلة حتى لو حرمت نفسي من الطعام ومت جوعاً، من أن ينام ضيفي ساغباً على الطوى.

: ولو استجار بك إنسان وأنت لوحدك ولكنك تستطيع دفع الأذى عنه، هل

تعده بأنك ستفعل إذا جاءك من يساعدك على صد الأذى عنه!؟

ــ : بل سأدافع عنه بقدر استطاعتي.

: إذاً فإنني بهذا الموقف الذي سأبذل فيه جهدي لرد اعتباري وإعادة مال صاحبي.

ــ : ماذا تقول ياسعد؟ هكذا سأل العارفة.

: أقول بأن الوضع في هذا الوقت بالذات لا يشفع له بتحقيق مطلبه حيث يوجد بين الناس ناهب ومنهوب وسالب ومسلوب من قطاع الطرق، ولو لم آخذه أنا لأخذه أحد مجموعات قطاع الطرق.

ــ : وهل تعد نفسك من قطاع الطرق؟

: أبداً، أنا مع رفاقي غزو كما تعرف مثلنا مثل غيرنا ثم هل أن خلفاً سيسترد هذا المال لو كان عند غيري من أفراد القبائل الأخرى؟ أم أنه تجاسر على مطالبتي لكوني ابن عمه؟

ــ : انبرى خلف له قائلاً: ليس كما تذكر من أنني تجاسرت عليك لكونك ابن عمي، ولكني شححت بك على ما سأفعله بغيرك لو كان مال رفيقي عنده، فوالله لو كان عند غيرك لما رضيت بأن أستخدم العقل معه، ولاستخدمت القوة منذ البداية.

: آه.. أنت إذاً تضمر له الشر!؟

ــ : لكني أدفع الشر بالخير، وألجأ إلى تصرفات العقل.

: هاه.. ماذا تقول ياسعد؟ هكذا سأل العارفة.

ــ : أقول بأنني لن أحقق شيئاً مما طلب.

: ليس الحق ما يقول هو، فرأيه معروف منذ البداية ولقد جئنا هنا لتحل الأمر بنفسك. هكذا تكلم خلف.

ــ : إذا نظرنا لهذا الظرف بالذات فإننا نجد في حجته ما يرجحها، وأنت كذلك محق فيما تطالب به.

: لا نريد هذا التذبذب في الرأي، بل نريد رأياً قاطعاً. هكذا نطق خلف.

ــ : أرى أنه غير ملزم برد ما أخذ في مثل هذه الظروف.

: هذا رأي خاطىء ولا يمكن القبول به. هكذا رد خلف.

ــ: ولكنه حصيلة ماعندي.

: لا قبول لما توصلت إليه، أستودعك الله.

ــ: لو ذهبت إلى أي عارفة فسوف بحكم لك بما حكمت.

* * *

فقفز خلف من مكانه مغضباً واتجه إلى مطيته طالباً من رفاقه أن يرحلوا معه متوجهين إلى أهلهم، ورغم المحاولات التي جرت لثنيهم عن الرحيل ذلك اليوم إلا أنه صمم على مغادرة المكان، ومع أنه مع رفاقه حيث يتطارحون أطراف الحديث، إلا أنه بقي واجماً متلثماً مصوباً نظراته على رأس مطيته، سارحاً في تفكيره لا يكاد ينوء بما فوق كاهله من ثقل خيبة الأمل التي أحس بها بعد أن حكم إثنان من هؤلاء الرجال المحكمين في حل مشاكل الناس ضده، وهو في ذات الوقت يشعر بالمسئولية الجسيمة التي تثقل عاتقه إزاء رفيقه، فتنهدَّ على شداد مطيته وجرَّ نفسا عميقاً ثم قال: يا الله، لا تردنا مرد الخاسرين، هذا ثاني رجل يرى هذا الرأى، ما الحيلة في رد اعتباري عند الناس؟ ماذا سيقولون عني؟ لا شك أنهم سيتهمونني بالعجز، ومن الذي سيقنع الناس أن العارفة قال: كذا وكذا؟ ستبقى هذه الحادثة على أفواه الناس وقتاً طويلاً، وربما ورثها أبنائي من بعدي، لأن الناس قد يجعلون من الحبَّة قبَّة، يكبرون الشيء، ويخف الخبر على ألسنة الناس فيتناقلونه من حيٍّ إلى حيّ، ومن جيل إلى آخر، وأخيراً أشتهر بمثل هذه الأمور التي لا أرغبها، آه.. لا حول ولا قوة إلا بالله، هل التجىء إلى عارفة ثالثة قد يحصل لي نفس الجواب الذي حصل من الاثنين ولو التجأت إلى الشرع فإنه لا يقر هذه الأمور إطلاقاً من أساسها، ولا يوجد في الوقت الحاضر سلطة تستطيع إجبار خصمي على إرجاع ما أخذ، لأن السلطة على ضعفها لا تستطيع مجابهة مثل هذه الأمور بنفسها، لكون الخرق قد اتسع على الراقع، وهي أضعف من أن تواجه مثل هذه التصرفات الفردية والجماعية التي تحدث في رقعتها لتثير بذلك المشاكل التي هي

بحاجة إلى الهدوء عنها، وتكتفي باعتبارها من أعمال قطاع الطرق، ولكن من يستر وجهي أمام الناس إزاء ما قام به سعد وجماعته!؟

إيه... لا بارك الله بتلك الساعة التي نغصت عليَّ حياتي فمنذ أكثر من شهرين وأنا أدلج على مطيتي بحثاً عن حلٍّ يبيض وجهي أمام الناس، ماذا تراني أفعل الآن لرد اعتباري والخروج من هذا المأزق الذي أدخلت فيه على كراهية مني؟ هل تراني أدفع لذلك الحضري ماله من مالي الخاص؟ آه.. لكني لا أستطيع ذلك لكثرة المال بالنسبة إلى ما أملك، ولودفعت جزءاً منه حسب مقدرتي فإن ذلك قد لا يرضى به التاجر، ولو حاولت جمع مازاد على ما أملك من عشيرتي ورفاقي فإنهم لن يقصورا في ذلك ولكن ربما سمعت من أحد السطحيين الإتهام بأنني عاجز من إعادة مال رفيقي ممن أخذه وأكله، فما ذنب رفاقي أن يدفعوا مالاً لم يتمتعوا به ولم يروه!!! ايه... دعنا نصل إلى أهلنا وعند ذلك ربما برزت فكرة جديدة.

استمر خلف مع رفاقه يشاركهم الحديث حيناً ويكظم أحياناً أخرى حتى وصلوا إلى حيِّهم، وأول من قابله عمه الشيخ الكبير الذي كفَّ بصره فبادره بالسؤال:

ـ : هاه!! ماذا فعلت يا خلف؟

: بمــاذا؟

ـ : بما ذهبت من أجله؟

: آه.. لقد فلجني خصمي.

ـ : فلجك!!؟

: نعم، لقد فلَّجوه بغير حق.

ـ : إيه !! إيه... «أنا أخو ميثاء» ياليتني كنت بسنك وفي مكانك.

: هاه!! ماذا ستفعل؟

ـ : والله لو كنت مكانك وفي سنك لما أخذ مال رفيقي وأنا حي يطرق الهواء رأسي.

: ماذا تقول؟

ــ: أقول ما سمعت، فمنطق العقل الذي تتمسك به لم يعد مجدياً في هذه الأيام.

: صدقت.. صدقت!! وصرف خلف مطيته من فوره متوجهاً إلى حي خصمه.

وعند وصوله إلى الحي، حلَّ ضيفاً عند رفيق له في طرف الحي في اليوم الذي عاد فيه سعد من سفره، وقد عزم خلف على سلوك منطق القوة فبقي مضجعاً في فراشه عند مضيفه تلك الليلة ساهراً حتى نام الحي، فأخذ سلاحه واتجه إلى بيت سعد حتى إذا اقترب من البيت بدأ يمشي على أمشاط قدميه دون أن تنتبه له الكلاب وهو يحدث نفسه: أتراني أقتله وأبرد ما في نفسي من الغل؟ لئن انتبه بوجودي وبدأ بالشر فسأقضى على حياته، أتراه يسكت ويستسلم إذا رآني في بيته في مثل هذا الوقت من الليل؟ أبداً هذا غير متوقع منه وهو الرجل الشجاع ولا يمكن أن يقبل بالضيم، سيندفع نحوي لمجرد الإحساس بصوتي، أو لمح شبحي، وسوف يقضى على حياتي بدون جدال آه!! في هذه الحالة لابد من المقاومة، سيما وأنا القادم إليه بدور المهاجم، ولكن الناس في هذا الوقت من الليل كلهم قد غطو في نوم عميق، نحن الآن بعد منتصف الليل، ولا يتوقع أن تجد إنسانا يقظاً، سيما وأن سعداً قد قدم لتوه من سفر، ويعاني من مشاق السفر ووعثائه فتراه إذا نام غط في سبات عميق، هاه!! وقد تستيقظ زوجته إن كانت من ذوات النوم الخفيف، وحتى سعد لا أعرف مدى خفة نومه فقد يكون من ذوي النوم الخفيف الذين ينتبهون لأقل حركة أو صوت، هانذا أدخل من مقدمة البيت، لم يكن سعد بقسم الرجال كما يفعل البعض، إذاً، سأجتاز الرواق إلى داخل البيت، هذه أمتعة البيت، وهذا هو نائم مع زوجته وقد التحفا وتدثرا بهذه القطيفة السميكة إنهما يغطّان في نوم عميق، هل أقتله مع زوجته؟ هاه!! ما ذنب الزوجة؟ إنها بريئة، وليست من عادات العرب قتل البريء سيما النساء، هاه!! كيف أقتله لوحده؟ لا شك أنها ستفزع وتصيح ويجتمع على صياحها أهل الحي دعني أميز بينهما، هذا هو، وكل واحد منهما غارق في النوم سأقضي على حياته دون

أن تشعر بذلك، سأقد بطنه بهذا الخنجر، هاه!! وهل ستمتد يدي على قتل ابن عمي بهذه الطريقة؟ آه... والله إني لَضَنَينٌ بـه أن تذهب حياته بهذه الصورة، إنني أشح به أن أقتله بهذه الصورة، والله لو لم يفعل بي ما فعل لما تجرأت أن أخطو إليه خطوة واحدة، هل أقتل إنساناً نائماً؟ ليس ذلك من طبعي أن أقتل رجلاً شبه ميت يغط في نوم عميق، فلو كان مستيقظاً من نومه لأتيته وجهاً لوجه، وحتى لو استيقظ الآن فإنه أعزل من السلاح أمام رجل مسلح وهذه أيضاً ليست من طباعي أن أفعلها، إيه!! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أتدري ياسعد؟ والله لن أقتلك هذه الليلة مشحَّة بك على القتل، ولكني سأضع لك برهاناً تعرف منه أنني أستطيع الوصول إليك في أي مكان لعلك أن تثوب إلى رشدك وتدرك الموقف الذي أنا فيه أمام الناس إزاء مال جاري فتعيده إليه، هاه..، إذاً هذا الخنجر بدلاً من أن أغرزه في خاصرتك وأنثر فيه محتويات جوفك لتصبح جثة هامدة، ها أنذا أغرسه في الأرض من خلال طرفي القطيفة التي التحفت ببعضها وتدثرت بالبعض الآخر أنت وزوجتك وذلك مضنَّة بك على الموت وعسى أن ترعوى من هذه الفعلة، ولتعلم أنني أستطيع الوصول إليك في أي وقت أريده، ولكن رغبة مني في ردء الشر وحقن الدماء من أجل مال يأتي ويذهب، فهذا الخنجر يكون شاهداً على وصولي إليك، ها أنذا أغرسها بالأرض إلى مقبضها مخترقة طرفي القطيفة قد أثبتها وسأعود من حيث أتيت لأرى صدى هذه الخطوة عندك فلعلك أن تبدل موقفك وترى بعين العقل والبصيرة مالا تراه بعين الطمع والغرور، فإن صار هذا منك وإلاَّ استطعت المسير في الخطوة التالية، سيبقى معي سيفي وأعود إلى مضيفي، هاه!! لقد انتبهت الكلاب وبدأت تهرني حيناً وتهرشني آخر، سأذود عن نفسي بهذه العصا لطرد الكلاب حتى أعود إلى فراشي، عسى ألا ينتبه مضيفي على نباح الكلاب، إيه... سيظنني قد ذهبت لقضاء حاجتي.

* * *

واستيقظ سعد من نومه مع أذان الفجر وحاول أن يزيح عن نفسه طرف القطيفة التي تغطى بها فوجده ثابتاً ثم كرر المحاولة وجذبه بقوة فخرج الخنجر المغروس في الأرض وسمع له صوت فتلمسه بيده وسط حندس الظلمة فوجده قد شك طرفي القطيفة ثم أخرجه وأخذه بيده ووضعه تحت طرف الفراش الذي يجلس عليه في مجلس الرجال، وبعد أداء صلاة الفجر اجتمع الرجال إليه في مجلسه لتناول القهوة واستطلاع ما استجد من أخبار في بيت عقيدهم كما هي عليه العادة كل يوم وعندما اكتمل المجلس قال سعد:

ــ: لقد حافنا البارحة حائف.

: حائف!! كيف؟ ومن هو؟

ــ: هل خلف موجود في الحي؟

: لا نعلم، ولكن لم يذكره أحد.

ــ: إنه موجود في الحي، أما رآه منكم أحد؟

: أبداً، غير أنه ذكر أن صاحب مطية ضوى إلى طرف الحي البارحة.

ــ: هو خلف، وقد حاول قتلي البارحة.

: قتلك!!؟

ــ: نعم، لقد أتى وأنا نائم يريد قتلي ولكنه لم يفعل.

: كيف حدث ذلك؟

ــ: لا أدري، إلا أنه قد دخل بيتي، ووقف على فراشي.

: هل رأيت له أثراً؟

ــ: هناك ما هو أوضح من الأثر.

: ماذا تعنى؟

ــ: أعنى هذا الخنجر، أليست هذه خنجره المسماة «هيفا»؟

: بلى، بلى هذه هي، أين وجدتها؟

ــ: آه!! وجدته قد شكها بطرف القطيفة التي نمت عليها.

: ماذا تقول!!؟

ــ: أقول ما سمعت.

: ماذا كان ناوياً أن يفعل؟
ـــ: لا شك أنه قد عزم على قتلي فصرفه عن ذلك سبب من الأسباب.
: وهل بلغت به الجرأة إلى أن يصل إلى هذا المكان؟
ـــ: لقد وصل الرجل، وغرس هذا الخنجر بمثابة الإنذار.
: إنذار!! كيف!؟
ـــ: كما تعرف أن ما يعقب الإنذار هو الفعل.
: لن يستطيع ذلك وأنت في كامل قواك ونحن من حولك.
ـــ: لا تقل هذا يابن أخي، ولكن... يقول ذلك ثم يطرق.
: سيدحره الله، وسوف نطارده في عقر داره.
ـــ: بل هناك رأى خير مما قلت.
: ما هو؟ يقول ذلك بتحفز.
ـــ: لا شك أنه قد وصل إليَّ وربما منعه من الشر حبه في حقن الدماء، ولن يكون أسبق مني على هذا الأمر، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم سنحقن الدماء بيننا التي ستهدر من أجل نزر يسير من المال، وسنعيد إليه مال جاره وتنتهي المشكلة من أساسها.
: تعيد إليه مال جاره!! كيف؟ وقد تقاسمناه وأكلناه!؟
ـــ: نعمد إلى تقدير قيمة المال ونعيده إليه.
: لم يسبق أن سمعت منك مثل هذا الموقف!!
ـــ: إذا عدنا للحق فهو محق في حماية ذمار جاره، وإعادة ما استلب منه.
: ولكن قد يقال ...؟
ـــ: أعلم ماتريد قوله، فلم يكن ذلك جبناً منا، ولكن حقناً للدماء وحماية للأرواح من هلاك لا طائل من ورائه بين أبناء عم من قبيلة واحدة.
: هل أنت مجد فيما تقول؟
ـــ: كل الجد، فابعثوا إليه ليأتي ويستلم قيمة مال صاحبه من هذا المجلس، ولنعتبر أنفسنا أننا لم نغنم بتلك الغزوة.

وذهب الرسول إلى خلف ليجده في طرف الحيِّ بضيافه أحد الرجال

يتناولان القهوة، وأخبره الرسول أن سعداً يقول له: ليتوجه إلينا وعليه من الله الأمان ألا يذوره ذائر مادام في حينا، فاليأت ليأخذ قيمة مال صاحبه، ومن فوره توجه مع مضيفه إلى بيت سعد الشّعري حيث وجد الرجال هناك، ثم أرسل في طلب التاجر ليحضر لحصر ماله، فحضر التاجر وأحصى ماله ثم أخذ قيمته وانصرف هو ورفيقه خلف الذي رفع عقيرته منشداً هذه القصيدة التي قالها مخاطباً بها عمه ساعة مغادرته إياه في حيهم قبل بضعة أيام.

٢٠٥ يَارَاكِبٍ حَمْرَا زَهَاهَا اَلْحِيَالِيْ ... مَا تُدَانِيْ اَلْمِشْعَابْ يَلْمَسْ نَحَرْهَا

٢٠٦ تَرْعَى طَرَفْ دَايِمْ غَنَ اَلْخَوْفْ وَالِيْ ... مَا ذَيَّرَهْ عِنْ وَاذْ قَفْرٍ بِذَرْهَا

٢٠٧ فِيْ ضِبْزْ خَيَّالٍ بِفِكّْ اَلْمِتَالِيْ ... جَلَّابْ رُوْحَهْ مَا يْدَارِيْ خَطَرْهَا

٢٠٨ يَامَا عَلَيْهَا قَامْ بْنَيَ اَلْعَدَالِيْ ... مِنْ قَطْفْ زِمْلُوْقَ التَّمرْ مِنْ زَهَرْهَا

٢٠٩ مَافَوْقَهَــا اَلأَكْوَرْهَــا وَالْدَّلاَلِــيْ ... مَامُوْنْ سِرٍّ رَاكِبٍ فِيْ ظَهَرْهَا

٢١٠ سَلِّمْ عَلَى عَمِّي وَرَاغْ اَلْحَلاَلِيْ ... يَاعَمِّيْ اصْبِرْ لاَتِبَاطَى شَهَرْهَا

٢١١ إِصْبِرْ عَلَيْ يَاعَمْ قِطْعَةْ لِيَالِيْ ... لاَزِمْ بِجِيْكَمْ يَالْنَشَامَا خَبَرْهَا

٢١٢ إِصْبِرْ وَتِسْمَعْ عَزْصِيَهْ لَهْ ظَلاَلِيْ ... تَلْحَقْ بَهَا اَلَنَّفْسَ اَلْعَزِيْزَةْ دُوَرْهَا

٢١٣ إِمَّا فَرَسْ وِالأَخْيَازْ اَلْعِيَالِــيْ ... مَلْزُوْمْ مِنْ يِمْنَايْ يِنْثِرْ حَمَرْهَا

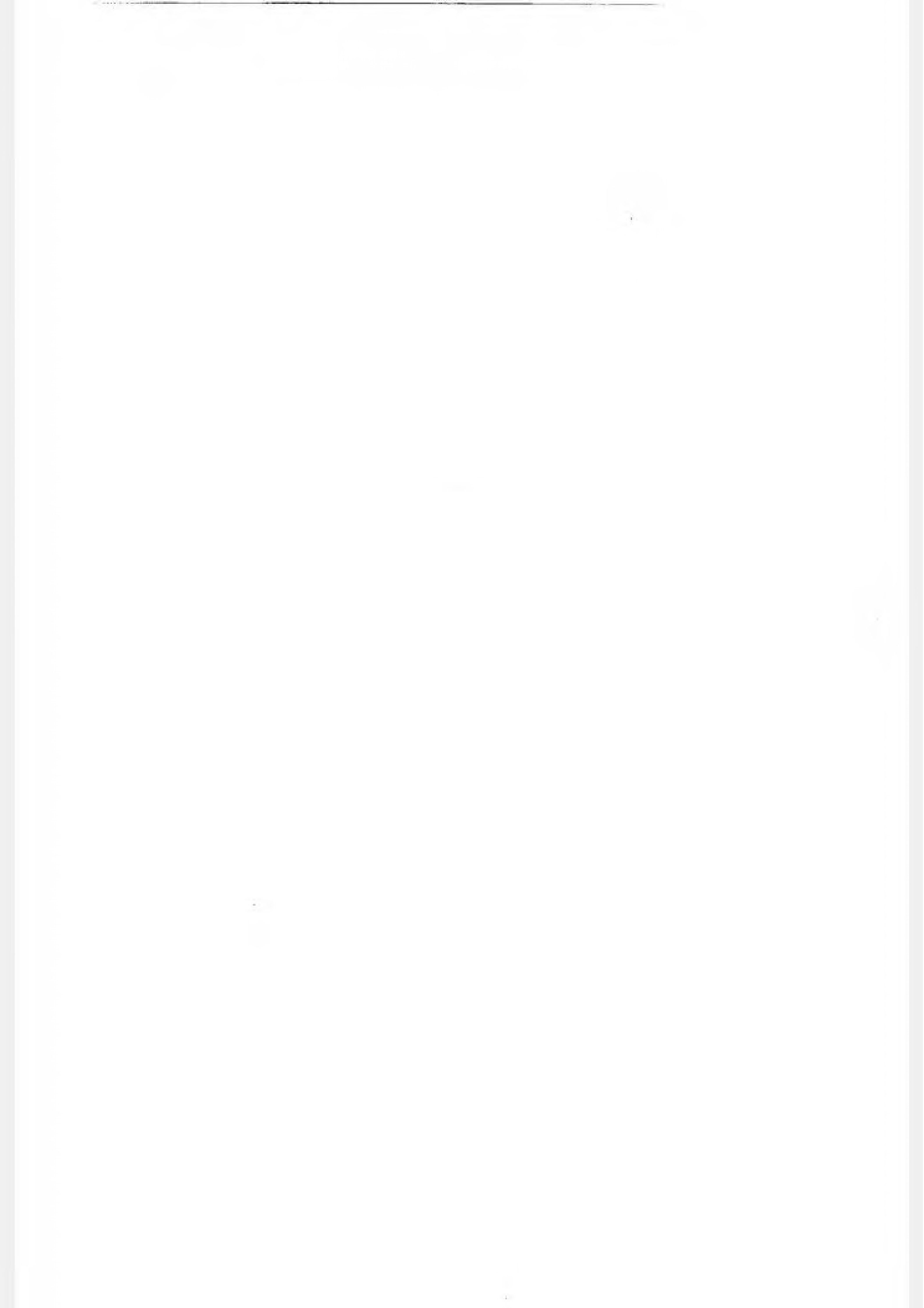
٢١٤ لَوْ هُوْ مَنَ الرَّبْعَ الْقِرِيْبَ الْمِوَالِيْ ... أَخْيَرْ عِنْدِيْ مِنْ تُجِرُّعْ كِدَرْهَا

٢١٥ وِالأَ الأَيْدِيْ يَاعَمْ يَاتِي كِمَالِيْ ... وَلاَتِسْمِلْ اَلْقَالَةْ وَحِنَّا بِاثَرْهَا

٢١٦ أَصْبِرْ كِمَا تُصْبِرْ عَوَاصِيْ الجِمَالِيْ ... وَلَوْ طَالَتْ اَلْفِرْجَةْ وَطَوَّلْ سِفَرْهَا

٢١٧ بَالسَّيْفْ اَلأَبَتَرْ عِهْدِتِي وِاَحْتِمَالِيْ ... عَيْبٍ عَلَى اَللِّيْ قَالِتَهْ مَاحَضَرْهَا

٢١٨ خَوِيِّنَا بَالْحَقْ مَابُــهْ جْدَالِــيْ ... وَلاَعَاذِلِيْ حَقٍّ بْعَضَّةْ نِظَرْهَــا



الهوامش

شرح مفردات وأبيات الشعر العامي

١ ــ **ذب**: أي دفع أو رمى وهي فصيحة، **النعول**: الأحذية فصيحة **مغيزل العين**: من تشبه عين الغزال، **اشلق**: قد وهي فصيحة **ردن كم**: فصيحة، **ليانة**: وطاء لين من اللين أصلها فصيح.

يأمر الشاعر رفيقه حسين أن يرمي بنعليه لتلبسها زوجته التي قد أدمت قدميها من وعثاء الأرض وخشونتها ويأمره أيضاً أن يشق من طرف أكمام ثوبه الطويلين ما يلين موطىء قدميها على النعل إذا دعست عليها ليخفف عنها آلام الوجى.

٢ ــ **إقطع**: قد، **سبت الأقدام**: أساس السبت للحذاء الذي يلبس ليقي القدم خشونة الأرض، فصيحة وهو يعنى هنا جلدة القدم مما يلي الأرض أو النعل وسميت بسبت القدم من باب تسمية الشيء بما يليه، **طرقين**: طبقتين **يلحي**: يحس فصيحة، **أريش العين**: صاحبة الرموش الكثيفة التي تشبه الريش، **إذانه**: الضمير يعود على النعل وهي الأجزاء التي يثبت بها سيور النعل عن يمين القدم ويساره.

يوصي الشاعر رفيقه بأن يضع ما بين قدميها وجسم النعل طبقتين من القماش حتى لا يؤثر جسم النعل على قدميها، وربما كان ذلك من أجل تضييق النعل حيث أن قدمي حسين أكبر من قدميها لكنه أكد أن ذلك من أجل الرأفة فيها حتى لا تؤلم النعل قدميها.

٣ ــ **السبت**: كما سبق هو جلدة القدم مما يلي النعل وهو المقصود هنا، **هكعانة**: من هكع أي ضلع ضلعاً خفيفاً، مما يكون في أقدامها من الحفى أو الوجى.

يبرر الشاعر لرفيقه حسين بن ملاقي الشمري رحمه الله أن سبب شفقته على زوجته هو ما تعانيه من آلام في قدميها من أثر خشونة الأرض التي قد برت قدميها فاصبحت تضلع في مشيتها وتتأرجح من شدة ما تعاني في قدميها وهذا الذي قد آلمه وشاب ضميره مما يرى ولذلك فلا لوم عليه إن هو أمر رفيقه بدفع حذائه إليها.

٤ ــ **حثات القاع**: الأرض الخشنة وهي فصيحة، **واربع**: إرفق وتأن وهي فصيحة، **أمش مشيانه**: سر مسيرها.

يأمر الشاعر رفيقه بأن يرفق بزوجته ويتأنى لها وأن يمشي على مقدار مشيها فهي مجهدة بالحمل قد برت خشونة الأرض قدميها الحافيتين حتى تمزق جلد القدم المسمى سبت القدم ولذلك يوصيه بأن يتبع الأرض اللينة والسهلة لها ويماشيها.

٥ ــ **الضلع**: الجبل وهي فصيحة من باب تسمية الكل بالجزء؛ **صيور**: لابد مأخوذ من الصيرورة والمصير، **النفود**: الكثبان الرملية فصيحة وجمعها أنفاد.

يقول الشاعر لرفيقه إن هذه المسافة التي نمشيها بين مكاننا الذي نحن فيه والأرض اللينة لن تطول فلا بد أننا قاطعون هذه الأرض الحثة الخشنة بجانب الجبل وخلال تلاعة وريعانه وهي مسافة ليست طويلة «حوالي ٢٠ كيلاً» وعندها سنصل حتماً إن شاء الله إلى النفود برماله اللينة وموطئه الناعم، وفي هذا البيت دليل قاطع على أنها للشاعر لما فيها من تحديد للمسار الذي سلكوه وهناك قصيدة أخرى تشبه هذه القصيدة على نفس القافية سأوردها في نهاية الكلام.

٦ ــ **شلتها**: أي حملتها على كاهلك لمساعدتها وإراحتها عن قطع الطريق على قدميها **ترى**: إعلم مابها شين: أي لا يوجد هناك شيء محذور عن الضرورة مادامت الثقة موجودة ترى: إعلم، الخوى: رفيق السفر أو العمل وغيره.

يلقى الشاعر ثقته برفيقه الوفي بعد أن أوصاه بالاعتناء بزوجته والسير معها في رحلة المعانات وإن دعت الضرورة القصوى لحملها على ظهره أو كاهله فلا مانع عنده في ذلك باعتبارها أمانة في عنقه فرفيق السفر وغيره يعتبر بمثابة الأمانة التي يجب المحافظة عليها.

٧ ــ **يشتك**: من الشك فصيح، **كود**: غير، **الرديين**: الردئيين **وسيع بطانة**: كناية عن سعة الأفق المصحوب بالثقة والطمأنينة إلى الآخرين وحملهم على المحمل الطيب في كل تصرفاتهم.

يوضح الشاعر لرفيقه وجهة نظره ويعطيه مزيداً من الثقة مبيناً له أنه لا يشك في مثل هذه الأمور إلا من كان في نفسه خبايا ونوازع تخالف ما يظهر، ومن لا يثق بالآخرين لما يوجد في نفسه من بذور الشك، أما الرجل الطيب الصافي النية والنظيف الطوية فلا يكون في نفسه من نوازع الشر ما يجعله يشك في الآخرين بل يأخذ الناس على ما ينعكس في نفسه من الطيبة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه القصيدة تتداخل معها قصيدة أخرى على نفس الروي والقافية وينسبونها للشاعر حسن التبيناوي وهناك من ينسب هذه القصيدة السابقة لحسن وليست لعبدالله غير أن هناك فرق بين الموضوع في القصيدتين، فالقصيدة التي مر ذكرها موضعها معانات وآلام والقصيدة التي سنورد أبياتاً منها موضوعها غزل خالص وما عثرت عليه من أبياتها التي يخلطونها مع القصيدة السابقة هي.

١ ــ الخد قرطاس قروه المصلين	شفته مع اللي يتبعون الديانة
٢ ــ أو زبدي يشبه بياض مع اللين	قطن مع اللي يندفونه بعانة
٣ ــ سميها اللي يلبسون الغلاوين	ما يلبس الا في نهار الكيانة
٤ ــ ما قلت من باب العذاريب به شين	عذروبها ياحسين قل حصلانه

وهنا يتضح الفرق بين موضوع القصيدتين إضافة إلى أنه في القصيدة الأولى بيت يعتبر

أكبر دليل على مسير الرجل وزوجته ورفيقه في رحلة المعانات تلك، وهو البيت القائل:

لابد ماحنا عن الضلع مقفيــن وصيور ما ناطا النفـود وليانـه

كما أن البيت الأخير من الأبيات الأربعة الوارد ذكرها آنفاً يدل على أن قائلها ليس زوجاً لمن عنيت بالقصيدة حيث يقول «عذروبها يا حسين قل احصلانه» وهذا من المستبعد أن يقوله الرجل لزوجته هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يروي البعض أن اسم الزوجة هي «خنساء» ويروى البعض الآخر أن اسمها «منيرة» وهي التي عانت مع زوجها آلام الرحلة الشاقة وبقيت في جبة فترة وفي الجوف فترة أخرى عند السراح أحد أمراء الجوف والذي قال شاعرهم حطّاب أو ابنه غالب أو شاعر آخر عندما انقلبت موازين الأمور عليهم فيما بعد وضغط عبدالله وأخوه عبيد على حطّاب وابنه غالب وحليفهم أو قريبهم خليف وألقوا بالأولين في السجن قال الشاعر يذكر عبدالله بما له من فضل سابق عليه وعلى زوجته وابنه ويعتب عليه لما فعل به:

١ ــ انشد منيرة يوم فيها الدهر شان يوم إن عيلاته مع الناس ضيعة
٢ ــ كذّ بعبد الله نهج درب خان لا عاش من ضيع بماله وديعة
٣ ــ ياما بقت ببلادنا وقم مقطان لا ماغدت لاخوان نورة وسيعة

ملاحظة: لقد سبق نشر جزء من هذه القصيدة في الجزء الثاني ولم أعثر عليها كاملة إلا بعد ذلك وعليه فإن هذا النص والشرح يعتبر هو الصحيح لأنه من نص موثق قد كتب عام ١٣٠٨هـ.

٨ ــ **يا:** للتنبيه وهي ياء النداء، هيه اسم اشارة، **وداد:** محبين فصيحة، **باعزوتي:** يامن أعتزى به وهي فصيحة، **ليه:** لماذا.

يفتتح الشاعر هذه القصيدة بنداء يشبه صوت الاستغاثة موجهاً كلامه لمن يوده من أقاربه وبني عمه وعصبته وقبيلته ومن يوده من الآخرين قائلاً لهم أما ترحمون من ترونه يمر بمثل هذا الظرف الذي أمر به وتفزعون له بمديد العون إليه لمساعدته على اجتياز هذا الموقف.

٩ ــ **غدا:** صار، **أبداد:** متناثراً وهي فصيحة.

يضيف الشاعر حالة مؤثرة أخرى تستدعى الشفقة والرحمة وهي دموع القهر التي يذرفها الإنسان عندما يرى أنصاره ومؤيديه ينفضون من حوله ويتركونه فريسة لخصمه.

١٠ ــ **الرقاد:** النوم فصيحة، **قصر الحشا:** كناية عن قلبه وما يحيط به من حنايا الاضلاع وهو يعنى كيانه الخاص.

يضيف الشاعر حالة أخرى يمر بها وهي عدم تمتعه بالنوم المريح الذي يهنأ فيه الآخرون، ويحس كأن كيانه الخاص بدأت تتحطم أركانه لما يراه من تصاريف الأيام التي أثقلت كاهله.

١١ ـ **الشوق**: من أشتاق إلى رؤيته ويعني زوجته، **مزبور الأنهاد**: ذات النهدين الواقفين وهي كناية عن أنها شابة، **مجلي**: مطرود فصيحة.

يصف الشاعر بعض هذه المؤثرات التي أثارته ونغصت عليه حياته وهو رؤية زوجته في الحالة التي ذكرها في البيت قد أجليت عن بيت أهلها وذلك لإصرارها على مصاحبة زوجها.

١٢ ـ **الثوب**: هو ثوب المرأة الذي ترتديه، في ذلك العهد وتتكون ملابس المرأة من «المِقْطَعْ» الذي هو اللباس الخفيف تلبسه داخل بيتها وفي الأحوال العادية والثوب هو الفضفاض له أكمام واسعة تلبسه فوق «المطقع» عند خروجها للشارع «أنظر تفصيل ذلك في كتابنا نجد في الأمس القريب» **الضلع**: هو الجبل وهي فصيحة من باب تسمية الكل بالجزء، مشلح: قد رفع أسافل ثوبه، **ياطا**: يطأ فصيحة، أقدام رجليه: مقدمة أقدامه لشدة ما تعانيه من الحفى والوجى في باطن القدم ومؤخرتها فلذلك تمشي على أطراف أقدامها في تأرجح واضطراب وضلع و«هكعان» من شدة ما تعاني من آلام في قدميها.

يصف الشاعر وصفاً دقيقاً حالة زوجته وما تعانيه من آلام في مشيتها المضطربة مع ثقل الحمل ومعاناات التعب والمسالك الوعرة والخشنة إضافة إلى المعانات النفسية التي تعيشها.

١٣ ـ **الشوك**: معروف فصيحة، **ماله**: ليس له، **مواطيه**: مواطىء أقدامها فصيحة، **رداد**: مانع فصيحة، **سبت**: كما ذكرنا في رقم «٣» هو جلد القدم مما يلي النعل وسمي سبتاً باسم النعل من باب تسمية الشيء بما يليه، **يوقيه**: يقيه لسع هذا الشوك.

يضيف الشاعر مؤثراً آخر يعوق زوجته عن المسير ويجعلها تتعثر في خطاها وهي الأشواك المتناثرة في الطريق الوعر والخشن وهذه الأشواك لا يوجد حذاء أو نعل تقيها شدة لسعاته وحتى جلدة القدم التي من المفروض أن تكون غليظة تقي القدم حدة وخز الأشواك إلا أنها عند زوجته المترفة رقيقة ناعمة لا تكاد تقيها وخزات الشوك.

١٤ ـ **مشمرخات هيف**: أغلب الظن أنها مشمرخة أجا وهي أقرب جزء من الجبل نحو المدينة وأقرب نقطة انطلاق للطريق الذي سلكوه في مسيرهم، والمشمرخة شماريخ جبال عالية جداً في الجزء الشمالي الشرقي من أجا والهيفاء من الجبال هي العالية المسلوبة، **بالزحف**: أي تزحف على الأرض، **ماعر**: المكان الوعر فصيحة، **الأروام**: يقصد هنا الأتراك، وهم يسمون الأتراك والأجانب عموماً بالروم أو الأروام.

يصف الشاعر مسير زوجته حين صعودها على صخور تلك الجبال الوعرة والشماريخ العالية بأنها تزحف زحفاً لعدم مقدرتها على المسير معتدلة لأنها لم تتعود على ذلك ولما تعانية من الثقل، وزحفها هذا خوفاً من الأتراك القادمين إلى المنطقة من القصيم بواسطة خصومهم.

١٥ ــ **ثمان مع ثمان**: يقصد ليالي، **لقى**: وجد، **العزوة**: من يعتزى به يخبر الشاعر أن زوجته بعد أن أصرت على اللحاق بزوجها نفر عنها من حولها خوفاً من أهلها وسطوتهم فلم يقتربوا منها أو يسمحوا لها بالاقتراب منهم.

١٦ ــ **جبَّة**: قرية بوسط النفود وقد أصبحت الآن مدينة متوسطة وهي قاعدة الرخيص من الرمال من شمر تبعد عن حائل ١٠٠ كيل إلى الشمال الغربي. **الوسم**: مطر الوسمي، خشم: أنف الجبل، أم سلمان: جبل يقع إلى الغرب عن جبة بميل إلى الجنوب، وفي أعلى الجبل ذري وشخانيب تشبه أسنمة الإبل مما جعل البعض يلفظ اسمها «أم سنمان» وهي من أعلام النفود البارزة هي وعُلَيّم العَطَش وغُوْطَةْ.

يدعو الشاعر لجبة بأن يسبل الله عليها شآبيب الوسمي هي وما أشرف عليه جبل أم سلمان مما حوله من الأنفاد وهذا الجبل بطبيعة الحال يرى من أماكن بعيدة لبروزه بوسط النفود فدعوته بالغيث شاملة للمنطقة لتخضر جوانبها بالعشب وتكتسى بالأزاهير وأغصان السليح المتغطرفة.

١٧ ــ **الضمير هنا يعود لجبَّة: لاذ به: إتقى بها فصيحة**، كن: كأن، **الحرم**: يقصد الحرم المكي الشريف.

يبين الشاعر السبب الذي من أجله دعا لجبة بأن تبادرها سحائب الوسمي وذلك لأنها نعم الملاذ لمن التجأ إليها منهزماً من أعدائه لما تتميز به من موقع جغرافي منيع بوسط النفود الذي يحيط بها من جميع الجهات وبمسافات شاسعة ولما يوجد بها من الرجال الذين يمنعون من التجأ إليهم ويحمونه من أعدائه ويشبه الشاعر مناعة جُبَّة بمناعة الحرم والكعبة المشرفة التي حماها الله من الأعداء على مر العصور فيقول: إذا وصلت إلى جبَّة فكأنك وصلت الحرم مناعة وحصانة.

١٨ ــ **مصيخ**: هو الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص من الرمال من شمر شيخ آل رخيص، نكسه: أعادها، **البيه**: لقب تركي رفيع وهو يرمز هنا إلى المفرزة التركية التي جاءت تتبع الشاعر للقضاء عليه.

يوضح الشاعر ما وجده من مساعدة رجالات جبة وعلى رأسهم الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص حيث أعاد المفرزة التركية مع طريقها دون أن تبلغ مرامها خالية الوفاض يتبعون قائدهم «البيه» عائدين من حيث أتوا.

١٩ ــ **نكس**: رجع، **محسن**: هو محسن الفهيدي النماصي الشمري، **وعامر**: هو عامر الصلج الرمالي الشمري، **وزيَّاد**: هو زياد المختار الفضيلي الشمري، **ماشاف**: ما رأى وأصلها فصيح، **حيه وأهاليه**: أي من له من الأحياء والأهل، يتضح خلل في وزن عجز البيت لكن هذا ما أثبت بالمخطوطة ولم نرد تغييره.

يوضح الشاعر مصير هذه المفرزة التركية التي جاءت في طلبه التي رجع معها محسن وعامر وزياد ليدلوهم الطريق في النفود ولما انتصفوا بالطريق يقول لـ الرواة أن الأدلاء عندما نام العسكر بالليل خرقوا قرب الماء التي معهم وانسحبوا عائدين إلى أهلهم وأصبح العسكر فوجدوا ما في القرب من الماء قد تسرب ولم يبق معهم ماء في فصل الصيف ولا دليلة معهم فتاهوا في النفود وهلكوا عطشاً ولم يبق منهم أحد كما أشار إلى ذلك في آخر البيت حيث لم ينجو منهم أحد ويرى أهله.

٢٠ ـ **فزنا**: غادرنا على عجل، **شهب الغوارب**: الإبل وهو نعت فصيح، غاد: من وراءها والضمير يعود على جبة، **العيّل**: الطفل الصغير أساسها فصيح، القيظ: الصيف فصيحة، **حاديه**: متعبة ومنهكة فصيحة.

يوضح الشاعر المرحلة الثالثة من مسير رحلتهم حيث غادروا جبة على عجل عندما علموا بمطاردة خصومهم لهم بتلك المفارز والسرايا من العسكر فاتجهوا إلى الشمال الشرقي عن جبة على ظهور تلك الإبل التي زودهم بها صاحب جبة والتي قد شابت غواربها من كثرة الشد عليها فهي إبل مدربة ومجربة قد عركتها التجارب والمران، وكان مسيرهم في جمرة القيظ حيث أن الطفل الذي معه لا يكف عن البكاء مما يحس به من حرارة الصيف ولم يذكر الشاعر المدة التي بقيها في جبة.

٢١ ـ **جينا**: جئنا فصيحة مقلوبة الهمزة إلى ياء، **قليب**: البئر فصيحة، **الأنفاد**: جمع نفود فصيحة، **ندليه**: أي نستخرج منه الماء بواسطة الدلاء.

يقول الشاعر أنهم بعد مسيرهم إلى الشمال الشرقي من جبة وردوا ذلك البئر الموجود في وسط النفود والذي يبلغ عمقه ٤٥ بوعاً والبوع تساوي مترين أي أن عمقه ٩٠ متراً فشربوا منه وأسقوا ركابهم وأخذوا حاجتهم من الماء للمرحلة القادمة ثم استمروا في مسيرهم.

٢٢ ـ **ابن رخيص**: هو الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص وحاضرتهم جبَّة كما سبق وباديتهم يتنقلون مع مراعي الربيع ومراتعه، **الأجراد**: جمع جردة وهي الأرض المستوية الخالية من الغطاء الشجرى غير الأعشاب الموسمية وهي فصيحة، **ياهيه**: كلمة نداء، وتعنى أقبلوا هلموا إلينا.

يقول الشاعر أنهم ما إن ساروا من حول ذلك القليب وقطعوا مرحلة حتى وصلوا إلى قطين الشيخ مصيخ بن فرحان آل رخيص ومضارب عشيرته الذي رحب به وفتح له ذراعيه وقلبه وقال له أنت ومن معك أهل الدار والبيوت فادخلوا على الرحب والسعة وفي حرز مكين من خصومكم ما دمتم في ضيافتنا وتحت كنفنا.

٢٣ ـ **يغون**: يريدون، **الحيضري**: الحضرى، **الهدى**: الترويض والتأقلم، **تبدويه**: أن يصبح بدويا ويعيش عيشة البادية.

ينادي الشاعر رفيقه ومضيفه الكريم الشيخ ابن رخيص مبيناً له وجهة نظره في قضية نزوله

معهم والعيش بجانبهم وهو أنه حضري قد تعود حياة الحضارة وقد لا يستطيع التحول من الحضارة إلى البداوة بفترة وجيزة كما أن له طموحات أكبر من كونه يحمى نفسه فقط ولكنه لم يبينها بل غلفها بهذه الحجة الظاهرة وهو أنه يصعب على الحضري التأقلم والتكيف مع حياة البادية في وقت قصير حتى ولو درب وروض لذلك فإن ذلك مكروه في نظره.

٢٤ ــ **نبغي**: نريد، **الجوف**: هي المدينة العريقة في شمال المملكة وتتكون من دومة الجندل وقارا وسكاكة ويطلق عليها جميعاً اسم الجوف، **خلاد**: بني خالد رؤساء سكاكة آنذاك ومشيختهم لآل سهيان.

يبرر الشاعر موقفه أمام رفيقه ابن رخيص بأنه سيجاور بني خالد في الجوف وشيخهم ابن سهيان وهم يعودون بأرومتهم إلى طيء ويطلب من الله أن يمن بشآبيب الغيث لتسقي مفالي ومراتع مواشيه وهذه الدعوة بالغيث كانت تقوم عليها عصب الحياة في حلول الربيع والأعشاب التي تقوم عليها حياة الناس.

٢٥ ــ **سكاكة**: بلد عريق منذ آلاف السنين هي ودومة الجندل وذو قارة «قارا» وهي الآن أكبر مدينة في الجوف وقاعدة المنطقة، **بذالة الزاد**: يصفهم بالكرم والجود، **النكيف**: المنكف وهو العائد من سفر أو غزو جائعاً متعباً منهكاً، السير: المسير لمسافات طويلة.

يثنى الشاعر على أهل سكاكة ويصفهم بالكرم والجود فهم نعم المضيف لمن لفى إليهم طاوياً منهكاً ظمآناً من السير والسرى فسوف يجدهم أمامه يقدمون له ما يريد من الطعام والشراب والمأوى والدفء فهم نعم المضيف لمن وفد إليهم.

٢٦ ــ **أوى والله**: أي أنهم والله لنعم المضيف حقاً، **الضويحي**: هم آل الضويحي فخذ من بني خالد أمراء سكاكة المتقدم ذكرهم، أجواد: جمع جواد كريم وهي فصيحة، **نصا**: اتجه أو وصل.

يكرر الشاعر اعترافه بجميل هذه الفِنْدَةِ من بني خالد الذين منهم آل الضويحي ويقسم بالله إنهم لنعم الأجواد الكرماء والرجال الصناديد وذلك إذا اتجه المدح إلى أهاليه ووصل إلى من يستحقونه فإن هؤلاء الأجواد في مقدمتهم.

٢٧ ــ **كن**: كان محذوفة الألف للضرورة، **جيت**: جئت فصيحة، **بدوان**: جمع بدوي فصيحة، **الأذواد**: جمع ذود من الإبل والذود من ٣ ــ ٣٠، **العشاير**: جمع عشراء والعشراء الناقة اللقحة مضى على لقاحها عشرة أشهر، ويسمون الناقة إذا اشتهت الفحل وشالت بذنبها بالعشرا جمعها عشائر ومعاشير والعشائر أو العشاير بالياء مخففة فصيحة، **نواديه**: النداءات والأهازيج التي يحدو بها الرعاة عند سقي إبلهم ودعاء الإبل إلى الماء لتشرب منه، وما على الماء أن ترتوى بدرجة كافية.

ينتقل الشاعر إلى مرحلة أخرى من رحلته ويصف وصوله إلى شط نهر الفرات ويصف

هذه الأذواد من الإبل التي يسقيها رعاتها من شط النهر وكل ينادي إبله بالأصوات المحببة لها والتي تدعوها إلى ورود الماء وإلى الشرب والإرتواء منه.

٢٨ ــ **شرشوح**: القطعة من الإبل ما زاد على ٧ ــ ٢٠، **المغاتير**: الإبل ما غلب في لونها البياض كالوضحاء والقمراء والشعلاء وما في حكمها خلاف المجاهيم وهي ما غلب في لونها الجهمة والسواد كا«لملحاء» السوداء والصفراء وما قاربها، **دوه الراعي**: إذا نادى لإبله بصوته المسموع المميز في نداءات منها «دوهاء.. العلياء» وما إلى ذلك، **التداويه**: ترديد هذه الأصوات من الرعاة كل ينادى لأذواد إبله بالنداء الذي تستجيب له.

يصف الشاعر ما يجرى على شط النهر من الحركة الدائبة من ورود هذه الأذواد من الإبل، وقد شاقه لهذا المنظر وطرب لأصوات الرعاة وهم ينادون أذوادهم بالنداءات التي تستجيب لها إبلهم وتنقاد وراءهم بعد أن ارتوت من الماء.

٢٩ ــ **ليا**: إذا، **الشط**: جانب النهر فصيحة، **منقاد**: مستمر، **كن**: كأن، **الشفلح**: شجر صحراوي شوكي ينمو ويكبر وتتراكم أغصانه وتشمخ على بعضها بما يميزه عن الأشجار الأخرى وأكثر ماينمو بالقيعان.

يصف الشاعر جريان نهر الفرات بموجاته المتتابعة وكأنها أشجار الشفلح الشامخة على ما حولها من الأشجار، ويوصف رباب السحاب بالشفلح أيضاً كما جاء في بيت للشاعر محسن الهزاني من أمراء الحريق من قصيدة يقول فيها:

تسقى الحريق من ناوي كنه الليل ... تضحك مقاديمه وتبكى عقابه
لين يتغطى قبر سلمى من السيل ... من مزنة مثل الشفلح ربابه

٣٠ ــ **ياما عليه**: الضمير يعود للنهر، **المخاليق**: جمع مخلوق ويقصد الناس يصف الشاعر هذه الحركة الدائبة على النهر من الناس كل يقوم بعمله، هذا يسقى إبله، وهذا يسقى أغنامه، وذاك يملأ أوانيه وأوعيته بالماء وغير ذلك وكل قد أشقاه الله بالقيام بعمله الذي زين في عينه كما سيرد في الأبيات الآتية.

٣١ ــ **دواليه**: الدوالي هي ما يخرج به الماء من النهر للأراضي التي ينخفض عنها مجرى النهر على هيئة النواعير».

يضيف الشاعر جانباً من الصورة التي رآها فهذا فلاح يسقي الزرع وهذا كراد يحرث الأرض ويبذرها، وذاك مريح في جسمه وتعمل دواليه لإخراج الماء من النهر إلى الأماكن الأرفع من المجرى بطريقة ذاتية يحركها جريان الماء فتتحرك ويحركها تخرج الماء ذاتياً لتسقى الأراضي الزراعية وهو بهذه الصورة يشير إلى الحضر.

٣٢ ــ **يهل**: يمد، الغزل: خيوط الأنسجة الصوفية المعدة للنطو فصيحة، **الأوتاد**: التي تمسك أركان شقة النسيج الصوفي والأوتاد فصيحة، **الابرام**: فصيحة **يسدويه**: يضع له السدو، والنسيج يتكون من السدو واللحمة فالسدو هو الخيوط الطولية واللحمة الخيوط العرضية وكل من الكلمتين فصيحة.

يكمل الشاعر الصورة التي رآها حول النهر بإضافة عنصر آخر وهم البدو الرحل فهذا يمدد خيوط النسيج الطولية السدو وهذا يحرك لحمة النسيج وهي الخيوط العرضية وهو يرمز بهذه الصورة إلى البادية المقيمن حول النهر.

٣٣ ــ **كن**: كان محذوفة الألف للضرورة، **الدبا**: صغار الجراد قبل أن يستطيع الطيران بأطواره المختلفة، «**العوفاني** ــ الكتفاني... الخ» ويكون لونه أصفراً به مسحة خضرة تضرب في لونه دكنة من جراء النقط السوداء الموجودة على أكتافه ولونه العام أصفر الكتفان: الأصفر الذي على أكتافه نقط سوداء يسير على الأرض ويقفز قفزاً ولا يطير، **يزهي**: يزدهي فصيحة، **لوحيه**: جانبه واللوح الجانب للجبل فصيحة واستعارها الشاعر للشارع مجازاً.

يصف الشاعر المرحلة الأخيرة من رحلته عندما وصل إلى بغداد وعبر الجسر إلى داخل البلد، وتقول بعض المصادر التاريخية أنه صادف حالة ارتباك أو غارة على بغداد أو الحلة واشترك مع المشتركين فيها، ويبالغ بعض الرواة في هذه الأمر، لكنه يصف هذا الشارع الذي رآه يزدهي جانباه بالمصوغات الذهبية التي يسيل لمنظرها لعاب الإنسان ووصفها بصفرة الدبا إذا صعد على الجدار، وهذا اللون هو خير ما وصل إليه خيال الشاعر.

٣٤ ــ **المصطحى**: هو رفيقه حسين بن مصطح الشمري رحمه الله يصف هذه السوق، وهي سوق الذهب ببغداد بأنها قبة من الذهب والياقوت والزمرد وغيرها ولو رآها رفيقه المصطحى صاحب الجنان الثابت والعقل البصير لزاغ قلبه من هذه الأشياء النفيسة التي يراها أمامه.

٣٥ ــ **الشف**: الإرادة والرغبة في الشيء، **طاري**: ما يطرأ على النفس من أي أمر من الأمور وهي فصيحة أو هي محذوفة الهمزة.

يقول الشاعر إن هذه المصوغات والنفائس الذهبية والأحجار الكريمة التي يزوغ لرؤيتها جنان العاقل من الرجال وتقطر لتملكها شفاه الكثير من الناس لم تكن تشغل باله ولا تساوي عنده أي شيء ولا خطرت على ذهنه ولا طرأت على باله للسبب الذي سيورده في البيت اللاحق.

٣٦ ــ **الأركاد**: الخبر الأكيد، العساكر: يعني عسكر الأتراك حين اتجه من القصيم غرباً لمساندة خصومه عليه، **تلي**: تتبع، **اليه**: لقب تركي رفيع كما أسلفنا ويستخدم في العسكرية التركية.

يقول الشاعر أن الذهب والفضة والجواهر والأحجار الكريمة التي رآها لم تكن تهمه منذ

أن جاءه الخبر الأكيد من أن عسكر الأتراك قد سندت غرباً لمساعدة خصومه وهذا الخبر الذي أزعجه وجعله يزهد في كل شيء أمامه مهما غلي ثمنه.

٣٧ ــ **بديرة**: ببلد فصيحة، **يعدون الأجداد**: أي يحافظون على أصولهم وتعددهم التناسلي أباً عن جد.

يقول الشاعر من باب العتاب كيف يستعين بعضنا على بعض بالقوى الأجنبية ونحن أبناء عم وجد واحد، وأبناء هذا البلد كلهم يحافظ على نقاء ذريته والمحافظة على عصبته أباً عن جد.

٣٨ ــ **هب الهوى**: أي قام الحظ، قضى حاله: قضاء حاجته، وأهاليه: سداد حاجات أهله.

يرمز الشاعر في هذا البيت برمز غامض فقد يعني ندب حظه وقيام حظ خصومه فقد استقام حظهم وذروا في نسيم الهواء ما يريدون تنقيته كما يقول المثل: «إذا هبت هبوب إذر فيها لابد الهبوب من السكون» أو أنه يستنهض الهمم للانقضاض على خصومه مرة واحدة لينتزع الإمارة منهم.

٣٩ ــ **أهل الواد**: يقصد جماعته.، الخلايق: الناس فصيحة مقلوبة الهمزة إلى ياء تراعيه: تنظر إليه، فصيحة.

يعتب الشاعر بأسى ومرارة على أقاربه وجماعته ويطلب من الله أن يسود وجوههم كسواد السماء التي يراها الناس لما بذلوه من المساعدة لخصومه أو ما قابلوه به من الخذلان في وقت محنته.

٤٠ ــ **خدام**: هو خدام الضمادي **وعواد**: هو عواد بن رشدان **الضيغمية**: نسبة لآل ضيغم وهو الجد الأول للشاعر وخصومه، **ويتنخى**: يعتزى

يحدد الشاعر المكان الذي يدعو عليه بسواد الوجوه وكذلك يحدد العصبة التي تشملها دعوته في هذا البيت.

٤١ ــ **الأجرب**: من أنصار خصومه، **وفهاد**: من انصار خصومه أيضاً، **قهاويه**: جمع قهوة وهي الغرفة التي تشرب فيها القهوة وهي مجلس الرجال التي يجتمعون بها ويشربون القهوة ويتبادلون الأحاديث ويبحثون في شئونهم الخاصة والعامة.

يلوم الشاعر جماعته على دخولهم مقاهي من أشار إلى أسمائهم بالقصيدة وهم يعرفون موقفهم من خصومه ومساندتهم لهم ووقوفهم ضده.

٤٢ ــ **وزيد ومنيع**: من أنصار خصومه.

يستمر الشاعر في تعداد أنصار خصومه والمتواطئين معهم وقد حذفت بقية البيت لعدم ملاءمته للنشر.

٤٣ ــ **جراد**: أحد أنصار خصومه، ساد: صار سيداً فصيحة، يسرقن له: أي يتهمه بالسرقة وأساسها فصيح، **مجلية**: أي مبعدة عن بلده وهي فصيحة.

يقول الشاعر من باب الاستخفاف والاحتقار حتى هذا الرجل صار له سلطة وسيادة على الناس يؤذي هذا ويتهم هذا بالسرقة ويجلي هذا عن بلده.

٤٤ ــ **عيسى**: هو عيسى. **آل علي**: خصم الشاعر، هبة نسانيس، **ذارية**: أي قام له الحظ وساعفه وهبت له رياح السعد ليذرى فيها ما يريد.

يقول الشاعر إن خصمه يقول إن الحرب مكلفة ومنفدة للمال، ثم يعارضه بقوله إن المال سيساعد من قام حظه وهبت له نسمات السعد يذرى فيها ويصفى النقى من الزائف.

٤٥ ــ **إنشد**: إسأل، **مسوى**: عامل وصانع السيف.

يتساءل الشاعر موجهاً كلامه لخصمه بلهجة التعجب قائلاً له: إذا كنت تقول إن الحرب لا يوجد بها زيادة لنا فعليك أن تسأل عن صانع السيف لماذا حنى رأسه؟ لم يصنعه كذلك إلا من أجل أن يضرب به في ميادين القتال وإلا لما كان على هذا الشكل.

٤٦ ــ **يديه**: يؤديه فصيحة: **العرفجية**: هي لؤلؤة بنت عبدالرحمن العرفج.

يقول الشاعر إذا كان المرء لا يستطيع إرواء شذرة سيفه من رقاب أضداده فالأولى به أن يؤديه إلى تلك المرأة البطلة التي أخذت بثأر ابنها من خصومه بحد السيف.

٤٧ ــ **لا صار**: إذا صار، :**المر**: هي المرة محذوفة التاء وهي شدة الخلق والحدة في الطبع الذي تستثار نخوته بسهولة فصيحة، **الصنديد**: السيد الشريف الشجاع فصيحة، **الأولاد**: الشباب.

يقول الشاعر إذا لم يكن بالشاب أو الرجل المرة والنخوة والحمية الذي يأخذ حقه كاملاً ويسد الخلة التي يوضع بها ويقضي الحاجة التي وكل إليه قضاؤها فإن الموصى إذا كان بارد الطباع عديم المرة يذهل ما يوصى به ويوكل إليه.

٤٨ ــ **الهم**: الاهتمام للأمر، **الصنديد**: سبق شرحها، **العنك**: أي عليك اللعنة.

يقول الشاعر إذا كان الرجل لا يولي الأمر الذي يهمه شأنه ما يستحق من الاهتمام فعليك اللعنة أيها السيف الذي طوى الهم صاحبه وجعله واقفاً متحيراً لايبت في أمر من الأمور.

٤٩ ــ **المر**: سبق شرحها، **يزغرت**: يغلى ويحتدم، ويصاحب الرجل المرور إفرازات بالمعدة يشعر معها كأن شيئاً مراً وحامضا يغلى في جوفه وهي من تفاعلات الجهاز العصبي فإذا ما أنهى الأمر أو المهمة التي اضطلع بها شعر بزوال هذا الغليان وبروده وأحياناً لا يبرد ما في جوفه

حتى يستفرغه قد يكون اختياراً وقد يكون إجباراً كما قال الشاعر سلطان بن عبدالله الجلعود من قصيدة له:

خله على داره وقله له ذلوفه إن كان به مر تبقى يزلـه

يختم الشاعر هذه القصيدة بقوله: إذا لا يوجد مر يغلي على كبد الرجل أو الشاب وتتولد عنه الحمية والشجاعة فيأخذ حقه كاملاً ويحتل المكانة المرموقة فلعنة الله على مثل هذا الشباب الذي لا يبهيه صاحبه ويبهيه من البهاء والحسن والاكتمال.

«٥٠» سعدون بن حسين أبا قرين الشمري وهو بطل هذه القصة الذي قاد رفاقه لمقاومة الاحتلال اليهودي لجزء من وطننا العربي الإسلامي الغالي فلسطين إلى أن فرضت الهدنة على العرب عام ١٩٤٨م ثم عاد إلى وطنه المملكة العربية السعودية في ١٣٦٨هـ مع مجموعة من الضباط وهو برتبة نقيب وواصل خدمته العسكرية في الجيش العربي السعودي حتى وصل إلى رتبة عقيد وأحيل على التقاعد عام ١/٤/ ١٣٨٢هـ ثم تم التعاقد معه في سلاح الحدود وخفر السواحل من ١٣٨٣/٤/٢٧ حتى ١٣٨٨/١/١هـ تفرغ بعدها لشئونه الخاصة حتى انتقل إلى رحمه ربه في ١٣٩٩/٩/١٠هـ/١٩٧٩م.

وسألت الشيخ على حسين العراك الشمري عمن يذكر أنهم اشتركوا في هذه الحرب فأفادني أن منهم الملازم نواف بن مناور السعيد الشمري وممن جرح سعد شرقي الدليمي وشطي البطحاوي العنزي وواصف فريد فلسطيني وملازم أحمد خضر المعزاوي والعريف عبدالله حسين العقيل الشمري ومن يذكر هناك عبدالكريم الخشمان وسعود الخشمان، وعبدالرحمن الجحان من أهل حائل ومحمد الصايغ ومرزوق بن رميزان.

ومن زملاء سعدون في العمل ورفاقه الرقيب أول سميحان حماد الشلاقي الشمري والرقيب أول مطنى بن شايع الشمري والجندي رشيد نحو الشمري.

«٥١» زين بن خريم بن عيادة الشمري. رحمه الله

٥٢ ــ عبيد بن عبدالله بن عيادة الشمري رحمه الله

٥٣ ــ علي بن سلامة الشمري.

٥٤ ــ صالح بن عقلا الشمري «عميد متقاعد».

٥٥ ــ علي بن وقيان الشمري. رحمه الله

٥٦ ــ عمر بن عبدالوهاب السويطي «نقيب متقاعد» رحمه الله.

٥٧ ــ نقيب/ محمد صفا.

٥٨ ــ ملازم/ حسن مهنا.

٥٩ ــ يوم الاثنين ١٩٤٨/٢/١٦م.

٦٠ ــ عريف/ عشوي عثمان الشمري. رحمه الله.

٦١ ــ جندي/ محمد عبيد الشمري رحمه الله.

٦٢ ــ » / على محمد الصالح حجازي رحمه الله.

٦٣ ــ » / محمد عبدالله السعد المطيري رحمه الله.

٦٤ ــ » / صالح مرزوق الجهني رحمه الله.

٦٥ ــ » / يتيم جبر العنزي رحمه الله.

٦٦ ــ » / زبن خزيم عيادة الشمري رحمه الله.

٦٧ ــ » / عبدالرحمن محمد حجازي رحمه الله.

٦٨ ــ » / معاشي عبدالباري الرويلي رحمه الله.

٦٩ ــ » / عبدالرحمن سعد المطيري رحمه الله.

٧٠ ــ » / عطية سليمان الجهني رحمه الله.

٧١ ــ » / زعل بن حمود العنزي رحمه الله.

٧٢ ــ » / محمد نومان الجوفي رحمه الله.

٧٣ ــ » / محمد بن عمر راشد الشمري رحمه الله.

٧٤ ــ » / حميد بن دحيلان الشمري رحمه الله.

٧٥ ــ » / قاسم بن جليدان الجهني رحمه الله.

٧٦ ــ عريف/ عبيد عبدالله بن عيادة الشمري.

٧٧ ــ » / شليويح زيد الرشيدي.

٧٨ ــ » / العيط بن محمد الرويلي.

٧٩ ــ » / اسماعيل بن سلطان الشمري.

٨٠ ــ جندي/ عبدالهادي بن عقاب العنزي.

٨١ ــ » / عودة بن موسى الشمري.

٨٢ ــ » / شهيان بن حميد الصخري.

٨٣ ــ » / محمد بن فريح الشمري.

٨٤ ــ » / عايد بن سطام الرشيدي.

٨٥ ــ » / عيد بن حسين الشمري.

٨٦ ــ » / محمد العبيدي الشمري.

٨٧ ــ » / عبدالله بن أحمد أبو الخير حجازي.

٨٨ ــ مساء الخميس ليلة الجمعة ١٩٤٨/٣/١٩م.

٨٩ ــ الجيش البريطاني الذي يتولى حماية عصابات اليهود.

٩٠ ــ جندي/ عبيد بن ناصر الرشيدي.
٩١ ــ العريف/ محمد أيوب.
٩٢ ــ الساعة الرابعة صباحاً من يوم ١٩٤٨/٣/٢٩م.
٩٣ ــ قيادة القوات البريطانية.
٩٤ ــ مقدم/ محمد صفا من القوات السورية.
٩٥ ــ الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل ١٩٤٨/٤/١٢م
٩٦ ــ قائد القوات البريطانية.
٩٧ ــ يوجد مع قائد القوات البريطانية قوة تتكون من ٣٠ دبابة وحاملات المدافع الثقيلة.
٩٨ ــ العريف/ اسماعيل عبدالله.
٩٩ ــ منتصف ليلة ١٩٤٨/٤/١٥م.
١٠٠ ــ العريف/ صالح شنيوي.
١٠١ ــ ضابط يحمل إشارة المنجل والمطرقة.
١٠٢ ــ العريف/ صالح شنيوي.
١٠٣ ــ الجندي/ حسين سلمان.
١٠٤ ــ الساعة العاشرة والنصف من يوم ١٩٤٨/٤/٢٠م.
١٠٥ ــ الأسير/ بردخاي برهم.
١٠٦ ــ نائب/ عبيد عبدالله الشمري. رحمه الله.
١٠٧ ــ نائب/ حافظ مخلف الشمري. رحمه الله.
١٠٨ ــ جندي/ خلف مرشد العنزي. رحمه الله.
١٠٩ ــ « / حسن محمد عسيري. رحمه الله.
١١٠ ــ « / عويد بن حطاب الشمري.
١١١ ــ « / حمد بن معيتق الحربي.
١١٢ ــ عريف/ فهد سرور المطيري.
١١٣ ــ مقدم/ خالد الداغستاني.
١١٤ ــ قائد/ شوكة شقير.
١١٥ ــ من يوم ١٩٤٨/٦/١١.
١١٦ ــ عريف/ عبدالله بن عشان الشمري. رحمه الله.
١١٧ ــ عريف/ عايد منيس الشمري. رحمه الله.
١١٨ ــ جندي/ أحمد عبدالرحمن المطيري رحمه الله.

١١٩ ــ » / على سليمان الشمري. رحمه الله.

١٢٠ ــ » / شلش بن غانم العنزي. رحمه الله.

١٢١ ــ » / عيد بن عيسى الصخري. رحمه الله.

١٢٢ ــ » / سليمان بن إبراهيم الصخري. رحمه الله.

١٢٣ ــ » / على بن وقيان الشمري. رحمه الله.

١٢٤ ــ جندي/ مصلح بن صالح الحربي رحمه الله.

١٢٥ ــ » / عبدالمنعم عطية فلسطيني. رحمه الله.

١٢٦ ــ » / سليمان بن عوض الجوفي. رحمه الله.

١٢٧ ــ » / معتق بن محمد الحربي رحمه الله.

١٢٨ ــ » / خلف بن فالح الشمري. رحمه الله.

١٢٩ ــ عريف/ فهد بن رباح الجوفي.

١٣٠ ــ عريف/ إبراهيم بن مشعان الشمري.

١٣١ ــ عريف/ مرزوق بن خميس الشمري.

١٣٢ ــ جندي/ محمد بن عبدالله الحربي.

١٣٣ ــ » / سليمان بن راشد الجهني.

١٣٤ ــ » / مسفر سعيد الحارثي.

١٣٥ ــ » / علي بن محمد جمعة النجدي.

١٣٦ ــ » / علي بن سليمان أردني.

١٣٧ ــ » / هلال بن مسعود الشمري.

١٣٨ ــ » / حامد عودة الشمري.

١٣٩ ــ » / فرحان براك الرشيدي.

١٤٠ ــ » / عبدالله عبدالرحمن حجازي.

١٤١ ــ » / سعود عبدالله حماد الشمري.

١٤٢ ــ » / مسفر راشد الشمري.

١٤٣ ــ » / سليمان مرزوق الحربي.

١٤٤ ــ » / كان ذلك يوم ٣/٣/ ١٩٤٨.

١٤٥ ــ القائد/ عبدالقادر الحسيني الذي قتل في القسطل في ١٩٤٨/٣/٧م رحمه الله.

١٤٦ ــ قال لي الشيخ على حسين العراك الشمري أن النجدة كانت بقيادته وقيل غير ذلك.

١٤٧ ـ الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ١٩٤٨/١٠/٢٢م.

١٤٨ ـ الساعة الثالثة بعد الظهر ١٩٤٨/١٠/٢٢م.

١٤٩ ـ النائب الأول/ كامل رستم.

١٥٠ ـ نائب/ نشا محمد الشمري. رحمه الله.

١٥١ ـ وكيل/ عامر سعد القحطاني رحمه الله.

١٥٢ ـ جندي/ حميد سعيد الجهني رحمه الله.

١٥٣ ـ « / محمد عبدالله فرحان الشمري. رحمه الله.

١٥٤ ـ « / مشلخ فهاد الشمري. رحمه الله.

١٥٥ ـ « / مذود رسام الشمري. رحمه الله.

١٥٦ ـ « / عبدالله بن شلاش الشمري. رحمه الله.

١٥٧ ـ عريف/ رشيد نحو الشمري.

١٥٨ ـ جندي/ منور سلمان العنزي.

١٥٩ ـ جندي/ محمد مرزوق الشمري.

١٦٠ ـ هيفاء العثماني صاحبة مدبنة روضة رمان.

١٦١ ـ زيد بن سليمان التميمي صاحب مدينة روضة رمان.

١٦٢ ـ لَفَّاخْ: هو سالم بن إبراهيم السويداء صاحب مدينة روضة رمان.

١٦٣ ـ ناصر بن موسى الحيدان/ صاحب الوسيطاء ثم مدينة روضة رمان.

١٦٤ ـ حليان التميمي صاحب الغزاله بقرب رمان.

١٦٥ ـ **طوق**: اسم الرجل المرسل، **قازي**: أي غير نائم ساهر على كور مطيته، **أكوار**: جمع كور وهو شداد المطية فصيحة، **ضامر**: البطن فصيحه، **تبوج**: تقطع، **الفيافي**: جمع فيفاء وهي الأرض القفر فصيحة، **ناحلات**: قد تآكلن فصيحة، خذايمة. أعصاب الرقبة التي تشد الرّأس مع العلباء يقول الشاعر منادياً رفيقه الذي سيرسله إلى تلك الغاية وهو على تلك الناقة الضامر التي تقطع المسافات الطويلة دون أن تتعب أو تكل حتى تصل بك إلى ما تريد.

١٦٦ ـ **لاسرتها**: إذا سرت عليها، عشر كوامل أي عشر ليال بأيامها كاملة، **طالعت**: رأيت فصيحة، **الدعيمي**: هو صديقه ولم أعثر على كامل اسمه، وقد يكون من الدعوم من بني خالد **علايمه**: علاماته أصلها علائمه فصيحة.

يوصي الشاعر مندوبه أن يسير على تلك الناقة عشر ليال كاملة مع أيامها وعند ذلك يصل إلى مقصوده وهو قصر الدعيمي الذي سيوصل إلبه المكتوب الذي يحمله.

١٦٧ ـ **أجاويد**: جمع جواد فصيحة، **داسوا**: من الدوس وهو الدعس فصيحة، **لايمة**: ما يلام عليه الإنسان من المعائب والمحذورات.

يوصي الشاعر رفيقه بأن يسلم على ذلك القصر ومن يسكن فيه وهذا من باب الشمول وإلا فالمقصود هي تلك الفتاة التي أخذت عليه لبه.

١٦٨ ــ**الوبل**: المطر فصيحة، **الحيا**: المطر فصيحة، **لابع القمري**: طار في النهار والتأم بالليل. يحمل الشاعر رفيقه سلاماً لذلك القصر ومن يسكن فيه بعدد مايهل من السحاب من قطرات المطر وبعدد ما يطير الحمام في الصباح ويعود للمبيت في المساء في كل صباح ومساء.

١٦٩ ــ**تر**: إعلم، **النقر**: الحفر فصيحة، **الصفا**: الصخور الصلبة فصيحة، **ما عاد**: لايمكن، **تمحي**: تزال فصيحة، **وسايمه**: وسمه والأثر المحفور عليه فصيحة.

يقول الشاعر لرفيقه إن حب من سكن بذلك القصر والمقصود تلك الفتاة مثل الحفر على الصخر والحفر على الصخر لايمكن أن تزال أو تمحى بسهولة آثاره أو علائمه.

١٧٠ ــيضيف الشاعر مؤكداً أن النقر أو الحفر على الصخور لوهبت عليه الرياح فلا يمكن أن تزيل أثره ولو نزل عليه المطر فمن المستحيل أن يزيل آثاره أو علاماته.

١٧١ ــ**الحبيبي**: هو ماجد الحبيبي صاحب القصيدة، **المعادي**: المكان الذي يسكن فيه، وربما يكون المعنى للمعادى هو جمع معدى أي المكان الذي تقع منه الإغارة، وسايمه: جمع وسم أو علامه وهي فصيحة.

تقول الشاعرة موجهة كلامها إلى المندوب طوق إذا جئت ماجد الحبيبي وهو بمكان تعلمه أنت واضح العلامات والإشارات.

١٧٢ ــ**من هاب ورد الماء**: كناية عن وصول الحبيب إلى محبوبه، **شارعات**: واصلات، كظايمه: الكظائم هي الصخور الغاطسة في الماء والتي تتحكم بخروج الماء وإيقافه والكظيمة الصخرة التي تغلق الماء وكظم الباب أغلقه وهي فصيحة.

تقول الشاعرة من تهيب الوصول إلى شيء ذهب عنه ولم يقض وطره ورمزت بذلك إلى الماء الضروري للإنسان بأن من تردد في ورده صدر منه ولم يرتو حتى لو كان غاطساً في وسط الماء وبيده تصريفه.

١٧٣ ــ **التصديد**: الصدود الالتفات يميناً وشمالاً وهي نصيحة، **مخطر**: أي أنه من المؤكد أنه لن يجتمع به، **يلايمه**: يلتئم معه ويكون زوجاً له.

تقول الشاعرة أنه من أكثر الصدود عمن يوده ويحبه دون أن يبغضه من قلبه فإنه لا محالة لن يجتمع به ولن يلتئم معه بزواج أو غير.

١٧٤ ــ **يرجي بالعسى**: أي بالتمني بعسى وأخواتها، **مات بالعسى**: أي مات على الأمل والرجاء الذي لا فائدة منه، **غارات الصبا**: أي نزوات الشباب، **ولايمه**: من يرجوه وقد استعد له وتولم.

تقول الشاعرة أنه من بات على الرجاء بعسى ولعلّ وربما وليت دون أن يعمل شيئاً فإنه لن يحصل على ما يريد وستلهيه نزوات الشباب وشطحاته عن بلوغ هدفه.

١٧٥ ــ **لا واهني**: أتمنى وأهنىء نفسي، **يلايمه**: يلائمها أي يقترب منها ويكون زوجاً لها.

تفصح الشاعرة له عن شيء يجيش في نفسها من حبها له وهي التي قد خطبها الكثير من ذوي الشأن والمكانة المرموقة من شيوخ العرب ورجالاتهم.

١٧٦ ــ تستمر الشاعرة في التعبير له عما يجيش في نفسها فتقول إن ملاعبي لك أعتبره جنتي في هذه الحياة ولا جنة في هذه الحياة ستدوم لحي مهما كان.

١٧٧ ــ **طرياك**: ذكرك، **رؤياك**: طيفك وخيالك في مخيلتي أصلها فصيح.

تواصل الشاعرة في تعداد الأمور التي جعلتها تتعلق به منها رائحته التي يقول الرواة أنها ضمته على صدرها ولذلك أصبح خياله يحوم في مخيلتها ويوقظها من نومها فرحاً بقدومه.

١٧٨ ــ **وش**: أي شيء مختزلة فصيحة، **الخيف**: يبدو أنه نوع من الأنسجة محتى: أي منسوج بالأيدي، **نظايمه**: نظائمه أي صفوفه وهي فصيحة.

تذكر الشاعرة المعنى بالأمر بذلك اللقاء الذي تم بينهما في ليال متتابعة وكان هذا اللقاء على العفة والطهارة التي لا شائبة فيها.

١٧٩ ــ **حمامات مكة**: كناية عن العفة والطهارة ويضرب المثل بحمام مكة في الطهارة والنقاء، **الفرط**: هو الطفل الصغير لم يدرك الذي لم يرتكب ذنباً وهي فصيحة، **حزايمه**: أربطته وما يحزم به فصيحة.

تختتم الشاعرة قصيدتها في تذكيره بتلك اللقاءات التي تمت بينهما تقوم من مكانها وهي أطهر من حمامات مكة أو من طفل صغير لم يرتكب ذنباً من الذنوب فهي طاهرة مطهرة يربط بينهما الحب العفيف.

١٨٠ ــ **لواهيب**: جمع لاهب وهي كناية عن الآلام التي تصيب الإنسان، **تداري**: أي تترفق بنفسها وهي فصيحة.

يقول الشاعر أن أم ذلك الفتى ستأتيك تسأل عنه متلهفة عن أخباره وكأنها تحس لهب النار في جوفها تذرف الدموع لا تدارى على نفسها من شدة البكاء.

١٨١ ــ تنشدك: تسألك، أساسها فصيح، **باللي**: بالذي **مبارى**: مرافق موازي لك.

يقول الشاعر إن والدة ذلك الشاب ستسألك بالله العلي العظيم عالم السر والغيب أين

إبني الذي قد صاحبك ورافقك في هذه الغزوة أو ذلك السفر.

١٨٢ ــ **عمرو**: هو عمرو الشمري، **المدلاة**: مايدلي به وهي كناية عن الرجل الذي يوصل من يريد إلى الهدف الذي يريد، يانازل الخوف: هي كناية أيضاً عن الشجاع الذي لا يهاب ولا يخاف من أحد، **تنشد**: تسأل بالحاح يمتدح الشاعر رفيقه عمرو وأمير عشيرته الذي علم أنه يسأل عن حاله التي قد أصابها الضعف والوهن منذ العام الماضي وهو يسأل سؤال المتغابي الذي يعلم عن حاله ولكنه قد يؤّل معرفة إلى احتمال آخر لا علاقة له في الموضع.

١٨٣ ــ **أخو فهيد**: هو عمرو، **يشبع الطير**: كناية عن الشجاعة والإقدام فهو يشبع الطير من لحوم أعدائه، **حام**: استدار في الهواء فصيحة.

يمتدح الشاعر عمراً ويكنيه بأخي فهيد ويصف رجال عشيرته بالشجاعة والإقدام وإشباع حائمات الطير من جثث الأعداء.

١٨٤ ــ **كنها**: كأنها مخففة أصلها فصيح، أبا العوف: هو العوف من فصيلة النمل نحيف رفيع الأرجل، **الزاد**: الطعام فصيحة.

يقول الشاعر لعمرو بعد أن مدحه واخوته وأفراد عشيرته إنك تسأل عن السبب الذي جعل حالي بهذه الصفة وكأنني حال تلك الحشرة الخفيفة النحيفة أو كأنها حال من صام عن الطعام والشراب.

١٨٥ ــ **فقار**: يقصد فقار ظهر لحم الجزور وهو أطيب لحمها وهي فصبحة، **سيح**: صب عليه حتى يسيل يميناً وشمالاً فصيحة، بيدام: بأدام وهو ما يؤتدم به من السمن وغيره فصيحة بقلب الهمزة إلى ياء.

يبدأ الشاعر بتعداد الأشياء التي لو قدمت له وهي من ألذ المأكولات في ذلك الوقت لماذا قها وهي أصناف الطعام وعلى هذا الطعام فقار لحم ظهر الجزور ولو ساح الإدام فوق هذا الطعام وهو مما يجعل الطعام طيباً في ذلك الوقت.

١٨٦ ــ البلقاء منطقة بشرق الأردن مشهورة بجودة حنطتها، **الجوف**: المدينة المشهورة بشمال المملكة وتشتهر بتمرة الحلوة الفاخرة التي يضرب بها الوصف، **الطنا**: الغضب وحميا المرة، **حام**: أي عصف بها إثر الظرف الذي سيأتي ذكره.

يضيف الشاعر أنه لو قدم له طعام مصنوع من حنطة البلقاء المعروفة بجودتها ولذتها، وتمر حلوة الجوف المشهورة بتركيز حلاوتها وزكاء نكهتها فلن تقبلها نفسي التي تركز فيها الغضب وغشت عليها المرة وعصف بها الغبن والشعور بالظلم.

١٨٧ ــ **لابس الخصر**: الخصر هو عقد من خرز المرجان وغيره تعقده المرأة في معصم يدها مكان الأساور وتلبسه النساء عند الحاجة وقبل توفر المصاغات الذهبية وهو يرمز هنا إلى الفتاة الجميلة التي تعتني بنفسها وتلبس الملابس الجميلة والمصاغات الثمينة، **شنوف**: نوع من الأقراط تشنف به الفتاة أذنيها لاستكمال زينتها، **في ديرة**: أي بلد أو مكان خالي.

يستمر الشاعر في تعديد المغريات التي لو أعطيت له لما قبلها ومن ضمنها تلك الفتاة الجميلة والمتجملة التي لبست كامل حليها لو عرَّضت له في مكان خالي من الناس وأمن على نفسه لما دنفت نفسه إليها ولما اقترب منها لما يشغله عنها.

١٨٨ ــ **أبيه**: أريده، **عزام**: مقدم على.

يقول الشاعر لو أن تلك الفتاة المتجملة عرضت له في مكان آمن وأقبلت عليه نفسها وعزمت على اقحام نفسها عليه مشتاقة متلهفة لما رغبتها نفسه ولأبعدها ونحاها عن نفسه.

١٨٩ ــ **مفوز**: هو مفوز.. الشمري غريمه، **نقوة**: من الفئة المنتقاة، **الغوش**: الفتيان المغاوير الشجعان وأعتقد أن هذه الكلمة من أصل أجنبي وربما كانت عبرية، **خيالهن**: أي فارسهن فصيحة، **عثعث**: الأرض الخشنة فصيحة، **رضام**: أرض ذات أحجار وعرة وأصلها فصيح وربما كان يعني مكانين بهذين الإسمين.

هنا يبوح الشاعر عما يشغل باله عن تلك المغريات السابق ذكرها وهو غريمه مفوز ذلك البطل الشجاع الذي يقع عليه سهم الإنتقاء من بين الشبان والرجال الشجعان وهو الفارس المغوار الذي يقود الخيل مع الأرض الحثة الوعرة.

١٩٠ ــ **اللي**: الذي، **أشوف**: أرى فصيحة، **خله**: دعه.

يبين الشاعر لماذا يريد الاقتصاص من غريمه مفوز وذلك لأنه كساه ثوب العار وكساه بالسواد بين أهله وعشرته وذلك بخفر ذمته وقتله من استجار به وجعلني في هذه الدوامة وسأقلب الوضع عليه سأجعله يسهر كما أسهر أنا الآن وسوف أنام بعد أن آخذ حقي منه.

١٩١ ــ **القنب**: نوع من الكتان تتخذ منه الحبال قوى متين فصيحة، **الصوف**: معروف شعر الضأن فصيحة وحباله أقل جودة ومتانة من القنب، **حطني**: جعلني فصيحة، **أجوز**: أصلح فصيحة.

يتابع الشاعر تعداد الأخطاء التي ارتكبها خصمه إزاءه فيقول لقد غير وضعي من حال إلى حال وضرب مثلاً بين متانة حبل القنب ورداءة حبل الصوف بعد أن أثر في معنويتي بهذا الوضع وفي هذه الحالة التي هبطت فيها معنويتي فإنني أصلح للحضر المقيمن من جملة الخدم وهذه في نظر الشاعر أسفل درجات الإهانة.

١٩٢ ــ **النزل**: الفريق من العرب فصيحة، **طوف**: طائفة أو صف من البيوت الشعرية المبنية وأصلها فصيح، **أقلط**: أتقدم بربعة البيت: المكان الذي يجلس فيه الرجال فصيحة، **قدام**: أمامه.

يقول الشاعر إن هدفي وأمنيتي أن أتقدم على غريمي الذي فعل بي ما فعل واجتاز إليه النزل صفاً بعد صف حتى أصل إليه بربعة بيته وأقدم عليه لأغسل من نفسي العار الذي كساني إياه.

١٩٣ ــ **مصقل**: السيف فصيحة، **يرد الجوف**: أي فعل السيف يبرد لاهب الأسى في نفسي، **صوغه**: أي صاغه والمقصود السيف وهي فصيحة، بلحام: أي ألحمه بعد أن انكسر أو انفدر واللحام فصيحه، **الصنايع**: الصناع وأصلها فصيح.

يصف الشاعر ذلك السيف الذي سيقدم به على غريمه ويقتله بأنه سيف صقيل جيد الصنع لم يسبق أن أجرى عليه بعض الترميمات والإصلاحات للإعوجاج أو الكسور والفدور فهو سيف صقيل جداً من قطعة واحدة.

١٩٤ ــ **البيض**: النساء فصيحة، يصفقن بكفوف: يندبنه بعد أن أقتله وإن عاش سليماً فسوف أقطع إحدى رجليه.

يقول الشاعر إنني سأقدم عليه وأضربه بذلك السيف الصقيل فإما أن أقضي على حياته وتلج أصوات النادبات وهي يصفقن بأكفهن حزناً عليه وأسى وإن سلم وعاش فلن يمشي على قدميه بعد الآن.

١٩٥ ــ **مرهوف**: أي سيف رهيف رقيق ورهيف فصيحة، **الخفرات**: النساء الجميلات الحييات فصيحة، **دقوه بوشام**: أي دقوا عليه بالوشم وهي فصيحة.

يقول الشاعر إن لم آخذ حقي وأغسل العار الذي كساني وأبرد غليل قلبي وأضربه في هذا السيف المرهف فيجب ألا أكون مع الرجال ولا أعتبر نفسي رجلاً والأولى لي أن أكون مع حسبة النساء وتدقون على وجهي الوشم للزينة كما تفعل النساء لتزيين وجوههن بالوشم.

١٩٦ ــ **عيال**: رجال، **شباب السويط**: أمراء وشيوخ الظفير من بين لام من طيء على الأرجح وإن كان ابن بسام ينسبهم إلى بني سليم، **اللي**: الذين **أفنان**: فن ومكانة مرموقة.

يثنى الشاعر على شباب ورجال وشيوخ آل سويط بما نالوه من المكانة المرموقة بين القبائل التي عاصرتهم وفيهم الشجاعة والإقدام والكرم والمروءة والمحافظة على الجار.

١٩٧ ــ **مخاسير**: جمع خسارة، **مثل ذبح الضحية**: أحد رجال السويط قتل ولده عندما أخطأ على جاره محافظة على حرمة الجار.

يقول الشاعر أن مروءتهم وكرمهم ووفاءهم لجارهم الذي ما إن علم أحدهما باعتداء أحد أولاده على جاره وقيل أن ابن جاره قتل ولا يعلم قاتله فقتل السويطي ابنه إرضاءً لجاره ومحافظة على كرامته وحفاظاً عليه.

١٩٨ ـ **حمراء:** ناقة حمراء فصيحة، **ردوم:** قد تراكم الشحم في سنامها فصيحة **حايل:** لم تلقح فصيحة، **مسلوبة الذرعان:** أي ممشوقة الذراعين فصيحة، **سجلة:** قوية متينة.

يركب الشاعر مندوبه على تلك الناقة السمينة التي تراكم الشحم في سنامها حائل لم تلقح وتمتاز بصفات مميزة من الركاب النجائب مسلوبة لحم الذراعين قوية متينة.

١٩٩ ـ **اللي:** التي: **تشادي:** تشبه فصيحة، **ممرسات المحايل:** المحالة الممرسة إذا خرج الرشاعن فلكها فازدادت سرعتها أضعاف ما كانت عليه وأمرست والمحالة كلمتان فصيحتان، **الجنبوع:** الخشبة المسندة على الحاملتين الحاملة الأمامية والحاملة الخلفية، **والجنبوعان:** ما تركب المحالة عليهما بمحورها وكل هذه الأخشاب من عدة البئر، **البير:** البئر فصيحة مقلوبة الهمزة إلى ياء.

يصف الشاعر تلك المطية بسرعة مثل المحالة الممرسة في سرعة جريها وهذه السرعة أقصى ما رآه الشاعر في وقته من سرعة الأجسام المتحركة أمامه حوالي عام ١٢٢٠هـ.

٢٠٠ ـ **تغلي:** تصل فصيحة، حذف اسم المعنى بالذم لعدم ملاءمة ذكره، **النقايل:** النميمة والكلام المنقول وأساس الكلمة فصيحة، **الأسلة:** جمع سلال وهو صغار البهم الذي ولد حديثاً.

يأمر الشاعر راكب تلك المطية التي تلك صفتها وسرعتها إلى المعنيين بالذم ويصفهم بأصحاب النميمة ونقل الكلام من شخص إلى آخر ويصفهم بضعف الهمة بالأمور العليا ولا تعدو همهم عن تربية أغنامهم والاعتناء بصغارها وإرضاعها من أمهاتها وهذا أقصى ما يصبون إليه.

٢٠١ ـ حذف هذا البيت لما فيه من مس لكرامة المعنيين بالذم.

٢٠٢ ـ **ضال:** حصل، **السويطات:** أي السويط وهم شيوخ الظفير وهم من بني لأم من طيء كما ورد في كتب الأنساب، **ضايل:** حاصل **دغيم:** هو دغيم بن سويط الذي ثنى دونه الشاعر؛ **ثنى دونه:** أي حماه وذاد عنه أعداءه.

يثني الشاعر على آل سويط جميعاً ويخص منهم بالذكر دغيم فهو الذي وقف في وجه أعدائه ومعه رجاله حينما التجأ الشاعر إلى بيت والدته، أي والدة دغيم، ويقول إنه لم يحصل لي غير آل سويط الذين حموه عندما تخاذل الآخرون عن حمايته.

٢٠٣ ــ **الحمايل**: جمع حمولة وهي العائلة، الرذال: الرديئي فصيحة، **لباسة للجوخ**: والجوخة هي جبة أو صدرية من نسيج صوف ناعم وحرير غالباً تكون من اللون الأحمر يلبسها الفرسان والشيوخ وعلية القوم من الأمراء ومن في مستواهم، **ثياب ملة**: ثياب من الكتان بلون رمادي في الغالب ولا يلبسها سوى الأمراء والشيوخ وعلية القوم مثل الجوخة وهي من اللباس السائد آنذاك.

يصف الشاعر آل سويط بأنهم من ذروة السنام وليسوا من رذال الناس فهم رجال أبطال صناديد يحمون من التجأ إليهم ورمز للباسهم الجوخ وثياب المل وهذا الرمز يكفي للدلالة على مكانتهم في قومهم كما تدل عليهم أفعالهم إزاءه وإزاء من التجأ إليهم.

٢٠٤ ــ **المهار**: جمع مهر وهو ابن الفرس فصيحة ويكنى بها عن الخيل عامة المعرقة ما تحت سرج الفرس من وقاء وأصلها فصيح، **الرسن**: العنان فصيحة، زهوة: أي مما تزهى به.

يستمر الشاعر بامتداح آل سويط فيقول إنهم شيوخ وسادة في قومهم وكرماء بأيد سخية وأعطياتهم من كرام الخيل: الأصيلة التي تعتبر عند العربي أثمن هدية في ذلك الوقت ولا يجود بها سوى جواد كريم.

٢٠٥ ــ **ماسلت**: ماسألت مخففة فصيحة، **الزوم**: الأنفة والكبر، مايل: مائل من الكبر والخيلاء، سعدون: هو سعدون بن عريعر حاكم الأحساء آنذاك، مقنى له: مقر له أنه كفء لمكانته موازياً لآل سويط.

يختتم الشاعر القصيدة التي منها هذه الأبيات بقوله إنه لا يبالي بمدح آل سويط ولم يسأل أحداً أن يعترض عليه في ذلك ولن يقر لأحد أن يعترض على ما مدح به آل سويط سوى سعدون بن عريعر حاكم الأحساء الذي كانت شهرته في ذلك التاريخ قد وصلت إلى كل مكان.

٢٠٦ ــ **الحمراء**: الناقة الحمراء، **زهاها**: ازدهت به فصيحة، **الحيال**: حالة كونها حائلاً لم تلقح وهي فصيحة، **ما تداني**: لا تتحمل، **المشعاب**: نوع من العصى بطرفه عقفة أو أصل فرع من فروعه الأساسية، **النحر**: مقدمة الصدر فصيحة.

ينادي الشاعر مندوبه الذي سيركب على تلك الناقة الحمراء الحائل السمينة التي لا تتحمل أن يلمسها العصا حتى تقفز وتسرع في جريها لقطع المسافات الطويلة.

٢٠٧ ــ **ترعى طرف**: أي ترعى في أماكن بارزة خطرة وهذا بطبيعة الحال يكون مرعاه خصباً، **ذيره**: أفزعها فصيحة، **واد قفر**: الوادي الذي لم يرع كلؤه والكلمتان فصيحتان، **نذرها**: النذر من ينذر بالشر وهي فصيحة.

يصف الشاعر هذه المطية بأنها ترعى هذا المكان القفر الذي لم يطأ أحد كلأه

وأعشابه وقد اطمأنت في مرعاها فلم يفزعها مفزع أو يذرها ذائر حتى تراكم الشحم في سنامها.

٢٠٨ ــ **ضـر**: أي حماية، **خيال**: الفارس فصيحة، **يفك**: يحمى فصيحة، المتالي: آخر الظعن والقطين وحيران الإبل ولقاحها وهي التي تكون في الآخر، **جلاب**: من الجلب وهو عرض الشيء للبيع فصيحة.

يقول الشاعر إن هذه الناقة رعت تلك الأراضي القفر في حماية ذلك الفارس الذي من عاداته أن يحمى مؤخرة الركب أو الإبل أو القطين من أن يقترب منه الأعداء هذا الفارس الذي جلب نفسه وأرخصها في سبيل حماية مؤخرة قومه.

٢٠٩ ــ **ياما**: حتى، **ينى العدالي**: أي ينى سنامها مما يتراكم فيه من الشحم، **زملوق**: الزملوق ساق الزهرة والزملوق رؤوس الأغصان الغضة المتغطرفة.

يستمر الشاعر في وصف هذه الناقة التي رعت أعشاب الربيع وقطفت غض الغصون وسيقان الأزهار بأزهارها الغضة حتى ارتكم الشحم فس سنامها ووقف معتدلاً شامخاً.

٢١٠ ــ **الكور**: هو شداد المطية فصيحة، **الدَّلال**: هي العثاكيل المتدلية الشداد حتى تكون موازية لركب المطية وتوضع العثاكيل للزينة.

يقول الشاعر أن تلك المطية التي سيركبها مندوبه ليس عليها ما يثقلها سوى شدادها وخرجها وعثاكيله الجميلة التي تتدلى متراقصة من تحت بطنها زاهية بألوانها الجذابة.

٢١١ ــ **راع**: صاحب، **تباطي**: تستبطىء أساسها فصيح.

الآن بدأ الشاعر بالبوح عما سيوصى به مندوبه فيقول له ياعمي عليك بالصبر ولا تستبطى مني مدة قد لا تتعدى الشهر وسيأتيك مني الخبر اليقين.

٢١٢ ــ **قطعة ليالي**: أي عدد من الليالي، **النشاما**: جمع نشمى وهو الفتى الشهم الشجاع الكريم.

يحدد الشاعر المدة التي سيمكثها بعدد من الليالي وسيصلكم عني الخبر الذي تطيب له نفوسكم جزاء لما قلته لي في تلك اللحظة الحرجة حينما قلت ليتني في سنك، ومكاني بمكانك فاستثرتني بها.

٢١٣ ــ **العرصة**: الضغط والشدة وأساسها فصيح من عرض الشيء أي وطأة وضغط عليه، **له ظلال**: أي ظلال غبار المعركة، **دورها**: غايتها.

يتابع الشاعر الطلب من عمه أن يصبر وسوف يسمع بمعركة شديدة يرتفع فيها غبار المعركة حتى يصير له ظلال وتلحق بها النفس العزيزة مرادها وغايتها.

٢١٤ ـــ **خيار**: المختار فصيحة، **العيال**: الرجال والشباب وأساسها فصيح، حمرها: دمها.

يتابع الشاعر وصفه لما سيحدث فإما أن يسقط بفعل يده فرس بفارسها أو المختار من الرجال والمقصود في الرمزين خصمه الذي خفر ذمته وسينتثر الدم من المقصود بفعل الشاعر أي سيقتله.

٢١٥ ـــ الربع: الجماعة فصيحة. **الكدر**: معروف ما كدر الصفو فصبحة.

يقول الشاعر حتى لو كان هذا الخصم من أقرب الناس إليَّ ولم يرع حرمتي وخفر ذمتي فإنه سيواجه ما يواجه مني ورغم أنه فقيدة على إلا أن ذلك أهون علي من تجرع الأكدار التي أوقعني فيها.

٢١٦ ـــ **اليدي**: الودى: وهو العوض في الدية والمال وغيره أساسها فصيح، **يأتي كما لي**: أي عوض المال يأتي بكامله، **تسمل**: أي يصيبها البلى وهي فصيحة، **القالة**: المسألة، حنا: نحن.

يضع الشاعر الخيار الثاني أمام خصمه بأنه إذا لم يدفع قيمة ما أخذه بالكمال والتمام فسوف ينتقم ويفعل فعلته ولن نترك المسألة يطول بها الزمن وتسمل بعد الجدة ثم تندثر ونحن بأثرها بل سنأخذها كاملة مادامت حارة.

٢١٧ ـــ **عواص الجمال**: الجمال الصلبة القوية وأساسها فصيح، **الفرجة**: المسافة البعيدة.

يكرر الشاعر طلب الصبر من عمه كما تصبر الجمال القوية الصبورة ولو طالت المسافة وطال السفر عليها لكنه في النهاية سيصل إلى الغاية التي رسمها لنفسه وهو استرداد مال صاحبه أو أخذ حقه من خصمه.

٢١٨ ـــ **السيف الأبتر**: السيف القاطع أو القصير القاطع، **عهدتي**: ما أتعهد بإنجازه وهي فصيحة **احتمالي**: ما أحتمل فعله فصيحة، **قالته**: مسألته.

يقول الشاعر لعمه إنني سآخذ حقي بهذا السيف القاطع البتار وهو ما تعهدت به وأحتمل تنفيذه وعيب على الذي لم يحضر مسألة تخصه وينهيها على الوجه الذي يناسبه ويبرد غليله.

٢١٩ ـــ **خوينا**: رفيقنا

يختتم الشاعر هذه القصيدة الموجهة إلى عمه بأن رفيقه ليس منازع بالحق ولا جدال في إعادة حقه إليه ولا يمكن أن أغض النظر عن استرداد ماله ممن أخذه منه مهما كلفني ذلك حتى لو كان الثمن حياتي.

فهرس الموضوعات والرواة في الأجزاء الثلاثة

٢٣	ثلة الجهاد	٣	١٠٩	سعدون بن حسين الشمرى	صورة وثيقة بخط/عبداللطيف بن رشيد
٢٤	السيدة المثالية	٣	١٣٧	نوير عبدالله الشلش	من معرفتي
٢٥	«أبو حوطتين»	٣	١٦٩	محمد بن سالم الربيعان	الشيخ عبدالرحمن بن سليمان الخطيب رحمه الله.
٢٦	الحب العفيف	٣	١٩٥	سارة الدعيمى ماجد الحبيى	الشيخ/سعود عبدالله البكر
٢٧	الرفيق أولاً	٣	٢٢٥	غريب معيقل الشلاقى الشمري	الشيخ/ راضي بن غريب الشلاقي
٢٨	راعية البويت	٣	٢٥٧	أم دغيم بن سويط	عدد من المصاد الخطية والشفهية
٢٩	الابن البار	٣	٢٥٩	مسلم بن سالم السويداء	من معرفتي ورواية الوالد سلمه الله
٣٠	اخوينا بالحق	٣	٣٢٥	خلف فالح الجنفاوي الشمري	الشيخ/نواف بن نهار الجنفاوي

قائمة المراجع في الجزء الثالث

١ ــ لسان العرب	لابن منظور
٢ ــ المنتخب في ذكر انساب قبائل العرب	عبدالرحمن زيد المغيري.
٣ ــ من شيم العرب	فهد المارك
٤ ــ مجمع الأمثال	للميداني

انتهـــــى